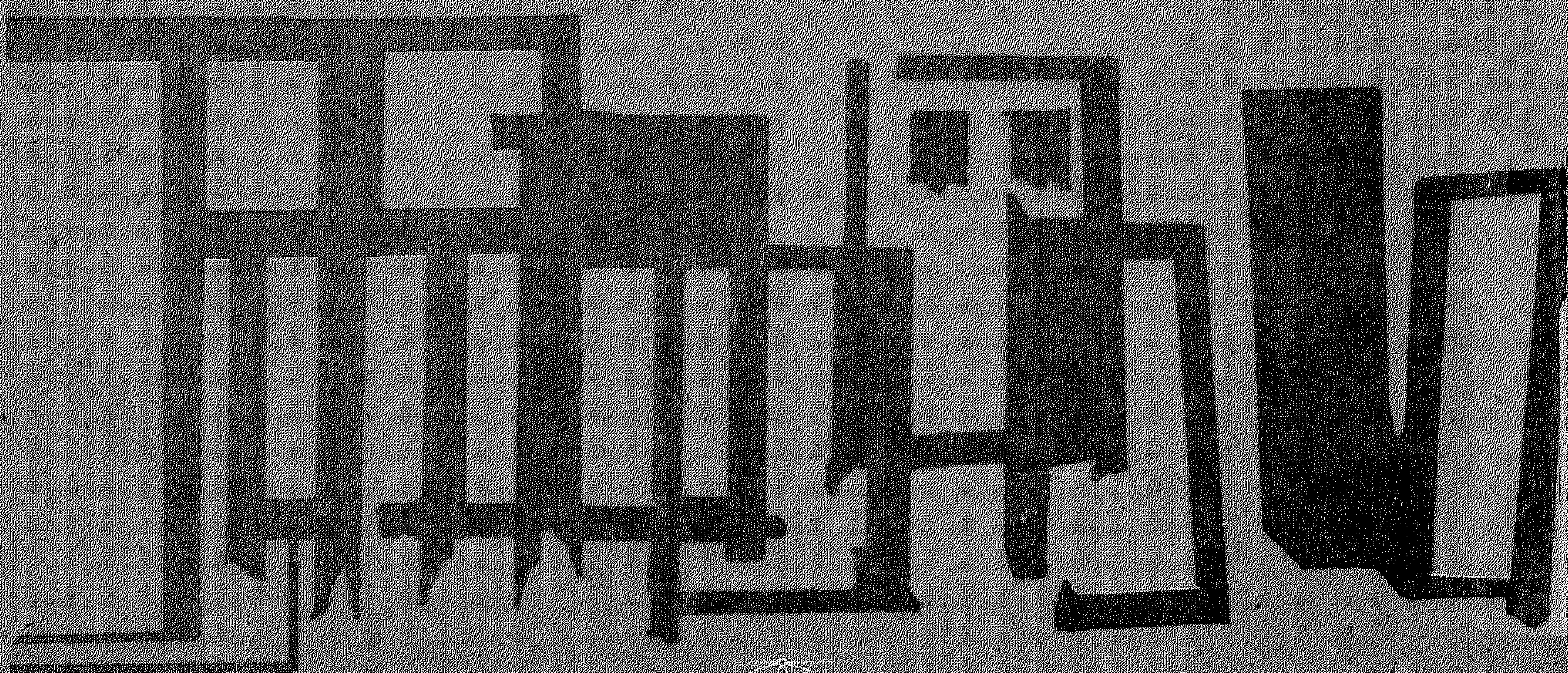
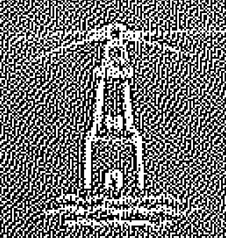
دكتور السيد الحسينى

(١)

المدينة

دراسة فى علم الاجتماع الحضرى





دار المعارف

اهداءات ٢٠٠٢

أد /السيد محمد بدوى

الاسكندرية

سلسلة علم الاجتماع المعاصر
الكتاب السابع والثلاثون

المدينة

دراسة فى علم الاجتماع الحضرى

تأليف

دكتور السيد الحسينى

أستاذ علم الاجتماع المساعد
كلية الآداب — جامعة عين شمس

الطبعة الثانية

١٩٨١



دار المعارف

الطبعة الأولى . ١٩٨٠

الطبعة الثانية : ١٩٨١

الناشر : دار المعارف ـ ١١١٩ كورنيش النيل ـ القاهرة ـ ج ٠ م ٠ ع

المحتـــويات

مقـــدمة

على الرغم من أن الاهتمام العلمى بدراســة المدينة قديم نسبياً ، الا أن علم الاجتماع الحضرى لم يتطور بشكل ملموس الا خلال العقود القليلة الأخيرة • فمنــذ بدايات القرن الســابع عشر أبــدى المخططون والمهندســون المعماريون والسياسيون والاقتصــاديون اهتماماً ملحوظا بتسجيل التطورات والمشــكلات التى تعرضت لها المدن الغربية على وجه الخصوص • غير أن القرن العشرين قد شــهد اهتماماً لم يسبق له مثيل بالظواهر الحضرية المختلفة • ولا يعنينا هنا استعراض الانجازات العلمية التى ظهرت فى هذا المجال بقــدر ما يعنينا تأكيد حقيقة أساسية هى : أن المدينة قد أصبحت تشــكل موضوعا أساسيا للعلوم الاجتماعيه مجتمعة ، بحيث يصعب على علم بعينه فهم الواقع الحضرى بمختلف جوانبه • واذا كانت المدينة بحاجة الى جهود علماء الاجتماع ، فانها بحاجة أيضا الى جهود علماء الاقتصاد والسياسة والانثروبولوجيا والجغرافيا والسكان والتاريخ • إن تنوع مداخل دراسة المدينة لا يعنى العزلة العلمية بقدر ما يعنى الثراء الفكرى ، خاصة اذا ما كان الاهتمام متعلقاً بظاهرة معقدة متعددة الجوانب كالمدينة • وليس من الصدفة أن تكون المدينة موضوعاً أساسياً من موضوعات العلوم الاجتماعية بينما تفرض المشكلات الحضرية نفسها فرضاً على عالمنا المعاصر • واذا كان يحلو لبعض العلماء والمفكرين اطلاق بعض المسميات على القرن العشرين ، فانني أميل الى وصفه « بقرن التحضر » • فعلى الرغم من أن الدول الصــناعية الغربية قد شهدت تحضراً عالياً منذ مطلع القرن التاسع عشر ، الا أن هذا التحضر قد تعاظم خلال القرن العشرين ، ثم واصل تعاظمه بعد الحرب العالمية الثانية حينما حصلت معظم الدول النامية على استقلالها السياسى ، وبدأت تشــهد ما يمكن أن نطلق عليه « انفجاراً حضرياً » • والواقع أننى لا أقصــد بذلك « اختزال » الواقع الحضرى وتحويله الى مجرد قضية ســكانية « فنية » ، بل أهدف الى توضيح الآثار البنائية الهائلة التى أحدثها هذا « الانفجار الحضرى » على عالمنا المعاصر •

إن التحليلات السوسيولوجية للمدينة لا تعانى من الندرة بقدر ما تعانى من إفتقاد النظرة التاريخية البنائية الشاملة التى تتجاوز وصف ما هو قائم لتصل الى تفسير لما حدث وما يمكن أن يحدث • ولسوف يرتكب علمـاء الاجتماع المعاصرون خطأ فادحاً اذا ما ظلوا أسرى النظرة « الوضعية » الضيقة التى تتغافل بعدى الزمان والمكان •

ويتضمن هذا الكتاب تحليلا تاريخياً بنائياً من منظور سوسيولوجى للمـدينة : ماضيها ، وحاضرها ، ومستقبلها • وهو ــ من هذه الزاوية ــ يختلف عن كثير من المؤلفات العربية والغربية فى عدد من الوجوه • فبينما نجده يركز على الظروف التاريخية التى أدت الى نشـأة المدن فى مختلف مناطق العالم ، يحاول أيضاً تحليل الواقع الحضرى المعاصر من وجهة نظر بنائية تنطلق من فهم الكل المؤلف من أجزاء لا مجرد الأجزاء المؤلفه للكل • ومن خلال هذه النظرة استطعنا فهم المدينة فى مختلف المناطق فى ضـوء التطورات التاريخية والمعاصرة التى تعرض لها عالمنا المعاصر • إن المدينة ليست مجرد نسق اجتماعى « محلى » تابع لنسق اجتماعى « قومى » ؛ إنها أيضاً وحدة أساسية من الوحدات المكونة للبناء العالمى الشامل • ومعنى ذلك أن المدينة لا تتأثر فقط بالتغـيرات القومية المحلية ، بل تتأثر أيضاً بالتحولات العالمية الخارجية • وفضلا عن ذلك أبدى هذا الكتاب اهتماماً كبيراً بدراسة مدن الدول النامية •اذ ظلت مؤلفات علم الاجتماع الحضرى تعتمد اعتماداً أساسياً على الدراسات والبحوث التى تناولت المدن الغربية • وأعتقد أن المشكلة الحقيقية التى تعانى منها النظريات السوسيولوجية التى تتناول التحضر تتمثل فى تجاهلها للغالبية العظمى من مدن العالم ، خاصة تلك التى تقع فى دول العالم الثالث • ومن هذه الزاوية يبدو اهتمامنا بالواقع الحضرى فى الدول النامية ، وان كان ما يلبث أن يزداد تخصصاً • اذ أننا قد أفردنا معالجة مستقلة للمدن فى منطقة الشرق الأوسط فى محاولة للكشف عن « العموميات » الحضرية من جانب ، و « الخصوصيات » الحضرية من جانب آخر • وعلى طول هذا الكتاب يلمس القارىء عدم الالتزام بالكتابة « المدرسية » • اذ أننا قد اتخذنا من القضايا أساساً للمناقشة المستفضية ،

مستخدمين فى ذلك كل ما استطعنا الحصول عليه من شواهد • وعلى الرغم من الصعوبات التى واجهناها فى هذا المجال بسبب ندرة الدراسات الواقعية فى بعض الأحيان ، الا أن ذلك لا يخلو من فوائد محققة ، لعل أهمها التعرف على الثغرات النظرية والمنهجية التى تعـانى منها الدراسـات الحضرية المعاصرة •

وفى ضوء هذه الاعتبارات أمكن تقسيم هذا الكتاب الى ثلاثة أبواب تنقسم الى عشرة فصول ، بالاضافة الى خاتمة وقائمة ببليوجرافية • ففى الباب الأول الذى حمل عنوان « المدينــة بين التطور التاريخى والنظرية الاجتماعية » نجد الفصل الأول منه يتناول المدينة عبر التاريخ ، فيكشف عن الجذور التاريخية للمدن فى مختلف مناطق العالم ابتداء من الحضارات القديمة حتى عصرنا الحديث • أما الفصل الثانى فيناقش العلاقة الجدلية بين المدينة والحضارة حيث يحاول التعرف على الدور الذى لعبته المدينة فى ازدهار الحضارة الانسانية والنتائج المترتبة على ذلك • وتحاول هذه المناقشة تحليل بعض القضايا الايديولوجية المتصلة بالتحضر تحليلا تاريخياً • ويتناول الفصل الثالث المدينة والبناء الاجتماعى فيكشف عن العلاقة المعقدة بينهما فى نمطين من المجتمعات المعاصرة : المتقدمة والنامية • ولقد قصدنا بهذا الفصل أن يكون بداية لمزيد من الاهتمام بالدراسات الحضرية المقارنة بهدف الوصول الى نظريات أكثر صدقاً وواقعية • أما الفصل الرابع والأخير من هذا الباب فيناقش المدينة بين المكان والسكان ، حيث يتناول بالتفصيل وجهتى نظر أساسيتين فى دراســة التحضر هما : الايكولوجيا والديموجرافيا • ومن خلال هذه المناقشة يمكن التعرف على الأهمية النسبية التى تحتلها الاتجاهات النظرية المعنية بدراسة المدينة • أما الباب الثانى من هذا الكتاب فقد اختص بمناقشة المدينة فى الدول النامية حيث تناول فى ثلاثة فصول متتابعة (من الخامس حتى السابع) نشأة المدن ومشكلاتها فى كل من أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا • ولقد حاولنا فى هذه الفصول الثلاث التعرف على نفس المشكلات الحضرية فى كل من هذه القارات الثلاثة ، مما قد يساعدنا على تشخيص أفضل لها وتحليل أدق لنتائجها • أما الباب الثالث فقـد تناول

المدينة فى دول الشرق الأوسط ، حيث تضمن ثلاثة فصول اختص الأول منها بتتبع مدن الشرق الأوسط تتبعاً تاريخياً فى محاولة للتعرف على الأنماط والأشكال التى اتخذتها على مدى فترة زمنية واسعة • ويناقش الفصل التالى مشكلتى الهجرة الريفية ـ الحضرية والنمو الحضرى فى منطقة الشرق الأوسط ، حيث نجد تحليلا ضافيا لهاتين المشكلتين فى ضوء التنوعات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى تشهدها هذه المنطقة • ويحاول الفصل الأخير التعرف على ملامح البناء الطبقى الحضرى فى منطقة الشرق الأوسط كما عبرت عنها الدراسات العديدة التى أجريت فى هذا المجال • ولقد آثرنا تذييل هذا الكتاب بخاتمة تناولت مستقبل المدينة فى ضوء مناقشاتنا المختلفة •

وفى ختام هذه المقدمة أود أن أتقدم بالشكر والتقدير لكل من أسهم بشكل مباشر أو غير مباشر فى انجاز هذا الكتاب • وأخص بالذكر زميلى وصديقى الدكتور محمد الجوهرى الذى شجعنى على مواصلة الكتابة فى هذا الموضوع الشائك • كما أتوجه بالتحية لأسرة قسم الاجتماع بجامعة قطر التى ظللت عضواً فيها طوال فترة انجاز هذا الكتاب • لقد أتاح لى العمل بهذا القسم لأربع سنوات متتالية فرص التكريس والانجاز والصفاء الفكرى ، التى بدونها كان يستحيل ظهور الكتاب على هذا النحو الذى يبدو عليه • أما الدور الذى لعبته زوجتى من أجل انجاز هذا العمل فيفوق الوصف ، لذلك فان دينى لها هو أعظم الديون • الى كل هؤلاء أتوجه مرة أخرى بالتحية والتقدير ، راجياً أن يحظى هذا الكتاب بالاهتمام الذى يتناسب مع الجهد الذى بذل فيه •

القاهرة فى ١٥/٧/١٩٨٠

السيد الحسينى

الباب الأول

المدينة بين التطور التاريخي والنظرية الاجتماعية

الفصل الأول

المدينة عبر التاريخ

اهتم كثير من المؤرخين وعلماء الاجتماع بدراسة الظروف التاريخية التى أسهمت فى ظهور المدن بما تمثله من خصائص اقتصـــادية وسياسية وثقافية • ويبدو أن هناك اتفاقاً ملحوظاً بين هؤلاء المؤرخين والعلماء على أن المراكز الحضرية الأولى قد ظهرت منذ سبعة آلاف عام فى دلتا وادى النيل بمصر ومنطقة ما بين النهرين فى العراق ، ثم نشأت بعد ذلك مراكز أخرى فى وادى السند بباكستان وحوض النهر الأصفر فى شمال الصين • أما فى العالم الجديد فقد نمت المراكز الحضرية على ساحل بيرو وفى المكسيك قبل بداية العصر المسيحى • ولقد أوضحت الدراسات التاريخية أن هذه المناطق كانت تضم مساحات ضخمة من الأراضى المنزرعة التى تكفى فى ظل الظروف الطبيعية لمعيشة أعداد كبيرة من السكان • وفضلا عن ذلك عرفت هذه المناطق نظام الرى المنتظم مما أسهم فى تدعيم الارتبـــاط بالزراعة كمصدر أساسى للنشاط الاقتصادى • ومن وجهة النظر الاجتماعية ارتبطت هذه العناصر بظهور حياة جماعية واضحة المعالم • فعلى سبيل المثال أوضح بعض الباحثين أن هذه المناطق قد شهدت ضروباً من التدرج الاجتماعى تعكسه الاختلافات العديدة بين المبانى وما يرتبط بذلك من سلع مادية • والمحقق أن ظهور المدن قد ارتبط بازدهار الثقافة المادية والفنية ، فضلا عن تطور صناعة المعادن ووسائل النقل والكتابة (١) •

ويبدو أن التطور الذى طرأ على نظام الرى فى مناطق العالم القديم قد لعب دوراً كبيراً فى ظهور بدايات التحضر • فبفضل هذا التطور أصبح

---

(1) G. W. Dimbledy (ed); Man; Settlement, and Urbanism; Schenkman; Cambridge; Mass; 1972, p. 276.

بالامكان زراعة مناطق كبيرة متصلة ، مما أسهم فى رفع عائد الأرض بالنظر الى حجم العمل المطلوب • والواقع أن حاجة هذه المناطق لمراقبة مشروعات الرى الضخمة قد أسهم فى جذب هذه المدن للمتخصصين والتجار[1] • على أن نمو المراكز الحضرية قد خلق بذلك منافسة بينها من أجل الحصول على الأرض والماء • ومن المحتمل جداً أن يكون ذلك سبباً قوياً يفسر لنا الحرص الشديد على بناء مواقع دفاعية واقامة نظام عسكرى • وبغض النظر عن مدى أهمية وأولوية الدور الذى لعبه نظام الرى فى نشأة التحضر ، الا أن الشواهد التاريخية تؤكد ظهور مراكز حضرية لاحقة فى مناطق أخرى نتيجة للنمو السريع الذى طرأ على التجارة[2] • كما أن بعضاً من هذه المراكز قد ظهرت نتيجة للحاجة الى اقامة مواقع دفاعية ضد الاتجاهات التوسعية التى تكونت بفضل تعاظم القوة العسكرية للدول الجديدة ، وضد الغزاة الرعويين الذين أصبحوا موضعاً للخطر خلال نفس الفترة • ومن الواضح أيضاً أن هناك شرطاً أساسياً ضروريا لنشأة المراكز الحضرية الأولى هو تطـوير أساليب انتاج الطعـام حتى يمكن مواجهة احتياجات الأعداد الكبيرة من السكان • وفى حدود البيانات المتاحة لدينا فلقد كانت المجتمعات المحلية الزراعية المتمثلة فى القرى هى الشرط الأساسى الضرورى لظهور الحياة الحضرية • ومعنى ذلك أن « الثورة الحضرية المبكرة » قد نشأت فى اطار عملية التحول نحو انتاج الطعام ، لكنها ارتبطت — فى نفس الوقت — بعدد من التغيرات التكنولوجية الهامـة • ويميل بعض الدارسين الى تحـديد الأدوار التى لعبتها التطورات التكنولوجية فى ظهور المراكز الحضرية فى مختلف مناطق العالم • فاذا كانت المراكز الحضرية فى مناطق العالم القديم تدين فى وجودها لبدايات انتاج الطعام خلال العصر الحجرى الحديث ، فان المراكز الحضرية فى مناطق العالم الجديد قد نمت دون أية تطورات

---

(1) A; Robert; The Evolution of Urban Society : Early Mesopotamia and Prehistoric Mexico; Chicago : Aldine Publishing Company; 1965.

(2) B. Robert and G. Willey (eds); Courses Toward Urban Life; Chicago : Aldine Publishing Company; 1962.

تذكر فى صناعة المعادن أو أية تحسينات هامة فى وسائل النقل • ويبدو أن التطور الذى طرأ على وسائل النقل فى العالم القديم وعلى الأخص إستخدام الطاقة الحيوانية قد أسهم فى توسيع المناطق التى تضمن مصادر الطعام للمراكز الحضرية[١] • وهنا تجدر الاشارة الى نقطة هامة هى أن مجتمعات الفلاحين لا تظهر الى حيز الوجود ما لم تكن هناك وسيلة لتبادل فائض الطعام فى مقابل سلع آخرى • لقد أدت وسائل النقل البرية والبحرية الأكثر تقدماً الى توسيع نطاق التجارة عبر مسافات بعيدة ، مما كان له أكبر الأثر فى نمو المراكز الحضرية الأساسية وظهور مراكز حضرية تابعة •

وتميل بعض الدراسات التاريخية الى ابراز الآثار السكانية الناجمة عن التطورات التى طرأت على الزراعة وعلى الأخص فيما يتعلق بكميات الانتاج الزراعى • ان زيادة المنتجات الزراعية يعنى القدرة على مواجهة الاحتياجات الأساسية لأعداد متزايدة من السكان[٢] • كذلك كان لظهور القرى « الزراعية » المستقرة فى فجر التاريخ أكبر الأثر على التطـور التكنولوجى بوجـه عام خـلال تلك الحقبة التاريخية • فلقـد تطلبت زراعة الأودية اقامة مشروعات الرى حتى يمكن التحكم فى المياه على مدى فترة زمنية طويلة نسبياً • ومن الطبيعى أن تسهم هذه الظروف الطبيعية فى ظهور تنظيم اجتماعى « أولى » • ذلك أن أعمال الرى كانت تتطلب قدراً من العمل الجماعى المشترك حتى يمكن مواجهة أخطار الفيضانات ، فضلا عن الهجمات التى قد تشنها الجماعات المعادية • كذلك فلقد كان لتطـور وسائل النقل النهرى أكبر الأثر فى تدعيم هذا النمط من الاستيطان البشرى • ففى مصر كان النيل هو وسيلة النقل النهرى الأساسية التى أتاحت الفرصة لتجميع فائض الطعام فى مراكز حضرية محدودة • ومثل هـذا عن دجلة

---

(١) رالف بيلز وهارى هويجر ، مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة ، الجزء الأول ، ترجمـة محمد الجوهرى والسـيد الحسينى ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ١٩٧٦ ، الفصل التاسع •

(2) G. Lenski; Human Society; McGraw-Hill; New York ;1970; p. 164.

والفرات فى العراق يقال • وبحلول القرن الثالث قبل الميلاد استطاع الفلاح المصرى أن ينتج من أرض وادى النيل ثلاثة أضعاف حاجاته من الطعام[١] • وهناك خلاف واضح بين الدارسين المعنيين بنشأة المدن حول العلاقة بين ظهور المراكز الحضرية وتحقيق الفائض الاقتصادى • اذ يذهب البعض الى أن وجـــود هـــذه المراكز كان ظرفاً سابقاً ومهيئا لحدوث فائض الانتاج الزراعى ، بينما يذهب البعض الآخر الى أن هذا الفائض قد شكل عاملاً مساعداً على نشأة هذه المراكز الحضرية المبكرة • وبغض النظر عن أسبقية وجود هذين العاملين ، فاننا نميل الى الاعتقاد بوجود علاقة متبادلة بينهما أسفرت فى نهاية الأمر عن ظهور بدايات التحضر •

وخلال السنوات الأخيرة ظهرت محاولات نظرية عديدة للتعرف على ظروف نشأة التحضر • وربما كانت أشهر هذه المحاولات تلك التى قدمها جوردن تشايلد Childe ، حيث نجده يحدد بعض ملامح ما أطلق عليـــه « الثورة الحضرية المبكرة » •ومن بين هذه الملامح : الاستيطان الدائم فى صورة تجمعات كثيفة ، وبداية العمل بالنشاطات غير الزراعية ، وفرض الضرائب وتراكم رؤوس الأموال ، واقامة المبانى العامة الضخمة ، وظهور طبقة حاكمة مسيطرة ، وتطور فنون الكتابة ، وتعـــلم مبادىء الحســـاب والهندسة والفلك ، واكتساب القدرة على التعبير الفنى ، ونمو التجارة[٢] • وعلى الرغم من الانتقادات العـــديدة التى وجهت الى هـــذه المحـــاولة النظرية[٣] ، الا أنها تعد خطوة أولى نحو دراسة الظروف المهيئة لنشأة المدن • بل إن دراسات حديثة عديدة قد أوضحت أن «الملامح» التى حددها تشايلد قد توافرت تماماً عند دراسة المراكز الحضرية المبكرة التى نشأت فى منطقة ما بين النهرين (دجلة والفرات) •

---

(1) R. July; A History of the African People; Scribner's; New York; 1970; p. 14.

(2) G. Child.; What Happened in History; Penguin Books; London; 1964.

(٣) من بين هذه الانتقادات أن الكتابة لم تعرف فى مناطق أمريكا الوسطى برغم ظهور مراكز حضرية مبكرة فيها •

وأيا كان الأمر فان كل الشواهد التاريخية المتاحة لنا الآن تؤكد أن هذه المراكز الحضرية المبكرة كانت صغيرة الحجم سواء من حيث المساحة أو عدد السكان • فأكبر هذه المراكز لا يتعدى فى حجمه أو عدد سكانه قرية كبيرة معاصرة • بيد أننا لو تبنينا المعايير الموضوعية للحكم ، قلنا إن هذه « الثورة الحضرية المبكرة » قد أنجبت مراكز حضرية يبلغ عدد سكان كل منها عشرة أضعاف عدد سكان القرية الواحدة خلال العصر الحجرى الحديث • لقد كانت بابل بحدائقها من أعجب عجائب العالم القديم حيث وصلت مساحتها الى أكثر من ثلاثة أميال مربعة[1] • كما أن مدينة أور التى نشأت عند ملتقى دجلة والفرات قد اتسع نطاقها الجغرافى حتى وصل الى أكثر من ٢٥٠ فداناً وضمت أكثر من ٢٤٫٠٠٠ نسمة[2] • ومع ذلك نجد هاولى Hawley يذهب الى أنه برغم الضخامة النسبية لهذه المراكز الحضرية ، الا أنها لم تكن تضم أكثر من ٣٪ من مجموع سكان الأقاليم التى تقع فيها[3] • بل ان اثينا فى عصرها البطولى لم تكن تضم داخل جدرانها أكثر من ميل مربع • وربما كانت المدن الرومانية هى أكبر مدن العالم القديم ، على الرغم من أن مساحة مدينة روما فى قمة مجدها وازدهارها لم تتعد خمسة أميال مربعة • كذلك نجد كنجزلى دافيز Davis يذهب الى أن أكبر المدن الضخمة التى سبقت الحقبة الرومانية لم تكن تضم أكثر من ٢٠٠٫٠٠٠ نسمة • اذ أن مستوى الفن الانتاجى الزراعى لم يكن قد تطور على النحو الذى يسمح بظهور تركز سكانى واضح فى المدن[4] • ومعنى ذلك أن أحجام المدن فى المناطق الزراعية كانت محكومة ـ الى حد بعيد ـ بكمية الفائض الاقتصادى وتطور أساليب نقله •

---

(1) Kingsley Davis; «The Origin and Growth of Urbanization in the World»; American Journal of Sociology; 60 : 430; March; 1955.

(2) G. Childe; What Happened in History; op. cit; p. 68.

(3) Amos Hawley; Urban Society; Ronald Press; New York; 1971; p. 22.

(4) Kingsley Davis; op. cit; p. 430.

والواقع أن قضية عدد سكان هذه المدن القديمة تتضاءل كثيراً أمام قضية أكثر أهمية هى الدور الاجتماعى الذى لعبته هذه المدن ، خاصة اذا ما علمنا أنها كانت مهد التجديد فى مجال التنظيم الاجتماعى • فعلى الرغم من ضآلة عدد الأفراد المكونين « للصفوة الحضرية » ، الا أنها قد أسهمت فى نقل كثير من القيم الثقافية ، وبلورت معالم حضارة انسانية متكاملة • ولسنا بحاجة هنا الى توضيح التأثيرات الاقتصادية والسياسية التى تمارسها المدينة على أفراد المجتمع بوجه عام • فلقد أوضح ابن خلدون فى كتابه « المقدمة » قبل ستة قرون كيف أن تركز القوى الاقتصادية فى المدن يؤدى الى حدوث تباين بين النمط الاقتصادى فى كل من المجتمعات البدوية والحضرية[1] • كذلك نجد بيرت هوسليتز Hoselitz يذهب الى أن تركز الوظائف الحكومية والتعليمية فى المدن قد أسهم فى ظهور متطلبات جديدة تؤثر على أنماط الانتاج • ومن هذه الزاوية يمكن اعتبار « مدينة ما قبل الصناعة » Preindustrial City بمثابة « جزيرة حضرية » فى بحر ريفى • ومن الطبيعى أن تسهم الكثافة السكانية فى ظهور ثقافة حضرية تؤكد أهمية التجارة والصناعة التحويلية والخدمات • والمحقق أن المدن القديمة قد شهدت تنظيماً اجتماعياً يفوق كثيرا فى تعقيده ذلك الذى عرفته القرى خلال العصر الحجرى الحديث • وتشير الشواهد الأركيولوجية الى أن المعابد كانت من أقدم المبانى العامة التى شهدتها المراكز الحضرية العتيقة ، وأن رجال الدين والكهنة كانوا يتمتعون بامتيازات خاصة لا يتمتع بها الأفراد العاديون • ولقد لاحظ علماء الآثار وجود اشارات على جدران المعابد توضح أن الكهنة كانوا يؤدون أدواراً اقتصادية بالاضافة الى أدوارهم الدينية • وفى مصر كانت المعابد تستخدم كمخازن لتخزين الفائض من الحبوب الذى يعد بمثابة احتياطى خلال فترات الأزمات الاقتصادية • لذلك فان تكنولوجيا تخزين الطعام كانت من أهم انجازات المدن

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، مطبعة التقدم ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

القـــديمة[١] •

ولقد ظلت المعابد لفترة طويلة تمثل أكثر أشكال التنظيمات تعقيدا وأشدها نفوذاً ، اذ أن الملكيات قد تطورت خلال فترة لاحقة • وهنا يتعين علينا الاشارة الى الدور الذى كان يلعبه المحاربون — الحكام خلال فترات التهديد الخارجى على وجه الخصوص • فلقد أوضح كريل Creel أن المحاربين كانوا يمثلون فى الصين القديمة الحماية الحقيقية للفلاحين من أخطار الغزو الخارجى ، وأنهم (أى المحاربين) كانوا يحددون بأنفسهم أنصبتهم من المحاصيل الزراعية[٢] • ومن الطبيعى أن تؤدى الأعمال العسكرية الى ظهور مهن معينة تتصل بصناعة مختلف أنواع الأسلحة المتاحة خلال تلك الفترة • وما لبثت جماعات المحاربين أن شكلت نظاماً ملكياً يستند الى ولاء وراثى دائم • وهكذا نجد الاهتمام يتحول من المعبد الى القصر ، ثم تظهر بعد ذلك تفاوتات اقتصادية واجتماعية واضحة بين أفراد المجتمع • وتشـــير بعض سجلات ملكية الأراضى فى الحضارات الزراعية القديمة الى وجود تفاوت كبير فى ملكية الأراضى الزراعية الخصبة • فمن خـــلال التوريث الاقتصادى بدأت تتكون جماعات اقتصادية تتمتع بمزايا لا تتمتع بهـــا الجماعات الأخرى • كذلك أكدت بعض الحفريات أن هـــذه الحضارات القديمة قد شهدت طبقات اجتماعية متباينة تعبر عنها بوضوح مظاهر الثراء أو الفقر فى بناء المقابر ومحتوياتها[٣] • فمقابر العائلة المالكة تضم أدوات

---

(١) تجدر الاشارة هنا الى قصة يوسف عليه السـلام الــذى أصبح مستشارا لفرعون مصر بعد أن تنبأ بحلول سبع سنوات من المحصول الوفير تتلوها سبع أخرى يسودها القحط والمجاعة . واذا كانت هذه القصـــة تعكس مدى تكيف بنى اسرائيل الرحل مع البيئة الطبيعية ، الا أنها تشير ايضاً الى مدى تحـــكم المصريين — الــذين كانوا اكثر تقـــدماً واستقراراً — فى مواقف الأزمات . والواقع أن التخطيط البعيد المدى فى مختلف المجالات — ابتداء من تفادى المجاعات حتى بناء الأهرمات — كان أحد السمات المميزة للحضـــارة الفرعونية .

(2) H. G. Creel; The Birth of China; Reynal and Hitchcock; New York; 1937; p. 279.

(3) Fustel de Coulanges; The Ancient City; Doubleday; Garden City; New York; 1956; p. 133.

وأسلحة من الذهب والمعادن الثمينة ، بينما لا تضم مقابر عامة الشعب سوى بعض الأوانى النحاسية أو الفخارية • وربما اعتبرنا أهرامات الجيزة مثالا واضحاً على المبالغة فى التعبير عن المكانة الاجتماعية حتى بعد الموت •

ويبدو أن التطور التكنولوجى قد بات أمراً ضرورياً بعد تشكل النظام السياسى الملكى • اذ أن الحفاظ على هذا النظام قد تطلب تطوير صناعة الدروع والأسلحة والمركبات الحربية ، كما أن العائلات الحاكمة ذاتها قد أصبحت بحاجة الى استخدام الكماليات للتعبير عن مكاناتها المتميزة • ومن نتائج ذلك ظهور طوائف من الحرفيين والصناع المتفرغين ودخول بعض السلع الجديدة الى المجال التجارى • والواقع أن هذه الحضارات الزراعية القديمة خلال فترات نضجها وازدهارها كانت تعبر عن بدايات ظهور نظام سياسى محدد المعالم • فالى جانب الملك والحاشية ، هناك المحاربون والصناع والمهندسون القادرون على اعداد تصميمات المشروعات الكبرى كالأهرامات • ومن الطبيعى أن يستند هذا التدرج الاجتماعى الواضح الى الفائض الزراعى الذى كان يحققه الفلاحون والأقنان والعبيد •

ومع أن المدينة القديمة لم تكن تتجاوز فى حجمها قرية كبيرة معاصرة ، الا أنها (أى المدينة) كانت تشكل نقطة انقطاع تاريخى • لقد كانت هذه المدينة تشكل نسقاً اجتماعياً جديداً لم تكن الحضارة الانسانية قد ألفته من قبل • بعبارة أخرى كانت المدينة تشكل « ثورة اجتماعية » أدت الى ظهور نظم اجتماعية جديدة • وعلى النقيض من « الثورة الزراعية » التى شهدتها الحضارة الانسانية من قبل ، نجد هذه « الثورة الحضرية » الجديدة تتجاوز حدود الاعاشة والكفاف لتفرز معالم «عملية اجتماعية» فيها استطاع الانسان التفاعل مع البيئة بقدر كبير من النجاح[1] • ومن النتائج الواضحة لهذه « الثورة الحضرية » التحكم الواضح فى البيئة الطبيعية •

---

(1) Lewis Mumford; The City in History; Its Transformation and Its Prospects; Harcout ; Brace; and World; New York; 1961; p. 55.

وهكذا نجد أن الاختراعات لم تعد هى العامل الحاسم فى ظهور التجمعات الانسانية الكبيرة بقدر ما أصبحت الأخيرة (التجمعات) المجال الخصب لظهور الأولى (الاختراعات) • ويمكننا أن نستشهد على ذلك بظهور الكتابة ، وتطور فن المحاسبة ، والتوصل الى التقويم الشمسى ، وتكون التنظيمات البيروقراطية ، وبداية استخدام العلم فى المجالات التطبيقية[1] • واذا كان ذلك يعبر عن شىء ، فانه يعبر عن بداية الدور الذى لعبته المدينة فى حياة الانسان •

ومن الواضح أن العوامل البيئية قد لعبت دوراً حاسماً فى ظهور ونمو المدن القديمة • لذلك فان تاريخ المدينة ما هو الا سجل لمحاولات الانسان من أجل السيطرة على العوامل البيئية من خلال استخدام التكنولوجيا وارساء معالم التنظيم الاجتماعى • واذا كان بعض الدارسين قد اعتبروا أثينا من أكثر مدن العالم القديم تحضراً خلال فترة ما قبل الميلاد ، الا أنها (أى أثينا) قد اضطرت للتطلع الى البحر • ولم يكن السبب فى ذلك فقط التربة الصخرية الجدبة المحيطة بالمدينة ، بل أيضاً الظهير الجبلى لها ، والذى خلق بالتالى مشكلات عديدة فيما يتعلق بالنقل والمواصلات • وبغض النظر عن بعض الطرق القليلة التى عبدها الاغريق على مدى فترة زمنية طويلة ، فان شوارع أثينا فى ذلك الحين لم تكن تعدو ممرات لا تتسع لأكثر من مرور الحيوانات والحمالين • ولقد قدر جلوتزا Glot تكاليف نقل السلع لمسافة عشرة أميال بعيداً عن أثينا بحوالى ٤٠٪ من قيمة هذه السلع المنقولة[2] • ومن نتائج ذلك تحول اليونان الى البحر خاصة وأنها تتمتع بعدة موانى هامة • فعلى سبيل المثال كانت السفينة الاغريقية تحمل أكثر من ٧٠٠٠ رطلا من الحبوب لمسافة

---

(1) Kingsley Davis; op. cit; p. 430.

(2) Gustave Glotz; Ancient Greece at Work; Norton; New York; 1967; pp. 291-293.

٦٥ ميلا بحرياً فى اليوم ، بحيث لم تكن تكاليف النقل البحرى تزيد عن عشر تكاليف النقل البرى[1] •

والواقـــع أن أعظم انجازات الاغريق لم تكن فى مجال التكنولوجيا بقدر ما كانت فى مجال التنظيم الاجتماعى • وهنا يتعين علينا الاشارة الى « ابتكار اجتماعى » هـــو : المـــدينة polis ، أو ان شئنا الدقة « دولـــة المدينة » city state التى كانت تضم جماعات من الأسر والعشـــائر والقبائل تربطهم علاقات وثيقة أساسها المساعدة المتبادلة والانتماء لدولة واحدة • ولاشك أن الاشتراك فى معتقدات دينية واحدة كان من العوامل الهامـــة التى أسهمت فى توحيد هذه الوحدات الاجتماعية • لذلك نجـــد تلازماً قوياً بين الانتماء للدولة والحق فى ممارسة الشعائر الدينية • وكان باستطاعة المواطن الاثينى تتبع نسبه الى أن يصل الى الاله أو الآلهة التى تتحكم فى القضايا الأساسية ، وبالتالى يشارك فى النشاطات الدينية العامة• ومعنى ذلك أن المدينة القديمة كانت فى نهاية الأمـــر مجتمعاً دينياً ، وأن المواطنة كانت تتحدد فى ضوء أسس واعتبارات دينية[2] • والواقـــع أن الاغريق قد ظلوا حريصين على عدم توسيع نطاق المواطنة حتى لا تتعـــدى نطاق « دولة المدينة » ، لأنهم قد اعتقدوا أن ذلك قد يؤثر على تماســـك الدولة ووحدتها • لذلك نجـــد الرومان ــ على نحو ما سنرى بعد قليل ــ يوسعون من نطاق دولتهم فى محاولة لاقامة امبراطورية شاسعة المســـاحة قوية النفـــوذ •

والملاحظ أن المدن الاغريقية كانت تتشابه الى حد كبير فى مظاهرها الطبيعية وذلك بسبب ارتباط هذه المدن بأغراض الدفـــاع والحماية • اذ كانت أسوار المدينة تقـــام حـــول جبـــل محصن يطلق عليه « أكروبول »

(1) Ibid; p. 300.

(2) Fustel de Coulanges; The Ancient City; op. cit; p. 134.

وقد يفسر لنا ذلك العقاب الذى ناله سقراط بسبب تشككه فى وجـــود الآلهة والذى حرص على تجنبه بتناول السم •

acropolis • أمـا المعابد الأساسية فكانت تقام فوق « الأكروبول » • وعلى مقربة من المعابد يوجد ميدان واسـع يطلق عليه « الأجـورا » agora فيه يلتقى الناس كما يستخدم فى بعض الأحيان كسوق عام • وتقع معظم المبانى العامة الرئيسية داخل أسوار المدينة ، بينما تقع مساكن معظم الناس ـ باستثناء مساكن الأغنياء ـ خارج تلك الأسوار • والواقع أن مدينة أثينا لم تكن تتبع خطة حضرية واضحة • فاذا ما انتقل المرء من منطقة المعابد لا يجد سوى مجموعة من الشـوارع الضيقة الملتوية القـذرة • وعلى الرغم من أن أثينا كانت عاصمة لامبراطورية ، الا أنها لم تنمو وفقا لضرورات واضحة ، ولم تحظ الا بالقدر الضئيل من التخطيط الحضرى • أما فيما يتعلق بالسكان نجد أثينا تعانى مشكلات حادة مصدرها الزيادة السكانية الحادة الناجمة عن هجرة الفلاحين من المناطق الريفية اليها بسبب ضعف انتاج الأراضى الزراعية • ولقد تراوح عدد سكان أثينـا فى قمة ازدهارها فيما بين ١٢٠٫٠٠٠ و ٢٠٠٫٠٠٠ نسمة • ويبدو أن انخفـاض مستوى التكنولوجيا فى ذلك الوقت كان أحد العـوامل التى حالت دون ارتفاع عدد سكان المدينة عن هذا الحد • اذ أن أثينا كانت ماتزال تعتمد اعتماد أساسياً على الفائض الاقتصادى الذى تحققه الأرض الزراعية • ولقد عبر ماكس فيبر Weber عن ذلك بقوله « ان المدن الاغريقية القديمة لم تكن بأكثر من مراكز حضرية شبه ريفية »[1] •

ويبدو أن الاغريق كانوا يفضلون المدن الصغيرة الحجم • ويتضح ذلك من خلال الشواهد التاريخية المتاحة التى تتناول فترة ما قبل الميلاد من ناحية ، والأفكار والآراء التى عبر عنها الفلاسفة الاغريق من ناحية أخرى • فلقد عبر أفلاطون وأرسطو عن تفضيلهما للمـدن الصغيرة الحجم مما يتيح فرصا أفضل للادارة السياسية الناجحة • ولقد وصل أفلاطون الى حد تقدير حجم سكان المدينة المثالية ، ذاهبا الى أنها (أى المدينة) يجب

---

(1) Max Weber; The City (trans. D. Martindale and G. Neuwirth); Free Press; New York; 1958; p. 71.

ألا تضم أكثر من ٥٠٤٠ مواطنا • واذا ما أضفنا غير المواطنين كالنساء والأطفال والعبيد والأجانب وصل هذا العدد الى ٦٠٫٠٠٠ نسمة[1] • وعلى الرغم من أن أرسطو كان أقل وضوحاً فيما يتعلق « بالحجم المثالى » للمدينة ، الا أنه قد أكد أن زيادة عدد سكان المدينة فوق حد معين قد يؤدى الى تغيير طابعها وخصائصها المميزة • ومع ذلك يذهب أرسطو الى أن حجم المدينة يجب أن يصل الى حد معين حتى تستطيع الدفاع عن نفسها وتحقيق الاكتفاء الذاتى ، بشرط ألا يؤدى ذلك الى عدم قدرة الأفراد على تمييز بعضهم البعض[2] • ولاشك أن الاعتبارات السياسية قد لعبت دوراً هاماً فى الحد من نمو المدن الاغريقية خلال تلك الفترة ، خاصة اذا ما أخذنا فى الاعتبار اهتمام السياسة الاغريقية باقامة مستعمرات خارج حدودها • ففيما بين سنتى ٤٧٩ و ٤٣١ قبل الميلاد هاجر من المدن اليونانية المستقرة الى المستعمرات الجديدة أكثر من عشرة آلاف أسرة اغريقية • والواقع أن السياسة الاستعمارية التى تبناها الاغريق كانت تهدف الى مواجهة الاحتياجات المتزايدة للامبراطورية ككل ، وحل المشكلة السكانية اليونانية التى كانت قد استفحلت الى حد كبير • ومن الطبيعى أن يؤدى انتشار الاغريق فى مناطق واسعة الى تغلغل ثقافتهم فى مختلف أرجاء العالم القديم •

واذا ما انتقلنا الى الحضارة الرومانية وجدنا المدينة تكتسب مزيداً من النمو والتفرد والاستقلال • والواقع أن طابع المدينة الذى تشكل خلال فترات حكم القياصرة الرومانيين قد ظل مسيطراً على معظم المجتمعات الأوربية حتى بدايات القرن التاسع عشر • فلقد بلغ عدد سكان روما فى عصرها البطولى أكثر من مليون نسمة ، على الرغم من أن بعض الدارسين قد يهبط بهذا الرقم الى النصف • ويعود هذا التفاوت فى التقدير الى قلة

---

(1) Plato; The laws; Book V; 437 (trans. B. Jowett); 1962 ed.

(2) Aristotle; Politics; Book VII; IV 7-8 (trans. B. Jowett); 1932. ed.

البيانات السكانية الصادقة • فعلى سبيل المثال نجد عدد سكان روما ـ طبقا للتعدادات الرومانية ـ يرتفع من ٩٠٠ر٠٠٠ نسمة فى سنة ٦٩ قبل الميلاد ليصل الى أربعة ملايين فى سنة ٢٨ قبل الميلاد • وليس هناك تفسير واضح ومقنع لهذه القفزة السكانية الهائلة ، وان كان بعض الباحثين يذهبون الى أن ذلك قد يعود الى ادخال النساء والأطفال ضمن التعدادات السكانية(١) • لذلك يتعين علينا الاشارة هنا الى أن معظم البيانات المتعلقة بأعداد سكان المدن فيما قبل القرن التاسع عشر هى بيانات تقريبية لا تستند الى تعدادات سكانية دقيقة •

ومن خلال تطور بعض مجالات التكنولوجيا والتنظيم الاجتماعى ، تمكن الرومان من السيطرة على الامبراطورية التى كانت تضم عدة مدن يصل عدد سكان كل منها الى أكثر من ٢٠٠ر٠٠٠ نسمة • ولقد أوضح ادوارد جيبونز Gibbons أن عدد سكان الامبراطورية الرومانية قد وصل خلال فترة حكم الامبراطور كلوديوس Claudius (فيما بين سنتى ٤١ و ٥٤ بعد الميلاد) الى أكثر من عشرين مليوناً ، وأن هذا الرقم قد يصل الى خمسة أضعافه اذا أضيف اليه عدد النساء والأطفال والعبيد ، بينما لم يكن عدد سكان العالم يزيد فى ذلك الوقت عن ٢٥٠ مليونا(٢) • وفضلا عن ذلك يذهب جيبونز الى أن ايطاليا القديمة كانت تضم أكثر من ١١٩٧ مدينة ، وأن اسبانيا قبل الميلاد كانت تضم حوالى ٣٦٠ مدينة • أما شمال افريقيا فقد شهد مئات المدن ، كما ظهرت مدن ضخمة فى منطقة شمال جبال الألب ابتداء من فينا حتى بوردو • ويمكننا الاشارة أيضاً الى بعض المدن البريطانية القديمة مثل يورك وباث ولندن(٣) • ولاشك أن الانجازات التكنولوجية والاجتماعية التى حققها الرومان قد أسهمت فى

---

(1) William Petersen; Population; Macmillan; New York; 1969; p. 369.

(2) Edward Gibbon; The Decline and Fall of the Roman Empire; Dell; New York; 1952.

(3) Ibid; pp. 24-55.

ظهور المدن فى مختلف أنحاء العالم القديم ، فضــلا عن انتشـــار الثقافة الرومانية وعلى الأخص فى مجال التشريع والادارة وتغلغلها فى المستعمرات التى وصلت حداً بعيداً من الاتساع والانتشار •

والواقع أن مدينة روما ـــ شأنها شأن أثينا ـــ لم تكن تتبع خطـــة حضرية واضحـــة المعالم • فعلى الرغم من روعة بعض المبانى ، الا أن الاهتمام بتطوير الأحيـــاء المختلفة ـــ وعلى الأخص تلك التى يقطنهـــا الفقراء ـــ كان ضعيفاً للغاية • فما أن يغادر المرء بوابات المدينة حتى يجد نفسه وسط شوارع ضيقة تخترق المناطق التى يعيش فيها العامة • واذا كان الرومان قد أقاموا ميادين عامة ضخمة وشقوا كثيرا من الطرق بفضـــل الضرائب التى كانوا يفرضونها على السكان ، الا أن الجماهير الفقيرة لم تكن تتمتع بحق الوقوف فى هذه الميادين أو المرور فى تلك الطرق • وبنمـــو مدينة روما نقلت الأســـوار القديمـــة الى مكان أبعـــد لكى تضم المناطق السكنية الجديدة[1] • ومما يجدر ملاحظته أن بعض المدن التى حكمهـــا الرومان كباريس وفينا ولندن كانت تتبع خطة حضرية أكثر تطورا مـــن تلك التى عرفتها روما • اذ أن هذه المدن قد ظهرت فى البداية كمعسكرات حربية دائمة يغلب عليها الطابع الرومانى ، لكنها استطاعت ـــ برغم ذلك ـــ النهوض بمقوماتها الحضرية بشـــكل أسرع اذا ما قورنت بروما • واذا كانت روما قد صـــدرت للعـــالم ثقافتها (فى مجالات القانون والحـــكم والهندسة)، الا أنها قد اعتمدت عليه فى الحصول على السلع الأساسية ابتداء من المواد الغذائية حتى العبيد والأقنان • لقـــد استطاعت روما فى بعض الفترات تحقيق قدر من الاكتفاء الذاتى فى مجال الطعام ، لكن المشروعات الهائلة التى كانت تقام قد اقتضت استيراد مزيد من المواد الغذائية لاطعام الأعداد الهائلة من العمال الذين كانوا يعملون فى هذه المشروعات • وبفضل

---

(1) Eric Lampard; «Historical Aspects of Urbanization»; in Philip Hauser; Leo Schnore; The Study of Urbanization; John Wiley and Son; New York; 1965; pp. 519 ff.

السيطرة الرومانية أصبحت روما تحصل على الطعام من شبه جزيرة أيبيريا وشمال أفريقيا حتى تحول البحر المتوسط الى « بحيرة رومانية »[1]. على أن هذه الظروف لم تستمر بعد ذلك طويلا . اذ سرعان ما ظهرت علامات الانهيار واضحة على الامبراطورية الرومانية بسبب الغارات العديدة التى شنها الفانداليون والبرابرة ، حتى تقطعت فى النهاية أوصالها وبدت وكأنها جسم ضخم ينوء بحمله ساقين ضعيفين . وخلال عصور الظلام لم تكن روما بأكثر من قرية متواضعة تعيش على ذكريات مدينة عظيمة .

والواقع أن سقوط الامبراطورية الرومانية خلال القرن الخامس الميلادى يشكل علامة بارزة فى تاريخ المدن الغربية بوجه عام . اذ ظلت هذه المدن طوال القرون الست التالية محافظة على كثير من خصائص الحقبة الرومانية . ولست هنا بصدد التأريخ لأسباب سقوط هذه الامبراطورية ، لكن ما يعنينا هنا هو أن مدنها قد تدهورت بشكل كبير بسبب غزوات البرابرة عليها وتقلص التجارة الى حد كبير . ان روما نفسها خلال تلك الفترة من الانحلال قد تحللت حتى وصل عدد سكانها الى ٢٠٫٠٠٠ نسمة فقط . ولا نستطيع أن نغفل هنا الاشارة الى ظهور الاسلام واتساع نطاق فتوحاته ، مما أضعف من خطوط التجارة مع أوربا بوجه عام . ولهذه الأسباب جميعها شهدت المدن الأوربية كساداً تجارياً وتقلصاً سكانيا وضعفا سياسيا ، تعبر عنها جميعا فترة « الظلام الأوربى » . ومن النتائج التى ترتبت على انهيار الامبراطورية الرومانية ظهور وحدات سياسية منعزلة عن بعضها البعض تحاول باستماتة تحقيق الاكتفاء الذاتى من أجل الاستمرار فى البقاء . أما حكام هذه الوحدات فكانوا يضمنون للفلاحين الحماية من غارات الغزاة فى مقابل خضوعهم لنظام القنانة . وبسبب العزلة السياسية أخذت هذه الوحدات بمبدأ الحكم الوراثى ،

---

(1) John Palen; The Urban World; McGraw-Hill Book Company; New York 1975; Ch. I; Lewis Mumford; op. cit.

وشهدت بذلك معالم بناء طبقى يتصف بأقصى درجات الجمود ، حيث كان يشغل أفراد الجماعة الحاكمة قمة هذا البنـاء بينمـا يشـغل الأقنـان قاعة[1] • واذا كانت المدينة خلال الحقبة الرومانية قد لعبت دوراً هاماً ، فاننا نجد القرية أو الزراعة عموماً تشكل دعائم النظام الاقطاعى الـذى شهدته المجتمعات الأوربية خلال الفترة اللاحقة • ولم تكن المدينة مركزا للاقطاع ، اذ أن العلاقات الاقطاعية كانت تتحدد داخل القلاع التى يسكنها الاقطاعيون • أما الاقتصاد فكان يعتمد على زراعة الكفاف ، فضلا عن صعوبة نقل ما قد يفيض من الطعام من مكان لآخر[2] • وهناك عوامـل عديدة تفسر لنا سبب انغلاق النظام الاقطاعى خلال تلك الفترة • من ذلك صعوبة الاتصال بين الجماعات المختلفة ، وعدم وجود عملات نقدية مقبولة من الجميع ، فضلا عن نظام حيازة الأرض الذى كان يكبل الاقنان بالأرض تكبيلا •

بيد أن المدن الأوربية قد بدأت فى الانتعاش التدريجى ابتداء مـن القرن الحادى عشر ، حتى أن بيرن Pirenne قد أشار إلى أن كثيراً من المدن التى ظهرت خلال تلك الفترة لم تكن امتداداً أو استمرارا للمـدن القديمة ، بقدر ما كانت كيانات اجتماعية جديدة[3] • لقد نشأت هذه المدن الجديدة من خلال النمو الذى طرأ على التجارة الخارجية مما أدى الى مزيد من التجمع السكانى • وكان من الطبيعى ان تكون معظم هذه المدن ساحلية الموقع حيث اتخذت شكل مراكز لاستقبال وتصدير السلع ، فضلا عن خدمة السفن التى تجـوب أعالى البحار[4] • وبمرور الوقت تحولت

---

(1) Henri Pirenne; Medieval Cities; Princeton University Press; Princeton; N. J.; 1939; pp. 84-82.

(2) Karl Polanyi etal: Trade and Market in the Early Empires : Economics in History and Theory (Glencoe; III; 1927).

(3) Henri Pirenne; op. cit; p. 76.

(4) Howard Saalman; Medieval Cities; Brailler; New York; 1968, p. 15.

التجارة الموسمية الى تجارة منتظمة على مدى العام ، مما دفع التجار للاستقرار خارج نطاق أسوار المدن واقامة أسوار خاصة أخرى لحماية بضائعهم وسلعهم • وما أن حل القرن الثالث عشر حتى أصبحت هذه الامتدادات العمرانية جزءاً من المدن القديمة • وهناك عاملان خارجيان هامان أسهما فى نمو المدن الأوربية خلال العصور الوسطى : الأول هو الحروب الصليبية ، والثانى هو الزيادة الهائلة فى عدد السكان بوجه عام • لقد أسهم الصليبيون فى تنمية التجارة بعد ما عادوا من الامبراطورية البيزنطية الأكثر تحضراً حاملين معهم أحدث ما توصل اليه الشرق من سلع وتكنولوجيا • وعلى الرغم من هجمات قطاع الطرق وارتفاع نسبة الضرائب المفروضة على السلع المستوردة ، الا أن التجارة الأوربية قد حققت ازدهاراً كبيراً انعكست نتائجه المباشرة على المدن وعلى الأخص الساحلية منها •على أن اتجاه المجتمعات الأوربية نحو الاستقرار قد أدى بعد ذلك الى زيادة الانتاج الزراعى وانخفاض معدلات الوفيات ، مما أسهم فى ارتفاع نسبة الزيادة الطبيعية للسكان • ويمكننا أن نضيف الى ذلك بعض التجديدات التكنولوجية التى ساعدت على رفع معدلات الانتاج الزراعى سواء باستخدام أدوات انتاجية أكثر تطوراً أو باستغلال الأرض الزراعة استغلالا أفضل بزراعتها على مدار العام • وقد نستشهد على ذلك بما حدث فى انجلترا • فخلال فترة حكم وليم الفاتح كان عدد السكان لا يزيد عن ١ر٨ مليون نسمة ، ثم ازداد بعد ثلاثة قرون ليصل الى ٢ر٧ مليون نسمة • ومن الطبيعى أن تتجه نسبة ملحوظة من هذه الزيادة الى المدن التى بدأت فى الازدهار بعد ذلك •

وبرغم كل ما سبق فلقد كانت مدن العصور الوسطى الأوربية صغيرة الحجم ، اذ لم يكن يتعدى عدد سكان أكبرها عدد سكان مدينة صغيرة معاصرة • بل ان عدد سكان معظم المدن الأوربية خلال عصر النهضة كان يتراوح فيما بين ١٠ر٠٠٠ و ٣٠ر٠٠٠ نسمة[1] • وربما استثنينا من ذلك

(1) Frederick Hiorns; Town Building in History; Harrap; London; 1956; p. 110.

باريس وفلورنسا والبندقية وميلانو التى وصل عدد سكان كل منها الى ١٠٠٫٠٠٠ نسمة[١] • وكانت هذه المدن معبرة تماماً عن الطابع الحضرى المميز للعصور الوسطى : فهى محاطة بأسوار كثيفة تعلوها أبراج المراقبة والحراسة • أما النمط الايكولوجي الداخلى لهذه المدن فيبدو انعكاسا لوظيفتها الدينية الأساسية ودورها الدفاعى • وخارج أسوار المدن كانت تخصص مساحات لمواجهة احتمالات النمو العمرانى وزيادة عدد السكان[٢] • أما فيما يتعلق بالبناء الطبقى الحضرى فاننا نجد هذه المدن الوسيطة تضم جماعات جديدة من الصناع والنساجين والصيارفة الذين شكلوا فيما بعد نواة « البرجوازية الأوربية » • وما لبثت هذه الجماعات أن كونت طوائف حرفية متخصصة فى انتاج وتصنيع سلع معينة ، بحيث أصبحت المهارة الفنية — لا الملكية الزراعية — مصدراً أساسيا من مصادر القوة الاجتماعية فى هذه المدن • والواقع أن ظهور البرجوازية خلال العصور الوسطى قد أسهم فى اضعاف النظام الاقطاعى وبزوغ معالم بناء اجتماعى جديد • وربما عبر عن ذلك كله التعبير الألمانى القائل « بأن هواء المدينة قادر على تحرير الانسان »[٣] • ولقد أوضح ماكس فيبر Weber أن أوربا قد بدأت تشهد منذ القرن الثالث عشر معالم مجتمعات محلية حضرية متميزة تعتمد اعتماداً أساسياً على التجارة وتتمتع بقدر ملحوظ من الاستقلال الذاتى[٤] • ويبدو أن ما شهدته المدن الأوربية خلال تلك الفترة من استقلال سياسى قد ساعد بعد ذلك على بلورة ملامحها الحضرية التى ظلت قائمة لفترة طويلة •

---

(1) Henri Pirenne; Economic and Social History of Medieval Europe; Harcourt; New York; 1936; p. 173.

(2) Rose Hum Lee; The City; Lippincott; Chicago; 1955; p. 27.

(٣) ويشير هذا التعبير الى الحرية التى بدأ الاقنان يتمتعون بها بانهيار النظام الاقطاعى وهجرتهم الى المدينة التى كانت تأخذ بمبدأ العمل المأجور • أنظر:
Lewis Mumford; The Natural History of Urbanization; Man's Role in Changing the Face of the Earth; Chicago; 1956; pp. 382-398.

(4) Max Weber; The City; op. cit.

ومع ان بعص المدن الأوربية خلال العصور الوسطى كانت تميل الى التخصص فى حرفة معينة أو انتاج سلعة بعينها ، الا أن الغالبية العظمى من هذه المدن قد اكتسبت قوتها الاقتصادية من خلال ممارستها للوظائف التجارية والمالية • ومن بين المدن التى نمت وازدهرت من خلال التجارة : ميلانو ومرسيليا فى منطقة البحر المتوسط ، وبريمين وهامبورج وكولونيا فى الشمال(١) • وفى نهاية العصور الوسطى بدأت بعض العائلات تحتكر كثيراً من النشاطات الاقتصادية والسياسية فى المراكز الحضرية الهامة • وبحلول القرن الرابع عشر بدأت المدن الأوربية التجارية تسهم بشكل مباشر وقوى فى تحويل أوربا من نظام اقطاعى زراعى عتيق الى بناء حضرى مستند الى التجارة وتحقيق الربح • وما لبثت الموانى الايطالية أن انتعشت مرة أخرى باسطة نفوذها على المناطق الريفية المجاورة • أما المنافسة بين المدن الايطالية فلقد حسمتها الحروب التى لم تعرف هواده • وهكذا استطاعت فلورنسا قهر المناطق المجاورة المناوئة واستيعاب مناطق أخرى واخضاعها لسيطرتها الاقتصادية • ولقد أشار بعض الباحثين الى أن روان كانت مركزا اقتصاديا لأكثر من خمسة وثلاثين قرية ، وأن ميتز كانت تسيطر على ١٦٨ قرية مجاورة(٢) • وبرغم الأوبئة العديدة التى أصابت المدن الأوربية ، الا أن ذلك لم يؤثر على نمو سكان هذه المدن على الأقل فى المدى البعيد • ولقد أشار وليم لانجر Langer الى أن مرض الطاعون قد انتشر فى المدن الاوربية فيما بين سنتى ١٣٤٨ و ١٣٥٠ ، مما أدى الى فناء أكثر من ربع سكان أوربا(٣) • وربما شجع ذلك بعض

---

(1) Bert Hoselitz; «The Role of Cities in the Economic Growth of the Underdeveloped Countries» in Gerald Breese; ed; the City in Newly Developing Countries; Princeton University; 1972; pp. 232-245.

(2) John Mundy and Peter Reisenberg; The Medieval Town; Van Nostrand; New York; 1958; p. 35.

(3) William Langer; «The Black Death» in Scientific American's Cities; Their Origin; Growth and Human Impact; W. H. Freeman; San Francisco; 1973; p. 106.

المؤرخين على القول بأن هذا الوباء كان أعظم كارثة شهدها الجنس البشرى منذ بداية تاريخه • وقبل حلول عام ١٤٠٠ كان الطاعون سببا فى وفاة أكثر من ثلث سكان القارة الاوربية • ولقد وصلت الكارثة الى حد فناء أكثر من نصف سكان بعض المدن ، بينما وصلت هذه النسبة الى النصف فى مدن أخرى • وطبقا لبعض التقديرات انخفض عدد سكان فلورنسا من ٩٠٠٠٠ر٩٠ نسمة الى ٤٥٠٠٠ر٤٥ نسمة ، كما فقدت هامبورج حوالى ثلثى عدد سكانها بسبب هذا الوباء • واذا كان تأثير الطاعون على المدن قد اتسم بالعنف والقسوة ، فانه بالنسبة للمناطق الريفية كان قدرا محتما • لقد انهار تماما البناء الاجتماعى الريفى • أما الذين نجوا من هذا الوباء فقد اضطروا للهجرة الى المدن حتى أن الاقطاعيات قد بدت خاوية على عروشها لا تجد من يفلحها • وهكذا بدت المدن الأوربية خلال تلك الفترة وكأنها « مدن أشباح » • واذا كانت هذه المدن قد ظلت تتعرض من فترة لأخرى لوباء الطاعون حتى أواخر القرن السابع عشر ، الا أن زيادة سكانية ملحوظة قد طرأت عليها منذ بداية القرن الخامس عشر • واذا ما أردنا تلخيصا لهذا الموقف قلنا : إنه اذا كان الطاعون قد أباد السكان ، فانه قد أباد أيضا النظام الاقطاعى الأوربى ووضع له مصيره المحتم • ومنذ ذلك الحين بدأت الحضارة الغربية تكتسب خصائص جديدة لعل أهمها وأبرزها المدينة الاوربية بكل ما يتضمنه هذا التعبير من معان •

وخلال القرن السادس عشر شهدت المدن الأوربية بعامة والايطالية بخاصة ظهور طبقة غنية من النبلاء الذين أسهموا بحكم ثرائهم ونفوذهم فى النهوض بمقومات الحياة الحضرية • وكنتيجة لذلك بدأت بعض مدن النهضة الأوربية كفلورنسا تهتم بالتخطيط الحضرى على الأخص فى مجال المبانى العامة • والواقع أن الملامح الكلاسيكية للهندسة المعمارية الأوربية قد تشكلت خلال تلك الفترة سواء بالنسبة للمبانى العامة أو المساكن الخاصة • ولسنا بحاجة الى ابراز الدور الكبير الذى لعبه الفنانون الموهوبون من أمثال مايكل أنجلو Michelangelo وليوناردو دافينشى Leonardo de vinci فى تجميل المدن الأوربية والنهوض بها • فعلى سبيل المثال نجد دافيشى

يقدم اقتراحات عديدة للتخطيط الحضرى • ومن أبرز معالم هذا التخطيط الحرص على شق الشوارع المستقيمة الطويلة واقامة الميادين الواسعة(١) • واذا كان لنا أن نرمز الى النهضة الحضرية التى شهدتها أوربا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، قلنا انها قد جاءت انعكاســا لايديولوجية انسانية تميل الى تأكيد الثقافة الحضرية •

ولا نستطيع أن نغفل الاشارة الى بعض الاعتبارات السياسية التى أسهمت فى تدعيم النمو الحضرى خلال تلك الفترة • ولعل أول ما يمكن أن يقال فى هذا المجال أن المدينة قد بدأت تفرض سيطرتها الاقتصـادية والثقافية على المناطق الريفية ، لكنها (أى المدينة) قد بدأت تفقد مكانتها كوحدة سياسية مستقلة الى حد ما بسبب ظهور النزعات القومية وبزوغ الدولة بمعناها الحديث • وفى أواخر العصور الوسطى ازدادت الصـلة وثوقا بين الملوك وســكان المدن ، ذلك أن الملوك كانوا يرغبون فى تقليص سلطات النبلاء المحليين الذين كانوا مايزالون يمارسون تأثيراً سياسياً كبيراً• ولقد نجح الملوك فى كسب تأييد الشعوب بسبب الرغبة العارمة فى القضاء على النظام الاقطاعى ، مما شجعهم على خوض حروب لا نهاية لها ضـد هؤلاء النبلاء • وما أن أحرز هؤلاء الملوك انتصاراتهم على النبـلاء حتى تحولوا الى المدن القوية النفوذ لاخضاعها وضمها الى الدول الوليدة • وهكذا نجد البناء الاجتماعى فى أوربا يتسع نطاقاً ويزداد نفوذا ممهدا بذلك لظهـور « الدولة القومية » nation - state • واذا كانت المـدن القديمـة قد فقدت استقلالها السياسى ، الا أنها فى ظل الدول القومية الحديثة قد حققت مكاسب اقتصادية تفوق تلك التى كانت تحققها خلال الحقبة الاقطاعية • ومن الطبيعى أن تعمل الحكومات القومية الجـديدة على تأمين الطرق ، وتيسير نقل البضائع ، وتوسيع نطاق السوق بوجه عام ، وتوحيد العملات

---

(1) Oscar Handlin and John Burchard (eds.); The Historian and the city; Cambridge; Mass; 1963; p. 11.

النقدية ، ووضع معايير جديدة للأوزان والأحجام وكل ما يمكن أن يسهم في تدعيم السياسة القومية وتوحيد الجماعات المختلفة[١] •

ولنا أن نتوقع تغير طابع مدن العصور الوسطى بظهور الاكتشافات التكنولوجية وعلى الأخص البارود والمدافع • اذ بدأت أسوار هذه المدن تفقد وظيفتها وعلة وجودها • كما أن الأساليب الدفاعية التقليدية (كالمتاريس والحصون والخنادق) لم تعد قادرة على رد المغيرين على أعقابهم • لقد كان على المدن التى تطمح فى صد جيوش الملوك أن تحول اهتمامها من الهندسة المعمارية الداخلية والتخطيط الحضرى الى هندسة التحصين والدفاع والهجوم • وبرغم ذلك فان عدداً قليلا من التحصينات هو الذى استطاع الصمود أمام نيران المدافع • وباختصار لقد حل المدفع محل الخندق[٢] ، وبات من المحتم اعادة النظر فى الخطط الحضرية حتى تتلاءم مع الظروف السياسية الجديدة • واذا كان لنا أن نثير الشك فى وجهة نظر لويس ممفورد Mumford الذاهبة الى أن انهيار المدينة قد بدأ مع نهاية العصور الوسطى[٣] ، فان المؤكد أن مدينة القرن السابع عشر كانت تتجه نحو التدهور والانهيار • فبسبب عدم قدرة المدن على الاتساع المكانى الأفقى خارج أسوارها ، كان من المحتم أن يظهر الاتساع الرأسى بشغل كل المساحات التى تحيط بها هذه الأسوار بسبب زيادة الهجرة الريفية ــ الحضرية التى كانت نتيجة طبيعية للنمو الاقتصادى الذى بدأ يتحقق آنئذ • ولا نريد الخوض هنا فى تفاصيل الظروف الطبيعية القياسية (كالسكن والاضاءة والتهوية ••• الخ) التى كانت تعيش فى ظلها

---

(1) Wilbur R. Thompson; Urban Economic Growth and Development in a National System of cities; in Philip Hauser and Leo Schnore; (ed) op. cit; pp. 431 - 490

(٢) جمال حمدان ، جغرافية المدن ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٢٣ •

(3) Lewis Mumford; The City in History; op. cit.

الجماعات الفقيرة وما كانت تتعرض له من أوبئة وفناء جماعى[١] • ومن خلال ذلك يمكننا أن نفهم المغزى الذى كانت تشير اليه العبارة الانجليزية : « المدينة هى مقبرة الريفيين » • لقد ظلت هذه العبارة متداولة فى بريطانيا حتى أواخر القرن التاسع عشر • وتشير بعض التقديرات الى أن معـــدل الوفيات كان يفوق معدل المواليد فى لندن خلال القرن السابع عشر ، وأن الهجرة الكثيفة من الريف الى المـــدن هى التى أتاحت الفرصة لاستمرار زيادة السكان الحضريين • ولقد أوضح دورثى جورج George أن لندن فى سنة ١٨٩٠ قد شهدت انخفاضاً سكانيا ملحوظاً حتى أن عدد المواليد لم يتجاوز ثلثى عدد الوفيات[٢] •

وعلى أية حال فان النمو الحضرى كان يرتبط عموماً بزيادة الســـكان بوجه عام • وحتى منتصف القرن السابع عشر لم يكن عدد سكان العـــالم يزيد بأكثر من ٠٫٤٪ سنويا • وبقدوم القرن الثامن عشر وصـــل عـــدد سكان العالم الى ما يقرب من ٥٠٠ مليون نسمة ، أى أنه قد تضاعف مرة واحدة منذ ميلاد المسيح وحتى أواخر القرن السابع عشر • ويصف بعض الدارسين هذه التغيرات السكانية بأنها تعبير عن « تحول ديموجرافى » أو « ثورة ديموجرافية » • لقد طرأت زيادة سكانية مفاجئة خلال النصف الأخير من القرن الثامن عشر • ولم يكن مصدر هذه الزيادة ارتفاع معدلات المواليد فقط ، بل أيضاً انخفاض معدلات الوفيات • وفضـــلا عن ذلك استمرت هذه الزيادة السكانية فى الارتفاع خـــلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، مما دفع بعض الباحثين الى استخدام مصطلح « التحـــــول

---

(١) قد تعبر عن ذلك ــ ولكن بطرق مختلفة ــ كتابات بعض المفكـــرين والفلاسفة الذين ظهروا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من أمثـــال سنكلير Sinclair صاحب كتاب « وصف احصائى لاسكتلنده » ، وايدن Eden مؤلف كتاب « دولة الفقراء » ، وبوث Booth الذى أجرى دراســـة مسحية نشرها تحت عنوان « حياة وعمل سكان لندن » .

(2) Dorothy George; London Life in the Eighteenth Century; Harper Torchbooks; New York; 1964; p. 25.

الديموجرافى » للاشارة الى الانتقال من مرحلة ارتفاع معدلات المواليد (التى كان يقابلها ارتفاع فى معـــدلات الوفيات) الى مرحلة انخفاض معدلات الوفيات وصـــولا الى مرحلة انخفاض معـــدلات المواليد التى تنتهى بتحقيق نوع من التوازن النسبى بين نسب الميلاد ونسب الوفـــاة • ويمكننا تفسير انخفاض معدلات الوفيات فى ضوء التطورات التكنولوجية التى طرأت على مجال الزراعة ، والتى ساعدت ــ بالتالى ــ على ارتفاع معدلات انتاج الطعام • وبدون ذلك كان من المستحيل على المدن أن تصمد وتنمو وتزدهر[1] • ان من أكبر العقبات التى واجهتها المدن حتى بداية القرن التاسع عشر انخفاض معدلات الانتاج الزراعى ، وعـــدم وجـــود فائض من الطعام يكفى الســـكان الحضريين • وحتى نستطيع تصور أبعاد هذه القضية يكفى أن نشير الى أنه فى مطلع القرن التاســـع عشر كانت الأسرة الحضرية بحاجة الى الانتاج الزراعى الذى يحققه تسعة مزارعين ، بينمـــا يستطيـــع المزارع الأمريكى الآن تحقيق انتـــاج زراعى يكفـــى الاحتياجات الغذائية لأكثر من خمسة وأربعين شخصاً •

ولاشك أن تطور أساليب النقل قد أسهم فى تيسير عملية نقل فائض المحاصيل الزراعية من المناطق الريفية الى المـــدن • وربما كان ذلك أحـــد أسباب النمو السكانى المفاجىء الذى شهدته مدينة لندن فى مطلع القرن التاسع عشر حيث وصل عدد ســـكانها الى أكثر من ٩٠٠,٠٠٠ نسمـــة • ويشكل هذا الرقم حوالى ١١٪ من مجموع السكان فى بريطانيا خلال تلك الفترة • ومن ذلك يبدو واضحاً أنه بدون التطورات التكنولوجية فى مجال الزراعة والنقل كان من المستحيل على المـــدن الأوربية أن تحقق نمـــواً وازدهاراً خلال القرن التاسع عشر[٢] • وهناك عدد من العوامل الاجتماعية والتكنولوجية والفكرية التى لعبت دورا هاما فى زيادة معدلات التحضر فى أوربا خلال القرن التاسع عشر • من ذلك ــ مثلا ــ تحلل النظام الاقطاعى

---

(1) Frederick Hiorns; Town Building in History; op. cit.

(2) Carl Bridenbaugh; Cities in Revolt Knopf; New York; 1955.

فى مواجهة حركة التصنيع التى اتخذت من المدن موقعاً لها ، وانتشـــار أفكار الحرية والمساواة مما ساعد على تحرير كثير من أقنان القرى وانتقالهم الى المدن للعمل فى المصـــانع الجـــديدة • ففى بريطانيا ــ مثـــلا ــ كان لاكتشاف « المكوك الطائر » والآلة البخارية أكبر الأثر فى زيادة الطلب على العمال الصناعيين[1] • ومن الصعب علينا تصور نمو المدن الأوربية دون الزيادة السكانية التى تحققت خلال القرن التاسع عشر ، وتحـــرر الأقنان من ربقة النظام الاقطاعى ، ونمو المشروعات الصناعية التى حولت كثيراً من المدن الأوربية فيما بعد الى قلاع صناعية • واذا كان البعض يذهب الى أن الظروف الطبيعية القاسية التى عاش فى ظلها العمـــال الصناعيون فى أوربا قد أدت الى ارتفاع معدلات الوفيات بينهم ، الا أن الهجرة الريفية ــ الحضرية الكثيفة كانت تمثل أفضـــل تعويض عن ذلك • والواقع أن الانجاز الحضرى الأوربى خلال تلك الفترة لا يتمثل فى ظهور مدن جديدة بقدر ما يتمثل فى قدرة المناطق الحضرية على استيعاب نسبة تصل الى ١٠٪ من مجموع سكان أوربا[2] • وربما كانت هذه النقطة هى أهم ما يشير اليه تعبير « الثورة الحضرية » الذى درج علمـــاء الاجتماع المعاصرون على استخدامه • وعلى الرغم من ارتفاع النمو الاقتصادى الذى حققته بعض الدول الأوربية كبريطانيا ، الا أن ذلك لم ينعكس على مقومات الحياة فى المدن • فلقد ظلت هذه المدن تعانى من ارتفاع معدلات الوفيات ، وســـوء الظروف السكنية ، وانتشار الأمراض والأوبئة • ان قراءة روايات تشارلز ديكنز Dickens قد تزودنا بصورة دقيقة تفصيلية للحياة فى هذه المدن •

ويميل بعض الدارسين المعاصرين الى استخدام مصطلح « مـــدن ما قبـــل الصناعـــة » Pre - industrial للاشـــــارة الى الخصـــائص السياسية والاجتماعية والاقتصـــادية والثقافية التى كانت تميز المـــدن الأوربية قبل القرن التاسع عشر وكثير من المدن فى الدول النامية الآن •

---

(1) W. A. Robson; Great Cities of the World; London; 1957.

(2) John Palen; The Urban World; op. cit; p. 32.

فلقد أوضح جدعون جوبرج Sjoberg فى مؤلفه «مدينة ما قبل الصناعة»[١] بعض الملامح الهامة التى يمكن من خلالها فهم واقع هذا النمط من المدن وتصور ما يحدثه التصنيع فيها بعد ذلك • وأول ما يمكن أن يقال ان « مدن ما قبل الصناعة » تشكل مراكز أساسية للادارة الحكومية وممارسة النشاطات الدينية ، وان الأعمال التجارية لا تسهم فى تحديد طابعها • أما التخصص المهنى فهو محدود ويكاد يقتصر على انتاج السلع الضرورية باستخدام الطاقة البشرية والحيوانية • ومعنى ذلك أن تقسيم العمل يكاد يكون أوليا حيث تتألف جماعات قليلة من الصناع والحرفيين • وفى هذه المدن يخضع العمل الانتاجى للأساليب التقليدية ، كما أن الطوائف الحرفية تحول دون ظهور التجديد ، لأن ذلك قد يتعارض مع مصالحها • وتسيطر على هذه المدن اعتبارات الاكتساب لا الانجاز ، بمعنى أن يرتبط الفرد بالمهنة التى يرثها عن آبائه • ويظل هذا الفرد مقيماً فى منطقة معينة من المدينة لا يغادرها الا فى القليل النادر • أما الضبط الاجتماعى فيتحقق من خلال الجماعات الأولية لا الثانوية • اذ أن الأفراد يعرفون بعضهم البعض ويرتبطون فيما بينهم بروابط قرابة ومصاهرة قوية • وتمارس الأسرة الممتدة التقليدية تأثيراً هائلا على الأفراد بحيث لا يستطيعون الفكاك من معاييرها والتزاماتها • وهناك بعد ذلك قيم عامة مشتركة تنظم سلوك الأفراد تنظيما محددا ، بحيث لا تسمح بحدوث انتهاكها الا فى أضيق الحدود • ولا توجد طبقة وسطى واضحة لأن الناس اما فقراء أو أغنياء • كذلك تسيطر على هذه المدن اعتبارات الخصوصية لا العمومية • فالأفراد المختلفون قد يدفعون أثمانا متباينة لنفس السلع ، كما لا يتوافر نظام عام يحدد الأوزان والأحجام والمقاييس • أما الحكم على الناس فيتم فى ضوء خصائصهم الشخصية ومكاناتهم لا فى ضوء تصرفاتهم وانجازاتهم[٢] •

---

(1) Gideon Sjoberg; The Preindustrial City; Glencoe; III; 1960.

(2) Ibid; Passim.

وباختصار فان « مدن ما قبل الصناعة » كما يراها جوبرج تتميز بالعزو ascription أكثر مما تتميز بالانجـاز achievement ، وتؤكد الخصوصية Particularism أكثر مما تؤكد العمومية Universalism [(١)] •

ولا يعنينا هنا الكشف عن مدى صدق ملامح « مدن ما قبل الصناعة » كما حددها جوبرج • اذ أن هذه الملامح تشـكل ما يمكن أن نطلق عليـه « نموذجاً مثالياً » ideal type قد لا يتحقق فى الواقع كفكرة ، لكنه قد يستخدم كأداة منهجية لدراسة هذا النمط من المدن • ومن هذه الزاوية يمكننا الاستعانة بهذا النموذج المثالى فى التعرف على بعض الملامح التى كانت تميز المدن الأوربية (وغير الأوربية) فيما قبل التصنيع • ومع ذلك فاذا كانت هذه الملامح تصدق ــ الى حد ما ــ على المدن الأوربية فيما قبل التصنيع ، الا أن من الصعب تطبيقها على المدن المعاصرة فى الدول النامية ، برغم ما ذهب اليه هوراس ماينر Miner من أنه قد وجد فى أفريقيا بعض المدن ذات النمط الاقطاعى التى لم تتأثر على الاطلاق بالحيـاة الحضرية الصناعية الحديثة[(٢)] • ان من الصعب وجود مدينة معاصرة فى أية دولة نامية لم تخضع لأفكار ومؤثرات العالم الحـديث • وعلى الرغم من أن جوبرج قد بالغ فى تأكيد بعض ملامح « مدن ما قبل الصناعة » ، الا أن ذلك كان بهدف ابراز نقيض هـذه الملامح فى المدن الصناعية • وهنـاك بالاضافة الى ذلك تساؤلات عديدة لم يستطع جوبرج الاجـابة عليها • من ذلك ــ مثلا ــ أن زيادة عدد سكان « مدن ما قبل الصناعة » قد لايؤدى بالضرورة الى ضعف تأثير الجماعات الأولية وحدوث التفكك الاجتماعى • اذ تظل هذه المدن ــ برغم ذلك ــ محافظة على تكاملها أو ما أطلق عليـه

---

(١) للتعرف على مضمون هذه المفاهيم كأدوات للتحليل السوسيولوجى انظر : السيد الحسينى وآخرون ، دراسـات فى التنميـة الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٧ ، ص ص ٥٦ ــ ٦٤ •

(2) Horace Miner: The Primitve City of Timbuctoo; Doubleday (Anchor); New York; 1965.

دوركايم Durkheim « كثافتها الأخـــلاقية » • وعلى أية حـــال فان تصورات جوبرج ماتزال تحتل أهمية بالغة فى الدراسات الحضرية • ولايعود ذلك الى صدق هذه التصورات بقدر ما يعود الى ارتباطها « بمدن ما قبل الصناعة » التى ماتزال تعانى حتى الآن من ندرة الدراسات التاريخيـــة والاجتماعية •

الفصل الثانى

المدينة والحضارة : تحليل بنائى

شهد العالم الغربى خلال القرن التاسع عشر نمواً حضرياً لم يسبق له مثيل • وكان من الطبيعى أن يستجيب الفكر الاجتماعى لهذه الظاهرة فى محاولة لتحديد معالمها ونتائجها على المجتمعات الأوربية آنئذ • وعلى الرغم من أننا قد نلمس تحليلات موضوعية لنمو المدن الغربية وتأثير ذلك على الحياة الاجتماعية بوجه عام كما هو الحال بالنسبة لكتابات كارل ماركس[1] Marx وماكس فيبر[2] Weber ، الا أننا نجد ردود أفعال متباينة ازاء هذا النمو وعلاقته بالمصير البشرى بوجه عام • وربما كان النمو الحضرى المفاجىء وما صاحبه من مشكلات حادة هو الذى دفع بعض المفكرين والفلاسفة الى القاء اللوم على المدينة الغربية باعتبارها مصدراً لكثير من الشرور والأزمات • فاذا كان فولتير Voltaire قد أدان فى كتاباته المدينة الكبيرة الحجم ، فاننا نجد مونتسكيو Montesquieu يعتبرها جزءاً من النظام الاقتصادى المنتج ، بل أن وليام بليك Blake قد اعتبر لندن رمزاً للانسانية العالمية ومثالا لجنة الله على الأرض • وفى بعض الأحيان نجد المفكر الواحد يتخذ مواقف متباينة ازاء المدينة • فعلى سبيل المثال نجد فريدريك انجلز Engels فى مؤلفه « أحوال الطبقة العاملة فى انجلترا »[3] يبدى اعجابه بمدينة لندن ، ذاهبا الى أنها تمثل « عظمة انجلترا » ، لكنه ــ فى نفس الوقت ــ يؤكد استيائه من الظروف السيئة

---

(١) يمكننا التعرف على جانب من آراء ماركس فى المدينة وعلاقاتها بالريف والدور الذى لعبته البرجوازية فى النمو الحضرى فى الدول الرأسمالية فى كتابه « رأس المال » انظر :

Karl Marx; Capital; New York : Modern Library; 1954.

(2) Max Weber; The City; New York; 1958.

(3) F. Engels; The Condition of the Working Class in England: London; 1954.

التى كان يعيش فى ظلها العمال البريطانيون • ولقد ظلت محاولات ادانه أو تمجيد المدن قائمة حتى وقت قريب [١] • اذ نجد شبنجلر Spengler يعتبر المدينة الضخمة علامة من علامات انهيار الحضـــارة الغربية ، بينما نجـــد روستوف Ruestow ينظر الى المدينة بوصـــفها « قمـــة الثقافات الراقية » ، ذاهبـــا الى أن كل ثقـــافة « راقية » هى بالضرورة ثقافـــــة « حضرية » •

وفى مواجهة المواقف الفكرية العاطفية التى اتخذها بعض الفلاسفـــة والمفكرين من المدينة ، يتعين علينا هنا تقديم تحليل بنائى يتناول أبعـــاد النمو الحضرى ، وتأثير المدينة على الريف المحيط بها ، ثم الانعكاسات التى أحدثتها المدينة على المجتمع الانسانى بوجه عام • ان المدينة هى فى نهايـــة الأمر تلخيص لنضال الانسان فى مواجهة الطبيعة وما يتصل بذ لك من اخفاق ونجاح • وعلى الرغم من أن الدور الحضـــارى للمدن لم يحظ بمعالجات حديثة متعمقة ، الا أننا نجد كتابات ابن خلدون وبوترو Botero تحاول ربط المدن بمدى قوة البناء السياسى • ومعنى ذلك أن ازدهار المدن يتصل مباشرة بظهور الامبراطوريات[٢] • لكننا لا نستطيع قبول هذه العلاقـــة البسيطة بسهولة ، اذ أن هناك متغيرات وسيطة يجب أن نضعها فى الاعتبار مثل مستوى التكنولوجيا ، وطبيعة القيم الثقافية ، فضـــلا عن الكوارث الطبيعية • كذلك فاننا لا نستطيع دراسة تأثير التنظيم السياسى عـــلى نمو المدن وانهيارها دون التعرف على الأدوار التى تؤديها هـــذه المدن فى الاسهام باقامة الامبراطوريات •

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر : محمد الجوهرى ، « ظاهرة التحضر بين الادانة والتمجيد » فى : دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، دار الكتاب للتوزيع ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٩ ، ص ص ١ — ١٢ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، المرجع السابق وانظر أيضا :
Giovanni Botero; «The Greatness of Cities» (trans. by Robert Peterson); in Giovani Botero; The Reason of State and the Greatness of Cities; London; Routledge and Kegan Paul; 1956.

واذا ما تأملنا الحضـــارات الانسانية بمختلف أشكالها ومراحلها ، لاحظنا ارتباطا موجبا واضحا بين ضخامـــة الامبراطوريات وكبر حجم مدنها • ويجب أن نستثنى من ذلك الحضارات القديمـــة التى كانت فيها التكنولوجيا ماتزال بدائية كما هو الحال بالنسبة لحضارة ما بين النهرين • وبتطور التكنولوجيا أصبح بالامكان زيادة عدد سكان المدن بسبب زيادة القدرة على انتاج الطعام ونقله من المناطق الريفية الى المراكز الحضرية • واذا مـــا قارنا بين الامبراطوريات القديمة والامبراطورية الرومانيـــة ، لاحظنا ان التقدم التكنولوجى كان شرطاً ضرورياً للسيطرة التى حققتها الأخيرة (الرومانية) على المناطق التابعة لها[1] • وترتبط هـــذه المناقشة نقطة بالغة الأهمية تتعلق بالدور الذى لعبته المدينـــة فى تدعيم التنظيم الاجتماعى للامبراطوريات • ان تركز الســـكان فى منطقة محدودة نسبياً قد أتاح فرصـــة حمـــايتهم وتأمين حيـــاتهم ، وهـــو الأمـــر الـــذى لم يتوافر لسكان القرى والمناطق المنعزلة • اذ أن ســـكان هـــذه القـــرى كانوا يفتقرون الى الموارد الاقتصادية والمهارات الفنية التى تمكنهم مـــن اقامة تحصينات تحميهم من غارات سكان القرى المجاورة أو قطاع الطرق • ومعنى ذلك أن القرى القديمة لم تكن قادرة على تطوير قوة عسكرية قادرة على حمايتها • وربما دفعت هذه النقطة بعض الدارسين الى القـــول بأن أول مدينة فى التاريخ كانت مدينة عسكرية ، وأن معظم المدن فى كل العصور قد عرفت الحاجة الى الدفـــاع والحماية من أخطار الغزوات القبلية أو الأسرية أو الاقليمية حتى أن ممفورد Mumford قد ذهب الى أن المـــدن لا تفهم تاريخيا الا كأماكن للحماية ، وأن عامل المنعة والعزلة inaccessibility لا الاتصال والحركة accessibility هـــو الأســـاس فيها • والواقع أن التكنولوجيا الحربية قد أسهمت فى تغيير القيمة التكتيكية لمواقـــع المـــدن الحربية • فالأكروبول فى الوقت الحالى هدف ثمين للغارات الجـــوية أكثر منه برجا للمراقبة • وفى الميدان ورث الخندق التبة[2] • وباختصار فلقد

(1) Reissman; L; The Urban Process; London; 1964.

(٢) انظر المناقشة المتعة التى خصصها جمال حمـــدان لتناول المـــدن الحربية فى كتابه جغرافية المدن ، المرجع السابق ، ص ص ٢٢ — ٤٤ •

أتاحت فرصة التجمع فى مجتمعات كبيرة الحجم تطوير أساليب دفاعية عديدة مما كان سببا فى ظهور المراكز الحضرية المبكرة •

والواقع أن المدينة منذ فجر تاريخها قد لعبت دورا هاما فى تطوير وسائل الاتصال وتبادل السلع والخدمات بين الجماعات الاجتماعية المختلفة• ومعنى ذلك أن المدينة قد ساعدت على تكثيف النشاطات التجارية • ولقد أوضح ديكينسون Dickinson أن المدينة التجارية قد تحولت من مرحلة السوق التجارى الى مرحلة التجارة الاقليمية حتى وصلت الى مرحلة التجارة العالمية ، وأن التجارة كانت سببا فى مولد كثير من المدن الصغيرة فى أوربا[١] • ومع تقدم المواصلات الحديثة خلقت التجارة مدنا أشبه ما تكون بمستودعات جبارة توحى بأن العالم قد اجتمع فيها • ومعنى ذلك أن الفائض والحاجة والنقل قد شكلت العناصر الأساسية للدور التجارى الذى لعبته المدينة فى الحضارات المختلفة برغم اختلاف أبعاد هذا الدور باختلاف مراحل التطور الاجتماعى والاقتصادى • وفضلا عن ذلك فلقد كان لاقامة القادة السياسين والزعماء الدينيين والفلاسفة والمفكرين فى المدن أكبر الأثر فى تسهيل عملية الاتصال والاسهام فى تحديد طابع الوحدات السياسية ، مما أسهم فى تدعيم الأنظمة السياسية • على أن تدعيم الاتصال لم يكن مقصورا فقط على القادة والزعماء والمفكرين ، اذ أن طابع الاتصال الشخصى بين الأفراد العاديين قد لعب دورا هاما فى هذا المجال[٢] • ففى كثير من الأحيان كانت العلاقات الشخصية تلعب دورا هاما فى حل الخلافات وتسوية النزعات التى كانت تنشأ بين الجماعات والقبائل المختلفة • اما اذا انتقلنا الى العصر الحديث وجدنا المدن المعاصرة تسهم بدور هام فى تدعيم الاتصال بمختلف أنواعه وأنماطه • فلقد أوضحت دراسة حديثة أن مراكز وسائل الاتصال الحديثة (كالراديو والتليفزيون وآلات الطباعة والادارات الأساسية) تميل الى التركز فى قطاعات محدودة من المدن •

---

(1) Robert; Dickinson; The West European City : A Geographical Interpretation; London; 1951.

(2) Lloyd Rodwin (ed.); The Future Metropolis; New York : George Braziller; 1961.

فعلى الرغم من أن مدينة لندن أو نيويورك تأخذ بسياسة اللامركزية ، الا أننا نلمس فيها تركيزاً شديدا فى المؤسسات الصناعية والمشروعات التجارية والاجهزة الادارية ، حتى أن البعض قد ذهب الى ان حجم الحى التجارى فى مدينة نيويورك يكاد يعادل مجموع أحجام الاحياء التجاريه التى تضمها العواصم الاقليمية الامريكية الاساسيه[1] ٠

على أن المدينة الصغيرة القديمة كانت تشكل فى حد ذاتها اطاراً جيدا للاتصالات الشخصية ٠ فبسبب تخلف تكنولوجيا النقل كانت الجماعات الحاكمة بحاجة الى تدعيم هذه الاتصالات الشخصية حتى تتمكن من تحقيق أهدافها السياسية من ناحية ، والأهداف الاجتماعية من ناحية أخرى ٠ لذلك كانت الصفوة الحاكمة تفضل الاقامة فى قلب هذه المدن ، ثم تقيم حولها مجموعة من المبانى الهامة التى من خلالها تدار النشاطات الدينية والسياسية والحكومية ٠ ومن الطبيعى أن يتلاءم هذا النمط الايكولوجى مع مرحلة التطور الاجتماعى والاقتصادى التى كانت تميز هذا النمط من المدن ٠ وقريبا من المنطقة التى تعيش فيها الصفوة الحاكمة توجد منطقة أخرى تعيش فيها الجماعات السياسية والاقتصادية والدينية التى كانت تتمتع بقدر معين من النفوذ ٠ ومن هنا نستطيع ان نفهم الدور الذى كانت تلعبه المدينة (أو ان شئنا الدقة : العاصمة) فى تدعيم الحياة الاجتماعية بكل ما تتضمنه من نشاطات ونظم ٠ لقد كانت هذه العاصمة مقر اقامة الصفوة الحاكمة ، ومركز نشاط التجار وأصحاب الحرف ، ومصدر الالهام الدينى أو الروحى ٠ وباختصار كانت العاصمة تمثل « منارة حضارية » بكل ما تنطوى عليه هذه الكلمة من معان ٠

والمؤكد أن العلاقة بين الدين والمدينة علاقة قديمة وثيقة ٠ وليس أدل على ذلك من أن الدين كان عاملا أساسياً فى نشأة كثير من المدن ٠ فالمدن المصرية القديمة كانت ذات صبغة دينية ٠ وفى العصور الوسطى الأوربية

(1) Edgar Hoover and Raymond Vernon; Anatomy of a Metropolis; Cambridge : Harvard University Press; 1959.

لم تفلت مدينة تقريبا من الأصل الدينى ، بل ان الذى حفظ تقاليد المــدن لأوربا خلال هذه العصور وأعاد بناءها بعدها هى الكنيسة • وحتى الآن لايزال الأساس الدينى هو معيار التفرقة بين أحجام المــدن المختلفة فى انجلترا • ويعد الاســلام من أكثر الأديان تشجيعا لنمو المدن ، حتى أن بعض الباحثين قد ذهبوا الى أنه قد أسهم فى ظهور المدن بدرجة أكبر من المسيحية • لقد تحول اسم « يثرب » بعد الاسلام الى « المدينة » ، وهو اسم علم واسم نوع معاً • وكان المسجد أول أساس يقام فى « المدينة » الاسلامية الجديدة • ومن كل هذا نجد أن المدينة مدينة للدين بأصولها فى فى كثير من الأحيان ، وأن الشيوخ والأنبياء ــ وليس فقط الملوك والحكام ــ هم من نتاج المدن(١) • واذا كانت المدن القديمة قد شكلت مركزا دينيا هاما ، فانها قد شكلت ــ فى نفس الوقت ــ مركزا ثقافيا أساسيا(٢) • إذ كانت الصفــوة الحاكمــة تستقطب الفنانين البارزين وتلحقهم بالحاشية الملكية • وبمرور الوقت أصبحت الاقامة فى العاصمة رمزاً للمكانة العالية • وتوحى لنا الدراسات التاريخية بأن عظمة الامبراطوريات تكاد تتلخص فى عظمة عواصمها • فلقد كانت روما عصب الامبراطورية الرومانية تماما كما كانت بيكين شريان الملكيات المختلفة • ولسنا بحاجة الى توضيح الــدور الذى لعبته لندن بالنسبة للامبراطورية البريطانية ، على الرغم مــن أن العواصم الحديثة لم تعد تلعب الدور المهيمن الذى كانت تلعبه العواصم القديمة(٣) • واذا كانت التغيرات العــالمية الجــديدة قد حدت من الــدور السياسى الهائل الذى كانت تلعبه العواصم ، الا أن وسائل الاتصال الحديثة قد حولت العالم مرة أخرى ليصبح أشبه ما يكون « بقرية كبيرة » ، وان كنا مانزال نشهد وجود « عواصم علياً » supercapitals تتعدى حدود دولها السياسية كما هو الحال بالنسبة لمدينتى واشنطن وموسكو •

---

(١) جمال حمدان ، جغرافية المدن ، المرجع السابق ، ص ١٩٧٦ •

(2) Ralph Turner; The Great Cutural Traditions; Vol. I; The Ancient Cities; especially Chaps. 3-4; 6; 9-10; New York; 1941.

(3) Ernest Bergel; Urban Sociology; McGraw - Hill Book Company; New York; 1955. Chap. 8.

وهناك خلاف واضح بين بعض علماء الاجتماع حـول النشأة الريفية أو الحضرية للجماعات الحاكمة فى المدن القديمة • ويبدو أن مصدر هذا الخلاف يعود الى الدور الذى لعبه كبار ملاك الأرض فى بعض المجتمعات كالصين القديمة • وعلى الرغم من أن كبار الملاك كانوا يرتبطون ارتباطا قويـا بالأرض الزراعية ، الا أنهم كانوا يتخذون من المدينة مقراً لهم • والواقـع أن هذه المجتمعات القديمة لم تكن تعرف الفصـل الواضح بين احتكـار السلطات المختلفة (السياسية والدينية والاقتصادية) • ومن خلال دراسة الدور الذى لعبته المدن فى تدعيم الامبراطوريات والدول ، يمكننا تفسـير تأثير البناء السياسى على النمو الحضرى • لقد كانت المـدن تمثل أعظم الوسائل التى مكنت التنظيم السياسى التقليدى من تدعيم قـوته وفرض نفوذه • كذلك فان المدن لا تستطيع ــ بدورها ــ البقاء دون دعم حقيقى من النظام السياسى ، اذ أنها لا تعدو أن تكون نسقا فرعيا يحصـل على الطعام والمواد الخام من المناطق الريفية • ولا يمكن ان يتحقق ذلك الا اذا استطاعت الحكومة المركزية التوصل الى صيغة متطورة تمكنها من الحصـول على الفائض الاقتصادى من المناطق الزراعية ، وأساليب متعددة ومتنوعة تبـدأ من التأثير الايديولوجى على الفلاحين حتى اللجـوء الى القـوة والعنف[1] • وفى كثير من الأحيان كانت الصفوة الحاكمة تلجأ الى حل هذه المعضلة بتملك واحتكار الأرض الزراعية والاستعانة بالاقنان فى فلاحتها حتى تضمن وصول الفائض الاقتصادى الى المدن • ومن هنا تبدو العلاقة المبكرة الواضحة بين الملكية الزراعية والسلطة السياسية • أما تأمين خطوط المواصلات والنقل فكان أمرا مصيريا بالنسبة لهـذه الكيانات السياسية ، كما كان تأثيره بالنسبة لنمو المدن هائلا • واذا كانت الصفـوة السياسية قد جنت الفوائد المباشرة من ذلك ، فان المدينة قد اكتسبت فى نفس الوقت مزيدا من الدعم والقوة والقدرة على الاستمرار وبسط نفوذها على المناطق

---

(1) Gideon Sjoberg; The Rise and Fall of Cities : A Theoretical Perspective.; in Gerald Breese; The City in Newly Developing Countries; Princeton University Press; 1972; pp. 219-231.

الريفية • والملاحظ ان النمو الحضرى قد حقق أقصى درجـات ازدهاره بزيادة الاستقرار السياسى وتأمين خطوط المواصلات وطرق التجـارة • وربما فسر لنا ذلك الاسهام الذى قدمته التجارة للنمو الحضرى • ان أعظم التجمعات البشرية هى بلاشك ما يرتبط بالتجارة • والمدينة التجارية تجذب اليها النشاطات المتعددة كالحربية أحيانا ، وكالادارية غالبا ، وكالصناعية أخيرا • والواقع أن المدينة التجارية تستند الى اعتبارات جغرافية هامـة لانها تمثل نقطة تقاطع على طريق حركة • وليس أدل على ذلك من الذبذبات التى لحقت بالبحر المتوسط والمحيط الأطلسى منذ كشف طريق رأس الرجاء وما أدى اليه ذلك من ذبذبات أصابت المدن التجارية الداخلية كمـا أصابت الموانى التجارية • ومع ذلك كله فان من الصعب تصور نمو المدن التجارية دون وجود سلطة سياسية قوية • فاذا كان الفينيقيون قد استطاعوا اقامة موانى تجارية فى البحـر المتوسط ، فان ذلك لم يكن ليتم دون وجـود أسطول بحرى قوى قادر على حمايتها • ومثل هذا يقال عن اليونان قديما وايطاليا خلال العصور الوسطى ، حيث تمكنتا بفضل أسطولهما البحرى من فرض سيطرتهما التجارية على موانى البحر المتوسط • وهناك شواهـد تاريخية عديدة تشير الى أن البندقية قد حققت ازدهارها التجـارى بعـد انتصارات عسكرية أحرزتها ، وأن انتعاش بعض المدن الايطالية مثل جنوه وبيسا خلال القرنين العاشر والحادى عشر قد ارتبط بسيطرة هاتين المدينتين على سردينيا وتورسيكا وبعض المناطق الجنوبية[1] •

والواقع أن السلطة السياسية والقوة العسكرية لم يؤديا الى نمـو التجارة وبالتالى ظهور المدن فى العالم القديم فقط ، بل اننا نلمس هـذه الظاهرة فى عصور أحدث • فبفضل القوة العسكرية تمكنت الامبراطوريتان الأسبانية والبريطانية من اقامة مراكز تجارية هامـة • واذا كانت بعض هذه المراكز مثل سنغافورة وهونج كونج قد نمتا وازدهرتا ، فان ذلك قد

(1) Henri Pirenne; Medieval Cities : Their Origins and the Revival of Trade; Princeton; N. J; 1950.

تم بفضل حماية الاسطول البريطانى لهما • ولنا أن نتوقع بعد ذلك وجـود صلة قوية بين اتساع الاقاليم التى تسيطر عليها الدولـة وتنوع الموارد والمصادر الطبيعية[١] • والنتيجة الطبيعية لذلك هى نمـو المدن والمراكز الحضرية بوجه عام • فبدون السيطرة التى حققتها اليونان القديمـة على مناطق عديدة من العالم ، كان من المستحيل على هذه الدولة القليلة الموارد أن تشهد نموا حضريا مبكرا على نحو ما رأينا فى موضع سابق • ومانزال نلمس حتى الآن هذه الصلة القوية ، اذ كيف نستطيع تفسـير النمـو الصناعى الحضرى الذى شهدته كل من انجلترا واليابان برغم ندرة مواردهما الطبيعية • واذا كان لنا أن نفسر بعض المواقف المعاصرة كأزمة الطاقة ، فاننا نستطيع تفسيرها بشكل أفضـل اذا مـا أخذنا فى الاعتبار علاقات القوة التى تربط بين الدول النامية المنتجة المصدرة للبترول والدول الصناعية المستهلكة له • بعبارة أخرى فان البناء الصناعى ــ الحضرى العالمى قـد أصبح الآن يدين فى وجوده وقدرته على النمو والازدهار لعوامل خارجية برغم قدرته على التأثير فى هذه العوامل بحكم قدراته التفاوضية •

واذا كانت المدينة تدين بالكثير للدين والسياسة والتجارة فى نمـوها وازدهارها ، الا أن دينها للصناعة أفدح ، خاصة اذا ما أخذنا فى اعتبارنا الثورة الصناعية وما أحدثته من تحولات اجتماعية • وعلى الرغم من أن الصناعة البدائية التى كانت قائمة خلال العصور الوسطى لم تخلق مدناً صناعية قائمة بذاتها كما فعلت التجارة بالنسبة للمدن التجارية ، الا أن تغلغل الصناعة فى الحضارة الحديثة قد خلق مدنا متخصصة تبدأ بالتخصص فى انتاج المواد الخام حتى التخصص فى تصنيع سلعة انتاجية واحدة• وهناك أمثلة عديدة توضـح هـذا التخصص الانتـاجى الحضرى • فديترويت عرفت بصناعة السيارات ، وبوسطن بصناعـة الأحـذية ، ويوركشـير بالصوفيات ، ولانكشير بالقطنيات • ومثل هذا يمكن أن يقال عن كثير من مدن العالم • واذا ما قارنا بين عدد السكان الحضريين فيما قبل الثـورة الصناعية وبعدها فى مختلف أنحاء العالم ، لاحظنا على الفور الى أى مدى

(1) R. Dickinson; The West European City; op. cit.

لعبت الصناعة دورا هائلا فى نمو المـــدن • فقبل الثورة الصناعية لم تكن نسبة سكان المدن فى الدول الاوربية تزيد عن ١٠٪ من مجمــوع سكانها ، بينما تصل الآن فى بعض هذه الدول الى ٨٠٪[١] • وعلى الرغم من أن بعض المؤرخين قد بالغوا بعض الشىء فى عدد سكان المدن القديمة كما هو الحال بالنسبة لروما فى العصر الوسيط وبعض المدن الصينية القديمــة ، الا أن الكتابات الحديثة تؤكد أن أكبر مدن العالم لم تصل فى أى وقت من الاوقات الى مليون نسمة فيما قبل الثورة الصناعية •

وفضلا عما سبق لعبت المدينة ــ وماتزال ــ دورا كبيرا فى نقــل الثقافية الحضرية الى المناطق الريفية• إذ يكشف تاريخ آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية عن ارتباط قوى بين المدن واتســاع نطاق النظام السياسى[٢] • واذا كانت المدينة عند نشأتها تشغل حيزا مكانيا محدودا ، الا أن ثقافتها سرعان ما تنتقل الى بقية المناطق • وأحد الأسباب القوية التى يمكن أن تفسر لنا ذلك أن المدينة خلال تاريخها قد تمتعت بقدرات تنظيمية ومعارف فنية لم تتوافر للمناطق الريفية • كما أن انتقال العناصر الثقافية الحضرية الى مختلف الاقاليم كان من الامور الضرورية لتدعيم النظام السياسى • ويوضح لنا التاريخ الاستعمارى كيف أن القوى الأجنبية كانت تستعين بالمدن القائمة فى المستعمرات من أجل تدعيم نفوذها السياسى ، بل ان بعض المدن فى الدول النامية يدين فى وجوده للقواعد العسكرية التى أقامتها القوى الاستعمارية فى هذه الدول • وربما استشهدنا على ذلك بالمدن الساحلية (وعلى الأخص الافريقية) التى أقامها الاستعمار فى بعض المستعمرات • اذ كانت هذه المدن بمثابة قنوات للاتصال بالعالم الخارجى والتجــارة فى بعض السلع الكمالية • ولقد أوضح جيرالد بريز Breese أن المــدن فى

---

(1) Emrys Jones; Towns and Cities; Oxford University Press; 1970; pp. 13-37.

(2) R. S. Lopez; «The Crossroads within the Wall» in O. Handlin and J. Burchard (eds.); The Historian and The City; Cambridge; Mass; 1963.

الدول النامية قد أدت ـــ ومازال ـــ دورا حضاريا هاما • ففيها ترســم السياسات وتوضع البرامج التى تحدد سيطرة أو نفوذ التنظيم السياسى الحضرى على بقية أنحاء البلاد[١] • ومع ذلك فلقد عمل الاستعمار الأوربى الحــديث على وأد العواصم الوطنية الداخلية ليعيد توجيه الاقاليم الى مصالحه البحرية فظهرت كلكتا محل دلهى ، وقديما نقل الاغريق والرومان العاصمة من منطقة القاهرة الداخلية الى الاسكندرية الساحلية فى مصر . ومن منطقة دمشق الى انطاكية فى الشــام • وخلال الحقبة الاستعمارية كان الساحل هو دائما المنطقة الحرجة فى الاحتكاك حيث تقع عليــه معظم العواصم كالجزائر وتونس والرباط وداكار وسايجون • وعلى الرغم من الأهمية التى لعبها الموقع فى تحديد أهمية المــدن القديمة ، الا أن العامل التاريخى يفسر لنا أيضا ما وصلت اليه بعض المــدن من نمــو وازدهار برغم عدم تمتعها بموقع جغرافى متميز[٢] • هنا تبدو المدن وكأنها خــير تعبير عن روح الدولة • فمن خلال المجــد الأدبى والتاريخى تستمد بعض المدن استقرارا وقوة اندفاع تصلان بها الى مرتبة العواصم •

وهناك شواهد تاريخية توضح كيف أن انتقال الحياة الحضرية الى بقية الاقاليم قد أسهم فى ظهور نهضة حضارية عامة • فخلال فترات حكم بعض الملكيات الصينية القديمة انتشرت أساليب الحياة الحضرية الى المناطق الجنوبية والغربية والشمالية من الصين • كمــا أن امبراطورية الموريــا Maurya فى الهند قد أسهمت فى ظهــور بعض المدن فى المناطق الريفية الجنوبية وسيلان • وخلال فترة لاحقة عمل الرومان على نشر أســاليب الحياة الحضرية فى كثير من مناطق أوربا وعلى الأخص فرنســا وبريطانيا وجنوب ألمانيا والنمســا وأجزاء من البلقان • بل إن الرومان قد أحيــوا

---

(١) جيرالد بريز ، مجتمع المدينة فى البلاد النامية ، دراسة فى علم الاجتماع الحضرى ، ترجمة محمد الجوهرى ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٩٣ •

(2) Harold Mayer; «A Survey of Urban Geography; in Philip Hauser and Leo Schnore; (ed); The Study of Urbanizatiin; op. cit; pp. 81-114,

بعض المــدن فى شمال افريقيا والشرق الأوسط • ويمكننا الاشــارة هنا أيضا الى الدور الــذى لعبته الامبراطورية الاسبانية فى ظهور كثير من المدن فى أمريكا الجنوبية خلال الفترة الاستعمارية ، مما أدى بعد ذلك الى نشأة مدن عديدة فى أمريكا الوسطى • وينطبق ذلك أيضا على الامبراطورية البريطانية التى أقامت كثيرا من المدن الهامة فى المستعمرات الافريقيــة أمثال جوهانسبيرج وكيب تاون وليوبولد فيل واليزابيث فيل[1] • وعــلى الرغم من أن هذا النمط الأخير من المــدن يمثل حالة خاصــة بسبب غلبه الطابع الأوربى عليه والــدور الاستعمارى التسلطى الذى يمارسه على المناطق الريفية ، الا أنه قد أسهم ــ ولو بطريق غير مباشر ــ فى ظهــور مدن وطنية أفريقية عديدة ، مما دفع بعض الباحثين الى القول بأن هناك « نمطاً حضرياً أفريقيا مميزا »[2] •

ولا نستطيع فهم الدور الحضارى الذى لعبته المدينة خــلال تاريخها دون تبنى منظور بنائى يمكننا من فهم العلاقات البنائية بينها وبين الريف • وتتخذ هــذه العلاقات أنماطا متعددة[3] • فهناك العلاقات الادارية التى من خلالها تلعب المدينة دورا اداريا هاما بالنسبة للريف • وبقــدر حجم المدينة ونفوذها بقــدر مــا تتمتع بــه من مكانة ادارية بالنسبة للمناطق الريفية المحيطة بها • واذا ما تناولنا العلاقات الثقافية وجدنا المدينة بالنسبة لاقليمها الريفى تمثل المدرسة والمعهد والجامعة • بل اننا قد نستطيع القول بأن ثمة علاقة موجبة قوية بين حجم المدينة ومستوى التعليم • فالمــدن الكبرى هى موطن الجامعات • والمدينة بعد ذلك هى المسرح والسينمــا والملهى والنادى وكل ما يتصل بالخدمات الثقافية الحضرية • وهى (أى

---

(1) P. C. Lloyd; Africa in Social Change; Penguin Books; Baltimore; 1967; pp. 100-112.

(2) K. Little; West African Urbanization; London : Cambridge University Press; 1965; p. 30.

(3) David Glass; The Town in a Changing Civilization; London; John Lane; 1953.

المدينة) موطن الصحافة ومصدر التوجيه الفكرى للريف المجاور • أى أنها المركز الثقافى للصفوة المفكرة ، ونواة الرأى العام ؛ وأداة التوحيد الفكرى، حتى ذهب بعض الدارسين الى أن المدينة هى « ينبوع الرأى والفكر » • واذا كانت المدينة فى الغرب معمل الحضارة الحديثة ، فهى فى الشرق موطن وبؤرة هذا الاحتكاك ومركز الانتشار الحضارى • أما العلاقات السكانية بين المدينة والريف فتتميز بطابع خاص • فالمدينة استمدت سكانها دائمـا من الريف الذى كان ولايزال يمثل « بذرة الأمة ومشتلها » • واذا كانت مدن العصر الصناعى تدين فى نشأتها للهجرة الريفية ، فان استمرارهـا وتزايدها يدين لها أكثر وأكثر • وبهذا المعنى فان القرية لا تزود المدينـة بالطعام فقط ، ولكن بالانسان أيضا • وعلى الرغم من اختلاف وجهات النظر فيما يتعلق بنتائج الهجرة من القرية الى المدينة ، الا أننا نعتقد أن حسـم هذا الاختلاف يتوقف على نوعية المهاجرين وأعدادهم ، ثم تأثير ذلك على كل منهما • واذا كانت المدن قد لعبت دورا حضاريا خلال تاريخها ، فان هذا الدور لم يكن ليتحقق دون ظهير ريفى قـوى •

ويمكننا التعرف على طبيعة العلاقات الاقتصادية بين المدينـة والقرية اذا ما تناولنا التفاعل الاقتصادى بينهما • ان الريف ـ كما يقول شابو ـ هو « مطعم المدينة الفسيح » ، وهو بهذا المعنى مصدر التغذية والتموين • وخلال السنوات الأخيرة أبدى بعض الدارسين اهتماما بما يمكن أن نطلق عليه « زراعات المدن » أو « زراعات الضواحى » التى تهدف أساسا الى اشباع الحاجات الغذائية الحضرية • ومن الطبيعى أن يؤثر ذلك على بعض المتغيرات الوسيطة • فنمو المدن يؤدى فى كثير من الأحيان الى ارتفاع أسعار الأراضى الزراعية المجاورة لها • لذلك فان أسعار الأرض تقل كما ابتعدنا عن المدينة مع تساوى الجودة ، كما أن كثافة الانتاج الزراعى تقل مـع سعر الأرض كلما ابتعدنا عن المدينة • بل ان هذه العلاقة الايكولوجيـة تحدد أيضا نوعية المحاصيل • فقريبا من المـدن تزرع المحاصيل العالية القيمة السريعة التلف • أمـا المحاصيل الثقيلة القليلة القيمة التى تعيش

طويلا فيقذف بها بعيدا عن المدينة[١] • ولقد أوضح بعض الباحثين أن كل المـدن الكبرى والصغرى محاطة بسـوار من فلاحة البساتين والفواكه والخضروات والزهور وذلك لارتفاع أسعار الأرض وقصر عمـر هـذه المحاصيل ووفرة السوق المباشرة • ولاشك أن التجارة تشكل أحد مظاهر التفاعل الاقتصادى بين المدينة والقرية ، ان لم تكن أهمها على الاطلاق • فالدور التجارى للمدينة يجعلها أداة التكامل الاقليمى ، اذ أنهـا تضـم أسـواقاً عديدة ترتبط مباشرة بمصـالح الفلاحين كأسـواق التجزئـة والحيوانات[٢] • ولقد أوضحنا فى موضع سابق كيف أن المدينة عبر تاريخها قد أسهمت فى نمو التجارة وتطور وسائل الاتصال ، مما كان له الأثر الأكبر فى تحديد مجريات التطور الاجتماعى والاقتصادى •

وخلال السنوات الأخيرة شهد علم الاجتماع اهتماما كبيرا بدراسـة العلاقـة بين التحضر (أى زيـادة نسبة السـكان الحضريين) والنمـو الاقتصادى • ولا يعنينا هنا استعراض الكتابات المختلفة التى تناولت هذه القضية ، بقدر ما يعنينا التعرف على الدور (التاريخى والمعاصر) الـذى لعبته المدن فى تحقيق التقدم الاقتصادى والتغير الثقافى • وحينمـا يناقش علماء الاجتماع والاقتصاد التنمية الاقتصادية يبدو التصنيع أحد الوسائل الأساسية لتحقيقها ، مما يؤدى بدوره الى زيادة معدلات التحضر سـواء بارتفاع عدد سكان المدن القائمة أو بانشاء مدن جديدة[٣] • ومع أن بعض الدارسين يميلون الى تأكيد العلاقة بين التصنيع والتحضر ، الا أننا نجـد تجاهلا كبيرا للعوامل المؤدية الى ارتفاع نسبة التحضر فضلا عن العوامل الاقتصادية والسياسية والأخلاقية والاجتماعية التى تسهم فى نمو المـدن • وفى كل الأحوال فان من الصعب حسم قضية العلاقة بين التصنيع والتحضر على الأقل من وجهة النظر التاريخية • فاذا كان التصنيع قـد لعب دورا

---

(١) جمال حمدان ، جغرافية المدن ، المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

(2) Ernest Bergel; Urban Sociology; op. cit; 145 ff.

(3) Bert F. Hoselitz; «The Role of Cities in the Economic Growth of Underdeveloped Countries»; in Gerald Breese (ed); The City in Newly Developing Countries; op. cit; pp. 232 ff.

معينا فى ظهور كثير من المدن ثم نموها فيما بعد ، الا أن كل المـــدن التى شهدها التاريخ لم تنشأ ولم تزدهر بفضل الصناعة • فالمدن القديمة ــ كما سبق أن أشرنا ــ نشأت فى الأصل كمراكز ادارية ودينية وتعليمية • ومن خلال هذه النشاطات اكتسبت هذه المراكز الحضرية أهميتها التاريخية التى لم تكن لتتحقق لها من خلال الزيادة السكانية فقط • واذا كانت نســبة ضئيلة من السكان قد عاشت فى المدن القديمة ، الا أنها كانت تضم الصفوة الفكرية المؤثرة القادرة على تشكيل الحياة الاجتماعية الحضرية بمختلف جوانبها • والواقع أن معظم الكتابات التى تناولت هذه القضايا قد اعتمدت على خبرات التصنيع التى شهدتها الدول الأوربية منذ الثورة الصناعية ، وبالتالى يصعب تطبيقها على الـــدول النامية الآن بسبب اختلاف الظروف التى مرت بها كل منها[1] • ولتوضيح وجهة نظرنا يتعين علينا مناقشـــة الاطار التاريخى للعلاقة بين التحضر والنمو الاقتصادى ، اذ أن ذلك يعيننا على فهم أدق للدور الحضارى الذى لعبته المدن •

من الحقائق المألوفة أن النمو الاقتصادى الذى شهدته أوربا منــذ بدايات القرن الحادى عشر قد ارتبط بنمو المراكز الحضرية وزيادة أعداد سكانها • ولقد وصـــل النمو الاقتصادى ذروته فى أواخـــر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر • غير أن هذه المراكز الحضرية ما لبثت أن فقدت أهميتها ووزنها الحضارى بسبب غزوات البرابرة وسيطرة العرب على تجارة البحـــر المتوسط • ومن خلال هـــذه التطورات نشـــأت مراكز حضرية جديدة على طول بحر الشمال ، ثم حققت بعد ذلك قدرا ملحوظا من الازدهـــار[2] • وبرغم ذلك كله فان المـــدن الأوربية لم تلعب دورا

---

(١) السيد الحسينى ، « اتجاهات علم الاجتماع فى فهم مشكلات الدول النامية » فى : السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٧ ، ص ٧٢ وما بعدها .

(2) Alfons Dopsch; The Economic and Social Foundations of European Civilization; London; 1954; pp. 303-357.

اقتصاديا هاما حتى بدايات القرن الخامس عشر ، بل ان أكبر انجازاتها تكاد تنحصر فى المجالات السياسية والتعليمية والادارية • ففى بريطانيا — مثلا — انفصلت الوظائف السياسية عن الوظائف التعليمية للمدن كما يتمثل ذلك فى استقلال كل من كمبردج وأكسفورد عن وستمنستر [١] • وهناك عدد قليل من المدن الأوربية استطاع خلال تلك الفترة الجمع بين الوظائف التعليمية والسياسية كما هو الحال بالنسبة لبعض المدن الألمانية ، وان كنا نستطيع تفسير ذلك فى ضوء التطورات السياسية التى حدثت خلال تلك الحقبة •

والواقع أن الدور الاقتصادى الحقيقى الذى لعبته المدن الأوربية لم يتضح الا خلال العصور الوسطى • وتكاد تنحصر هذه المدن فى منطقتى البحر المتوسط وبحر الشمال • ولقد بدأت هذه المدن فى ارساء دعائمها الاقتصادية حتى كادت أن تغطى على أدوارها السياسية والتعليمية والدينية • على اننا يجب ألا نبالغ فى عدد المراكز الحضرية التجارية والمالية التى نشأت خلال العصور الوسطى ، كما يجب علينا ألا نبالغ فى أعداد سكانها • فلم تكن كولونيا أو فرانكفورت بأكثر من قرية صغيرة لاتضم أكثر من خمسة آلاف نسمة • ويكاد ينطبق ذلك على معظم المدن الأوربية خلال تلك الفترة • ويمكننا التمييز بين نوعين أساسيين من المراكز الحضرية التى ظهرت خلال العصور الوسطى • الأول يضم المراكز التجارية والمالية، والثانى يشتمل على المراكز الصناعية • وفى هذين النوعين من المراكز الحضرية عاشت البرجوازية التجارية وتكونت البيوت المالية التى ازدادت حجما فيما بعد • ومن أمثلة هذه المراكز الحضرية : جنوة وميلانو ومرسيليا وبرشلونة فى منطقة البحر المتوسط ، وهامبورج وبريمين وكولونيا وانتويرب فى منطقة شمال جبال الألب • وهناك عدد من السمات العامة المشتركة التى تميز هذه المراكز الحضرية • من ذلك خضوعها لسيطرة جماعات صغيرة

---

(1) Ibid; p. 312.

من التجار الأثرياء والعائلات المالية[١] • أما البناء الاجتماعى أو الطبقى المميز لهذه المراكز الحضرية فيتألف من ثلاث فئات أساسية : الأسر الغنية التى تشكل الصفـوة السياسية ، والحرفيون ومساعدوهم الذين ينتمون الى طوائف حرفية ويعيشون فى مستوى اقتصادى متوسط ، وأخيراً الفقراء والخدم والمهاجرون الجدد من الريف الذين كانوا يقومون بأعمال مؤقتة غير منتظمة • والملاحظ أن أفراد الفئة الأخيرة لم يشـكلوا طبقة عاملـة متجانسة نسبيا الا بحـدوث الثورة الصناعية وذلك خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر • أما المراكز الحضرية الصناعية التى ظهرت خـلال العصور الوسطى فقد كانت أكبر حجماً • ففى شمال ألمانيا نجـد بعض المراكز الحضرية المبكرة التى تخصصت فى صناعات النسيج والتعدين وبناء السفن • ومن الطبيعى أن تحتاج هذه المراكز الى أعداد كبيرة من العمـال اذا ما قورنت بالمراكز الحضرية التجارية أو المالية • وكنتيجة لذلك ازدادت الهجرة اليها من المناطق الريفية المجاورة • ولعل ذلك يوضح لنـا الـدور الحضارى الذى لعبته المدينة بالنسبة للاقليم الذى وجدت فيه [٢] • واذا كان بعض الدارسين والمؤرخين قد أكدوا أن العمال الصناعيين الذين كانوا يعملون فى هذه المراكز الحضرية المبكرة لم يشـكلوا « طبقة اجتماعية » بالمعنى الحديث لهذا المفهوم ، الا أننا نستطيع القول بأنهم (أى العمال) قد اكتسبوا بحكم اقامتهم الحضرية تصورات سياسية واضحة لم تكن متاحة لقرنائهم الريفيين •

وعلى الرغم من وضوح الطابع الاقتصادى لكثير من مدن العصـور الوسطى ، الا أن ذلك يجب ألا يجعلنا نتجاهل الأدوار السياسية والثقافية والفكرية التى كانت تؤديها • فمن خلال هذه المدن تطورت الأساليب الادارية الجديدة ، ونمت المؤسسات التعليمية ، وبدأت العلوم والفلسفات تتخـذ

---

(1) Sylvia Thrupp; The Merchant Class of Medieval London; Chicago; 1948; Chap. IV.

(2) P. Halmos; P.; (ed); The Development of Industrial Societies; Sociological Review Monograph; No. 8. 1964.

مساراً مختلفاً • وفوق كل ذلك كانت هذه المدن تضم الصفوة المتعلمة التى كان لها أكبر الأثر فى ظهور العلمانية كحركة فكرية تستهدف الفصــل بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية • واذا ما استخدمنا تصوراتنا البنائية قلنا، إن هذه المدن قد بدأت تستكمل معالمها بظهور « روح اقتصادية » جديدة على نحو ما يذهب ماكس فيبر[1] • ولم تقتصر هذه الروح الاقتصادية على زيادة النشاط التجارى والصناعى والمــالى ، بل تعدت ذلك الى المجــال البنائى ، خاصة اذا ما أخذنا فى اعتبارنا الجماعات الجديدة التى بدأت تتكون خلال تلك الفترة وعلى الأخص جمــاعات العمــال والحرفيين • ولم يكن ليتحقق ذلك كله دون ظهور « ثقافة حضرية » تتضمن عناصر مســاوقة ومساندة للتغيرات البنائية • ولعل ذلك يوضح لنا الى أى مــدى يكشف التحليل البنائى ــ التاريخى عن تنوع المواقف التى من خلالها تلعب المدينة أدوارها الحضارية • فاذا كانت مدن العصور الوسطى قد أسهمت فى تطور التكنولوجيا ونمو التصنيع وتكون الطبقات العاملة ، فان المــدن الحــديثة تؤدى الآن دورها الحضارى من خلال تخصصها الشديد فى انتاج سلعة معينة أو جزء محدود منها كما هو الحال بالنسبة لمدن الاتحاد السوفيتى خلال العقدين الماضيين ، حتى أننا أصبحنا نجد مدنا متخصصة فى صناعة جزء واحد من أجزاء السيارة •

هذا وقد اهتم بعض العلماء الاجتماعيين بدراسة وتقويم الدور الذى لعبته المدن فى تحقيق النمو الاقتصادى داخل المجتمعات الأوربية خــلال فترة الثورة الصناعية وما صاحبها من نمــو حضرى • ويمكننا الاستشهاد هنا بوجهتى نظر متعارضتين • أما وجهة النظر الأولى فقد قدمها ماركس Marx فى كتابه « رأس المال » حيث يقول : « إن التاريخ الاقتصــادى الشامل للمجتمع يمكن تلخيصه فى حركة الفصــل بين المدينة والريف»[2] • أما وجهة النظر الثانية فقد عبر عنها أحد منتقدى ماركس وهو روستوفتزيف

---

(1) Max Weber; The Protestant Ethic and Spirit of Capitalism; translated by Talcott Parsons; New York; 1948.

(2) Karl Marx; Capital; Vol. I; op. cit; p. 387.

M. I. Rostovtzeff حيث يقول : « يتصور البعض أن هناك مشكلة تنجم عن وجود تباين بين السكان الريفيين والسكان الحضريين • ولست أنكر وجود هذا التباين ، لكنى أنكر وجود عداوة بين الريف والمدينة • واذا كانت بعض المجتمعات تشهد تفاوتاً بين كل من الحياة الريفية والحضرية ، فان هنـــاك مجتمعـــات أخرى فى أوربا الغربية والولايات المتحـــدة لا تعرف هـــذا التفاوت »[١] • ومن الواضح أن ماركس ورستوفتزيف قد اهتما بابراز اختلاف طابع التنظيم الاقتصادى فى كل من المدينة والريف ؛ حيث نجدهما يبرزان بعض الجوانب الهامة التى تتميز بها الحيـــاة الحضرية ـــ دون الريفية ـــ كنمو المصانع ، وزيادة حجم الطبقة العاملة ، وتبلور الطبقـــة البرجوازية الرأسمالية ، فضلا عن وجود الصـــفوة الفكرية التى تمارس تأثيراً ثقافياً هائلا • ولعل ذلك يوضح لنا أنه برغم اختلاف وجهات نظـــر هذين الرجلين ، الا أنهما قد نظرا الى المدينـــة نظرة بنائية تتكامل فيهـــا العناصر الاقتصـــادية والسياسية والاجتماعية والثقافية • بل اننا نجـــد ماركس الذى يعد من أبرز ناقدى المجتمع الرأســـمالى الحضرى يبـــدى تقديره فى مواضع مختلفة من كتاباته للدور الذى لعبته البرجوازية الحضرية فى نشأة الرأسمالية الغربية ، على الرغم من أنها (أى البرجوازية) قـــد أسهمت ـــ كما يقول ـــ فى وضع النهاية المحتملة للمجتمع الرأسمالى[٢] •

وتدفعنا الاعتبارات السابقة الى مناقشة تاريخية للعلاقة بين التصنيع والتحضر ، خاصة وأن مثل هذه العلاقة تكشف عن أبعاد الـــدور الحضارى الذى لعبته المدن خلال تاريخها • فبقدر ما يرتبط التصنيع بالتحضر بقدر ما تتشكل الحياة الحضرية بوصفها أسلوباً للحياة اذا ما استخدمنا تعبير لويس ويرث Wirth[٣] • فلقد ذهب جيرالد بريز Breese الى أن كلا من

---

(1) Michael Rostovtzeff; «Cities in the Ancient World»; in Richard T. Ely (ed.); Urban Land Economics (Ann Arbor; 1952); p. 18.

(٢) السيد الحسينى ، علم الاجتماع السياسى : المفاهيم والقضايا ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ ، الفصل الخامس .

(3) Louis Wirth; «Urbanism as a Way of Life»; in P. Hatt and A. Reiss (eds); Cities and Society; Free Press; 1957.

التصنيع والتحضر قد يحدث مستقلا دون ارتباط بينهما ، وان كان استمرار التنميه الاقتصادية قد يؤدى — فى وقت لاحق — الى الارتباط الواضح بينهما[١] • أما لامبارد Lampard فقد أوضح أن المدن الكبرى قد لاتتطلب وجود اقتصاد متطور ، لكن استمرار النمو الاقتصادى قد يدفع الى وجود مدن مختلفة الأحجام[٢] • ومن الواضح أن النمو الحضرى قد يحدث دون تصنيع مقابل ، بينما يصعب حدوث التصنيع دون نمو حضرى مواز • ومن الشواهد التاريخية المألوفة أن التصنيع قد حدث بعد أن وصل معدل التحضر الى مستوى معين ، لكنهما ما لبثا أن حققا قدراً من التوازن بينهما وعلى الأخص فى الدول الغربية • ولقدعكف ولبرت مور Moore على دراسة النتائج أو الآثار الثقافية التى أحدثتها الثورة الصناعية — الحضرية فى الدول الغربية • ومن بين هذه النتائج أن التصنيع قد فرض وجود معايير تنظم العمل وتؤكد أهمية الحرية الفردية والتجريب • وهذا يعنى نمو الاستعداد لتقبل الأفكار الجديدة ، واكتشاف المهارات المستحدثة والمخاطرة بالتخصص فى مجال مهنى محدود ، والدخول فى تنظيمات صناعية تتصف بالعلاقات الرسمية المبكرة • كذلك ذهب مور الى أن التصنيع فى الدول الغربية قد تطلب وجود نظام متطور للتبادل الاقتصادى يستند الى العلاقات التجارية اللاشخصية سواء فى مجال السلع أو الخدمات • وفضلا عن ذلك يتطلب التصنيع قدراً من الاستقرار السياسى يتيح مزيداً من فرص الاستثمار وحشد رؤوس الأموال وتوفير الحماية لها • كذلك فان التصنيع يحتاج الى تشجيع من قبل الدولة دون أن تتدخل فى سياسته الا بالقدر الذى يحقق الصالح العام [٣] • ومن الواضح أن تصورات مور تكاد تصدق فقط على تجربة التصنيع فى العالم الغربى • وربما كان ذلك أحد جوانب قصورها • فاذا ما تأملنا تجارب التصنيع فى الاتحاد السوفيتى واليابان وجدنا واقعاً

---

(١) جيرالد بريز ، مجتمع المدينة فى البلاد النامية ، المرجع السابق .

(2) E. Lampard; «The History of Cities in Economically Advanced Areas»; Economic Development and Culture Change; Vol. 3; 1955; p. 82.

(3) Wilbert Moore: The Impact of Industry; Prentice - Hall; 1965; Chap. 3;4.

مختلفاً ممـــا يوحى بصعوبة التسليم بوجـــود منطق صناعى عالمى [1] ٠
ان تعدد وتنوع الدعائم الثقافية للمجتمعات الصناعية المعاصرة يوضح لنا كيف يمكن ان يتم التصنيع ويزداد التحضر فى ظل انساق ثقافية متباينة ٠ ولقد أوضح ريزمان Reissman كيف أن القومية كأيديولوجية قـــد لعبت دوراً هاماً فى نضال كثير من شعوب العالم الثالث من أجل الحصول على الاستقلال ووضع خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية التى كان التصنيع (ونمو المدن) أحد أبعادها[2] ٠ وقد يكون حســم هــذه القضايا أمــراً ممكنا اذا ما تناولنا تجارب وخبرات التصنيع فى كل من الدول المتقدمـــة والنامية على السواء ، وهو ما سنخصص له الفصل التالى بأكمله ٠

---

(1) Barrington Moore Jr; The Social Origin of Dictatorship and Democracy; Allen Lane; The Penguin Press; London; 1966.

2) L. Reissman; The Urban Process; 1964; pp. 180-188.

الفصل الثالث

المدينة والبناء الاجتماعى : دراسة مقارنة

انطلقت مناقشاتنا السابقة فى دراسة نشأة المدينة من تصورات تاريخية واسعة مكنتنا من فهم الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية التى أسهمت فى نمو المدينة وتنوع الأدوار التى أدتها خلال الفترات التاريخية المختلفة • وفى هذا الفصل نحاول مناقشة العلاقة بين المدينة والبناء الاجتماعى من منطلق أكثر تحديداً يستند الى تحليل هذه العلاقة تحليلا نوعياً • واذا كنا قد توقفنا فى الفصلين السابقين عند دراسة المدن التى صاحبت الثورة الصناعية ، فاننا نتناول فى هذا الفصل المدن الصناعية التى نمت وتطورت واكتسبت طابعها المميز خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، وهى المدن التى يشيع وجودها فى الدول المتقدمة (وعلى الأخص دول أوربا الغربية وأمريكا الشمالية واليابان والاتحاد السوفييتى فضلا عن دول أوربا الشرقية) • ومن الصعب فهم هذه المدن الصناعية دون التعرف على الملامح الأساسية التى تميز المدن فى الدول النامية التى توجد فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية • ان المقارنة بين هذين النوعين من المدن تتيح لنا فرصة الفهم الواسع العميق لعلاقة ظاهرة التحضر بالبناء الاجتماعى • وعلى الرغم من أن الدراسات المقارنة بين المدن المختلفة التى تنتمى الى ثقافات متباينة ماتزال محدودة للغاية ، فان المحاولة التى نقدمها فى هذا الفصل قد تعد خطوة من أجل كسر الحواجز العنصرية والجغرافية المفروضة على علم الاجتماع المعاصر •

واذا ما تأملنا التراث المعاصر فى علم الاجتماع الحضرى ، لاحظنا اهتماما بالمشكلات الحضرية التفصيلية دون محاولة فهم هذه المشكلات فى ضوء البناء الاجتماعى من ناحية ، ثم علاقة هذه المدن بالمجتمع من ناحية أخرى• وأعتقد أن مثل هذا الاهتمام لا يشجع كثيراً على تقدم علم الاجتماع

الحضرى . ان المدن ليست أنساقاً مغلقة بقدر ما هي في حالة تفاعل مستمر مع الريف المحيط بها والنظام السياسي الذي توجد في ظله . بل اننا نذهب الى حد القول بأن من الصعب فهم ما يدور في مدينة صغيرة في دولة نامية دون التعرف على طبيعة النظام العالمى[١] . وبسبب ميل بعض علماء الاجتماع الى التركيز على المشكلات المحدودة ، باتوا يعتقدون أن أى تحليل بنائى واسع النطاق قد يؤدى في نهاية الأمر الى الابتعاد عن الواقع الاجتماعى . هم اذن يريدون مزيداً من التحليل وقليلاً من التركيب[٢] . وأعتقد أن الخطوة الأولى لاقامة فهم عالمى شامل لظاهرة التحضر تكمن في تدعيم الدراسات المقارنة ، وتطوير الأساليب المنهجية ، ثم النظر الى هذه الظواهر في سياقها البنائى — الثقافى[٣] . وقبل أن نشرع في تقديم تحليلنا المقارن يتعين علينا الاشارة الى بعض الملاحظات الأولية . وأول هذه الملاحظات يتعلق بمفهوم « التكنولوجيا » . فعند مناقشة دور التكنولوجيا في المدينة ، فاننا لا نقصد فقط مجرد تطور الأساليب الانتاجية ، بل نقصد أيضا كل ضروب المعرفة المنظمة التى تؤدى الى التخصص وتقسيم العمل . أما ثانى هذه الملاحظات فتتصل بالأبعاد الثقافية التى تميز المدن . اذ أن ابرازنا لهذه الأبعاد لا يعنى اغفالاً للظروف الانتاجية والمادية المرتبطة بها . أما الملاحظة الثالثة فتتعلق بالظروف السياسية المرتبطة بالظواهر الحضرية . ذلك ان توضيح هذه الظروف هو شرط ضرورى لفهم ديناميات التحضر والايديولوجيات المختلفة المرتبطة به[٤] . وفي ضوء هذه الملاحظات

---

(١) السيد الحسينى ، « العالم الثالث : تنمية ام تبعية » في : السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٧ ، ص ١٦٤ .

(2) Norwood Hanson; Patterns of Discovery: [illegible] : Cambridge University Press; 1958.

(٣) جدعون جوبرج ، « علم الاجتماع الحضرى المقارن » ، ترجمة السيد الحسينى فى : محمد الجوهرى وآخرون ، دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ص ١٣ — ٤٨ .

(4) Clark Kerr etal; Industrialism and Industrial Man; Cambridge University Press; 1960.

يمكننا البدء فى تناول المدينة والبناء الاجتماعى فى كل من الدول المتقدمة والنامية •

أولا ــ المدينة والبناء الاجتماعى فى الدول المتقدمة :

على الرغم من ندرة الدراسات المقارنة التى تتناول المدن فى الدول الصناعية ، الا أن الشواهد المتاحة لدينا تؤكد أن عدداً كبيراً منها (أى المدن) يرتبط بالمشروعات التجارية والصناعية أكثر من ارتباطه بالوظائف الدينية والحكومية • وربما استثنينا من ذلك بعض العواصم العالمية الهامة• وفى هذه المدن نجد تخصصاً واضحاً فى استخدام الأرض ، كما نلمس انفصالا واضحا بين مكان الاقامة ومكان العمل • وربما كان نمو الضواحى فى المدن الغربية أوضح مثال يعبر عن ذلك • أما الطبقتان العليا والوسطى فتميلان الى الاقامة خارج المدينة، تاركة قلبها للمشروعات التجارية والأجهزة الادارية[1] • ويختلف هذا النمط عما نجده فى مدن الدول النامية حيث لاتزال الاقامة فى وسط المدينة رمزاً للمكانة الاجتماعية • ويبدو أن التقاليد الاقطاعية التى سادت المدن الأوربية خلال العصور الوسطى قد جعلت من الاقامة فى وسط المدينة رمزاً للمكانة العالية ، بينما لاتجد ذلك فى المدن الأمريكية التى لم تعرف هذه التقاليد الاقطاعية ، مما كان سبباً فى نمو الضواحى الأمريكية • ومن الطبيعى أن تلعب السيارة دوراً هاماً فى هذا المجال • لقد اختزلت المكان وخلقت بذاتها ثقافة محددة المعالم[2] • وما أن تنشأ الضاحية حتى تجذب كثيراً من السلع والخدمات الضرورية ثم تتحول فى النهاية الى منطقة تجارية •

وعلى الرغم من أن بعض الدارسين قد أشاروا الى أن البناء الطبقى فى مدن الدول المتقدمة يتسم بالمرونة الشديدة مما حال دون ظهور نمط

(1) Leo F. Schnore; The Urban Scene; Free Press; New Yorh; 1965; Chap. 16.

(2) Leo F. Schnore; «The Socio - Economic Status of Cities and Suburbs;» American Sociological Review : 28 : 76-85; February; 1963.

ايكولوجى محدد ، الا أننا نجد بعضاً آخر يؤكد وجود « جزر حضرية » منعزلة داخل المدن الغربية الكبرى • ويستشهد هؤلاء الدارسون بأحياء الزنوج والصينيين والمكسيكيين فى المدن الأمريكية[1] • واذا ما قبلنا وجهة النظر الذاهبة الى أن مرونة البناء الطبقى فى المدن الغربية يحـول دون العزلة الحضرية ، فاننا لا نستطيع التسليم بأن هذا الواقع سـوف يظل قائماً • فمن خلال معدلات الحراك الاجتماعى العالية التى تتميز بها الدول الغربية يمكن القول بأن البناء الطبقى الحضرى يظل فى حالة تغير دون أن يعنى ذلك اختفاء النظرة الى الاحيـاء الحضرية كرمز من رمـوز المكانة الاجتماعية • وعلى الرغم من أن الدراسات الحديثة قد أوضحت مدى تنوع واختلاف المدن فى الدول المتقدمة ، الا أنها قد أكدت وجوه شبه عديدة • من ذلك ـــ مثلا ـــ أن الاتجاه نحو الضواحى قد حول قلب المدينة الى منطقة تجارية وادارية كثيفة ، وأن ذلك قد أتاح الفرصـة لمزيد من العـلاقات الشخصية بين المديرين وأصحاب المشروعات ، حتى بدا قلب المدينة وكأنه « قلعة تجارية ادارية »[2] • وفى ضوء هذه النقطة يمكننا فهم أسباب هروب المشروعات الصناعية الى أطراف المدن • أما أنماط استغلال الأرض فى المدن الغربية فتتوقف على اعتبارات عديدة من بينها : حجم هذه المدن ، وعدد سكانها ، وكثافة النشاطات التجارية والادارية فيها ، وطبيعة بنائها الطبقى، وموقعها الجغرافى ، وعلاقاتها بالمدن القريبة منها •

وعلى الرغم من اهتمام علماء الاجتماع بدراسـة البناء الطبقى فى المدن الصناعية ، الا أننا نجد اختلافاً ملحوظاً بينهم فيما يتعلق بأبعـاد هذه البناء • وبامكاننا تفسير هذا الموقف اذا ما علمنا أن علماء الاجتمـاع فى دراستهم للطبقة الاجتماعية ينطلقون من تصورات متباينة ان لم تكن

---

(1) St Clair Drake and Horace R. Clayton; Black Metropolis; Harcourt · Brace; New Yrok; 1945.

(2) Edgar Hoover and Raymond Vernon; Anatomy of a Metropolis; Cambridge: Harvard University Press; 1959.

متعارضة[1] • فالذين يتبنون التصور الماركسى يميلون الى ابراز التباين الطبقى فى المدن الصناعية الغربية ، بينما نجد الذين ينطلقون من التصور البرجوازى يؤكدون المرونة التى ينطوى عليها البناء الطبقى فى المدن حتى ولو كانت هناك تفاوتات طبقية واسعة قائمة بالفعل • ويمكننا أن نلمس هذا الاختلاف بين علماء الاجتماع فى تحليلاتهم للبناء الطبقى فى مدن الاتحاد السوفييتى • ويزداد هذا الاختلاف شدة اذا ما تناولت هذه التحليلات البناءات الطبقية الحضرية فى مجتمعات متباينة وفترات زمنية متباعدة[2] • ويمكننا ان نضيف الى ذلك خصائص المدن الغربية ذاتها • فهى تتضمن قوى تعمل على تأكيد الجمود الطبقى ، كما تتضمن فى نفس الوقت قوى معاكسة تسهم فى احداث مرونة طبقية • ولقد وأضح فوراستيه Fourastie أن الفقراء فى مدن الدول المتقدمة لا يعانون من الفقر معاناة شديدة ، كما أن الصفوة الحضرية ليست بعيدة تماماً عن الرجل العادى وذلك بفضل وسائل الاعلام المتطورة[3] • أما فيما يتعلق بالأقليات العنصرية التى تعيش فى المدن الغربية فان موقفها ينطوى على ازدواجية واضحة : فهى من ناحية مضطرة للحفاظ على ذاتيتها وهويتها حتى تتمكن من تشكيل قوة اجتماعية مؤثرة ، لكنها من ناحية أخرى مضطرة للتخلى عن قيمها التقليدية واكتساب قيم حضرية جديدة كالانجاز والكفاءة •

وتميل الدراسات السوسيولوجية المعاصرة الى الاعتماد على المهنة

---

(١) السيد الحسينى ، علم الاجتماع السياسى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٠ . الفصل الأول بعنوان : « الطبقة والنظام السياسى » ، ص ص ١٧ — ١٨ . وانظر أيضا ت . ب . بوتومور ، الطبقات فى المجتمع الحديث ، ترجمة محمد الجوهرى وآخرون ، دار الكتب الجامعية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

(2) Alex Inkeles and Raymond A. Bauer; The Soviet Citizen; Cambridge : Harvard University Press; 1956.

(3) Jean Fourastié; The Causes of Wealth; trans and ed. by Theodore Caplow; New York : Free Press of Glencoe; 1960.

فى قياس كثير من التحولات الطبقية فى المدن الصناعية[1] • وكنتيجة لذلك نجد معظم هذه الدراسات تؤكد وجود معدلات عالية للحراك المهنى (أو الاجتماعى) فى المدن الصناعية الكبرى ، وذلك على العكس من مدن الدول النامية • كذلك تشير هذه الدراسات الى أن الحراك الاجتماعى فى المـدن الصناعية يتخذ شكل الانتقال من المهن اليدوية الى المهن غير اليدوية [٢] • ومن خلال الحراك الاجتماعى الصاعد فى المدن الصناعية يلتحق الأفراد بالمهن الجديدة المرتبطة بالتقدم التكنولوجى • وفضلا عن ذلك فان الجماعات المهنية ككل تحاول تحقيق مزيد من الهيبة والقـوة والنفوذ • وعلى الرغم من كثرة الدراسات التى تناولت الحراك الاجتماعى فى المـدن الصناعية ، الا أن هناك قضايا عديدة ماتزال بحاجة الى البحث والدراسة • من ذلك تأثير « ثورة الالكترونات » على العمالة الحضرية بمختلف أشكالها ، والدور الذى تلعبه المهن الجديدة فى احداث تغييرات اجتماعية وسياسية ، والصراع بين المهن القديمة والمهن الجديدة • وعلى الرغم من قلة الدراسات المقارنة التى تتناول البناءات المهنية فى المدن الصناعية ، الا أن هناك شواهد تشير الى وجود وجوه شبه بينها فى هذا المجال • فلقد أوضح إنكلـز Inkeles وروسى Rossi أن المدن الصناعية فى الدول المتقدمة تتميز بخاصية مشتركة هى وجود جماعات كبيرة من الموظفين الحكوميين وأصحاب المهن الفنيـة العليا (كالأطباء والمحامين والمدرسين) تحتل مكانة متميزة داخل البنـاء الطبقى الحضرى ، وأن سكان هذه المدن يشتركون فى نظرتهم وتقويماتهم للمهن المختلفة والهيبة المتفاوتة المرتبطة بها[٣] • بيد أننى أعتقد أن هـذه الخاصية لا تكاد تميز المدن فى الدول المتقدمة وحدها ، اذ أننا نجد فى مدن الدول النامية بناءات حضرية تحتل فيها المهن الفنية العليا مكانة متميزة •

---

(١) السيد الحسينى ، « معنى الحراك المهنى : تقـويم امبيريقى » ، المجلة الاجتماعية القومية ، مايو ، ١٩٦٩ •

(2) Seymour Lipset and Reinhard Bendix; Social Mobility in Industrial Society; Berkeley : University of Colifornia Press; 1959.

(3) Alex Inkeles and Peter Rossi; «National Comparisons of Occupational Prestige»; A. J. S; 61; 1956; pp. 329-339.

ان هذه الخاصية لا ترتبط بالتقدم والتخلف بقدر ماترتبط بحجم المــدن وتنوع نشاطاتها التجارية والصناعية والسياسية والادارية والثقافية •

واذا ما تناولنا بعد القوة أو السلطة بوصفه أحــد أبعــاد الطبقة الاجتماعية فى المدن الصناعية ، لاحظنا أن تخصص الأدوار المهنية قــد أحدث تأثيراً ملحوظاً على السيطرة التى تمارسها الصفوة الحاكمــة سواء على المستوى المحلى أو القومى • فلم يعد صانع القرار السياسى يعتمــد أعتمادا كاملا على قدراته ومواهبه الشخصية • إذ أنه بحاجة مستمرة الى أجهزة متخصصة تزوده بالمعطيات والبيانات الضرورية لاتخــاذ القرارات الرشيدة• وربما كان ذلك أحد الأسباب الأساسية التى مكنت «المتخصصين» و « الفنيين » من اكتساب قوة سياسية هائلة فى المــدن الصناعية الكبيرة ، حتى أن الزعماء السياسيين لم يفلتوا من الخضوع لهــذه القــوة برغم ما يتمتعون به من سلطات واسعة • ويبدو أن القوة السياسية التى يتمتع بها هــؤلاء « المتخصصون » و « الفنيون » تحظى بقبــول معظم أفراد المجتمعات الصناعية • ويحاول بعض الدارسين تفسير البناء الصناعى — الحضرى فى الدول المتقدمة فى ضوء فكرة تقسيم العمل ، متأثرين فى ذلك بنظرية إميل دوركايم Durkheim • فاذا كان المجتمع الصناعى يساعد على اتساع نطاق تقسيم العمل والتخصص ، فان ذلك من شــأنه الحــد من التفاوتات الطبقية والتقليص من السلطة التى تتمتع بها الصفوة الحاكمة • وكلما زادت العمليات التخصصية التى يقــوم بها الفنيون ، أصبح مــن الضرورى على المديرين التنسيق بين هذه العمليات[1] • وربما كان ذلك أحد الأسباب التى دفعت بعض علماء الاجتماع الى القول بأن المجتمع الصناعى الحديث قد شجع على ظهور « صفوة ادارية » محتكرة[2] • وعلى الرغم

---

(١) السيد الحسينى ، « مقدمة الترجمة العربية » فى ت . ب بوتومور ، الصفوة والمجتمع ، دراسة فى علم الاجتماع السياسى ، ترجمة محمد الجوهرى وآخرون ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٨ •

(2) C. Wright Mills; The Power Elite; New York : Oxford University Press; 1956.

من وفرة الدراسات الحديثة التى تناولت الصفوات السياسية فى المجتمعات الصناعية ــ الحضرية ، الا أن الاهتمام بخصائص هذه الصفوات مايزال محدودا للغاية[١] • وللوهلة الأولى ينجذب بعض علماء الاجتماع السياسى لاغراء مقارنة الصفوة السياسية فى كل من الدول الصناعية والدول النامية، حيث يذهبون الى أن الأولى تعتمد على الجدارة والاستحقاق ، بينما تستند الثانية الى التقاليد والعرف والحقوق المطلقة • والواقع أن من الصعب التسليم بهذه القضية • اذ أن الدول النامية تعرف زعامات وطنية حققت أوضاعها بفضل جهودها الشخصية وتبنيها للمبادىء الوطنية[٢] •

والواقع أن دراسة البناء الطبقى فى الدول الصناعية لم تكن حكرا على علماء الاجتماع • فخلال أربعينيات هذا القرن أبدى بعض الأنثروبولوجين اهتماما كبيرا بدراسة الطبقات الاجتماعية الحضرية • ومن أقدم الدراسات فى هذا المجال تلك التى أجراها روبرت وهيلن ليند Lynds على مدينة صغيرة تقع فى الوسط الغربى من الولايات المتحدة • فلقد تناول الباحثان الحياة الاجتماعية السائدة فى هذه المدينة ودرسا مختلف جوانبها مثل كيفية الحصول على الدخل ، وأساليب الحياة المنزلية ، وطرق الممارسات الدينية ، وأنماط الترويح ، والعلاقات بالأجهزة والمؤسسات الادارية • واستنادا الى هذه الجوانب قسم الباحثان سكان المدينة الى طبقتين أساسيتين : الأولى طبقة رجال الأعمال ، والثانية الطبقة العاملة ، حيث تؤدى كل منهما وظائف أساسية مختلفة الى حد ما[٣] • وفى دراسة

---

(١) السيد الحسينى ، « الدولة فى المجتمع الرأسمالى : تحليل نقدى » . دراسة حول كتاب رالف ميلباند ، المجلد الاجتماعية القومية ، ١٩٧٣ ص ص ٩٥ ــ ١٠١ •

(٢) السيد الحسينى ، « اتجاهات علم الاجتماع فى فهم مشكلات الدول النامية » فى السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٧ ص ٦٠ •

(3) Michael Aiken and Paul E. Mott; The Structure of Community Power; Random House; New York; 1970.

لاحقة تناول فيها الباحثان تأثير هذه المدينة بظروف الكساد الاقتصادى فى أوائل الثلاثينيات ، أوضحا الى أى مدى لعب البناء الطبقى وعلاقات القوة الاقتصادية والسياسـية دوراً هاماً فى مواجهـة الظروف الاقتصـادية القاسية •

وربما كانت دراسات لويد وارنر Warner عن البناء الطبقى للمـدن الأمريكية من أبرز الدراسات الحضرية الشاملة برغم الانتقادات المريرة التى تعرضت لها • فلقد درس وارنر ثلاث مدن أمريكية صغيرة الحجم ، إعتقد أنها ممثلة للنمط الشائع للمدن الأمريكية • ومن خلال اسـتخدامه لمعايير ذاتية وموضوعية فى قياس الطبقات الاجتماعية [1] ، توصـل الى تحديد الطبقات الاجتماعية الأسـاسية فى هـذه المدن التى أطلق عليها : العليا ـ العليا upper - upper ، والعليا ـ الدنيـا Lower - upper والوسطى ـ العليا upper - middle ، والوسطى ـ الدنيا Lower - middle والدنيا ـ العليا upper - lower ، وأخيراً الدنيا ـ الدنيا Lower - Lower [2] • وتمثل الطبقة العليا ـ العليا أرستقراطية الميلاد والثروة ، حيث تتألف من الأسر القديمة التى ورثت ثروتها وأسـلوب حياتها عـبر أجيال عديدة • ويميل أفراد هـذه الطبقة الى الزواج الداخلى ، ومن ثم يرتبطون فيما بينهم بروابط قرابة ومصاهرة قوية • وبالاضافة الى ذلك فان أفراد هذه الطبقة على قدر كبير من المهارة فى أداء ضروب مختلفة من

---

(١) تم ذلك من خـلال أداتين : الأولى هى المشاركة المقومة evaluated participation التى من خلالها يمكن التعرف على تقويمات الأفـراد لمكانات بعضهم البعض ، والثانيـة هى دليل خصـائص المكانـة index of status characteristics التى تضم مجموعة من المؤشرات الموضوعية كالمهنة ومصـدر الدخل ونمط المسكن والمنطقة السكنية • انظر
W. Lloyd Warner; (ed.); Yankee City; Yale University Press; New Haven; Conn; 1963.

(٢) السـيد الحسينى ، « عرض وجيز لأهم اسهامات لويد وارنر فى دراسـة التدرج الاجتماعى » ، المجلة الاجتماعية القومية ، العـدد الثالث ، ١٩٦٦ ، ص ص ٩١ ـ ١١١ •

السلوك الطقوسى وقواعد السلوك المعقدة • أما الطبقة العليا ــ الدنيا فتشبه الطبقة العليا ــ العليا فى كثير من الوجوه • فأفراد كلتيهما يقيمون فى مساكن كبيرة فخمة ، ويشاركون فى الهيئات والحياة الاجتماعية غير الرسمية ، ويعملون فى مهن متماثلة كالمهن المالية والصناعية والوظائف الكبرى • ويكمن الاختلاف الأساسى بينهما فى أن أفراد الطبقة العليا ــ الدنيا يفتقدون عراقة الأصل والنسب • وعلى الرغم من أن أفراد هذه الطبقة يمتلكون ثروة أكبر ومساكن أفخم وسيارات أفخر وسلع مادية أخرى أغلى ثمنا اذا ما قورنوا بأفراد الطبقة العليا ــ العليا ، الا أنهم يشعرون أن هذه الثروة حديثة جداً لأن النجاح المهنى كان سبباً فى الحصول عليها •

أما الطبقة الوسطى ــ العليا فتتألف من كبار رجال الأعمال وأصحاب المهن الفنية العليا • ويتمتع أفراد هذه الطبقة بمكانة عالية من وجهة نظر سكان المدينة • وعلى الرغم من أنهم يعيشون فى مساكن متميزة فى أفضل مناطق المدينة ، الا أن متوسط دخولهم أقل من متوسط دخول أفراد الطبقتين العليين • أما أفراد الطبقة الوسطى ــ الدنيا فهم دائما من صغار رجال الأعمال والموظفين الكتابيين وبعض العمال المهرة • وتقع مساكنهم الصغيرة « النظيفة » فى الشوارع الجانبية من المدينة ، كما أنهم حريصون على أموالهم ويميلون الى الادخار • أما الطبقة الدنيا ــ العليا فتتألف من العمال شبه المهرة والصناع وعمال الخدمة الى جانب عدد قليل من صغار التجار •ويعيش أفراد هذه الطبقة فى الأحياء المختلفة من المدينة ، كما أن متوسط دخولهم أقل من متوسط دخول أفراد الطبقات الأعلى • وأخيراً نجد الطبقة الدنيا ــ الدنيا تتألف من العمال شبه المهرة وغير المهرة • ويعيش أفراد هذه الطبقة فى أكثر أحياء المدينة تخلفا ، كما أنهم ــ من وجهة نظر بقية سكان المدينة ــ يتصفون بانعدام القيم الأخلاقية •

ومنذ أن نشرت دراسات ورانر وهى تتعرض لانتقادات عنيفة فى مواجهة دفاع عنيد عنها • ولعل أهم وأوضح هذه الانتقادات هو ما يتعلق بالبناء الطبقى للمدن التى درسها • فلقد زعم وارنر أن ما توصل اليه فى

هذا المجال يمكن أن ينطبق على المدن الأمريكية بوجه عام • بيد أن المــدن التى درســها كانت صغيرة الحجم بحيث يصعب معه تعميم نتائجها على المدن الأمريكية العملاقة • اذ أن هذه المدن الأخيرة تتسم بقدر كبير مــن التباين والانعزال ، مما قد يصعب معه استخــدام المنهج الأنثروبولوجى الذى يكاد يقتصر على دراسة المجتمعات المحلية الصغيرة[1] • لذلك فان أدعاء وارنر بأن مدينة « اليانكى سيتى » التى درسها تمثل معملا لدراسة أمريكا « هو ادعاء يجهل السمات الأساسية التى تميز الحياة القومية من تخصص اقليمى وتباين محلى وحراك اجتماعى ، وهى سمات لا توجــد على مستوى المجتمع المحلى »[2] • كذلك انتقد بعض الدارسين وارنر لأنه لم يقدم وصفا شاملا لبناء المكانة كما يوجد فى المدينــة الصغيرة ، اذ أن الوصف الذى قدمه كان مقصورا على نظرة أفراد الطبقتين الوسطى والعليا الى بناء المكانة[3] •وفضلا عن ذلك انتقد رايت ميلز Mills دراسات وارنر لخلوها من البعد التاريخى • اذ أنها لم توضح التحولات التى طرأت على البناء الطبقى الحضرى عبر الزمان ، ممــا كان سببا فى تجــاهل وارنر للحركات الاجتماعية المرتبطة بالايديولوجيات ، تلك الحركات التى تسعى الى تغيير البناء الطبقى[4] • ولقــد قدم وارنر عــددا من الردود عــلى الانتقادات التى وجهت اليه ضمنها أحدث مؤلفاته « الحياة الأمريكية » • ومن بين ما قاله فى هذا المجال : « إن دراسة المدن الصغيرة تزودنا بجانب من جوانب البناء الاجتماعى المركب للحياة الأمريكية • كما أن مثل هــذه الدراسة تشكل نواة لدراسة الحياة الاقتصادية والسياسية التى تميز المدن الأمريكية الكبرى • وسواء اعتبرنا دفاع وارنر محــاولة لتقريب شــقة

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٦ •

(2) Paul Hatt; «Stratification in the Mass Society»; American Sociological Review; 1950; pp. 100-112.

(3) N. Gordon; Social Class in American Society; Durham; Duke University Press; 1958.

(4) C. Wright Mills; «Review of Lloyd Warner and Paul S. Lunt; The Social Life of a Modern Community»; American Sociological Review; Vol. VII; 1942; pp. 30-45.

الخلاف بين وجهة نظره ووجهات نظر منتقدية ، أو أنها تسعى الى اعادة الاهتمام بالقضايا مصدر الخلاف ، فانها ستظل ذات أهمية كبيرة عند دراسة موضوع شائك كموضوع البناء الطبقى فى المدن الصناعية •

واذا ما انتقلنا الى الأسرة فى المدن الصناعية ، لاحظنا اجماعا بين علماء الاجتماع على شيوع الأسرة الزواجية أو « النووية » فى مقابل الأسرة الممتدة الكبيرة الحجم التى تشيع فى المدن التقليدية • ولقد حققت الأسرة النووية أقصى درجات الشيوع والانتشار فى المدن الأمريكية ، ثم ما لبثت أن أصبحت النمط الأسرى السائد فى كل من مدن بريطانيا وألمانيا وفرنسا والاتحاد السوفييتى واليابان • ويذهب بعض علماء الاجتماع الى أن الأسرة النووية الشائعة فى المدن الصناعية تتلاءم — الى حد كبير — مع متطلبات الحراك الاجتماعى والحرية التى أصبحت تتمتع بها المرأة الغربية عموما • بل ان هذه المدن قد أصبحت تشهد ما يمكن أن نطلق عليه « ثقافة الشباب » ، بمعنى وجود قيم ومعتقدات تميزهم عن بقية الجماعات العمرية الأخرى • اذ أن ارتفاع مستويات المعيشة فى هذه المدن قد حرر هؤلاء الشباب من الالتزام الشديد بضرورة العمل من أجل مساعدة عائلاتهم وذلك على عكس ما هو سائد فى مدن الدول النامية(١) • ونظرا لاعتماد البناء المهنى فى الدول المتقدمة على المهارات الفنية المتخصصة ، فان صغار السن لا يستطيعون العمل بسهولة كما يفعل قرناؤهم فى المدن التقليدية • ولسنا بحاجة بعد ذلك الى توضيح الحرية التى تتمتع بها الفتى أو الفتاة فى اختيار قرينته أو قرينها ، اذ أن ذلك يعد من الامور الشخصية التى لاتخضع للالتزامات الجماعية على نحو ما هو شائع فى مدن الدول النامية(٢) •

وفى مدن الدول المتقدمة حققت المرأة مكانة اجتماعية عالية نسبيا اذا

---

(1) Elizabeth Bott; Family and Social Network; London : Tavistock Publications; 1957.

(٢) السيد الحسينى وجهينه العيسى ، « المعايير والقيم المرتبطة بالزواج لدى الشباب القطرى » ، حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية ، جامعة قطر ، العدد الثالث ، ١٩٨١ ، ص ص ٣٩ — ٦٦ •

ما قورنت بتلك التى حققتها المرأة فى مدن الدول النامية • ويبـــدو ذلك واضحا من خلال عدد من المؤشرات الهامة من بينها نسبة النساء العاملات فى المهن المختلفة ، والتمتع بالحريات الشخصية[١] • وربما كانت « حركات تحرر المرأة » أوضح دليل على ما نذهب اليه • ومع أن المرأة فى مدن الدول الصناعية قد غزت معظم المجالات المهنية ، الا أنها ما تزال تفضل العمــل فى بعض المجالات دون البعض الآخر ، مما يشير الى أن المجالات المهنيــة فى هذه المدن لاتخلو من تأثير « الأنوثة » و « الذكورة » عليهــا • واذا ما عدنا مرة أخـــرى الى تفسير انتشـــار الأسرة النووية فى مـــدن الدول الصناعية ، وجدنا علماء الاجتماع يؤكدون مدى ملاءمة هذا النمط الأسرى للحراك الاجتماعى الـــذى هـــو من أهم خصائص البناءات الحضرية ــ الصناعية المعاصرة • ان اتساع نطاق التعليم وظهور المهن الجديدة قـــد تطلبا تحرير الأسرة من بعض الضغوط التى كانت تخضع لها حتى يستطيع الأفراد الافادة من الفرص التى تتيحها لهم التكنولوجيا الدائمة التغير • واذا كانت الأسرة النووية قد أصبحت مصدرا للأمان الانفعالى للفرد ، الا أنها أسهمت ــ فى نفس الوقت ــ فى اضعاف الروابط الأسرية ، ممـــا أدى الى ظهور علوم وفنون جديدة تعنى بمعالجة المشكلات الأسرية كالطب النفسى والارشاد الزواجى • واذا كان بعض علماء الاجتماع يؤكدون أن الأسرة النووية هى أحد متطلبات التصنيع والتحضر ، فاننا نجد بعضا آخر منهم يذهب الى أن الدول الصناعية المتقدمة تشهد صورا معدلة من الأسرة الممتدة بفضل وسائل الاتصال كالتليفون والخطابات والزيارات المتبادلة ؛ وأن الاستقلال المكانى ليس هو البعد الوحيد الذى يميز الأسرة النووية[٢] • ولقد أوضح ايوجين لتواك Litwak أن بعض المدن الأمريكية الصغيرة الحجم

---

(1) Elizabeth Bott; op. cit; p. 48.

(٢) علياء شكرى ، « مشكلات أساسية حـــول الأسرة والتصنيع » فى السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، المرجع الســـابق . ص ص ٤١٩ ــ ٤٤٥ •

تشهد « أسرا ممتدة معدلة » لاتعتمد على التقارب الجغرافى ولا تتعارض مع تحقيق الحراك الاجتماعى [١] • كـــذلك أوضح تونسيند Townsend فى دراسة له على مدينة لندن أن أفراد الطبقة الدنيا يستطيعون تحقيق بعض المزايا الاقتصادية والمكاسب السياسية من خلال ارتباطهم وحرصهم على الروابط القرابية الممتدة[٢] • وعلى الرغم من أن بعض الدارسين قد استخدموا هـــذه النقطة للتدليل على مـــدى ملاءمة الأسرة النووية للبناء الصناعى ــ الحضرى ، الا أن ذلك لايخلو من مبالغة • ويبدو أن التفسير الأقرب الى الواقع هو أن تحول المجتمعات الأوربية من الاقطاع الزراعى الى الرأسمالية الصناعية قد ترك « بصمات » بنائية وثقافية ما تزال قائمة حتى الآن • وعلى الرغم من كثرة الدراسات التى أجريت حـــول الأسرة الحضرية فى الدول الصناعية ، الا أن هناك قضايا كثيرة ماتزال بحاجة الى مزيد من الدراســـة • من ذلك ــ مثـــلا ــ العـــلاقة بين الروابط القرابية والتنظيمات البيروقراطية ، وكيفية تأثير التكنولوجيا الحديثة على تغـــير أساليب قضاء وقت الفراغ •

وفيما يتعلق بالتنظيم الاقتصادى السائد فى مدن الدول المتقـــدمة نلمس بعض الملامح الواضحة • اذ أن التصنيع قد أدى الى نمو كثير من المهن التى لم تكن معروفة خلال الحقبة الاقطاعية • ولقد أوضح كوتريل Cottrell كيف أن استخدام الآلات المعقدة قـــد أدى الى زيادة تقسيم العمل وظهور الحاجة الى المتخصصين القادرين على ادارتها • ومن الطبيعى أن يؤدى التخصص الى ظهور مدن متخصصة[٣] • وبزيادة التصنيع طرأت تحولات على البناءات المهنية فى الدول الصـــناعية • فمن خـــلال تحليل

---

(1) Euogene Litwak; «Occupational Mobility and Extended Family Cohesion»; American Sociological Review; 25; 1960; pp. 9-21.

(2) Peter Townsend; The Family Life of the Old People; New York; Free Press of Glencoe; 1957.

(3) Cottrell; W; Energy and Society; McGraw - Hill; 1955.

اتجاهات البناء المهنى فى الولايات المتحدة فيما بين سنتى ١٩١٠ و ١٩٤٠ توصـــل ألبرت ريس Reiss الى أن المهن الحضرية قـــد حققت سيطرة واضحة ، وأن هناك تناقضا ملحوظا فى نسبة العاملين بالزراعة • كـــذلك فلقد ازدادت أهمية المهن الفنية العليا زيادة كمية ملحوظة ، كمـــا برز دور أصحاب المهن التطبيقية كالفنيين والمختبرين والمحللين • وفيمـــا يختص بالمهارة الفنية ، لوحظ ارتفاع ملحوظ فى مستواها[1] • ولقد حاول بعض الدارسين تفسير زيادة نســـبة العاملين فى المهن الحضرية فانتهوا الى أنه بدخول الصناعات الكبيرة الحجم ، أصبح من المحتم زيادة نسبة العاملين فى قطاع الخدمات حتى تتمكن هذه الصناعات من الاستمرار • ولقد أدى ذلك الى ظهور مدن عديدة حول المراكز الصناعية ، مما يعنى طلبا متزايدا على المتخصصين فى شئون الادارة والتعليم والتجارة والمال [2] • على أن الطابع المهنى الذى يميز المدن الصناعية المعاصرة قد دفع بعض الدارسين الى تصنيف هذه المدن طبقا للنشاطات المهنية الســـائدة • فبعض المـــدن تشهد نسبة عالية من الأفراد الذين يعملون فى المهن الفنية العليا كالطب والمحاماة والفن والأدب والصحافة والهندسة ، بينما تشهد مـــدن أخـــرى نسبة أقل من الأفراد العاملين فى هذه المهن[3] • كذلك أشار بعض آخـــر من الدارسين الى أن المدن المتخصصة تخصصا وظيفيا تشهد تفاوتا ملحوظا فى بناءاتها المهنية ، مما ينعكس بالتالى على بعض الظواهر المصاحبة كالتوزيع العمرى ، ومعدلات الحراك الاجتماعى ، والمؤهلات التعليمية •

ويميل بعض علماء الاجتماع الى ابراز الدور الذى تلعبه المهن الفنية

---

(1) Albert Reiss Jr; «Change in the Occupational Structure of the United States; 1910-1940»; in P. Hatt and A. Reiss; Jr; Cities and Society; The Revised Reader in Urban Sociology; The Free Press of Glencoe; Inc; New York; 1961; pp. 424-431.

(2) Woytinsky; W; and Woytinsky; E; World Population and Production; Twentieth Century Fund; 1953; pp. 423 ff.

(3) P. Gillin; The Distribution of Occupations as a City Yardstick; King's Crown; 1951.

العليا (كالطب ، والمحاماة ، والقضاء ، والهندسة ، والمحاسبة) داخل المدن الصناعية الحديثة • وهناك خصائص معينة تميز هذه المهن لعل أهمها : الاعتماد على المعرفة العلمية المنظمة ، وارتباطها بسلطة فنية واضحة ، واستنادها الى مجموعة من القواعد الاخلاقية التى تنظم ممارستها ، وأخيرا تعبيرها عن ثقافة خاصة مميزة[1] • وفى ضوء هذه الخصائص نجد البناء المهنى فى المدن الصناعية يتصف ببعض الملامح التى قد لانلمسها فى مدن الدول النامية على نحو ما سنوضح فى موضع لاحق • لقد أدت التكنولوجيا الصناعية الى ظهور جماعات من ذوى المهن الفنية العليا يستطيعون القيام بالأعمال المهنية المعقدة التى تتطلب تدريبا طويلا وتعليما نظاميا متخصصا • ويمكننا أن نجد استجابة واضحة لذلك داخل النظام التعليمى السائد فى مدن الدول الصناعية • فالمعاهد الأكاديمية والفنية قد أصبحت على درجة عالية من التخصص حتى تستطيع مواجهة احتياجات المجتمع من المتخصصين المدربين ، كما أن التدريب المهنى على العمليات الفنية الجديدة قد أصبح من الامور الضرورية التى يستند اليها النظام الصناعى • ومن الطبيعى أن تتعاون المؤسسات التربوية مع وسائل الاعلام فى نشر ثقافة عامة قادرة على مواجهة التجديدات التكنولوجية والتعامل معها •

وتعد التنظيمات البيروقراطية أحد الملامح الأساسية التى تميز المدن الصناعية الحديثة • والواقع أن هذه القضية قد حظيت باهتمام كبير داخل الفكر الاجتماعى الغربى • فعلى سبيل المثال نجد ماركس Marx يؤكد أن التنظيمات البيروقراطية هى من نتاج الحقبة الرأسمالية ، وأنها أحد الأساليب التى تستخدمها البرجوازية الرأسمالية فى فرض سيطرتها

---

(1) Talcott Parsons; «The Professions and Social Structure»; in T. Parsons; «Essays in Sociological Theory; The Free Press; Glencoe; 1954; pp. 34-49.

ونفوذها[١] • بيد أن وجهة نظر ماركس قد انطلقت من تصوراته ومفاهيمه النظرية العامة كالاغتراب والصراع الطبقى وحتمية المجتمع الشيوعى • أما ماكس فيبر Weber فقد درس ظاهرة انتشار التنظيمات البيروقراطية وعلى الأخص فى المجتمعات الصناعية الحضرية ، حيث أوضح أنهـا (أى التنظيمات) قد غزت المجالات الاقتصادية والسـياسية والدينيـة فى المجتمعات الغربية ، وأن ذلك قـد أدى الى ظهور المركزية والقواعـد الرشيدة التى تهدف الى تحقيق أقصى درجات الفعالية • كذلك أوضح فيبر أن هناك علاقة قوية بين الرأسمالية والبيروقراطية • فبدون الأخيرة لم تكن الأولى لتستطيع تحقيق التقدم الذى أحرزته فى العالم الغربى • ولقد اهتم فيبر بتحليل خصـائص التنظيمات البيروقراطية المتغلغلة فى البنـاءات الصناعية الحضرية المعاصرة • ومن بين هذه الخصائص : تقسيم العمـل والتخصص مما يزيد من الخبرة والمعرفة الفنية ، وبناء رئاسى هرمى يعبر عن تدرج السلطة ، ونسق مستقر نسبيا من القواعد واللوائح التى تنظم الأعمال والمهام ، وأخيرا الاعتماد على النظرة الموضوعية الحيادية فى معاملة الأفراد[٢] • ويبدو أن التنظيمات البيروقراطية قـد أصبحت أحد العناصر الأساسية المكونة للبناءات الحضرية المعاصرة بغض النظر عن الاعتبارات الايديولوجية • لكن المشكلة قد تنشـأ حينما ننظر الى النتائج الجانبية السيئة التى يؤدى اليها النمو البيروقراطى كالروتين وتعقـد الاجراءات والتركيز على الشـكل دون المضمون • ومن هذه الزاوية يمكننا أن نفهم تنديد ماوتسى تونج « بالبيروقراطية » وربطها بالرأسمالية • وفى كوبـا نجد كاسترو يهاجم « البيروقراطية الاشتراكية » حتى أنه قدوصفها بأنها مرض سحرى لا يعرف له دواء[٣] •

---

(١) السيد الحسينى ، النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم ، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٣٦ وما بعدها .

(٢) السيد الحسينى ، علم الاجتماع السياسى : المفاهيم والقضـايا ، المرجع السـابق . وبصفة خاصة الفصـل الرابع بعنـوان « البيروقراطية والسلطة » .

(3) R. Demont; Lands Alive; The Merlin Press; London; 1965.

وليس مـن الصعب علينا التعرف على « البصمات » العميقة التى تركتها التنظيمات البيروقراطية الكبيرة الحجم على مدن الدول الصناعية • اذ تبدو هذه المدن وكأنها تعيش فى « غابات ادارية » وحوشها هم كبـار المديرين الرأسماليين • وتسيطر على هـذه « الغابات » روح المنافسـة والانجاز والكفاءة والفاعلية والترشيد ، مما دفـع بعض الدارسين الى القول بأن مدن الدول الصناعية قـد أصبحت تتشابه فى كثير من الوجوه بسبب تغلغل هذه التنظيمات البيروقراطية ، حتى أن الخصوصيات الثقافية لهذه الدول لم تعد تلعب دورا هاما فى هذا المجال[1] • وفى هذه المدن تلعب جماعات المديرين والمنفذين والوسطاء والمفاوضين دورا هاما فى تحـديد طابعها • والواقع أن أهم ما تتميز به التنظيمات البيروقراطية فى مـدن الدول المتقدمة (اذا ما قورنت بقريناتها فى الدول النامية) هـو كفاءتها وفعاليتها واستنادها الى أسس رشيدة واضحة • فالبناء الاقتصادى للمدينة فى الدول الصناعية يتحدد فى ضوء تخطيط شامل يقوم على دراسات وتقارير متخصصة عديدة لا تتناول فقط واقع هذه المدينة بل مستقبلها أيضـا[2] • ومن الطبيعى أن ترتبط الفعالية التنظيمية فى مدن الدول الصناعية بارتفاع مستوى المعرفة الفنية وتقدم عملية التقنين سواء فى مجال انتاج السـلع أو توزيعها • ولا يتم ذلك الا اذا وجدت تنظيمات اقتصادية وسياسية تستطيع منح قواعدها واجراءاتها طابعا صوريا • ولا تتعارض عمليـة التقنين مع حقيقة تنوع الأذواق والميول التى تخضع بدورها لدراسـة مستفضية حتى يمكن مواجهتها • ومن هنا يمكن فهم الـدور الذى تلعبه الدعاية التجارية فى المدن الكبرى ؛ فهى تسهم فى احداث منافسـة بين المنتجين ، كما أنها تساعد المستهلكين على تقبل السلع الجديدة التى تتوصل اليها التجديدات التكنولوجية •

---

(1) Frederick Harbison and Charles A. Myrs; Management in the Industrial World; New York : McGraw-Hill; 1959.

(2) E. Goffman; «The Characteristics of Total Institutions»; in Etzioni; A (ed.) Complex Organizations; Holt; 1961; pp. 312-341.

واذا ما انتقلنا الى مناقشة البناء السياسى للمدن فى الدول المتقدمة ، واجهنا صعوبات عديدة لعل أهمها تنوع (ان لم يكن تعارض) المنطلقات الفكرية والايديولوجية • ويبدو ذلك واضحا اذا ما حاولنا التعرف على البناء السياسى للمدن الكبرى فى كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى • لكن ذلك لا يمنعنا من طرح بعض القضايا الهامة التى يمكن أن تخضع لمزيد من الدراسة والتحليل • ففى معظم كتابات علماء الاجتماع الغربيين نلحظ تأكيدا ــ ولو ضمنيا ــ لوجود علاقة بين الديموقراطية من ناحية ، ونمط الحياة الحضرية الصناعية من ناحية أخرى[١] • لكن المشكلة التى تثار هنا تتعلق بالمعنى الذى يشير اليه مفهوم الديموقراطية ذاته • اذ يستخدمه علماء الاجتماع الغربيون للاشارة الى نقطتين : الأولى هى وجود معارضة منظمة فى مواجهة الصفوة الحاكمة ، والثانية هى استناد السلطة الى الاتفاق العام الذى يبديه المحكومون حول القضايا العامة • ولقد أشار سيمور ليبست Lipset الى أن المجتمعات الصناعية وان كانت تؤكد أهمية وجود نسق طبقى مفتوح وضرورة انتشار التعليم الجماهيرى ، الا أن ذلك كله يسهم ــ فى نهاية الأمر ــ فى تدعيم النظام الديموقراطى بأسرة[٢] • والواقع أننا لانستطيع قبول ما يذهب اليه بعض علماء الاجتماع عند مناقشة العلاقة بين الديموقراطية والتحضر • فالمدن فى الاتحاد السوفييتى ودول أوربا الشرقية نشأت وتطورت واكتسبت ثقافتها الحضرية المميزة دون الاعتماد على التصورات الديموقراطية الغربية • واذا ما سلمنا بهذا التحفظ فاننا نستطيع مناقشة الجوانب السياسية الأخرى المميزة للبناءات الصناعية ــ الحضرية الحديثة •

---

(1) Wallace S. Sayre and Nelson Polsby; «American Political Science and the Study of Urbanization»; in Philip Hauser and Leo Schnore; The Study of Urbanization; John Wiley & Sons Inc; 1965; pp. 115-156.

(2) Seymour Martin Lipset; Political Man; Garden City : Doubleday; 1965. Chap. I.

لعل أول ما يمكن أن يقال فى هذا المجال إن المدن فى الدول الصناعية تخضع لسيطرة الفنيين والمتخصصين الذين يعملون داخل التنظيمات البيروقراطية ، حتى أننا نستطيع تحديد جماعات تمارس سلطات واضحة لا تتمتع بها جماعات أخرى • وغالبا ما تدافع هذه الجماعات عن مصالحها الخاصة ما استطاعت الى ذلك سبيلا • ولقد أوضح كير Kerr كيف أن المدن الغربية قد أصبحت تضم تنظيمات بيروقراطية تسعى الى ترشيد أهدافها وممارسة أكبر قدر ممكن من السيطرة السياسية[١] • وفى المدن السوفيتية سجل بعض الدارسين وجود جماعات مهنية تكتسب مزيدا من التأثير بفضل التقدم التكنولوجى الذى هو من أهم الأهداف السياسية والاقتصادية • ومن هنا يمكن فهم الدور الذى تلعبه جماعات المهندسين والفنيين والاطباء داخل الحزب الشيوعى السوفيتى وعلى الأخص مستوياته العليا[٢] • وهناك عوامل هامة أدت الى ارتفاع مكانة المتخصصين داخل المدن الصناعية • فالقرارات السياسية قد أصبحت الآن تستند الى الدراسات الفنية التى يقوم بها خبراء متخصصون • ولا يمكن أن نغفل الاشارة الى الدور الذى يلعبه رجال الأعمال وكبار الموظفين الحكوميين داخل البناءات الصناعية — الحضرية فى المجتمعات الرأسمالية • فلقد أوضحت بعض الدراسات أن نشاطات رجال الأعمال ليست بمعزل عن النشاطات الحكومية[٣] ، كما أن الدور الذى يؤديه رجال الأعمال من خلال مناصبهم السياسية لا يتعلق فقط بالدفاع عن مصالحهم داخل الدولة بقدر ما يتعلق بالاسهام فى تحديد خطوطها السياسية والايديولوجية • وهناك دراسات عديدة تناولت الأصول الاجتماعية للصفوات الادارية فى المجتمعات

---

(1) C; Kerr et al; Industrialism and Industrial Man; op. cit.

(2) F. Parkin; «Class Stratification in Socialist Societies»; British Journal of Sociology; December; 1969.

(٣) السيد الحسينى ، علم الاجتماع السياسى ، المرجع السابق ، ص ١٢٨ ، ونظر أيضا تحليلنا النقدى لكتاب ميلباند « الدولة فى المجتمع الرأسمالى »، المرجع السابق .

الصناعية الغربية • فعلى سبيل المثال أوضح مينود Mynoud أن كبار موظفى الدولة فى فرنسا ينتمون فى الأصل اما الى الطبقة الوسطى ــ العليا أو الطبقة العليا ــ العليا ، وأن ذلك ينطبق على كبار قادة الجيش والقضاة• كذلك لوحظ فى بريطانيا أن كبار الموظفين المدنيين يحصلون عادة على تعليم متميز وينتمون الى أصول طبقية عليا[١] •

وتدفعنا الاعتبارات السابقة الى القاء مزيد من الشكوك حول العلاقة بين الديموقراطية الغربية والروح الصناعية الحضرية • فلقد شهدت ألمانيا خلال الحكم النازى نموا صناعيا حضريا هائلا برغم سيطرة الاتجاهات الديكتاتورية الشمولية[٢] ، كما أن الاتحاد السوفييتى الآن قد حقق درجة عالية من التصنيع والتحضر فى ظل نظام الحزب الواحد القائم على ديكتاتورية البروليتاريا • وعلى الرغم مما قد يردده بعض علماء الاجتماع من أن الاعتبارات التكنولوجية والفنية قد بدأت تسيطر على الاعتبارات السياسية والحزبية داخل الاتحاد السوفييتى ، الا أن الحقيقة تظل باقية وهى ، أن بناء صناعيا حضريا متقدما قد تطور فى ظل تصورات سياسية مختلفة ــ ان لم تكن متعارضة ــ عن تلك الشائعة فى الدول الصناعية الغربية ، مما يدفعنا الى القول بأن نظريات التصنيع والتحضر التى صاغها علماء الاجتماع الغربيون ماتزال تفتقد الى الصدق[٣] • ويمكننا توجيه انتقادات مماثلة للفكرة الذاهبة الى ان تعدد مصادر السلطة هو أحد الدعائم التى تستند اليها البناءات الصناعية ــ الحضرية المعاصرة ، وأن الديموقراطيات الغربية هى النمط السياسى الوحيد القادر على تحقيق ذلك[٤] • ان تعدد

(1) H. Lasswell et al; The Comparative Study of Elites; New York; 1952.

(2) Rudolf Heberle; Social Movements; New York : Appleton-Century Crofts; 1951; pp. 222-236.

(٣) السيد الحسينى ، « اتجاهات علم الاجتماع فى فهم مشكلات الدول النامية » المرجع السابق •

(4) William Kornhauser; Politics of Mass Society; New York : Free Press of Glencoe; 1959.

مصادر السلطة فى هذه الديموقراطيات لا يسهم فى نمو التصنيع وزيادة التحضر بقدر ما يسهم فى حل كثير من المشكلات الناجمة عن تنوع وتباين الآراء السياسية والتوفيق بين الجماعات المتصارعة المختلفة •

والمحقق أن المدن الصناعية الكبرى تدين فى وجودها ونموها ونفوذها لوسائل الاتصال الجماهيرى كالصحافة والاذاعة والتليفزيون والسينما • اذ يصعب علينا تصور وجود مدينة معاصرة ضخمة تستطيع أداء وظائفها دون وسائل اتصال جماهيرية فعالة • فمن خلال هذه الوسائل تنتقل المعارف والثقافات ، وبواسطتها يتحقق التكامل والتوازن ، وبفضلها يتدعم الاستقرار السياسى فى عالم تسوده التوترات • ومعنى ذلك أن وسائل الاتصال الجماهيرى تؤدى وظائف ثقافية وسياسية وتربوية داخل المدن الكبرى ، حتى أن بعض الدارسين قد ذهبوا الى أن العالم المعاصر قد تقلص وتحول بفضل وسائل الاتصال الحديثة الى « قرية كبيرة » سرعان ما تنتشر فيها المعلومات فور إعلانها[1] • واذا كان يحلو للبعض تأكيد وجود « ثقافة مشتركة » فى مدن الدول الصناعية المتقدمة ، فاننا نقول إن هذه « الثقافة » هى من صنع وسائل الاتصال الجماهيرى • ان وجود هذه الثقافة لهو دليل على التأثير الهام الذى تحدثه هذه الوسائل على سكان المدن الكبرى بخصائصهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المتباينة • وخلال السنوات الأخيرة ظهرت فى الولايات المتحدة وأوربا الغربية كتابات تحاول ابراز بعض النتائج السلبية لسيطرة وسائل الاتصال الجماهيرى على سكان المدن الكبرى على وجه الخصوص • بيد أن النظرة الموضوعية لهذه القضية تتطلب ابراز النتائج الايجابية التى قد تمارسها وسائل الاتصال الجماهيرى على الحياة الحضرية • فاذا كان صحيحا أن هذه الوسائل من خلال موادها المكتوبة أو المسموعة أو المرئية قد أدت

---

(١) مارشال ماكلوهان ، كيف نفهم وسائل الاتصال ، ترجمة خليل صابات ومحمد الجوهرى والسيد الحسينى وسعد لبيب ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

الى ظهور صور عديدة من الانحراف الاجتماعى ، الا أنها (أى وسائل الاتصال) قد أسهمت فى تدعيم التكامل الاجتماعى بما خلقته من معتقدات وقيم وأذواق مشتركة(١) •

وفضلا عما سبق نجد البناءات الصناعية ــ الحضرية تتميز ببعض العناصر الثقافية المشتركة • فبتقدم التكنولوجيا وزيادة التصنيع ، تحرر سكان المدن الصناعية الكبرى من العوز الدائم والنضال المستمر من أجل الاستمرار فى الحياة • غير أن ذلك قد فرض مطلبا آخر هو ضرورة ملاءمة النظام التربوى أو التعليمى لمقتضيات التطور التكنولوجى • ومن هنا نستطيع فهم ما يذهب اليه البعض من أن « القفزة الصناعية ــ الحضرية » التى حققتها الدول المتقدمة لم تكن لتتم دون حدوث « ثورة تربوية » موازية • ومن أهم معالم هذه الثورة نمو التعليم الفنى المتخصص الذى يضمن مواصلة التقدم التكنولوجى • والواقع أن نظرة عابرة الى الجامعات فى الدول المتقدمة توضح لنا مدى النمو الكمى والكيفى الذى طرأ على التخصصات المختلفة خلال العقود الثلاث الأخيرة(٢) • لقد أصبح البحث العلمى من الاستثمارات الاقتصادية الأساسية التى يجب أن تهتم بها المؤسسات والدول على السواء • ومن الطبيعى بعد ذلك أن تخضع التكنولوجيا الحديثة لمراجعات دائمة حتى أن بعض الدارسين قد بدأوا يسلمون بوجود « ثورة تكنولوجية دائمة » فى الدول الصناعية المتقدمة(٣) • ولا تستطيع هذه الثورة تحقيق انجازاتها دون ظهور « نظرة عالمية » يتبناها الأفراد فى الدول الصناعية • وأحد أبعاد هذه النظرة تبنى التصورات

---

(1) Gideon Sjoberg; «Cities in Developing and Industrial Societies : A Cross Cultural Analysis»; in Philip Hauser and Leo F. Schnore; The Study of Urbanization; op. cit; p. 245.

(2) C. P. Snow; Science and Government; New York : New American Library; 1962.

(3) Bernard Barber and Walter Hirsch (eds.) The Sociology of Science; New York : Free Press of Glencoe; 1962.

العلمية فى فهم وتفسير الظواهر الطبيعية والاجتماعية كالكوارث والأمراض والازمات الاقتصادية ، والاعتقاد فى امكانية التحكم فيها والسيطرة عليها باستخدام المعرفة العلمية المنظمة • ويرتبط بذلك كله شيوع المعايير التى تؤكد النظرة الكلية للأشياء ، واعتبار الانجاز أو الأداء معيارا أساسيا من معايير المكانة الاجتماعية •

وفى ختام هذه المناقشة يمكننا الاشارة الى المكانة التى يحتلها الدين داخل مدن الدول الصناعية المتقدمة • فلقد رأينا فى موضع سابق كيف أن كثيرا من المدن القديمة قد نشأت نشأة دينية ، وأن الدين قد ظل يلعب دورا أساسيا فى تشكيل الطابع الحضرى خلال العصور الوسطى • والواقع أن علماء الاجتماع المعاصرين قد تجاهلوا الى حد كبير موقع الدين داخل المدن الصناعية الحديثة بسبب تأكيدهم الشديد لسيطرة النزعة العلمانية التى تؤكد فى أبسط صورها تفسير الظواهر تفسيرا وضعيا حسيا • ويؤكد هؤلاء العلماء أن القيم الدينية لم تعد تلعب دورا حاسما فى تشكيل البناء الاجتماعى للمدينة الصناعية ، وأن هذه القيم قد أصبحت جزءا من نسق أخلاقى عام[1] • غير أننا لا نستطيع التسليم تماما بهذه القضية ، على الرغم من أنها لا تخلو من الصدق • اذ الملاحظ أن القيم الدينية لاتلعب دورا واحدا فى كل المدن الصناعية ، بمعنى أن الدين يحتل مكانة متميزة فى بعضها دون البعض الآخر • بل ان الاتحاد السوفييتى الذى يتخذ موقفا مناهضا من القيم الدينية قد بدأ يشهد انتعاشا دينيا وعلى الأخص فى مناطقه الجنوبية • ومن هنا نستطيع أن نفهم بعض أبعاد الغزو السوفييتى لأفغانستان فى سنة ١٩٨٠ • كذلك يذهب بعض الدارسين الى أن بعض المدن الأمريكية قد بدأت تشهد مدا دينيا واضحا خلال العقود الأخيرة[2] • وبدون الدخول فى

---

(1) David Moberg; The Church as a Social Institution; Englewood Cliffs; N. J. : Prentice - Hall; 1962; Chap. 15.

(2) Gerhard Lenski; The Religious Factor; Garden City : Doubleday; 1963.

مناقشات تفصيلية حول دور القيم الدينية فى الدول الصناعية ، فإننا نستطيع الوصول الى نتيجة أساسية هى ؛ أن الدين ما يزال يمارس تأثيراً هاما على سكان مدن الدول الصناعية ، وان كان هذا التأثير أخف حدة من ذلك الذى يمارسه على سكان مدن الدول النامية •

ثانيا ــ المدينة والبناء الاجتماعى فى الدول النامية :

درج علماء الاجتماع الحضرى على النظر الى الدول النامية فى ضوء الخصائص البنائية والثقافية المميزة لها • ويستند هؤلاء العلماء فى ذلك الى الخبرات التاريخية المشتركة (وعلى الأخص الاستعمارية) التى مرت بها هذه الدول ، فضلا عن تشابهها فى كثير من الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية المعاصرة • والواقع أننا لا نستطيع قبول هذه القضية دون تحفظ • فعلى الرغم من وجوه الشبه العديدة التى يمكن أن نلمسها بين الدول النامية ، الا أن هناك اختلافات عديدة بينها لا نستطيع تجاهلها • من ذلك ــ مثلا ــ التراث الثقافى ، وخبرات التصنيع ، والموارد الطبيعية ، وعدد السكان[1] • ومن هذه الزاوية يجب أن ننظر الى المدن فى الدول النامية نظرة واسعة رحبة • ففى مصر والهند لعبت المدينة دورا تاريخيا هاما ، بينما لاتزال فى بعض مناطق أفريقيا تكتسب ملامحها وسماتها الأساسية • لكن ذلك يجب ألا يعوقنا عن مناقشة بعض الجوانب البنائية والنظامية التى تميز المدن فى الدول النامية عموما • وتستند هذه المناقشة الى تحليل نقدى للتراث النظرى والدراسات الواقعية التى تناولت المدينة فى مختلف أنحاء العالم النامى •

والنظرة العابرة للمدن فى الدول النامية توحى على الفور بأنها (أى المدن) تمثل حلقة الوصل الأساسية بين هذه الدول من ناحية ، والعالم الخارجى من ناحية أخرى • فهى تؤدى وظائف سياسية واقتصادية وثقافية

---

(1) Horowitz; I; R; Three World of Development; Oxford University Press; 1966.

تمكنها من اكتساب مكانة متميزة • هى اذن تشكل مجالا لتركز كثير من النشاطات : فيها ترسم السياسات ، وتقام المشروعات الاقتصادية ، وتعيش الصفوة السياسية ، وتنمو المؤسسات الثقافية ، حتى تبدو وكأنها قلب الدولة النابض • وما أن يحدث هذا التركز حتى يزدهر مبدأ « كل الطرق تؤدى الى روما »[1] • وفى معظم الأحيان تؤدى المدن فى الدول النامية (وعلى الأخص الكبيرة الحجم) دورا اقتصاديا واضحا • اذ تضم قطاعا كبيرا من القوى العاملة المدربة وتستقبل جانبا كبيرا من الاستثمارات الاقتصادية • ومن الطبيعى أن ينعكس ذلك على المناطق الريفية التى تمثل مراكز طرد أساسية للكفاءات الفنيـة والادارية الهامة • واذا كانت المدن تجـذب القوة العاملة المدربة ، فانها تجـذب فى نفس الوقت قطاعا لايستهان به من القرويين غير المؤهلين الذين يخرجون من المناطق الريفية بسبب الفقر الشـديد متجهين الى المدن يحدوهم بريق الحياة الحضرية[2] •

واذا كانت المدن الغربية قد نمت فى ظل حركة تصنيع واسعة النطاق فاننا نجد المدن فى الدول النامية تنمو نتيجة لعوامل وظروف مختلفة تماما • إذ أنها لم تكتسب مكانتها نتيجة لنمو اقتصادى ذاتى حققته هـذه الدول النامية بقدر ما اكتسبتها نتيجة لتطور اقتصادى موجه لخدمة دولة أو مجموعة من الدول الأجنبية • بعبارة أخرى نمت المدن الأساسية فى الدول النامية لتكون بمثابة روابط قوية من خلالهـا يمكن توجيه الاقتصاديات القومية لخدمة مصالح القوى الاستعمارية كما هو الحال بالنسبة لمـدن جنوب شرق آسيا • ولاتزال هذه المدن تخضع حتى الآن للتوجيه الخارجى، ذلك أنها تمثل حلقة اتصال بين الصفوة المحلية والعالم الخارجى ، أكثر مما

---

(١) جيرالد بريز ، مجتمع المدينة فى الدول النامية ، دراسـة فى علم الاجتماع الحضرى ، مرجع سابق ، ص ٩٢ •

(2) Peter Gutkind; Urban Anthropology; Perspectives on Third World Urbanization and Urbanism; Van Gorcum Comp; The Netherlands; 1974; p. 53.

تمثل قاعدة اقتصادية موجهة لخدمة الاقتصاد القومى[١] . والملاحظ أن التطور الاقتصادى والنمو الحضرى فى معظم الدول النامية قد ظل حتى بداية الحرب العالمية الثانية موجها نحو الأسواق الخارجية فى ظل علاقات استعمارية قوية[٢] . يضاف الى ما سبق أن عملية التحضر (بمعنى نمو سكان المدن) فى هذه الدول قد خضعت لعوامل معجلة منها : انخفاض نصيب الفرد من الأرض الزراعية نتيجة للنمو السكانى الهائل الذى فاق حدود الموارد الزراعية ، والمشكلات التى أحدثتها الحرب العالمية الثانية ، مما أدى الى هجرة اللاجئين الى المدن الكبرى ؛ فضلا عن العوامل الأخرى التى دفعت الفلاحين دفعا الى هجرة قراهم بحثا عن فرص عمل أفضل[٣] .

ويميل بعض الدارسين الى استخدام مصطلح « التضخم الحضرى » overurbanization للاشارة الى بعض المشكلات الحضرية العامة التى تواجهها معظم الدول النامية . ومعنى ذلك ان مدن هذه الدول لاتمتلك المقومات الاقتصادية التى تضمن لسكانها مستوى معيشى مماثل لما هو قائم فى مدن الدول المتقدمة . لذلك فان على الدول النامية أن تتبنى برامج تنموية شاملة تتناول المناطق الريفية والحضرية على السواء . اذ أن كثيرا من المشكلات الحضرية قد تستعصى على الحل ما لم تواجه المشكلات الريفية مواجهة حاسمة . والواقع أن من الصعب فهم كثير من المشكلات الحضرية التى تواجهها الدول النامية دون التعرف على الظروف الاقتصادية والسياسية والثقافية (التاريخية والمعاصرة) السائدة فيها . وتبدأ هذه

---

(1) A. Gunder Frank; Latin America : Underdevelopment or Revolution; Monthly Review Press; 1969.

(٢) فيليب هاوزر ، « مشكلات التحضر السريع » ترجمة السيد الحسينى ، محمد الجوهرى وآخرون ، دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٩ ، ص ص ٩١ — ١١٩ .

(٣) السيد الحسينى ، « القرية فى الدول النامية : تحليل نقدى لبعض اتجاهات التغير الاجتماعى » ، السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، المرجع السابق ، ص ص ٣٧٥ — ٤١٨ .

المشكلات برغبة هذه الدول فى تحقيق تنمية اقتصادية ــ اجتماعية واسعة المــدى . ويبدو التصنيع ــ فى نظرها ــ وكأنه الوسيلة الأساسية التى يمكن من خلالها تجاوز التخلف الاقتصادى ــ الاجتماعى . بيــد أن هناك مشكلات عديدة ما تلبث أن تفرض وجودها . من ذلك انخفاض مستوى الانتاجية ، وقلة المدخرات ، وأولوية الانفاق على الزراعة أو الصناعة ، ثم توزيع الاستثمارات على كل من قطاعى الخدمات والانتاج . وعلى الرغم من أن هذه المشكلات تبدو ملحة فى كل من القرى والمدن ، الا أنها تبــدو أكثر الحاحا فى الأخيرة . ذلك أن مدن الدول النامية تفتقر الى الهياكل الأساسية التى تضم مختلف الخدمات إبتداء من أنابيب المياه حتى بنــاء المساكن . وفى كثير من الأحيان قد يقف صانع القرار السياسى فى الدول النامية حائرا مترددا أمام اختيار اقتصادى صعب : إما تدعيم المــدن بالخدمــات الأساسية أو تزويد القرى بأدوات أو مستلزمات الانتــاج الزراعى .

وفضلا عن ذلك تواجه الدول النامية مشكلة تحديد مواقع الصناعات وذلك بسبب الارتفاع فى معدلات التحضر . اذ أن المــدن الكبــرى غالبا ما تمارس سيطرة على المراكز الحضرية الصغيرة . وبسبب قلة الاستثمارات تضطر حكومات الدول النامية الى تبنى سياسة مركزية عند اقامة المشروعات الصناعية التى تعتمد على الهياكل الأساسية للمدن القائمة بالفعل كالمواد الخام ومصادر الطاقة والقوة العاملة والسوق[1] . ومعنى ذلك أن المــدن الكبرى فى الدول النامية تميل فى نهاية الأمر الى اتخاذ طابع « طفيلى » ، مما يؤدى الى اعاقة تنمية المدن الصغرى والمناطق الريفية عموما[1] . ولقد أوضحت

---

(1) Shanti Tangri; «Urbanization; Political Stability; and Economic Growth»; in Jason Finkle and Richard Gable; Political Development and Culture Change; John Wiley & Sons; New York; 1971; pp. 515. 526.

(١) السيد الحسينى ، « القرية فى الدول النامية » ، المرجع السابق .

تجارب بعض الدول النامية أن مشروعات الاصـــلاح الزراعى الناجحة قد أسهمت فى الحد من مشكلة الفقر فى المناطق الريفية ورفعت بالتالى من مستوى الانتاجية الزراعية مما أدى فى نهاية الأمر الى انخفاض معدلات الهجرة الريفية ـــ الحضرية • ويبدو أن هناك اتفاقا ملحوظا بين عدد كبير من علماء الاجتماع حول تأثير التحضر على بعض المتغيرات الاقتصـــادية ومستويات المعيشة والمدخرات ورؤوس الأموال • وعلى الرغم من أن مـــا يقال حول ذلك قد يتخذ طابعا انطباعيا ، الا أن هناك شواهد متزايدة تشير الى أن سكان مدن الدول النامية يحصلون على دخول نقدية أعلى مـــن سكان المناطق الريفية • كما أن التحول من اقتصاد الاعاشة الى الاقتصاد النقدى يسهم ـــ الى حد كبير ـــ فى تشجيع الادخار • وفضلا عن ذلك لوحظ أن التحضر فى الدول النامية يؤدى الى تغيير ملحوظ فى الأنمـــاط الاستهلاكية ، حيث يقل الانفاق على الطعام ويزداد الانفاق على الترويح والتعليم والمواصلات والخدمات وايجارات المساكن[٢] •

ومن بين النتائج المترتبة على « التضخم الحضرى » فى الدول النامية تدهور البيئة الحضرية ذاتها • ويبدو ذلك أوضح ما يكون فى نمو الأحياء المتخلفة وتضخم أحجامها ، ونقص الخدمات الحضرية بما فى ذلك الاسكان والمواصلات والمنافع العامة • يضاف الى ذلك ســـوء استغلال الأرض ، وارتفاع معدلات كثافة السكان ، وقلة الخدمات التعليمية والترويحيـــة • ومن الطبيعى أن تمارس هذه الظروف البيئية القاسية ضغطا شـــديدا على حكومات الدول النامية مما يدفعها الى تخصيص جانب كبير من استثماراتها لتحقيق مشروعات التنمية الحضرية ، مما يؤثر بالتالى على الاستثمارات الانتاجية • وفى كثير من الأحيان نجد أسر الطبقة الوسطى تحقق أقصى فائدة ممكنة من هذه المشروعات ، بينما لا تحصـــل أسر الطبقة الدنيا على

---

(2) Wilbert E. Moore; Social Change; Englewood Clifts. N. J. Prentice-Hall; Inc; 1963.

نصيبها الضرورى منها[1] • وهنـــاك صعـــوبات عديدة تكتنف التخطيط الحضرى فى الدول النامية من بينها الهجرة المتدفقة المستمرة من المناطـــق الريفية الى المناطق الحضرية ، وما يرتبط بذلك من مشكلات اجتماعية ، فضلا عن عدم كفاءة الهياكل الأساسية للمـــدن •

وخلال السنوات الأخيرة أبدى عدد كبير من علماء الاجتماع والسكان والانثروبولوجيا اهتماما كبيرا بالخصائص السكانية المميزة لمـــدن الدول النامية كالعمر والنوع والتعليم والمهنـــة والدخل[2] • وعلى الرغم من أن الشـــواهد الاحصـــائية المتعلقة بهـــذه الخصـــائص ماتزال ضـــئيلـــة ومتنـــاثرة ، الا أن علمـــاء الاجتمـــاع قد توصـــلوا الى بعض الأحكام العـــامة التى ماتزال بحـــاجة الى التحقق الواقعى • ففيمـــا يتعـــلق بأعمار سكان الحضر فى الدول النامية ، اتضح أن نسبة عالية من السكان تقع فى الفئة العمرية الشابة (١٥ ــ ٤٥) ، برغم وجود استثناءات عديدة لذلك • وتفسير ذلك أن معظم كبـــار السن من القرويين لايهاجرون الى المدينة ، وانما يميلون الى البقاء فى القرية • كذلك فان المناطق الحضريـــة تتميز بزيادة عدد الذكور على الاناث فى معظم الدول النامية باستثناء أمريكا اللاتينية التى يزداد فيها عدد الاناث على عدد الذكور فى مناطقها الحضرية • وربما أمكن تفسير ذلك فى ضوء مرحلة التطور الاجتماعى ــ الاقتصـــادى التى تمر بها دول أمريكا اللاتينية والتى تميزها عن غيرها من الدول النامية • وفيما يتعلق بمستويات التعليم فى مدن الدول النامية نجد تفاوتا ملحوظا • فبينما ترتفع نسبة التعليم ارتفاعا ملحوظا فى بعض هذه المدن ، نجدهـــا تنخفض انخفاضا كبيرا فى البعض الآخر • كما أننا نجـــد تفاوتا ملحوظا بين هذه المدن فيما يتعلق بنسبة الحاصلين على مؤهلات جامعية عليـــا • وهناك بالاضافة الى ذلك سمات مهنية شائعة فى مـــدن الدول النامية • فكثير

---

(1) Lloyd Rodwin; Nations and Cities. Houghton - Mifflin; 1970.

(٢) جيرالد بريز ، مجتمع المدينة فى البلاد النامية ، المرجـــع السـابق ، ص ١٥٢ •

من المهاجرين الريفيين الى المدن يفتقرون الى المهارات الضرورية التى تمكنهم من الدخول الى الحياة المهنية المنتظمة . كما أن هناك نسبة عالية من العاملين فى المهن « الهامشية » التى لا تسهم بشكل مباشر فى الانتاج القومى بسبب طابعها الطفيلى[١] . وبرغم الظروف القاسية التى يتعرض لها العمال الصناعيون الحضريون فى الدول النامية ، فلقد أوضحت بعض الدراسات قدرة هؤلاء العمال على التكيف مع الآلات الجـديدة واكتساب كثير من المهارات الفنية عن طريق المحاكاة . وبالاضافة الى ذلك هناك تفاوت ملحوظ بين أجور العمال الفنيين والعمـال غير الفنيين فى مـدن الـدول النامية . فبينما يحصل الأولون على دخول عالية نسبيا ، يحصل الأخيرون على دخول لا تكاد تمكنهم من الوفاء بالمتطلبات الأساسية للحيـاة .

ومن بين المشكلات السكانية التى تواجهها مدن الدول النامية تبـدو الهجرة الريفية ـ الحضرية أكثرها حـدة وخطورة . وعند تفسـير هذه المشكلة نجد بعض العلماء يؤكدون دور القرية « كعامل طارد » للريفيين ، بينما نجد البعض الآخر يبرز دور المدينة « كعامل جاذب » للمهاجرين . ويبدو أن تأكيد أى من هذين الدورين يرجع الى الاهتمامات العلمية للدارسين أكثر مما يرجع الى الأهمية النسبية لكل منهما . فعلى سبيل المثال نجـد عاطف غيث فى دراسته على قرية مصرية يفسر الهجرة الريفية ـ الحضرية فى ضوء اختلال علاقة السكان بالأرض وزيادة صلات القرية بالقرى المجاورة وبالمدينة والحكومة . كما أشار الى ان القوانين المنظمة للانتاج الزراعى والحياة الاجتماعية بوجه عام (كالزواج والطلاق والجندية والضرائب والمواليد والوفيات) قد زادت من تدخل المدينة فى شئون القريـة [٢] . والواقع أن من الصعب تناول مشكلة الهجرة الريفية ـ الحضرية دون تبنى منظور تاريخى بنائى شامل . حينئذ لن يكون اهتمامنا منصبا على ابراز

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٣ .
(٢) عاطف غيث ، القرية المتغيرة ، الطبعة الثانية ، دار المعـارف ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

دور القرية أو المدينة فى هـذه الهجرة ، بقدر ما يتركز على العلاقـات البنائية (التاريخية والمعاصرة) التى تربط بينهما • لكن ذلك لا يعفينا من الاشـارة الى بعض العوامل الطاردة والجاذبة المؤثرة على « الخروج الريفى » و « النمو الحضرى »[١] • فمن بين العوامل الطاردة نجد التضخم السكانى فى المناطق الريفية وما يتصل بذلك من ضآلة فرص الحصول على الأرض التى يمكن فلاحتها والتعيش منها • كذلك فان الطبيعة الموسمية للعمل الزراعى قد تؤدى الى فترة فراغ بين زراعة المحصولات وحصدها ، مما يتيح فرصة الهجرة الى المدينة • ويبدو أن احساس القرويين بالحرمان النسبى مما هو متاح فى المدينة من خدمات قد يكون سببا فى الهجرة الى المدينة خاصة بالنسبة لمن ألفوا الحياة الحضرية ولو لفترة قصيرة • وقـد تكون فترة الخدمة العسكرية ظرفا مهيئا يشجع الفرد على الاقامة فى المدينة بعد أن يكون قـد خبر حياتها • أما العوامـل الجاذبة للقرويين فعديدة ومتنوعة • فالمدينة بالنسبة لهم هى الكهرباء ، والمياه الجارية ، والطرق المرصوفة ، والجامعات ، والمستشفيات وكل ما يتصل بمقومات الحيـاة الحضرية •

وهناك خلاف كبير بين علماء الاجتماع حول أنماط الهجرة الريفية ــ الحضرية فى الدول النامية[٢] • فثمة شواهد تشير الى أن الهجرة تتـم أولا من المناطق الريفية الى المدن الصغرى وصـولا الى المدن الضخمة العملاقة ، بينما نجد شواهد مناقضة تشير الى أن الهجرة تتم مباشرة من القرى الى المدن الكبيرة دون المرور بالمراكز الحضرية الوسيطة • كذلك توضح بعض الدراسات أن معدل هجرة الذكور الى المـدن الافريقيـة والآسيوية أعلى من معدل هجرة الاناث ، وأن معدلات الهجرة الموسمية

---

(1) G. Germani; «Migration and Acculturation»; in p. Hauser (ed.); Handbook for Social Research in Urban Areas (Paris; 1965); pp. 159-178.

(2) P. Mayer; «Labour Migrancy and the Social Network». in J. F. Holleman (ed.) Problems of Transition, London; 1964; pp. 21-34.

ترتفع بالنسبة للعمال الزراعيين الموسميين وعمال التعدين ، وأنهم سرعان ما يعودوا الى قراهم بعد قضاء فترة معينة داخل المدينة[١] • وهناك تحليلات حديثة تميل الى رفض بعض التصورات الشائعة المتصلة بالآثار الضارة الناجمة عن إرتفاع معدلات الهجرة الريفية ـ الحضرية • فالشواهد الاحصائية التى تتناول البناء السكانى لمدن الدول النامية تشير الى أن الزيادة الطبيعية هى المصدر الأساسى للنمو السكانى الحضرى وعلى الأخص فى دول أمريكا اللاتينية ، مما يعنى تقلص دور الهجرة الريفية ـ الحضرية بوصفها مصدرا أساسيا للنمو الحضرى • وهناك شواهد أخرى توضح أن المهاجرين من المناطق الريفية الى المدن لا يفتقرون الى المؤهلات والمهارات التى تمكنهم من الالتحاق بالمهن الملائمة ، وأن تدفق المهاجرين على المدن لا يفرض أعباء جديدة على الهياكل الأساسية لو ان الحكومات تبنت سياسات حضرية رشيدة تستجيب بشكل مباشر لكل المشكلات البيئة[٢] • ومن هنا يذهب بعض العلماء الى أن معدلات التنمية الريفية تلعب دورا كبيرا فى تحديد النمو الحضرى • ففى الصين وكوريا الشمالية بذلت الحكومتان جهودا كبيرا لتنظيم الهجرة الريفية ـ الحضرية من خلال تنمية اقتصادية واجتماعية شاملة للمناطق الريفية المترامية • ومن بين أبعاد هذه التنمية تنفيذ عدد من مشروعات الاصلاح الزراعى ، واقامة المجمعات الزراعية ـ الصناعية ، ودعم شبكات المواصلات وتنويعها ، فضلا عن رفع مستوى التكنولوجيا الزراعية المستخدمة •

وفى ضوء هذه الاعتبارات والقضايا النظرية يمكننا مناقشة الخصائص

---

(1) A. W. Southall; «Determinants of the Social Structure of African Urban Population with Special Reference to Kampala (Uganda)»; in D. Forde (ed.); Social Implications of Industrialization and Urbanization in Africa South of the Sahra (Paris; 1956); pp. 557-78.

(٢) البنك الدولى ، تقرير عن التنمية فى العالم ، واشنطن ، المطبوعات العربية ، باريس ، ١٩٧٩ ، ص ٨١ •

البنائية والثقافية المميزة للحياة الحضرية فى الدول النامية • والواقع أننا لا نطمح فى استعراض الدراسات والكتابات التى تناولت هــذه الخصائص بقدر ما نطمع فى تقديم تحليل مركز وشامل لبعض المظاهر الاجتمــاعية والثقافية كالبناء المهنى ، والعلاقات الشخصية والجماعية ، والحــراك الاجتماعى ، والنظام السياسى ، والحياة الأسرية • واذا كانت مناقشتنا تتعلق أساسا بالحياة الحضرية ، فاننا سنضطر فى بعض الأحيان الى ابراز الاختلافات الريفية ــ الحضرية • ان كثيرا من عناصر الثقافة الحضرية فى الدول النامية قد تفقد معناها دون وضعها فى اطار ثقافى أوســع ، مما يفرض علينا ضرورة الاهتمام بثقافة الفلاحين باعتبارها أحــد مصادر الثقافة الحضرية[١] • ولســوف يتضح لنا الى أى مــدى تتسم الحيــاة الحضرية فى الدول النامية بالتعقيد الشديد ، على الرغم ممــا يذهب اليه بعض علماء الاجتماع من أن المدينة فى العالم الثالث متماثلة البنــاء ، متشابهة الوظائف • وهنا يبــدو صــدق ما قاله كيوبر Kuper فى معرض مناقشاته لظاهرة التحضر فى أفريقيا : « يجب دراسة المدن فى الدول النامية بوصفها وحدات بنائية متنوعة لا يمكن فهمها الا فى ضوء التحليل العلمى المنظم »[٢] •

ولنبدأ أولا بمناقشة البناء المهنى الحضرى فى الدول النامية • ولعل أول ما يمكن أن يقال فى هــذا المجال إن كثيرا من هذه الدول قد شهدت بناءات مهنية حضرية ضخمة نتيجة لحصولها على الاستقلال الســياسى ، وانجازها كثير من مشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية • ومن الطبيعى أن يؤدى ذلك الى نمو التعليم (وعلى الأخص الفنى) ، وظهور مهن جديدة لم تكن معروفة من قبل • على أن أهم خاصية تميز هذه المهن هى الأهمية

---

(١) سوتى أورتز ، « ثقافة الفلاحين » ترجمة السيد الحسينى ، فصل مترجم فى : دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، المرجــع الســابق ، ص ص ٣١٩ ــ ٣٤٠ •

(2) L; Kuper (ed); Pluralism in Africa; Berkeley; 1969; p. 13.

الاجتماعية والسياسية المرتبطة بها • وهناك شواهد حديثة متنوعة تشير الى أن المهن فى مدن الدول النامية تتفاوت فى مكاناتها الاجتماعية ، وأنها تتخذ شكلا هرميا يبدأ من المهن الفنية العليا فى القمة حتى المهن اليدوية فى القاع[1] • وعندما أجريت دراسات عن أنساق المكانة فى بعض المدن الافريقية ، اتضح تباين ملحوظ فيما يتعلق بتقويم الأفراد لمكانات بعضهم البعض ، كما أنهم لا يتبنون معايير موضوعية يمكن من خلالها تحديد موقع المهنة داخل البناء المهنى الكلى • وقد يوحى لنا ذلك بأن المهنة فى المدن الافريقية لاتعبر بدقة عن المكانة الاجتماعية ، وان كنا نجد شواهد مناقضة تؤكد أن الموظفين يحتلون مكانة أعلى من العمال اليدويين• وعلى أية حال فان بامكاننا تفسير هذا الموقف فى ضوء مراحل التطور الاجتماعى والاقتصادى التى تمر بها الدول النامية واختلاف أنساق المكانة من دولة لأخرى •

ويميل بعض علماء الاجتماع عند دراسة البناء الطبقى فى الدول النامية الى ابراز الجمود الذى ينطوى عليه هذا البناء ، مما يحول دون تحقيق الحراك الاجتماعى[٢] • ويستند هؤلاء العلماء فى ذلك الى أن المكانة الاجتماعية فى هذه الدول تتحدد فى ضوء معايير مكتسبة كالعرق والطبقة الاجتماعية ولون البشرة ، بينما تعتمد المكانة الاجتماعية فى الدول الصناعية المتقدمة على معايير الانجاز والأداء • والواقع أن هذه القضية تفتقر الى الصدق فى ضوء نتائج كثير من الدراسات المعاصرة[٣] ، أى انها

---

(1) Clyde Mitchell; «Aspects of Occupational Prestige in a Plural Society»; in P. Lloyd (ed.); The New Elites of Tropical Society; London; 1966; pp. 256-271.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر : محمد الجوهرى ، « البناء الطبقى فى الدول النامية » ، السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، المرجع السابق .

(٣) طرحت باستفاضة وجهات نظرى حول هذه القضية فى دراستى عن « اتجاهات علم الاجتماع فى فهم مشكلات الدول النامية ». انظر: السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، المرجع السابق .

تعانى من قصور واضح اذا ما أخذنا فى اعتبارنا تجارب التنمية فى بعض الدول النامية[١] • وهناك دلائل تشـير الى أن كثيرا من الدول النامية تتجه بالفعل نحو توسيع نطاق الطبقة الوسطى الحضرية وذلك بتشجيع الحراك الاجتماعى الصاعد • بيد أن المشكلة الأساسية التى تواجه هـذه الدول تتمثل فى ظهور عقبات عديدة تحـول دون تحقيق الحراك الاجتماعى على نطاق واسع • من ذلك — مثلا — ضيق نطاق البناء المهنى وعدم تنـوع عناصره ، فضلا عن وجود عناصر اجتماعية وثقافية قد تتصارع فى بعض الأحيان من متطلبات النشاطات الصناعية والتجـارية • ولقـد أوضحت دراسة حديثة أنه برغم ادخال صناعات متطورة فى دولة قطـر ، الا أن التصنيع لم يحدث تأثيرا واضحا على سلوك العمال وقيمهم[٢] • يضـاف الى ذلك ما تعانى منه المدن فى كثير من الدول النامية من قلة رؤوس الأموال الضرورية للاستثمار ، مما يحول دون ظهور فرص مهنية جـديدة • ومن الطبيعى أن تؤثر هذه العوامل على معدلات الحراك الاجتمـاعى فى كثير من مدن العالم الثالث • ومع ذلك يظل صحيحا أن المناطق الحضرية تمثـل مجالا واسعا لتحقيق الحراك الاجتماعى اذا ما قورنت بالمناطق الريفية • فلقد أوضحت بعض الدراسات أن فرص القرويين فى تحقيق الحـراك الاجتماعى داخل القرية تكاد تكون معدومة ، مما جعلهم يربطون بين المدينة والنجاح المهنى[٣] •

ويبدو أن التعليم واكتساب المهارات الفنية هما أكثر العوامل المؤدية

---

(١) السيد الحسينى ، « التقليد والتحديث فى علم الاجتماع المعاصر مع اشارة خاصة لمجتمعات الخليج العربى » ، الندوة العلمية العالمية الثالثة لمركز دراسات الخليج العربى ، منشورات مركز دراسات الخليج العربى ، جامعـة البصرة ، الكتاب الاول ، ١٩٧٩ ، ص ص ٤٢٥ — ٤٤٩ •

(٢) جهينه العيسى ، التحديث فى المجتمع القطرى ، دار كاظمـة للنشر ، الكويت ، ١٩٧٩ •

(3) J. Gibbs; (ed.); Peoples of Africa; New York; 1965; p. 42.

الى الحراك الاجتماعى فى مدن الدول النامية ، على الرغم من أن ذلك كله يتوقف على نمط التنمية الاقتصادية ومدى اتساعها • اذ نلحظ أن نمو المناطق الحضرية لا يؤدى ــ بالضرورة ــ الى زيادة معدلات الحراك الاجتماعى الا بقدر محدود • وأحد الأسباب المفسرة لذلك أن النمو الصناعى والتجارى فى المدن يفوق ــ عادة ــ معــدلات الهجرة الريفية ــ الحضرية • ففى الأولى ارتبط التصنيع بنمو المدن ارتباطا ضروريا وطبيعيا على نحــــو ما رأينا فى موضع سابق • واذا كانت مشروعات التصنيع فى الدول المتقدمة قد أدت الى زيادة معدلات الهجرة الريفية ــ الحضرية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، مما أدى الى ظهور مشكلات حادة بدت بوضوح فى كثير من الكتابات السوسيولوجية التى تناولت هذه الفــترة الزمنية ، الا أن التقدم العام الذى أحرزته هــذه الدول قد مكنها من مواجهة المشــكلات الحضرية بقدر كبير من النجاح • والواقع أننا لا نجد نظيرا لهذه الظروف فى الدول النامية الآن • فالتحضر الذى تشهده لا يصاحبه تصنيع مقابل • ولنا أن نتوقع بعد ذلك ضيق نطاق البناء المهنى الحضرى فى هذه الدول على نحو لايسمح بحدوث معدلات عالية للحراك الاجتماعى[1] • ومن هنا يمكننا فهم طبيعــة الحــراك الذى يحققه المهاجرون الى مــدن الــدول النامية • اذ أنه لا يتصل بجوهر البناء الطبقى بقدر ما يتعلق بقدرة بعض الأفراد على الاستجابة لمتطلبات البناء الصناعى ــ الحضرى •

ومن الصعب فهم البناء المهنى الحضرى فى الدول النامية دون التعرف على بعض العناصر التى تشكل معالم النظام السياسى الذى يؤثر تأثيرا بالغا على الظواهر الحضرية • وربما كانت الهجرة من القريــة الى المدينة أول علامة على تغير نمط السلطة التى يخضع لها المهاجر • ففى ظل الحياة القروية يخضع الفرد لسلطات تقليدية تشتق هيبتها من الدين والقرابــة

---

(1) A. H. Whiteford; Two Cities of Latin America : A Comparative Description; New York; 1964.

والمعرف ، لكنه ما يلبث أن يخضع فى ظل الحياة الحضرية لسلطات مدنية تستمد قوتها من القانون الوضعى • ولقد أوضح ابشتاين Epstein فى دراسته عن تاريخ الحركة النقابية فى زامبيا كيف أن عمال التعدين كانوا يلجأون — فى بداية حركة التصنيع — لرؤساء القبائل ليكونوا بمثابة وسطاء للتفاوض مع الشركات الأجنبية من أجل رفع أجورهم وتحسين ظروف عملهم • وعلى الرغم من أن رؤساء القبائل قد أدوا مهامهم بنجاح فى معظم الحالات ، الا أن نمو الروح الصناعية بين العمال الافريقيين قد دفعهم لتكوين نقابات تستطيع الدفاع عن مصالحهم أمام الشركات الأجنبية • ومن النتائج المترتبة على ذلك تقلص نفوذ رؤساء القبائل وظهور القادة النقابيين كقوة سياسية مؤثرة[1] • وفى بعض الدول النامية التى تتميز بتباين عرقى ، نجد الجماعات العرقية المختلفة تلعب أدوارا سياسية متباينة داخل المدن • فلقد أشار كينيث ليتيل Little الى الروابط العرقية التى تتكون داخل المراكز الحضرية والتى تتألف أساسا من المهاجرين من المناطق الريفية ، وكيف أن أفراد هذه الروابط يسهمون فى مساعدة المهاجرين الجدد على التكيف مع الحياة الحضرية الجديدة[2] • كذلك فلقد توصلت جانيت أبولغد الى نتائج مشابهة فى دراستها عن المهاجرين من المناطق الريفية الى مدينة القاهرة[3] •

ويتعين علينا الاشارة هنا الى الأهمية السياسية للبناء الحضرى فى الدول النامية • فالمدينة أو العاصمة — ان شئنا الدقة — هى مقر الحكومة والأجهزة التنفيذية الأساسية ، كما أنها موطن الاحزاب السياسية والصحافة والاذاعة وكل وسائل الاتصال الجماهيرى • ومن هنا يتضح

---

(1) A. L. Epstein; Politics in an Urban African Commuinty; Manchester; 1958.

(2) Peter Gutkind; Urban Anthropology; op. cit; p. 96.

(3) Janet Abu-Lughod; «Migrant Adjustment to City Life : The Egyptian Case»; in Gerald Breese; The City in Newly Developing Countries; op. cit; pp. 376-388.

المغزى السياسى للعاصمة ، اذ أنها مصدر التوجيه أو التثقيف السياسى • ولقد أوضحت بعض الدراسات الحديثة أن كثيرا من القادة السياسيين فى الدول النامية ينتمون الى أصــول حضرية • وعلى مســتوى الطقــوس والمراسيم فان الزعماء السياسين الاجانب الذين يقومون بزيارة لدولــة نامية يتخذون من العاصمة مقرا لهم ، لأنها تبدو الواجهة السياسية التى من خلالها يرى العالم هذه الدولة • وفى الدول النامية التى تشهد انقلابات سياسية متعاقبة ، يشــعر سكان مدنها بالأهميــة التى تحتلها العــواصم السياسية ، اذ تبدو وكأنها ثكنات عسكرية • وهذا يعنى أن القوة السياسية لم تعد حكرا على السياسيين ، ذلك أن الجيش ــ فى غيبة الديموقراطية ــ يستطيع أن يحسم أى صراع حول السلطة السياسية[1] •

وخلال السنوات الأخيرة حاول بعض علماء الاجتماع التعرف على الدور السياسى الذى يمكن ان يلعبه فقراء المدينة • ويبدو أن الاضطرابات السياسية التى شهدتها بعض مدن أمريكا اللاتينية ومواقف الجماعات الفقيرة منها ، قد دفعت بعض الدارسين الى تحليل المضمون السياسى « للفقــر الحضرى » • فلقد أوضحت جوان نيلسون Nelson فى دراسة لها عن فقراء المدن ودورهم فى احداث التفكك (أو التكامل) السياسى فى دول أمريــكا اللاتينية ، أن المهاجرين الجدد الى المدن وكذلك الفقراء لا يلعبون دورا واضحا ومباشرا فى احداث الاضطرابات السياسية • بل ان خبرات الدول الصناعية المتقدمة تشير الى أن فقراء المدن لم يلعبوا خلال تاريخهم دورا سياسيا هاما • ومع ذلك يتعين علينا الاشارة الى الاختلاف الكبير بين الظروف الديموجرافية والاقتصادية والسياسية التى مرت بها الدول الأوربية خلال القرن التاسع عشر ، وتلك التى تمر بها الدول النامية الآن • ان مثل هــذا الاختلاف قد يجعلنا نذهب الى أن الفقراء الحضريين فى أمريكا اللاتينية

---

(1) Lucian Pye; «Armies in the Process of Political Modernisation; in Jason Finkle and Richard Gable; Political Development and Social Change; John Wiley & Sons; New York; 1971; pp. 277 ff.

وشمال افريقيا وآسيا قد يلعبون دورا هاما فى تحديد السياسات القومية والمحلية ، على الرغم من أن قرنائهم فى الدول الأوربية لم يفعلوا ذلك من قبل[1] • والواقع أن وجهة نظر نيلسون مانزال بحاجة الى مزيد من التحقق والتأمل • فثمة شواهد متناثرة تشير الى ان فقراء المدن فى بعض الدول النامية قد يلعبون دورا سياسيا ولو بطريق غير مباشر ، مما قد يشكل ضغطا على الحكومات عند رسم برامجها الاقتصادية والسياسية • ففى لاجوس ونيروبى حاولت الجماعات الحضرية الفقيرة اقامة روابط وتنظيمات تعبر عن قضاياها أمام القادة السياسيين • وعلى الرغم من أن هذه الروابط لا تتمتع بسلطة سياسية قوية ، الا أن الأجهزة السياسية المركزية لا تستطيع التقليل من شأنها أو تجاهلها • ولقد أشارت دورثى نيلكن Nelkin الى الدور الذى لعبه الفقراء والعاطلين فى المدن خلال فترة الاطاحة برئيس الكونغو برازفيل فى سنة ١٩٦٣[2] •

وهناك خلاف بين علماء الاجتماع حول الاتجاهات السياسية للمهاجرين الجدد الى مدن الدول النامية • فعلى الرغم من أن جوان نيلسون Nelson فى دراستها التى أشرنا اليها قبل قليل قد أوضحت ميل هؤلاء المهاجرين الى تبنى آراء وأفكار سياسية راديكالية ، الا أن فاينر Weiner قد أشار فى دراسة له على مدينة كلكتا الى « أن المهاجرين ليسوا عرضة لتبنى الأفكار السياسية المتطرفة وتأييد الجماعات المعارضة • فاذا كان لساكن المدينة أن يبدى معارضة أو رأيا سياسيا حرا فلابد وأن يتكامل مع المدينة قبل أن يتوصل الى هذا الرأى • كذلك فان الهيئات المختلفة التى يتعامل معها المهاجر (كالأحزاب السياسية ومؤسسات الرعاية الاجتماعية) تعمل على ربطه بالمدينة والحيلولة دون مشاركته فى أعمال العنف السياسى أو تبنى

---

(1) Joan Nelson; «The Urban Poor : Disruption or Political Integration in Third World Cities» World Politics; XXII; 1970; pp. 393-414.

(2) Peter Gutkind; Urban Anthropology; op. cit; p. 100.

أفكار سياسية راديكالية »[١] . ومع ذلك نجد فاينر يقول فى موضع آخر : « اننا لا نستبعد أن يؤدى طوفان الهجرة من الريف الى المـدن المزدحمة الى مشكلات عديدة ، مما قد يسـاعد على ظهور بعض حالات العنف . فبزيادة عدد المهاجرين تزداد الخدمات الحضرية سوءا وتقل فرص العمل المتاحة »[٢] . والواقع أن اختلاف علماء الاجتماع حول الابعاد السياسية للتحضر فى الدول النامية يعـود الى تباين منطلقاتهم الفكرية . فالذين يتبنون التصـور الماركسى يبالغون فى الدور السياسى الذى يمكن أن تلعبه الجماهير الحضرية الفقيرة ، بينما نجد الذين يتبنون التصـور البنائى ــ الوظيفى يؤكدون أهمية التكـامل الاجتماعى الحضرى وابراز الأسـاليب والوسائل التى من خلالها يحقق البنـاء الحضرى تماسكه وقدرته عـلى الاستمرار فى الوجود[٣] . ان تبنى التصور الماركسى فى تفسير هذا الموقف يعنى ــ بداءة ــ أن كثيرا من مـدن الدول النامية تشهد قدرا كبيرا من الاستياء السياسى ، وأن ذلك يمثل أحد العوامل التى قد تسهم فى ظهور انتفاضات وتمردات سياسية . بيد أن الواقع الملموس يشـير الى عكس ذلك . فلم يحدث حتى الآن أن حاولت الجماهير الحضرية الفقيرة ــ وحدها أو بالتعاون مع قطاعات حضرية أخرى ــ القيام بدور سياسى حاسم فى أى دولة من دولة العالم ، على الرغم من التأثير الذى تمارسـه هذه الجماهير على القرارات السياسية[٤] . واذا كان لنا أن نحسم هذه القضية ، فاننا

---

(1) Myron Weiner; «Urbanization and Political Protest»; Civiliza-itons; XVII; 1967; pp. 44-52.

(2) Ibid; p. 51.

(٣) يمكننا أن نشير هنا الى وجهتى نظر متعارضتين تؤكد الأولى الفهم الماركسى لدور فقراء المدينة فى احداث التغير السياسى ، وتنطلق الثانية مـن المفاهيم البنائية الوظيفية فى دراسة التكامل الحضرى انظر :

Andre Frank; «Instability and Integration in Urban Latin America; in Andre Frank; Latin America : Underdevelopment or Revolution; New York; 1969; pp. 248-268; Gideon Sjoberg; «Cities in Developing. . . .» in p. Hauser and L. Schnore; op. cit.

(4) Shanti Tangri; «Urbanization; Political Stability and Economic Growth»; in Jason Finkle and Richard Gable; Political Development and Social Change; op. cit; pp. 212; 226.

نجد ضرورة لتأكيد تدهور البيئة الحضرية فى كثير من الدول النامية ، مما قد يكــون سببا فى ضعف الروابط السياسية بين الحكومــات من ناحية ، وفقراء المدن من ناحية أخــرى • وفى ظل هــذا الموقف يصــبح العنف السياسى الحضرى أمرا طبيعيا ومألوفا •

ويحاول جيرالد بريز Breese النظر الى البعد السياسى الحضرى فى الدول النامية من زاوية مختلفة الى حد ما ، حيث يذهب الى أن كثيرا من هذه الدول قد ورثت من الاستعمار نظما ادارية لا تسمح بتحقيق المشاركة السياسية للجماهير الحضرية ، وأن نسبة كبيرة من سكان المدن ينتمون الى أصول ريفية تسود فيها سلطة القبيلة حتى تكاد تستغرق سلطة الدولــة • وفى كثير من الحالات تواجه الأجهزة الادارية الحضرية ضغوطا عــديدة ليس أقلها تدعيم الهياكل الأساسية للمدن • وبسبب قلة الاعتمادات المادية ونقص الكفاءات الفنية تعجز هذه الأجهزة عن تحقيق ما تكفلت بانجازه • وازاء هذا الموقف قد تجد هذه الاجهزة ما يغريها على الانفــاق المظهرى كاقامة المبانى الحكومية الضخمة ودواوين الرئاسة الفخمة ، مفضلة ذلك على الانفاق الضرورى على بعض المشروعات الأساسية • وبسبب احســاس الجماهير الحضرية بالعجز السياسى والوعود الكثيرة التى يعلنها القــادة السياسيون ، تنشأ هوة سحيقة بين الطرفين ، يدعمها الشــك المتبــادل والثغرات الموجودة فى نظام الاتصال[1] • ومن شأن هذا الموقف أن يسهم فى احداث تفكك سياسى لأنه يستند الى حلقة مفرغة لا تنتهى : وعود وعهود ، فعجز وضعف ، ففشل واخفاق •

وتعــد الأسرة من أكثر النظم الاجتماعية تأثرا بالتحضر فى الــدول النامية • وتبدو أهمية هذه القضية اذا ما أدركنا موقع الأسرة داخل البناء

---

(١) جيرالد بريز ، مجتمع المدينة فى البلاد النامية ، المرجــع السابق ، ص ١٨٤ — ١٨٧ •

الاجتماعى بوجــه عام والبناء الحضرى بوجــه خاص • ويميــل بعض الدارسين الى التمــيز بين الاسرة النووية المألوفة فى الــدول الصــناعية المتقدمة والاسرة الممتدة المألوفة فى الدول النامية[١] • وعلى الرغم مــن الجدل الحاد بين علماء الاجتماع حول مدى صدق هذه النقطة ، الا أن هناك اتفاقا بينهم حول اتساع نطاق الاسرة فى الدول النامية والدور الذى يلعبه النظــام القرابى فى هذا المجــال مما يفرض التزامات وارتباطات جماعية قوية لا تعرفها الاسرة فى الدول الصناعية المتقدمــة • وليس من الصعب علينا الكشف عن التأثيرات الهائلة التى تمارسها الأسرة على مختلف النظم الاجتماعية الأخرى وعلى الأخص فى الدول النامية • فقرار الزواج بين عروسين ليس قرارا شخصيا بقــدر ما هــو قرار اجتماعى يســهم فى ايجاد شبكة جديدة من علاقات القرابة والمصاهرة • وتميل الدراسات الانثروبولوجية والاجتماعيــة الى ابراز الــدور الذى تلعبــه الاسرة فى المجتمعات التقليدية بوصفها وحدة انتاجية استهلاكية تشــتق وجــودها الاقتصادى من النشاطات الزراعية[٢] • ومن خلال هذه الاسرة يكتسب الافراد مهاراتهم ، ويطورون قدراتهم ، ويرتبطون بثقافاتهم ، ومن خلالها أيضا تنمو الروابط القوية التى تسود هذه الاسرة حيث تنشأ الالتزامات المتبادلة وتتحدد معايير للثــواب والعقــاب وتتبلور أســاليب الاشــباع والانجاز • وباختصار فان الروح التى تسيطر على هذه الاسرة التقليدية تقترب مما أطلق عليه دوركايم Durkheim « التضامن الآلى » • ومــن هذه الزاويــة يمكننا فهم التــأثير الذى تمارســه المدينــة على الاسرة المهاجرة اليها من القرية • واذا كان لنا أن نستخدم مصطلح لويس ويرث Wirth ، فان الحياة الحضرية تمارس تأثيرا كبيرا على العلاقات الشخصية

---

(١) علياء شكرى ، الاتجاهات المعاصرة فى دراسة الاسرة ، دار المعارف، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٩ .

(٢) السيد الحسينى ، « القرية فى الدول النامية : تحليل نقدى لبعض اتجاهات التغير الاجتماعى » ، المرجع السابق .

المتبادلة بين الافراد[1] • ففى المدن الكبرى تبدو علاقات الافراد وكأنها نفعية وانقسامية • ومن الطبيعى أن يتعارض ذلك مع العلاقات السائدة فى القرية التى تتصف بالطابع الجماعى العاطفى التكاملى •

وفى ضوء الاعتبارات السابقة يمكننا فهم بعض المشكلات الاسرية المرتبطة بالتحضر فى الدول النامية ، خاصة اذا ما تأملنا المحاولات التى يبذلها المهاجرون للتكيف مع ظروف الحياة الحضرية[2] • فالمهاجر القروى الى المدينة ينتمى الى مجتمع متجانس نسبيا ، لكنه ما يلبث أن يواجه فى المدينة تباينا اجتماعيا قد يصعب عليه فهمه واستيعابه • وعادة ما يضطر المهاجر الى الاقامة ــ لفترة معينة ــ مع زملائه المهاجرين أو بعض أقاربه، وما يلبث بعد ذلك أن يتكيف ــ تدريجيا ــ مع حياة المدينة • كذلك فان المهاجر يواجه ضرورة التكيف مع أسلوب حياة جديدة غير مألوف • فهــو يضطر الى التعامل مع اقتصاد نقدى ، وعليه أن يؤدى يوميا ــ وبانتظام ــ ساعات عمل معينة ، وأن يألف الحياة الخالية من « الدفء الأسرى » • يضاف الى ما سبق أن المهــاجر القروى يجد موطنه الأول فى الاحيــاء المتخلفة من المدينة ، حيث يصــل التخلف الحضرى الى أقصى مــداه • وتعكس هذه الظروف جانبا من التفكك الشخصى الذى قد يصيب المهاجر ، ومن ثم تعكس قــدرا ملحوظا من التفكك الاسرى والاجتماعى • ولقــد أوضحت بعض الدراســات التى أجريت على مدن افريقية أن الامراض الشخصية والاجتماعية تنتشر انتشــارا واضــحا بين أسر المهاجــرين كالانحراف والجريمة والبغاء وادمان الخمور والمخدرات • كذلك أوضحت دراسات أخرى أن « التضخم الحضرى » الناجم عن زيادة معدلات الهجرة

---

(1) Louis Wirth; «Urbanism as a Way of Life»; Paul Hatt and Albert Reiss (ed.); Cities and Society; Free Press; 1957.

(2) UNESCO; Social Implications of Industrialization and Urbanization in Africa South of the Sahara; 1956.

الريفية ـــ الحضرية قد يؤدى فى بداية الأمر الى التفكك الأسرى[١] ، ثم ما يلبث أن يؤى الى فوضى سياسية وعدم استقرار حكومى ناجم عن البؤس والاحباط التى تعانى منها الجماهير الحضرية الفقيرة فى مدن الدول النــامية .

ويبدو ان هناك اتفاقا ملحوظا بين علماء الاجتماع الحضرى حول تأثير الحياة الحضرية الأسرية وعلى الأخص فيما يتعلق بممارسة الضبط الاجتماعى . فبسبب سيطرة العلاقات اللاشخصية فى المــدينة ، تظهر معايير جديدة للحكم على السلوك والتفكير . ويزداد ذلك وضوحا اذا كان الفرد قد قدم الى المدينة منفردا . وبقدر ماتنهار الانمــاط التقليدية تحت وطــأة البيئة الجديدة بقدر ماتظهر أساليب واجراءات جديدة[٢] . مــن ذلك ـــ مثلا ـــ معــايير اختيار القرين أو القرينة ، والقيم المتعلقة بتنشئة الأطفال ومعاملة الزوجات . وفى كل الأحوال فان مكانة المرأة داخل المجتمع الحضرى تتعرض لتغيرات عديدة . ففى القرية تكون المرأة عونا اقتصــاديا من خــلال العمل فى الحقول ، لكنها ماتلبث أن تتحول فى المــدينة الى عبء اقتصادى . ولقد سجل بعض الدارسين وجود تغيرات على نمط والتزامات الضيافة لدى أسر المهاجرين الى مدن الدول النامية . فالمألوف أن تبــدى الاسر الحضرية كرم الضيافة لبعض أقارب القرية لدى وصولهم الى المدينة بحثا عن فرص للعمل[٣] . وعلى الرغم من أن هذه الضيافة لاتخضـــع لقواعد قانونية ، الا أن انخفاض دخل الاسرة الحضرية قــد يدفعهــا الى طلب بعض المســـاعدات المــالية من هؤلاء الضيوف فى مقــابل ايوائهم

---

(١) وليام جود ، « التفكك الأسرى » ترجمــة السيد الحسينى ، محمد الجوهرى وآخرون ، دراسة علم الاجتماع ، دار المعــارف ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٨ ، ص ص ٢٨٥ ـــ ٣٤٩ .

(2) Juan Elizaga; «A Study on Immigrations to Greater Santiago (Chile)»; in Gerald Breese; The City in Newly Developing Countries; op. cit; pp. 332-359.

(3) Peter Gutkind; «African Urbanism; Mobility and Social Network»; in Gerald Breese; ibid; pp. 389-400.

واطعامهم • ولقد أوضحت بعض الدراسات الحديثة أن أطفال المهاجرين الى المدن هم أكثر أفراد الاسر تعرضا للاضطرابات الشخصية • اذ أنهم يعيشون فى ظل بيئة خالية من مقومات الطفولة السعيدة والعلاقات الاسرية المشبعة بسبب تغيب الآباء عن منازلهم لفترات طويلة • ولقد دفعت كل هذه الاعتبارات بعض الباحثين الى القول بأن البيئة الحضرية فى الدول النامية تمارس تأثيرات ضارة على الحياة الاسرية ، وان كنا نجد بعض الدراسات تؤكد أن انتقال الاسرة من المناطق الريفية الى المناطق الحضرية لايؤدى بالضرورة الى انهيار عائلى مباشر •

بيد أننى أعتقد أن الدراسات السابقة قد بالغت فى مدى التدهور أو الضعف الذى يطرأ على الاسرة الريفية بانتقالها الى المدينة ، كما أننى أشك فيما توصلت اليه بعض الدراسات من أن الاسرة الممتدة الشائعة فى المناطق الريفية قد تشكل عقبة تحول دون التنمية الاقتصادية الحضرية التى تؤكد أهمية الانجازات الفردية وتبنى قيم عامة لاتملكها الثقافة الريفية الزراعية[١] • اننا مانزال بحاجة الى التحقق من مدى صدق هذه القضايا باجراء دراسات حضارية مقارنة تكشف عن مدى التنوعات البنائية والثقافية ومدى ملاءمتها للتصنيع[٢] • فاذا كان بعض الدارسين قد أكدوا أن الاسرة النووية بما تنطوى عليه من فردية تتلاءم مع التصنيع ، فاننا نستطيع القول إن الاسرة الممتدة بما تنطوى عليه من التزامات جماعية لا تشكل عقبة تحول دون التصنيع • وهنا نشير الى ما سبق أن أكدناه فى موضع سابق من أن تجارب مختلف دول العالم لم تكشف عن وجود منطق صناعى عالمى • ان كثيرا من التحليلات السوسيولوجية التى تتناول علاقة التحضر بالتنمية الاقتصادية فى الدول النامية تنطلق من

---

(١) السيد الحسينى ، التقليد والتحديث فى علم الاجتماع ، المرجع السابق.

(2) Joseph Gusfield; «Tradition and Modernity : Misplaced Polarities in the Study of Social Change»; in Jason Finkle and ichard Gable; Political Development and Social Change»; op. cit; pp. 15-26.

مسلمة أن الروابط العائلية الممتدة تعوق التقدم الاقتصادى ، وأنها لاتتلاءم الا مع المجتمعات المنعزلة الريفية المرتبطة بالتقاليد والمعارضة لحرية التعبير الفردى • ولقد عبر بيتر ماريس Marris عن وجهة نظره فى هذه القضية قائلا : « إذا كانت أنماط الحياة الأسرية فى أفريقيا المعاصرة تحول فى بعض الاحيان دون استغلال الفرص الاقتصادية ، فان ذلك لايعود الى ارتباط الافراد بتقاليدهم بقدر ما يعود الى الحماية والامان التى تحققها هذه التقاليد • وفى معظم الاحيان فان البناء الاسرى فى كثير من المدن الافريقية يدفع الافراد الى البحث عن المزايا الاقتصادية أكثر مما يعوقهم عن تحقيق المطامح المهنية والمالية »[1] • وبامكاننا تدعيم وجهة النظر هذه بطريقة مختلفة • فاذا كانت الاساليب التقليدية الاسرية قد برهنت على ملاءمتها للمجتمع التقليدى (الزراعى) ، فان الحياة الحضرية قادرة على خلق أساليب حديثة حضرية • أما حسم الصراع بينهما فيتوقف على عوامل عديدة • ومن هنا يتعين تجنب النظرة البنائية الاستاتيكية للعناصر الثقافية الريفية فى مجتمع حضرى ، اذ أنها تخضع للتغير والتعديل دون أن تفقد فى بعض الاحيان أسسها ودعائمها •

وتدفعنا المناقشات السابقة الى تناول التغيرات الاسرية المصاحبة للتحضر فى الدول النامية من منظور أكثر اتساعا ورحابة • وربما كانت أبرز هذه التغيرات تقلص الوظائف التقليدية وظهور وظائف جديدة • فالوظيفة الطقوسية أو الشعائرية سرعان ما تضعف فى ظل الحياة الحضرية لتحل محلها الوظيفة الاقتصادية • واذا كانت الاسرة المهاجرة تتعرض للانكماش فيما يتعلق بالحجم ، الا أنها لا تفقد وجودها تماما خاصة فيما يتعلق ببعض المناسبات كالزواج والميلاد والوفاة • وتبدو هذه الظاهرة أوضح ما تكون فى المدن التى تضم أقليات عرقية وثقافية وسياسية عديدة ومتنوعة • كذلك فان الادوار الاسرية قد تتعرض لبعض التغيرات نتيجة

(1) Peter Marris; Family and Social Change in an African City; London; 1961.

لسيطرة بعض القيم المحبذة للمساواة بين الجنسين • وبالاضافة الى ذلك هناك تغيرات أخرى يمكن التعرف عليها فى يسر وعلى الاخص تلك المتعلقة بأداء الادوار والانجاز والدافعية والصراع والتعاون وغير ذلك من العناصر الثقافية والعمليات الاجتماعية ، وان كنا نجـد الكتابات التى تتناول هذه هذه التغيرات مازال تعتمد على التحليلات النظرية أكثر من اعتمادها على الدراسات الواقعية •

وأغلب الظن ان اهتمام علماء الاجتماع والانثروبولوجيا بالتحليل الكيفى للاسرة الحضرية فى الدول النامية قد حال بينهم وبين دراســة تأثير البناء السكانى للمدينة على الحياة الاسرية والزواجية عموما • فمن المألوف أن نجد شذوذا فى التوزيع النوعى فى المدن الصــغرى ، ثم يزداد هــذا الشذوذ تطرفا فى المدن الكبرى[1] • ويصل هذا الشــذوذ النوعى أقصى مداه فى دول الخليج العربية • ففى دولة الامارات العربية تصل نســبة الذكور بالنسبة للاناث الى حوالى ٢٢٥٪[2] • وتفسير ذلك متاح • اذ أن مدن الدول النامية تجذب عموما الذكور الشباب غير المتزوجين ، ممــا يؤدى فى النهاية الى اختلال نسبة الذكور بالنسبة لنسبة الاناث • ومــن الطبيعى أن يؤدى هذا الاختلال الى نتائج عديدة • من ذلك أن فرص الشباب فى الحصول على زوجات تبدو ضئيلة فى هذه المدن ، مما قد يدفعهم الى العودة الى قراهم الاصلية للبحث عن قرينات • أما فيما يتعلق بالنسبة الضئيلة من الاناث اللائى يعشن فى المدينــة فانهن قــد يواجهن بعــدة احتمالات : من بينها زيادة مكانتهن ، واكتساب مزيد من الحرية الفردية ،

---

(١) ففى الهند — مثلا — لوحظ ان المناطق الحضرية بصفة عامة تضم ١٢٣ رجلا لكل امرأة ، وتزداد هــذه النسبة فى المــدن الكبرى لتصــل الى ١٦٢ رجلا لكل مائة امرأة : انظر
«Bombay Migration Study : A Pilot Analysis of Migration to a Asian Metropolis»; in Gerald Breese; The City in .... op. cit; pp. 300-376.

(٢) نادر الفرجانى ، « استخــدام الأيدى العاملة فى الــدول العربيــة الخليجية » ، المعهد العربى للتخطيط ، الكويت ، ١٩٧٩ •

بل قد يصل الامر فى بعض المدن الافريقية الى حصولهن على قـــدر من الحرية فى اقامـــة علاقات جنسية خارج نطاق الزواج[1] • وفى المـــدن الآسيوية التى تتألف من جماعات عرقية ودينية متباينة يبـــدو الزواج انضوائيا ، أى أنه يتم من داخل هذه الجماعات • وبقدر ما تتفاوت هذه الجماعات فى حجمها بقدر ما تتباين فرص الحصول على قرين أو قرينة • وفضلا عن ذلك أوضحت بعض الدراسات الحديثة أن المهاجرين الريفيين الى مدن الدول النامية يعبرون عن تصورات أولية نحو الزواج والحـــياة الاسرية • فالزوجة بالنسبة للزوج تبـــدو مجرد طاهية لطعامه ، محققة لاشباعاته الجنسية • أما الاعتبارات العاطفية فلا تحتل الا أهمية ثانوية لدى هؤلاء المهاجرين[2] • كذلك لوحظ فى بعض مدن أفريقيا أن نـــدرة النساء قد تسهم فى تخريب الحياة الزواجية بسبب الاغراءات التى تتعرض لها الزوجات لممارسة علاقات جنسية خارج نطاق الزواج فى ظل ظروف اقتصادية قاسية ، حتى أن كثيرا من المهاجرين الى هذه المدن يعبرون عن مخاوفهم من اقامة علاقات زواجية بسبب عدم الثقة المحتملة بينهم وبين زوجاتهم فى المستقبل • ويبدو ان المهاجرين الريفيين الى المـــدن الافريقية يميلون الى اعتبار الحياة الحضرية غير ملائمة لتنشئة أطفالهم ، اذ أنهـــا تخضعهم لكثير من الضغوط التى لا يستطيعون مقاومتها فى ظل الظروف الاقتصادية والبيئية القاسية • وعلى الرغم مما توصلت اليه الدراسات التى تناولت آثار التحضر على البناء الاسرى فى الدول النامية ، الا أن ذلك لايدفعنا الى القول بأن هذا البناء يتعرض لعملية « تآكل » ، اذ أن التغير الذى يطرأ على هذا البناء لا يتعلق بجانب واحد ، بقدر ما يتصـــل بالاسرة كوحدة بنائية شاملة •

ونختتم هذه المناقشة بتناول التغيرات الفكرية أو المثالية الناجمـــة عن

(1) Peter Gutkind; Urban Anthropology; op. cit p. 109.

(2) Peter Marris; Family and Social Change in an African Life; op. cit; p. 112.

التحضر فى الدول النامية . ومنـــذ البداية نود أن نشير الى أن التراث السوسيولوجى المعاصر يميل الى تأكيد قضية أساسية هى ، أن الزيادة السكانية والهجرة والاتصال الثقافى والتعليم قد أدت جميعها الى حـــدوث تغيرات هامة على الانساق الفكرية التى تؤمن بها الجماعات المختلفة . ويبرر علماء الاجتماع ذلك بأن التحديث والتحضر قد فرضا انساقا فكرية مثالية قادرة على التلاؤم معهما[1] . ففى المجتمعات المحلية الريفية الصغيرة يميل أفرادها الى الايمان بمعتقد واحد يفسرون من خلاله الظواهر الخارقة للطبيعة التى لا تخضـــع لمنطق واضح ملموس . كمـــا أن هؤلاء الافراد يمنحون التقاليد أهمية بالغة ، فهى مصـــدر التوجيه والالهام . ومن هنا تتضح الأسباب الكامنة وراء تأكيد هؤلاء العلماء للتعارض الصريح بين عناصر المجتمع التقليدى من ناحية ، ومقومات التحديث من ناحية أخرى . ومعنى ذلك أن القرية الصغيرة تتعرض لضغوط داخلية وخارجية تؤدى فى النهاية الى انهيار الانساق الفكرية القديمة وظهور أنساق أخرى حديثة . بيد أن هذه الأنساق الأخيرة لاتظهر من فراغ ، اذ انها تستند الى بعض المثاليات والتصورات القديمة المرتبطة بجوهر الحياة الاجتماعية . وهنـــا يبدو أن تأثير التعليم والتكنولوجيا قويا وعميقا ، لانهما يستطيعان القاء الشكوك حول كثير من المسلمات المثالية السائدة .

ويبدو أن الحياة الحضرية تميل الى تأكيد أهمية المبادىء والتكيف مع الظروف الاجتماعية والسياسية المتغيرة . فنظرة ساكن المدينة نحـــو العالم تتأثر الى حد كبير بمستوى ثقافته وتعليمه بوجـــه عام . ومن هنا يمكن فهم المحاولات العديدة التى يبذلها المهاجر الجديد الى المدينة من أجـــل

(١) انظر على سبيل المثال :
L. Rudolph and S. H. Rudolph; The Modernity of Tradition; Chicago; 1967; M. Singer; «The Modernization of Religious Beliefs»; in M. Weiner (ed.); Modernization : The Dynamics of Growth; New York; 1966; pp. 55-67.

التكيف مع الحياة الحضرية وما تتضمنه من عناصر ثقافية ومثالية • وتشمل هذه المحاولات الحصـــول على وظيفة أو عمل ملائم ، واقامـــة صداقات قوية ، والانتماء الى الجماعات أو الروابط المختلفة • وباختصار فانه يحاول ارساء دعائم « الحياة السعيدة » كما يتصورها بعد أن أجبر على التخلى عن « الحياة المستقرة » التى ألفها فى القرية قبل هجرته • ومن الطبيعى ألا يتحقق ذلك بطريقة آلية ، خاصة اذا ما كان الامر متعلقا بالثقافة أو ان شئنا التحديد « أسلوب الحياة » • ويبدو أن الحضريين فى معظم الدول النامية ــ سواء مهاجرين أو مقيمين ــ قد تعرضوا لهذه التغيرات الفكرية أو المثالية ، أو بعبارة أخرى عاشوا حالة الصراع بين ثقافتين متباينتين • وربما كان ماير Mayer وبودرميكر Powdermaker من أبرز علماء الاجتماع والانثروبولوجيا اهتماما بهذه القضية ، حيث نجدهما يميزان بين فئتين من سكان المدن فى الدول النامية : الاولى تضم أولئك الذين تخلوا تماما عن ثقافتهم الريفية القديمة واتخذوا من المدينة مقرا دائما لهم • أما الثانية فتضم أولئك الذين يعيشون فى المدينة باجسامهم بينما يعتمدون على الثقافة القرية فى ســـلوكهم ومعتقداتهم[١] • والواقـــع أن ظاهرة التعايش بين الانساق القيمية الريفية والانساق القيمية الحضرية تعـــد من الظواهر المألوفة فى مدن دول العالم الثالث حتى أننا لانجـــد دراسة حديثة حول هذا الموضوع تغفل الاشارة اليها[٢] • واذا ما سلمنا بوجهة النظر الذاهبة الى حتمية الصراع الثقافى الـــذى يتعرض لـــه المهاجر الى المدينة ، فان ذلك يتطلب منا الاشارة الى أن نوعية هذا الصراع وشدته تتوقفان على خبرات المهاجر الاجتماعية والسياسية والثقافية • اذ أننا نفترض أن المهاجرين الى مدن الدول النامية يتفاوتون تفاوتا شديدا فيما يتعلق بهذه الخبرات •

---

(1) H. Powdermaker; Cooper-Town : Changing Africa; New York; 1962.

(2) George Theodorson; «Acceptance of Industrialization and its Attendant Consequences for the Social Patterns of Non-Western Societies»; in Jason Finkle and Richard Gable; Political Development and Social Change; op. cit; pp. 204-212.

كذلك فاننا لانستطيع قبول الثنائية التى أشار اليها بودرميكر Powdermaker حينما ميز بين ما أطلق عليهم « الحضريين » و « التقليديين » فى ضوء أنساق المعتقدات السائدة بينهم . إذ أن ما أطلق عليهم « بالتقليديين » لايعبرون عن تحفظاتهم ازاء الحياة الحضرية الا فى حالات الفشل أو الاستياء أو عدم الاندماج الكامل مع حياة المدينة . ولقد أوضحت بعض الدراسات الحضرية أن خصائص « الحضريين » فى مدن الدول النامية تشيع بصفة خاصة لدى المستويات الطبقية الدنيا ، وأن ذلك يكاد ينطبق دون استثناء على لاجوس وأكرا وكامبالا ونيروبى[1] . إن وصف « التقليديين » بالخصائص الريفية يعنى أن ثقافة القرية لم تتعرض هى الأخرى للتغير ، وهو ما يتعارض مع ما توصلت اليه الدراسات الريفية المعاصرة[2] . واذا ما سلمنا بحدوث تغير على ثقافة القرية فلابد وأن نسلم بحدوث تغير مواز على المهاجر « التقليدى » . ولقد قصدنا باثارتنا لهذه القضايا القاء الشكوك على بعض المسلمات الشائعة فى الدراسات الاجتماعية الحضرية ، ذلك أن السيطرة والهيمنة التى حققها علم الاجتماع الغربى قد فرضت نوعا من التعصب الفكرى العنصرى بحيث بدا كل ما هو غير غربى مرادف لكل ما هو تقليدى . وأعتقد أن الدراسات الحضرية المقارنة يمكن أن تكون بداية للقضاء على هذا التعصب ، كما أن تبنى منطلقات فكرية وايديولوجية مرنة وواسعة يجب أن يكون هدفا أساسيا ، ليس فقط بالنسبة لدراسة الظواهر الحضرية ، بل أيضا بالنسبة لدراسة الظواهر الاجتماعية بوجه عام .

---

(1) A. L. Epstein; «Urbanization and Social Change in Africa»; in Gerald Breese; The City in Newly Developing Countries; op. cit; pp. 246-287.

(٢) السيد الحسينى ، « القرية فى الدول النامية » ، المرجع السابق ، وانظر أيضا جدعون جوبرج ، « الفروق الريفية — الحضرية : دراسة فى علم الاجتماع الريفى » ، ترجمة محمود عودة ، محمد الجوهرى وآخرون ، ميادين علم الاجتماع ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ص ٦٦ — ١١٩ .

الفصل الرّابع

المدينة بين المكان والسكان : نظرتان

مع أن الاهتمام بدراسة المدينة قديم قدم الحضارات الانسانية التى أقامها الانسان ، الا أن الدراسة الجادة لها كانت أحد النتائج الهامة المرتبطة بنشأة علم الاجتماع وتطوره • فكثير من كتابات العلماء الاجتماعيين من أمثال ماركس Marx وماكس فيبر Weber ودوركايم Durkheim تعكس اهتماما ملحوظا بالمدينة الغربية التى اتخذت شكلا طاغيا بحدوث الثورة الصناعية • ومن الطبيعى أن تحتل وجهات النظر التى قدمها هؤلاء العلماء أهمية تاريخية وسوسيولوجية • فهى تتضمن تسجيلا لما طرأ على المدن الغربية ، وهى فى الوقت ذاته تمثل مدخلا كلاسيكيا واسع النطاق لفهم المدينة الغربية نتيجة للثورة الصناعية[1] • ولاشك أن علماء اجتماع القرن التاسع عشر قد عالجوا المدينة من منظور واسع • اذ نجد ماركس يربط نمو المدن بالتحلل الذى طرأ على المجتمع الاقطاعى الزراعى • ومعنى ذلك أنه قد درس نمو المدن الغربية فى ضوء التحولات العامة التى طرأت على المجتمع الغربى وعلى الأخص التناقضات داخل المجتمع الاقطاعى وظهور المجتمع الرأسمالى ذاته[2] • أما ماكس فيبر فقد ربط نمو المدن بالتغيرات الاساسية التى طرأت على الثقافة الغربية وعلى الأخص القيم الدينية • وعلى الرغم من التباين الظاهر فى المنطلقات الفكرية لهذين الرجلين ، الا أنهما قد نظرا الى المدينة الغربية نظرة بنائية تاريخية •

---

(1) P. Abrams; «Towns and Economic Growth : Some Theories and Problems»; in P. Abrams and E. Wrigley (eds) Towns in Societies; Cambridge University Press; 1978; pp. 9-34.

(2) M. Dobb; Studies in the Development of Capitalism; London; 1946.

على أن دراسة المدينة قد اتجهت خلال القرن العشرين نحـــو مزيد من التخصص والتحديد • ومن اليسير تفســير هــذه النقطة فى ضـــوء التطورات التى مرت بها العلوم الاجتماعية خلال العقود الاخـــيرة[١] • فلقد أصبحت المدينة موضوعا لدراسة علوم كثيرة لعل أهمها : الاجتماع ، والجغرافيا ، والاقتصاد ، والسكان ، والسياسة ، فضـــلا عن العـــلوم التطبيقية الاخرى كتخطيط المدن والهندسة المعمارية • ولقد صاحب هـــذا التخصص تطورات هامة طرأت على مناهج البحث وعلى الأخص سيطرة النزعتين الكمية والاجرائية • لقد انشغل عدد من علماء الاجتماع الحضرى خـــلال الجانب الاكبر من القرن العشرين (وعلى الأخص فى الولايات المتحدة) بتصميم أدوات قياسية عديدة من أجل فهم الظواهر الحضرية ، واتخذ ذلك رد فعل طبيعى للنظريات الكبرى التى ظهرت فى أوربا خـــلال القرن التاسع عشر[٢] • واذا كنا نلمس فى الوقت الحاضر اتجاهات نظرية متعددة ومتصارعة فى دراسة المدينة ، فان ذلك لا يعنى تنوع الواقع الحضرى بقدر ما يعنى تعدد التصور السوسيولوجى • وفى محاولة لتصنيف النظريات السوسيولوجية المفسرة للمدينة ، نجـــد جوبرج Sjoberg يحـــدد أربعة اتجاهات نظرية أساسية هى المدينة كمتغير أساسى ، والتكنولوجيا ، والقيم الثقافية ، والقوة أو السلطة[٣] • وعلى الرغم من أن هذا التصنيف قـــد يسهم كثيرا فى فهم السياق الثقافى والبنائى للمدينة ، الا أن الحدود بين الاتجاهات النظرية قد تتلاشى فى خضم المعالجة السوسيولوجية • لذلك

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر : السيد الحسينى ، نحو فهم جديد لقضايا علم الاجتماع : دراسة فى مشكلات النظرية والمنهج » ، مقدمة الترجمة العربية لكتاب الكس انكلز ، مقدمة فى علم الاجتماع ، ترجمة محمد الجوهرى وآخرون ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

(٢) انظر محمد عاطف غيث ، علم الاجتماع الحضرى ، مدخل نظرى ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٢ . حيث نجد معالجة مستفضية لبعض الاتجاهات النظرية فى دراسة المدينة .

(٣) جدعون جوبرج ، علم الاجتماع الحضرى المقارن ، ترجمة الســـيد الحسينى ، فى دراســـات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ص ١٣ — ٤٩ .

يبدو لنا أن التصنيف الاولى البسيط الواسع قد يكون أكثر فائدة فى هــذه المرحلة من تطور علم الاجتماع الحضرى • لذلك فاننا نميز هنا بين اتجاهين نظريين يكاد ينطلق منهما معظم علماء الاجتماع الغربيين فى دراسة المدينة • أما الاتجاه الأول فهو ايكولوجى حيث يسلم بأن جوهر المدينة يتمثل فى تركز عدد كبير من السكان فى منطقة جغرافية محدودة • ويهتم هذا الاتجاه بدراسة تأثير حجم المدينة وكثافتها على التنظيم الاجتماعى • كذلك فان هذا الاتجاه يسلم بأن وصف الفرد « بالحضرية » أو « القروية » يتوقف ـــ أساسا ـــ على عدد سكان المنطقة التى يعيش فيها • ولعــل القضية الاساسية التى ينهض عليها هذا الاتجاه هى أن عدد سكان المنطقة يلعب دورا أساسيا فى تحديد طابع التنظيم الاجتماعى السائد فيها • ومن بين العناصر التى يستند اليها التنظيم الاجتماعى : أساليب توزيع القــوة ، وتنفيذ القرارات ، وتنظيم النشـــاطات التعاونية ، ومواجهة الصراعات ، وأساليب الاتصال ، والتنشئة الاجتماعية ، فضـــلا عن تحقيق قــدر من الاتفاق على الاهداف العامة[1] • أما الاتجاه النظرى الثانى فهو تنظيمى ، حيث ينطلق من دراسة أنماط السلوك الصادرة عن السكان الحضريين • والهدف الاساسى الذى يسعى الى تحقيقه هذا الاتجاه هو دراسة العمليات التى من خلالها تنمو المدن أو تنكمش • على أن التمييز بين هذين الاتجاهين لايعنى انعدام الصلة بينهما ، فكلاهما يربط بين حجم السكان فى المدينة وأنماط السلوك الصادر عنهم • غير أن ما يميز بينهما هو أن الاتجــاه الايكولوجى يميل الى معالجة التغيرات التى تطرأ على التنظيم الاجتمــاعى بوصفها نتيجة للتغيرات التى تطرأ على الحجم ، بينما يميل الاتجاه التنظيمى الى معالجة هذه التغيرات التى تطرأ على التنظيم الاجتماعى بوصفها سببا للتغيرات التى تطرأ على الحجم[2] • وقد نستنتج من ذلك أن وصف الفرد

---

(1) R; N; Morris; Urban Sociology : George Allen and Unwin LTD; 1968.

(2) P. Mann; An Approach to Urban Sociology; Routledge and Kegan Paul; London; 1968; Chap. 7.

« بالحضرية » أو « القروية » ــ طبقا للاتجاه التنظيمى ــ يتوقف على طبيعة السلوك الصادر عنه •

وعلى الرغم من ظهور اتجاهات نظرية سوسيولوجية عديدة حاولت فهم بناء المدينة ودينامياتها ، الا أن هذه الاتجاهات قد أدخلت فى اعتبارها القرية كوحدة بنائية مقابلة للمدينة • وربما كان ذلك أحد الاسباب القوية التى دفعت كثيراً من علماء الاجتماع الى الاهتمام بدراسة الفروق الريفية ــ الحضرية • فلقد اكتسبت هذه الدراسة طابعا علميــا مع مطلع القــرن العشرين نتيجة للتطور الذى طرأ على مناهج البحث فى علم الاجتماع ، والذى تمثل فى بداية الأمر فى تطوير نماذج مثالية Ideal Types يقيمها الباحث بنفسه من خلال تجريد خصائص الموضوع الذى يهتم بدراسته وذلك بهدف فهم العالم الواقعى ، حيث يعتبر النموذج المثالى أداة ملائمة لتحليل الاحداث التاريخية الملموسة أو المواقف الواقعية ، ومفهوما محددا يمكن أن نقارن به المواقف والافعال ، فضلا عن أنه يمثل أداة منهجية تمكن الباحث من السيطرة الفكرية على البيانات الواقعية[1] • ولقــد ساعدت فكرة النماذج المثالية بعضا من رواد علم الاجتماع فى وصف المجتمعات والمقابلة بينها ، فقدموا ثنائيات تتقابل بين نوعين متباينين من المجتمعات يختلفان عادة اختلافا أساسيا فى الخصائص والسمات المميزة لكل منهما • فعلى سبيل المثال نجــد هنرى مين Maine يميز بين مجتمع يرتكز على المكانة وآخر يستند الى العقد ، وتونيز Tonnies يفرق بين المجتمع المحلى والمجتمع ، وهوارد بيكر Becker يقيم تفرقة بين المجتمع المقدس والمجتمع العلمــانى ، ودوركايم Durkheim يميز بين مجتمع يقــوم على التضامن العضوى وآخر يستند الى التضامن الآلى ، وردفيلد Redfield يحــدد

---

(١) السيد الحسينى ومحمد على محمد ، ماكس فيبر ، المجلة الاجتماعية القومية ، المجلد الرابع ، العدد الثانى ، مايو ١٩٦٧ ، ص ص ١٠٥ ــ ١٣٤ •

خصائص المجتمع الشعبى فى مقابل خصائص المجتمع الحضرى[١] •

بيد أن الخصائص التى قدمها ردفيلد لوصف المجتمع الشعبى كان لها أبلغ الاثر فى تطــور دراسة الفروق الريفية ــ الحضرية • فالمجتمع الشعبى كما يقول : « صغير ، منعزل ، أمى ، متجانس ، يربط بين أعضائه احساس قوى بالتضامن •• والســلوك فيه تقليدى وتلقائى وشخصى • وفى هذا المجتمع يطغى كل ما هو مقدس على كل ما هو علمانى ، كمــا أن الاقتصاد يعتمد على المكانة أكثر من اعتماده على السوق »[٢] • واذا كان ردفيلد قد أشار الى أن ملامح المجتمع الحضرى يمكن أن تتحدد بالنظر الى الخصائص المميزة للمجتمع الشعبى ، فان لويس ويرث Wirth قد خصص مقالا مطولا حدد فيه الخصائص التى تميز المجتمع الحضرى فى مقابل تلك التى حددها ردفيلد للمجتمع الشعبى • « فكلما زاد عدد السكان ، وارتفعت معــدلات كثافتهم ، وعظم تباينهم ، عبر ذلك عن الخصائص المرتبطــة بالحضرية ، تلك التى تتمثل فى ضعف روابط القرابة والجيرة وتضاؤلها • ونتيجة لذلك تظهر المنافسة ووسائل الضبط الاجتماعى الرسمى لتحل محل روابط التضامن • كذلك فان العلاقات السائدة بين أفراد المدينــة تبــدو ثانوية وسطحية وانتقالية وانقسامية »[٣] • وعلى الرغم من الاهمية النظرية التى تنطوى عليها الثنائيات ، الا أن كثيرا من دارسى التحضر يرون أنها لا تمثل ســوى وسيلة مبدئية يصعب الاعتماد عليهــا كلية فى التمييز بين

---

(1) P. Hauser; «Observations on the Urban-Folk and Urban-Rural Dichotomies As Forms of Western Ethnocentrism»; in P. Hauser and L. Schnore (eds) The Study of Urbanization; New York; 1965; pp. 503-518.

(2) R. Redfield; «The Folk Society» in P. Hatt and A. Reiss Jr; (eds.); Cities and Society; Free Press of Glencoe; Inc; N. Y; 1968; pp. 30-45.

(3) L. Wirth; «Urbanism as a Way of Life»; in A. Reiss Jr; and P. Hatt (eds) Ibid; pp. 46-64.

الريف والحضر ، لانها تغفل عاملا هاما من عوامل تشكيل هذه المجتمعات هو : التغير . ولعل ذلك يفسر لنا كثرة التحفظات التى أثيرت حول ثنائية « ريفى — حضرى » فى كثير من الكتابات المتعلقة بهذا الموضوع . فعلى سبيل المثال نجد سوروكين Sorokin وزيمرمان Zimmerman يذهبان الى أن « التجول من المجتمع المحلى الريفى الخالص الى مجتمع حضرى لايتم فجأة ، ولكنه يحدث بشكل تدريجى . فليس ثمة خط أو حد مطلق يستطيع ان يكشف لنا عن وجود فارق فاصل بين المجتمع الريفى والمجتمع الحضرى[1] .

وفى مواجهة الانتقادات العديدة التى وجهت الى النماذج المثالية ، ظهر اتجاه آخر يطلق عليه مركب السمات trait complex . وعلى الرغم من أن هذا الاتجاه الاخير ليس بعيدا تماما عن فكرة النموذج المثالى، الا أن أهم ما يميزه هو اعتماده فى التمييز بين الريف والحضر على خصائص واقعية أو متغيرات يحاول أن يربط بينها لكى يحدد فى النهاية السمات التى تميز كلا من المجتمعين الريفى والحضرى . غير أن ذلك لم يمنع بعض الدارسين من أمثال سوروكين وزيمرمان من الاعتماد على متغير سببى واحد ينطلقون منه لدراسة السمات الاخرى التى يفترض أنها ترتبط به ارتباطا وثيقا كالمهنة والحجم وكثافة السكان . ويميز بعض أصحاب هذا الاتجاه بين التحليل الكيفى والتحليل الكمى للسمات المميزة لكل من الريف والحضر . وتعد المهنة نموذجا للاول (الكيفى) بينما يعتبر الحجم أو كثافة السكان نموذجا للثانى (الكمى) وبغض النظر عن المدخل الذى يمكن من خلاله دراسة الفروق الريفية — الحضرية فى هذا الاتجاه ، فان النتيجة التى خلص اليها الباحثون هى أن هناك سمات متعددة مرتبطة

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر : السيد الحسينى ومحمد على محمد . « الفروق الريفية — الحضرية فى بعض الخصائص السكانية : تحليل احصائى »، الحلقة الدراسية الأولى لعلم الاجتماع الريفى فى مصر ، منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٧١ .

فيما بينها ارتباطا سببيا بحيث تشكل عموما الخصائص المميزة لكل من المجتمعين الريفي والحضري • ومن بين هذه الخصائص : الفروق المهنية والبيئية ، وحجم المجتمع ، وكثافة السكان وتجانسهم أو تباينهم ، ومعدل الحراك الاجتماعي ، واتجاه الهجرة ، ونمط التباين الاجتماعي ، وأنساق التفاعل •

على أن سيطرة النزعتين الكمية والاجرائية على علم الاجتماع الامريكي قد دفعت بعض العلماء الى صياغة مفهوم كتب له الذيوع والانتشار هو « المتصل الريفي ــ الحضري » Rural-Urban Continuum حيث يشير الى وجود نمط من التدرج القائم بين المجتمعات طبقا لدرجات « الريفية » و « الحضرية » بحيث يصبح من اليسير بعد ذلك أن يقع أى مجتمع انسانى على نقطة معينة من هذا المتصل • واذن فتعريف الريف أو الحضر يتم فى ضوء الفروق الكمية المميزة للمجتمعات المحلية الريفية والحضرية • كذلك يفترض أصحاب هذا الاتجاه أن تعريف المجتمعات المحلية وفقا لقطبى النموذج المثالى « شعبى فى مقابل حضرى » ، انما ينطوى ضمنيا على فكرة متصل للمجتمعات المحلية ، ذلك أن كل الشواهد الواقعية التى تناولت المجتمعات المحلية يمكن أن تقع على نقطة معينة من هذا المتصل[1] • وتستند فكرة المتصل الريفي ــ الحضري الى افتراضين أساسيين : الاول هو أن المجتمعات المحلية تتدرج بشكل مستمر ومنتظم من الريفية الى الحضرية وفقا لعدد من الخصائص continuous graduation ، والثانى أن هذا التدرج يصاحبه بالضرورة اختلافات أو فروق **متسقة** consistent variation فى أنماط السلوك[2] • وعلى الرغم من أن أصحاب فكرة المتصل الريفي ــ الحضري لم يحصروا لنا تلك الفروق

---

(1) P. Hatt and A. Reiss (ed.) Cities and Society; op. cit. The Introduction.

(2) S. Queen and D. Carpenter; The American City; N. Y; Macmillan Hill Book Co; 1958; p. 38.

المتسقة التى تحدث فى أنماط السلوك والمصاحبة للتدرج المستمر فى بعض المجتمعات ، الا أننا نستطيع القول بأن هذه الفروق تتبدى فى بعض الخصائص الاجتماعية والسكانية التى درج علماء الاجتماع الحضرى على الاشارة اليها والتى أهمها : البناء المهنى ، وتقسيم العمل ، والتدرج الاجتماعى ، والحراك الاجتماعى ، والمشاركة فى التنظيمات الطوعية ، والعزلة المكانية ، والتساند الوظيفى ، والعلاقات الاجتماعية ، ووسائل الضبط الاجتماعي[1] • وعلى الرغم من أن المتصل الريفى — الحضرى قد استطاع التغلب على المشكلات القياسية التى واجهت كلا من النموذج المثالى ومركب السمات ، الا أنه مايزال بحاجة الى مزيد من الاختبار الواقعى فى مجتمعات مختلفة وثقافات متباينة • ففى تركيا والهند ووسط أفريقيا لم يكن هناك اتصالا واضحا فيما يتعلق بالخصائص الاجتماعية المرتبطة بالحضرية والقروية ، بحيث يمكن القول إنه ليس ثمة تحققا واقعيا لفكرة المتصل[2] • ولقد عبر بوكوك Pocok عن هذه النقطة بعد دراسة ميدانية أجراها فى الهند بقوله : « إن المدينة التى أدرسها مدينة هندية ، والقرية قرية هندية • ولقد حاولت فى هذا المقال أن أسير فى طريق يمكن أن تبرز فيه الفروق بين هذين الشكلين من الاستيطان البشرى، فانتهيت الى أن علم الاجتماع فى الهند لا يمكن تقسيمه الى علم اجتماع ريفى وعلم اجتماع حضرى »[3] • وفى مصر أوضحت دراستنا عن الفروق الريفية الحضرية فى بعض الخصائص السكانية أن فكرة المتصل لم تتحقق

---

(1) O. Lewis; «Further Observations on the Folk-Urban Contiuum and Urbanization With Special Reference to Mexico City»; in P. Hauser and L. Schnore (eds.) The Study of Urbanization; op. cit; pp. 491-502.

(2) R. Pahl; «The Rural-Urban Continuum»; in R. Pahl (ed.); Readings in Urban Sociology; Pergman Press; London; 1968; pp. 280-288.

(٣) جدعون جوبرج ، « الفروق الريفية الحضرية » ترجمة محمود عوده فى ميادين علم الاجتماع ، ترجمة محمد الجوهرى وآخرون ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، الطبعة الثالثة .

الا بشكل جزئى • فعلى سبيل المثال تحقق المتصل فيما يتعلق بخاصيتى العمر والحالة الزواجية[١] •

واذا ما أمعنا النظر فى كثير من الدراسات المعنية بالفروق الريفية ـ الحضرية ، لاحظنا أنها تعانى من ثغرات عديدة • فكثير من التعميمات التى توصلت اليها لاتكاد تنطبق الا على المجتمعات الصناعية الغربية المتقدمة ، كما أنها تميل الى تشبيه ظروف التحضر التى تشهدها الان الدول النامية بظروف التحضر التى شهدتها من قبل الدول الصناعية الغربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر • ولقد أوضحت فى موضـــع سابق أن التحضر الذى شهده العالم الغربى كان مرتبطا أوثق الارتباط بالتصنيع والنمـــو الاقتصادى الحضرى ، بينما لاتشهد الآن مدن العالم الثالث ثورة صناعية أو نموا صناعيا هائلا يبرر زيادة أحجامها • كذلك فان كثيراً من الدراسات الريفية ـ الحضرية قد مالت الى تأكيد الطابع التضامنى الذى يربط القرية بالمدينة • إن العلاقة التى تربط القرية بالمدينة (وعلى الاخص فى الـــدول النامية) ليست علاقة بين طرفين متكافئين • ومن هنا فنحن نميل الى دراسة العلاقة بين القرية والمدينة فى ضوء مفاهيم كالقوة والسلطة لا فى ضـــوء مفاهيم كالتكامل والتساند • ان التسليم المطلق بفكرة المتصل الريفى ـ الحضرى يجعلنا نذهب الى أن الفرق بين القرية والمدينة هو فرق فى الدرجة لا فى النوع • ومن شـــأن ذلك أن يبعدنا عن فهم السيطرة التى مارستها المدينة على القرية لقرون عديدة ، مما أسهم بالتالى فى ظهـــور ازدواجية تعبر عن عناصر زراعية تقليدية تســـود القرية ، وعناصر صناعية حديثة تسود المدينة • إن الفهم البنائى ـ التاريخى لعلاقة القرية بالمدينة مطلب أساسى لتحديد الاختلافات بينهما ، ثم تفسير هذه الاختلافات تفسيرا عميقا • وحينما نطالب بضرورة الفهم البنائى لهذه العلاقة ، فاننا نعنى

---

(١) السيد الحسينى ومحمد على محمد ، « الفروق الريفية الحضرية .. » المرجع السابق .

وضع القرية والمدينة فى سياق مجتمعى ودولى شامل • فالقرار الاقتصادى أو السياسى الذى يتخذ فى عاصمة دولة متقدمة كبرى يؤثر تأثيرا مباشرا على حياة القرويين الذين يعيشون فى قرية منعزلة تنتمى الى دولة متخلفة صغرى • ومن هنا يبدو واضحا كيف أن العوامل البنائية الخارجية تمارس تأثيرا حاسما على علاقة القرية بالمدينة • كذلك فان الفهم التاريخى لعلاقة القرية بالمدينة هو الذى يمكننا من فهم البناء الاجتماعى والثقافى المميز لكل منهما عبر فترات زمنية مختلفة • والواقع أن روبرت ردفيلد Redfield يعد من أظهر العلماء الاجتماعيين الذين أكدوا أهمية الفهم البنائى للقرية والمدينة• فلقد أوضح أنه يستحيل وجود فلاحين دون مدينة يرتبطون بها ، وبالتالى يصعب وجود مدينة دون فلاحيها • غير أن ردفيلد لم يطبق فهمه البنائى على الانساق الاجتماعية الكبرى والتطورات التاريخية المختلفة ، على الرغم من أن اهتمامه بتحليل الثقافتين « العليا » و « الدنيا » يعد خطوة هامة فى هذا الاتجاه[١] •

وفضلا عما سبق فاننى أعتقد أن النظريات الغربية فى التحضر لا تستطيع — بحكم ضيق نطاقها — تفسير التغيرات الحضرية الثورية التى تشهدها دول كالصين والاتحاد السوفييتى وكوبا ، بل انها لاتستطيع أيضا أن تفسر بكفاءة عالية ديناميات التحضر فى الدول النامية ذاتها • اذ أنها (أى النظريات) تميل الى تفسير التحضر على أنه رمز من رموز المكانة الدولية ، وتميل — فى الوقت ذاته — الى اغفال الدور الذى تلعبه الامبريالية والضغوط الدولية فى هذا المجال • كذلك فان هذه النظريات

---

(١) عبر ردفيلد عن آرائه ووجهات نظره فى عدد من مؤلفاته لعل أهمها The Folk Culture of Yucatan; Chicago University Press; 1941; The Primitive World and its Transformations; Ithaca : Cornell University Press; 1955; The Little Community and Peasant Society and Culture; Chicago University Press; 1955.

لا تهتم كثيرا بابراز التنوعات المختلفة لظاهرة التحضر والاعتبارات الايديولوجية الكامنة وراء هذه الظاهرة • ان فهم أنماط التحضر فى عالمنا المعاصر يتطلب التمييز بين ثلاثة مستويات من البناء : العالمى ، والقومى ، والمحلى• وعلينا بعد ذلك أن نتعرف على التأثير الذى يمارسه البناء العالمى على البناء القومى ثم علينا أن نتعرف على التأثير الذى يمارسه البناء القومى على البناء المحلى • ان ذلك يمكننا من الوقوف على مظاهر السيطرة التى يمارسها البناء « الأعلى » على البناء « الأدنى »[1] • فإذا ما استطعنا بعد ذلك الربط بين هذا البعد البنائى والمعانى المختلفة للقرارات التى تصدر على مختلف مستويات البناء الاجتماعى ، فاننا سنكون فى وضع يمكننا من فهم الفروق الريفية ــ الحضرية فهما عميقا نفاذا[2] • وفى ضوء هذه الاعتبارات يمكننا تخصيص مناقشة مستفضية للخصائص الايكولوجية والسكانية للمدن ، على أن نضمن هذه المناقشة ملاحظاتنا النقدية على أهم النظريات والبحوث التى تناولت هذه الخصائص • والواقع أن اهتمامنا بالبعدين الايكولوجى والسكانى انما ينبع من مناقشاتنا السابقة التى أكدنا فيها ضرورة تبنى تصنيف نظرى واسع فى هذه المرحلة من تطور علم الاجتماع الحضرى • ومن خلال معالجة هذين البعدين سنعالج كثيرا من الظواهر الحضرية معالجة بنائية شاملة •

أولا ــ الايكولوجيا الحضرية :

ظهر مصطلح الايكولوجيا لاول مرة فى سنة ١٨٦٩ حينما استخدمه عالم الاحياء الالمانى ايرنست هايكل Haeckel ، حيث عرف الايكولوجيا

---

(1) A. Pearse; «Metropolis and Peasant : The Expansion of the Urban-Industrial Complex and the Changing Rural Structure»; in T. Shanin; (ed.) Peasant and Peasant Societies; Penguin; 1971; pp. 69-80.

(٢) يمكننا الحصول على شواهد امبيريقية متفرقة تؤيد ذلك اذا ما رجعنا الى محمود عوده ، الفلاحون والدولة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٩ •

البيولوجية بأنها ذلك العلم الذى يدرس التســاند المتبادل بين النباتات والحيوانات التى تعيش معا فى منطقة طبيعية[١] • أما المفاهيم الاساسية التى يعتمد عليها هذا العــلم فأهمها : الموطن ، والتدرج ، والتكافــل ، والمنافسة ، والغــزو ، والتتابع • ولقــد ظهرت فكرة تطبيق الاتجــاه الايكولوجى على العلاقات البشرية لاول مرة فى أوائــل القرن العشرين ، وخاصة فى مؤلف تشارلز جالبن Galpin « التشريح الاجتماعى لمجتمــع محلى ريفى » (١٩١٥) • وعلى الرغم من أن جالبن لم يستخدم مصطلح الايكولوجيا ، الا أنه جمع بيانات عن أسر تعيش فى منطقة ريفية فى ولاية ويسكنسون تتناول الاماكن التى يبتاع منها أفراد الاسر الســلع التى يحتاجونها ، والبنوك التى يودعون فيها أموالهم ، والكنائس التى يختلفون اليها لاداء فرائضهم ، والمدارس التى يتوجه اليها الابناء لتلقى دروسهم • ومع أن مناطق النشاطات المختلفة التى درسها جالبن لم تكشف عن وجود « تطابق مكانى دقيق » ، الا أن شواهده قد أكدت الاعتقاد الذى يذهب الى أن المجتمع يتضمن « مناطق طبيعية » natural areas تلعب دورا أساسيا فى تحديد النشاطات الانسانية • وخلال العام ذاته (١٩١٥) نشر روبرت بارك Park مقالا شهيرا أوضح فيه أن المدينة تعد ظاهرة طبيعية وأنها تنقسم الى مناطق صناعية وتجارية وسكنية ، كما أن السكان الذين يتماثلون فى خصائصهم الاجتماعية والثقافية يميلون الى التجمع فى مناطق معينة من المدينة[٢] • ولقد أصبحت كتابات بارك بعد ذلك من الدعائم الاساسية التى استندت اليها الدراسات الايكولوجية • ففيما بين سنتى ١٩٢١ و ١٩٢٣ قام ماكينزى Mackenzie (بالاشتراك مع روبرت بارك وارنست بيرجس Burgess) باجراء دراسة عن مناطق المدينة بنفس الطريقة التى

---

(١) للتعرف على الدلالات المختلفة لمفهوم الايكولوجيا انظر : نيقــولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع : طبيعتها وتطورها ، ترجمة محمود عــوده وآخرون ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٣١٤ — ٣١٩ •

(1) E. E. Bergel; Urban Sociology; McGraw Hill Book Company; N. Y; 1955; pp. 75-91.

اتبعها جالبن • وبذلك يكون ماكينزى من أوائل علمـاء الاجتماع الـذين استعانوا بمفاهيم الايكولوجيا البشرية فى بحث امبيريقى •

وخلال الربع الثانى من القرن العشرين اتخذت دراسات الايكولوجيا اتجاهات مختلفة وأصبحت على درجة من التنوع تمكننا من القول بأنها قد شكلت بالفعل « مدرسة فكرية متميزة » • ففى سنة ١٩٣٠ تأكد التمييز بين التفاعل الايكولوجى بمعناه المحدود والتفاعل الاجتماعى بوجه عام ، كما أن مجرد وصف الظواهر الانسانية فى ضوء التوزيع المكانى لم يعـد كافيا من وجهة نظر علم الاجتماع • على أن دخول مصطلح الايكولوجيا الى مجال علم الاجتماع لم يكن بمثل هذه البساطة • اذ تحفظ عدد كبير من علماء الاجتماع على تطبيق هذا المصطلح على الظواهـر الاجتماعية لان من شأنه تجاهل أو اغفـال أهمية العوامل الاقتصـادية والاجتماعية فى تشكيل المجتمعات • وبرغم هذه التحفظات الا أن مصطلح الايكولوجيا قد لفت انتباه علماء الاجتماع الى الحقيقة التى مؤداها ، أن أفراد المجتمع يعيشون فى اطار بيئة مكانية • ومع أن هناك عوامل اجتماعية تؤثر فى هذه البيئة ، الا أنها تبدو وكأنها « طبيعية » ، بمعنى أن الافراد يعتمـدون عليها ، بينما هى تمارس عليهم تأثيرا كبيرا وعلى الاخص فيمـا يتعلق بمعتقداتهم[1] • ومن بين عناصر الحياة الحضرية نجـد عنصرى السكن وظروف العمل يتخذان شكلا طبيعيا الى حد كبير ، بمعنى أنهما لا يتحددان بقرار ادارى بقدر ما يتطوران بطريقة تلقائية • واذا كانت هـذه العناصر تؤثر على السلوك والاتجاهات فانها تتأثر بدورها بأسلوب حياة الناس • وانطلاقا من هذه النقطة يبدأ عالم الاجتماع بدراسة أكبر عدد ممكن من عناصر الحياة الحضرية كالشوارع ، والمساكن ، وأماكن العمل ، والاندية ، وأقسام الشرطة ، ومحطات المواصلات ، ومبانى الصحف الكبرى • ولقد

---

(١) هاينز موس ، الفكر الاجتماعى : نظرة تاريخية عالمية ، ترجمة السيد الحسينى وجهينه سلطان العيسى ، دار المعـارف ، ١٩٨٠ [وعـلى الأخص الفصل الرابع عشر] •

حاولت دراسات سوسيولوجية عديدة ربط الظواهر الاجتماعية والثقافية « بالمناطق الطبيعية » فى المدينة • ومن أشهر هذه الدراســات تلك التى تناولت الجريمة والانتحار والتفكك الاسرى فى أحياء المدينة المختلفة وعلى الاخص الفقيرة منها • ويبدو أن الدراسات الايكولوجية الحديثة قد بدأت تنظر الى الايكولوجيا من منظور واسع نسبيا • فلقد ذهب هاولى Hawley ـ الذى يعد من أشهر علماء الايكولوجيا الحضرية ـ الى أن المحــــدد الاساسى للتنظيم الاجتماعى والســلوك هو التأثير الذى يحدثه المجتمع الحضرى ، ذلك المجتمع الذى يتميز بكبر الحجم ، وشدة الكثافة ، وزيادة التباين ، وتعدد الادوار الاجتماعية ، وشدة الحراك الاجتماعى[١] •

وتعد نظرية لويس ويرث Wirth من أشهر النظريات السوسيولوجية التى تنطلق من مفاهيم ايكولوجية معتدلة • ففى مقال شــهير بعنــوان « الحضرية كأسلوب فى الحياة »[٢] (١٩٣٨) ذهب ويرث الى أن نمــو المدينة وتنوعها يؤديان الى اضعاف العلاقات الاجتماعية بين سكانها ، وأن أساليب الضبط الرسمى فى المدينة ما تلبث أن تحل محل أساليب الضبط غير الرسمى القائمة على العرف والتقاليد • ويتصل ذلك بظهور الجماعات والثقافات الفرعية المتعددة المتباعدة مكانيا • وبنمو حجم المدينة تقــل فرص العلاقات الشخصية بين سكانها • اذ ما تلبث هذه العلاقات أن تتصف « باللاشخصيــة » و « السطحية » و « الانتقالية » و « الانقسامية » • ومعنى ذلك أن العلاقات الاجتماعية فى نظر الحضريين هى مجرد وسائل لتحقق غايات خاصــة • وبزيادة تقسم العمل والتخصص فى المدينــة ،

(1) A. Hawley; Human Ecology; N. Y; 1950; Quinn; Human Ecology; N. Y; 1950; G. Theodorson; Studies in Human Ecology; N. Y; 1961.

(2) L. Wirth; «Urbanism as a Way of Life» in P. Hatt and A. Reiss (eds); Cities and Society; op. cit.

وللتعريف على مزيد من التفصيل حول نظرية ويرث يمكن الرجوع الى محمد عاطف غيث ، علم الاجتماع الحضرى ، المرجع السابق •

تتخذ العلاقات الاجتماعية طابعا صوريا لاشخصيا ، مما قد يتطلب ظهور أخلاقيات مهنية منظمة للسلوك المهنى . واذا كانت زيادة تقسيم العمل تؤدى الى نمو التجارة ، فان ذلك قد يسهم أيضا فى اضعاف التوازن الاجتماعى . وبنمو حجم المدينة يصبح من الصعب على كل سكانها الاقامة فى منطقة واحدة ، فتنمو الاحياء المختلفة المتباعدة وبالتالى تلعب وسائل الاتصال الجماهيرى دورا كبيرا فى تحديد أفكار السكان واتجاهاتهم . ومن هنا تبدو النتائج الحتمية لزيادة الكثافة السكانية . فكلما زادت الكثافة السكانية فى المدينة ، ازداد التخصص والتباين بين أفرادها . أما نمط استغلال الارض فى المدينة فيتحدد فى ضوء المنافسة على الموارد المحدودة . وفى نهاية الامر نجد الجماعات المتشابهة اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا تقطن مناطق سكنية أو أحياء واحدة . غير أن التفاعل الاجتماعى بين الحضريين الذين يؤدون أدوارا مختلفة قد يسهم فى الحد من التفاوتات الطبقية[١] . ونتيجة لذلك يبدو البناء الطبقى الحضرى فى المدينة أقل وضوحا وتحديدا . كذلك فان سكان المدينة قد يتعرضون لصراعات مختلفة بسبب ولائهم لجماعات متباينة قد تتضارب مصالحها . ويؤدى ذلك بسكان المدينة الى الانتقال الجغرافى من منطقة لاخرى . ومع ذلك كله فان المدينة تميل فى نهاية الامر الى التعبير عن ثقافة حضرية عامة تتجاوز كل الثقافات الفرعية التى تعبر عن الجماعات الاجتماعية المختلفة[٢] .

هذا وقد تعرضت نظرية ويرث لانتقادات عديدة استنادا الى اعتبارات نظرية وواقعية[٣] . وقبل مناقشة هذه الانتقادات يتعين علينا

---

(1) Ibid; pp. 30-31.

(2) Ibid; pp. 32-34.

(٢) جدعون جوبرج ، علم الاجتماع الحضرى المقارن ، ترجمة السيد الحسينى ، محمد الجوهرى وآخرون ، دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٢٢ .

(3) See H. Gans; «Urbanism and Suburbanism as Ways of Life : A Re-Evaluation of Definitions»; in A. Rose; Human Behavior and Social Processes. Houghton Mifflin; 1962.

توضح بعض القضايا الهامة التى يجب أخذها فى الاعتبار عند تقييم نظرية لويس ويرث . فالمحقق أن ويرث كان واعيا كل الوعى بأن « الحضرية كأسلوب للحياة » ليست مميزة فقط لسكان المدينة ، اذ أنه قد أشار الى التأثير الذى يمكن أن تحدثه المدينة خارج حدودها الادارية أو الجغرافية . كذلك فان كتابات ويرث تشير الى أنه كان مدركا تماما أن حجم المدينة ليس المؤشر الوحيد الدال على درجة تحضرها . فقد يكون سكان الضواحى أكثر تحضرا من سكان المدينة . ومعنى ذلك أن ويرث لم يستبعد الضواحى من الخضوع « للحضرية كأسلوب للحياة » . فضلا عن ذلك كان ويرث واضحا تماما عندما ذهب الى أن مفهوم « الحضرية » ــ كما استخدمة ــ لا يشير بالضرورة الى كل خصائص المدينة ، حيث نجده يؤكد أن الخصائص الحضرية التى استشهد بها كانت بمثابة وسائل لفهم الحياة الحضرية بكل ما تنطوى عليه من تنوع وشمول . وفضلا عن ذلك فان ويرث لم يكن يهدف بمقاله تقديم تصنيف شامل للمدن . فلقد أشار بطريقة عابرة الى الدور الذى يلعبه موقع المدينة وحجمها ووظيفتها فى تحديد طابعها . وكانت هذه الاشارة فى سياق التدليل على « الحضرية » كأسلوب مميز للمدن بغض النظر عن المتغيرات الاخرى . وأخيرا فان ويرث لم يكن يقصد التدليل على وجود علاقات سببية بين عناصر الحياة الحضرية . بعبارة أخرى لم يكن يهدف البرهنة على أن الحجم والكثافة والتباين هى المتغيرات الاساسية المحددة لكل الظواهر الحضرية .

وفى ضوء هذا التوضيح يمكننا تناول أهم الانتقادات التى وجهت الى نظرية لويس ويرث . وأول هذه الانتقادات أن التعميمات التى تضمنتها هذه النظرية لا تنطبق على كل المدن المعاصرة . اذ تبدو أكثر انطباقا على المدن الصناعية وحدها . ويتصل هذا النقد بالجزء الأخير من مقال ويرث الذى تناول فيه تأثير التحضر على الاسرة[1] . والواقع أن من الصعب فهم

(1) R. N. Morris; Urban Sociology; George Allen and Unwin L. T. D; London; 1968; p. 22.

تعميمات ويرث دون الاشارة الى الظروف الاقتصادية التى كانت تمر بها الولايات المتحدة خلال ثلاثينيات هذا القرن والتى أهمها « الكساد العظيم »، وتدفق موجات الهجرة من مختلف دول العالم • فخلال تلك الفترة أبدى كثير من المثقفين الامريكيين قلقهم البالغ على ظروف التفكك الاجتماعى والتباين الثقافى والكساد الاقتصادى التى تعرضت لها الولايات المتحدة[١] • ومن هذه الزاوية يمكننا تفسير المنطلقات الفكرية لنظرية ويرث • كذلك انتقد بعض الدارسين المعاصرين نظرية ويرث لانها قد أكدت ان العلاقات الاجتماعية فى القرية تتخذ طابعا أوليا ، بينما تتخذ فى المدينة طابعا ثانويا • ففى بريطانيا أوضحت دراسة حديثة نسبيا أن العلاقات الاجتماعية فى المناطق الريفية تتصف بالتنوع والتعقيد وأنها لا تختلف فى هذا المجال عن تلك التى توجد فى المناطق الحضرية • ففى المناطق الريفية قد يلعب القرويون أدوارا مختلفة ومتنوعة : فالى جانب علاقات الجيرة قد يدخلون فى علاقات مصاهرة عن طريق الزواج ، وقد يترددون على كنائس مختلفة وينتمون الى جماعات عمرية متباينة ، فضلا عن انتمائهم الى نوادى متباعدة • وقد يؤدى ذلك الى طبع هذه العلاقات الاجتماعية الريفية بطابع ثانوى • ولقد أوضح مان Mann أن التحول من المجتمع الريفى الى المجتمع الحضرى لايؤدى بالضرورة الى احلال العلاقات الثانوية محل العلاقات الاولية • كذلك أوضح أوسكار لويس Lewis أن من الصعب وضع المجتمعات الريفية والحضرية على متصل يعبر عن الانتقال من العلاقات الاولية الى العلاقات الثانوية[٢] •

أما أقوى الانتقادات التى وجهت لنظرية ويرث فهو ذلك الذى يذهب

---

(1) A. Hawley; Human Ecology; op. cit; pp. 422 ff.

(2) O. Lewis; «Further Observations on the Folk-Urban Continuum....» in P. Hauser and L. Schnore (eds) The Study of Urbanization; op. cit. p. 497 ff.

الى أن وصفه للعلاقات الاجتماعية بين سكان المدينة يتصف بالبساطة والتبسيط الشديدين • فبينما يؤكد (أى ويرث) أن المدينة تتصف بالتباين الشديد نجده يصف أنماط السلوك فى ضوء تصورات أولية لا تكاد تعبر عن الواقع الفعلى • فلقد أوضح بعض الباحثين المعاصرين أن العلاقات الاجتماعية بين سكان المدينة تتصف بالتنوع أكثر مما تتصف باللاشخصية • واذا كان الشخص الحضرى لديه فرصا أفضل من نظيره الريفى فى اقامة علاقات ثانوية ، الا أن لديه أيضا (الحضرى) فرصا أكثر من نظيره الريفى فى اقامة علاقات أولية مستندة الى الاختيار الشخصى(١) • ومعنى ذلك أن الحضرى قد تكون لديه فرصة الامتناع عن التردد على المسجد أو الكنيسة دون أن يوصف سلوكه بصفات سلبية ، كما أنه يستطيع التردد على مكان العبادة الذى يفضله دون غيره • واذا كان الحضرى قد يظل دون أصدقاء داخل المدينة ، الا أن لديه مجالا واسعا لاختيار الاصدقاء(٢) • ويعد أوسكار لويس Lewis من أظهر الذين عالجوا هذه القضية بوضوح قاطع • فهو يذهب الى أن المدينة ــ على خلاف القرية ــ تتيح للفرد مدى واسعا من البدائل ، كما أن الجماعات الحضرية تختلف فيما بينها فى تقييم هذه البدائل والاختيار بينها(٣) • وفضلا عما سبق وجه بعض علماء الاجتماع الى نظرية ويرث انتقادا أساسيا مؤداه اغفال العلاقات المتبادلة بين المدينة والنسق الاجتماعى ــ الثقافى الشامل التى هى جزء منه • وربما كان ويرث قد تأثر فى ذلك بكتابات بعض المؤرخين من أمثال بيرن Pirenne الذى أكد فكرة الاستقلال الاجتماعى والسياسى للمدينة الاوربية خلال العصور الوسطى ، وهو نمط من المدن يندر وجوده الآن • وقد تكون المراكز الحضرية قد حققت استقلالها السياسى فى فترات تاريخية معينة • أما المدن

---

(1) R. N. Morris; Urban Sociology; op. cit; p. 24.

(2) P. Mann; An Approach to Urban Sociology; Routledge and Kegan Paul; 1965; pp. 100-102.

(3) O. Lewis; «Further Observations....»; op. cit; p. 504.

المعاصرة فلا تعدو أن تكون أنساقا فرعية تحكمها عوامل خارج نطاقها[١] • وإذا كان ويرث قد أبرز صور التفكك الاجتماعى المصاحبة لنمـو المدن ، فاننا نشير ــ من ناحية أخرى ــ الى أن المدن قد ظلت عبر تاريخها مركزا للاتصال ، ومصدرا للتغير الثقافى ، وموطنا للمواهب الخلاقة • ومن خلال دقة التنظيم السياسى الحضرى ، ونفوذ وســائل الاتصال الجماهيرى ، وانتشار التعليم بين مختلف القطاعات تحقق المدينة وحدتها بدرجة لا تقل قوة عن الوحدة التى تحققها القرية •

ولقد اهتم علماء الايكولوجيا الحضرية بدراسة العمليات البيئية أو الايكولوجية فى محاولة لصياغة نظريات مفسرة لديناميات المدينة • ومن بين هذه العمليات : التركز Concentration والتشتت Deconcentration والمركزية Centeralization واللامركزية Decenteralization ، والغزو Invasion والتتابع Succession • أما مفهوما التركز والتشتت فيشيران الى التغيرات التى تطرأ على توزيع السكان عبر المكان نتيجة للهجرة من منطقة لاخرى أو نتيجة للاختلاف فى معدلات الزيادة الطبيعية • ومن الواضح أن هذين المفهومين يعبران عن حركتين فى اتجاهين متعارضين • فالعوامل التى قد تؤدى الى التركز تختلف عن تلك التى تؤدى الى التشتت • ولقد أوضح بعض الدارسين أن المدن الغربية فى بداية نشأتها كانت تعرف اتجاها نحو التركز ، بينما بدأت تشهد اتجاها نحو التشتت حينما ازدادت نموا ونضجا • ويتم قياس عمليتى التركز والتشتت فى ضوء الكثافة السكانية ، كما أن هاتين العمليتين تتأثران كثيرا بدرجة القرب من وسائل المواصلات وتباين القدرة الاقتصـادية ، فضلا عن أنواع استخدام الارض • ولقد أوضح دنكان Duncan وآخرون أن معدل التركز يزداد فى المناطق التى تتطور نتيجة لارتفاع معدلات النمو السكانى فيها • وبمرور الوقت ترتفع أثمان الارض نتيجة لدخول المشروعات الاقتصادية مما قد يسهم فى ظهور وسائل تلقائية من شأنها تنظيم النمــو

---

(١) جدعــون جوبرج ، « علم الاجتماع الحضرى المقارن » المرجــع السابق ، ص ٢٤ •

السكانى لهذه المناطق[١] • أما التشتت فيتمثل فى انخفاض نسبة السكان الذين يعيشون فى قلب المدينة • ولقد أشار هاولى Hawley الى أن الاتجاه نحو التشتت قد ظهر فى المدن الامريكية خلال عشرينيات القرن العشرين ، ثم ما لبثت ان شهدت بعد ذلك نموا هائلا فى حجم الضواحى[٢] • ويبدو أن الازدحام السكانى فى المناطق الداخلية من المدينة كان أحد العوامل الطاردة التى ساعدت على الاقامة فى الضواحى أو الأطراف ، كما أن معدل التشتت يزداد فى المدن الكبرى اذا ما قورنت بالمدن الصغرى بسبب الازدحام السكانى الضاغط[٣] • وفى كل الاحوال فان الاتجاه نحو التشتت يرتبط بوجود شبكة متطورة من المواصلات ، ووجود هياكل أساسية تمكن الضواحى من التطور المستقل ، ونمو طبقة وسطى حضرية تجد فى الضواحى مزايا يصعب الحصول عليها داخل المدينة •

أما عمليتا المركزية واللامركزية فتشيران الى مدى تركيز أو عدم تركيز المشروعات الصناعية والتجارية داخل المدينة أو خارجها • ومعنى ذلك أن المركزية ترتبط أساسا بالنشاطات الصناعية والتجارية والادارية • أما قياسها (أى المركزية) فيتم من خلال التعرف على مدى سيطرة المدينة على هذه النشاطات • والواقع أن زيادة تقسيم العمل وضرورة الحاجة الى التنسيق بين النشاطات المختلفة قد أديا الى ظهور الاتجاه نحو المركزية • ومن بين العوامل الهامة المؤدية الى المركزية المزايا التى يتيحها وجود عدد كبير من الافراد فى موقع واحد من مواقع العمل ، فضلا عن متطلبات الانتاج الكبير التى أدت الى زيادة حجم المشروعات الصناعية وضرورة التقارب المكانى بين المصانع والاسواق لما يتيحه ذلك من خفض تكاليف

---

(1) B. Duncan et al; «Patterns of City Growth»; Amcrican Journal of Sociology; Vol. 67; 1962.

(2) A. Hawley; Human Ecology; op. cit; pp. 422 g.

(3) A. Boskoff; The Sociology of Urban Regions; New York : Appleton-Century Crofts; 1962; p. 11.

النقل والمواصلات • ويبدو ان الاتجاه نحو لامركزية الصناعة والتجارة قد ظهر فى نفس الوقت الذى ظهر فيه الاتجاه نحو تشتت السكان • أما مبررات ذلك فأهمها : استمرار أثمان المواقع الصناعية ، وصعوبة الحصول على مواقع صناعية تتلاءم مع الاحتياجات الصناعية ، وصعوبة النقل والمواصلات داخل المدينة ، وعدم وجود فرص الاتساع المكانى • وعلى الرغم من أن الضغوط الشديدة التى تمارسها العوامل المختلفة من أجل الاتجاه نحو المركزية ، الا أن المدن الغربية قد شهدت منذ مطلع ثلاثينيات هذا القرن اتجاها مقابلا نحو اللامركزية • وربما كانت ظروف « الكساد العظيم » من أهم العوامل الدافعة الى ذلك ، خاصة وأنها قد فرضت قيودا عديدة على بعض المشروعات الصناعية الصغيرة الحجم[1] • بيد أن تحسن وسائل النقل وأساليب الاتصال ، وتطور فنون نقل المعلومات من خلال الحاسبات الآلية قد أديا الى الحد من الاتجاه نحو المركزية • واذا ما تأملنا موقف الدول النامية من المركزية واللامركزية نجد أن مشروعاتها الصناعية الضخمة تميل الى الاتجاه نحو ضواحى المدن الكبرى ، بينما تظل المشروعات الصناعية الصغيرة مركزة فى المناطق الحضرية الداخلية[٢] • وفى كل الاحوال فان الدول النامية ــ بسبب قلة مواردها المالية ــ تحاول الافادة من الهياكل الاساسية للمدن الكبرى باقامة مشروعات صناعية ضخمة تستفيد من خدمات الكهرباء والماء والمواصلات التى تتيحها هذه المدن[٣] •

واذا انتقلنا الى مناقشة مفهومى الغزو والتتابع ، لاحظنا صلة قوية بينهما حتى أننا لا نستطيع معالجة أحدهما بمعزل عن الآخر • والغزو ــ فى أبسط معاينه ــ هو نفاذ جماعة سكانية الى منطقة منفصلة كانت تؤدى

(1) C. Wright Mills; The Power Elite. O. U. P; 1956.

(٢) جيرالد بريز ، مجتمع المدينة فى الدول النامية ، ترجمة محمد الجوهرى، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٢٠٧ .

(٣) فيلب هاوزر ، مشكلات التحضر السريع ، ترجمة السيد الحسينى ، فى دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، المرجع السابق ، ص ٩٩ .

من قبل وظيفة مختلفة أو كانت تشغلها جماعة سكانية مغايرة[١] • ولعل أبسط مثال يمكن ان يوضح لنا عملية الغزو هو تحول منطقة حضرية راقية الى منطقة حضرية شعبية بسبب انتقال أفراد الطبقة الدنيا للاقامة فيها • على أن عملية الغزو ما هى الا مرحلة أولى فى دورة التتــابع • أما أهم العوامل التى تؤدى الى عملية الغزو فهى : تحركات السكان ، والتوسع من أحد أجزاء منطقة الى جزء آخر ، والتغيرات التى تطرأ على شــكل وخطوط المواصلات ، وتهدم المساكن أو تعرضها للسقوط بسبب تدهــور حالتها أو تغيير استخدامها ، وانشــاء مبان عامة أو خاصة ذات خصائص جاذبة أو طاردة ، وادخال أنواع جديدة من الصناعات ، وظهور تغيرات اقتصادية من شأنها اعادة توزيع الدخل القومى • والملاحظ أن غزو جماعة سكانية لمنطقة جماعة ســكانية أخرى لايتم بطريقة فورية وخــلال فترة زمنية قصيرة • فقد يسبق الغزو ضغوط عديدة تمارسها الجماعة الغازية على سكان الجماعة المقهورة • وخلال عملية الغزو تنشأ مقاومة من جانب هؤلاء السكان قد تتمثل فى الامتناع عن بيع أراضى البناء وعــدم قبول السكان الجدد بسهولة ويسر • ولقد اهتم بعض علماء الايكولوجيا الحضرية بدراسة عمليتى الغزو والتتابع فى المدن الغربية بعامة والامريكية بخاصة • اذ يشير هاولى الى أن دراسة عملية الغزو قد تكون أيسر بكثير من دراسة عملية التتابع[٢] • والملاحظ أن كثيرا من المدن الامريكية قد شهدت خلال القرن العشرين عمليات غزو وتتابع عديدة • فلقد أوضحت دراسات فيرى Firey وشــو Shaw ومــكاى Mckay أن الجماعات العنصرية (على الاخص الزنجية) قد غزت كثيرا من الاحياء الحضرية فى المدن الأمريكية الكبرى ، مما دفع السكان القدامى لهذه الاحياء الى الانسحاب منها والبحث عن

---

(1) S. Queen and D. Carpenter; The American City; New York; McGraw-Hill Book Company; 1953.

(2) A. Hawley; Human Ecology; op cit.

آحياء أكثر رقيا[١] • كذلك أوضح هويت Hoyt أن الحى الذى ترتفع فيه القيم الايجاريه للمساكن قد يظل لفترة طويلة بمنآى عن عملية الغزو من الجماعات الاقتصادية الدنيا • واذا ما كانت الاحياء التجاريه فى مدينـــة معينة محاطة بمجموعة من الاحياء الفقيرة ، فان الانتقـــال الى الاولى (التجارية) قد يكون أمرا محتما بعد فترة معينة • ويمكننا آن نشير أيضا الى دراســـة كوين Quinn التى أوضح فيهـــا غـــزو الزنوج لاحيـــاء البيض والمقاومة المستميتة التى صاحبت هذا الغزو • وفى دراسة آخرى عن تآثير غزو الزنوج على أسعار المنازل ، اتضح أن البيض قـــد اعتبروا الزنوج سببا فى انخفاض مستوى السلع فى الأحياء ورخص أسعارها ، بينما عبر الزنوج عن استيائهم من ارتفاع آسعار هذه السلع بما لا يتناسب مع قدراتهم الشرائية[٢] • وفى مدن الدول النامية تتخذ عملية الغزو صـــورا عديدة من بينها نمو أحياء واضعى اليد وعلى الاخص فى آطراف المدينـــة ، وتحول بعض الاحياء السكنية الى أحياء تجارية بسبب ضغوط المكان •

وخلال فترة تكوين مدرسة الايكولوجيا الحضرية سادت وجهة نظر مؤداها ، أن بالامكان فهم السلوك الاجتماعى الحضرى فى ضوء علاقته بنمط استغلال المكان • وهذا يعنى ــ للوهلة الاولى ــ أن هذا السلوك محكوم ــ بالضرورة ــ بعملية المنافسة من أجل الحصول على الاماكن النادرة ذات القيمة العالية • أما النتيجة النهائية لهذه المنافسة فتتحدد فى ضوء امكانيات الاطراف المتصارعة سواء على المستوى الاقتصادى أو السياسى • غير أن علماء الايكولوجيا الحضرية المعاصرين قد بدأوا يهجرون تلك المفاهيم التى تبالغ كثيرا فى الدور الذى تلعبه المصادر الاقتصادية فى تفسير المنافســـة على استغلال الارض • فلو تبنينا المفاهيم الاقتصادية الجامدة لصعب

---

(1) See for Example : W. Firey; Land Use in Central Boston; Harvard University Press; 1947· A. Hoyt; One Hunderd Years of Land Values in Chicago; Chicago; Chicago Univ. Press; 1958.

(2) R. Morris; Urban Sociology; op. cit; p. 1111.

علينا تفسير وجود الحدائق العامة والمبانى الضخمة والمواقــع التاريخية والهيئات الخيرية داخل أرقى مناطق المدينة • كذلك فان أهمية المفاهيم الاقتصادية الخالصة قد تقل كثيرا فى الحالات التى تكون فيها القرارات السياسية ذات تأثير بالغ على نمط النمــو الحضرى(١) •• فخلال الحرب الفيتنامية خضعت مدينة سايجون بأكملها للاعتبارات الدفاعية • وبنفس الكيفية نجد كثيرا من المؤسسات الدينية والتعليمية الهامة تشغل مواقــع استراتيجية داخل المدينة ، على الرغم من حاجة المشروعات الصناعية المحققة للربح لهذه المواقع •ولا يعنى ذلك أننا نقلل من دور العوامل الاقتصــادية فى تحديد النمط الايكولوجى للمدينة ؛ اذ أن هذه العوامل ــ الى جانب عوامل ثقافية واجتماعية وسياسية أخرى ــ تساعدنا فى تحديد هذا النمط الايكولوجى وتغيراته عبر الزمــان • وعلى الرغم من أن بعض المفاهيم الايكولوجية ماتزال بحاجة الى مزيد من التحــديد والاختبار الواقعى ، الا أنها قد وجهت أنظار كثير من الدارسين الى أهمية التنظيم المكانى كأحد الابعاد الهامة للمدينة كنسق اجتماعى(٢) • ومن خلال المفاهيم الايكولوجية تمكن بعض علماء الاجتماع والايكولوجيا الحضرية من دراسة الجــوانب الدينامية للمدن وعلى الاخص العمليات الايكولوجية (كالتركز ، والمركزية ، والغــزو ، والتتابع) والاجتماعيــة (كالتكيف ، الهجــرة ، والتمثــل الثقافى) • لقد ظل علماء الاجتماع لفترة طويلة يهتمون بدراســة الجوانب البنائية الاستاتيكية للمدينة حتى بدأ علماء الايكولوجيا الحضرية يبدون اهتماما بتحليل الجوانب الوظيفية الدينامية للمدينة • ومن خلال التكامل بينهما استطاعت الدراسات الحضرية تحقيق قــدر كبير من التقدم خــلال العقود الاخيرة •

وفضــلا عما سبق أبدى علماء الايكولوجيا الحضرية اهتماما كبيرا بدراسة الضوابط الايكولوجية للمدينة وعلى الاخص فيما يتعلق بالحجم ،

---

(1) W. Firey; Man, Mind and Land; Free Press; 1960.
(2) N. Morris; Urban Sociology; op. cit; p. 113.

وتوصلوا فى هذا المجال الى عدد من القوانين الهامة . هناك أولا : قانون المضاعفات الذى يعنى زيادة عدد الوظائف التى تؤديها المدينة . ويفترض هذا القانون أن هناك وظيفة أساسية تؤديها المدينة ، لكنها ما تلبث بنمو حجمها أن تؤدى وظائف أخرى مما يضاعف من نموها . وهناك ثانيا : قانون وراثة الحجم الذى ينجم عن تصارع المدن فى الاقليم من أجل الحجم والضخامة . وتحاول كل مدينة الافادة من حجمها الحالى لتحقيق نمو لاحق . فكلما كانت المدينة أكبر حجما ، كان معنى ذلك أنها تقدم فرصا أكبر للسكان ، وأنها أقدر على مواجهة أى زيادة سكانية . وبذلك تتداعى الوظائف ويتضخم الحجم باطراد حتى نصل فى النهاية الى نقطة قد يصعب فيها تعليل التضخم المطرد فى حجم المدينة بأسباب أو ضروريات واضحة أو مفهومة ، ويصبح المبرر الوحيد للحجم اللاحق هو مجرد الحجم السابق. وبفضل هذا النجاح « الحجمى » تستطيع المدينة أن تخفى أو تعالج أيا من عيوبها ونقاط ضعفها الاصلية[١] . وتشير بعض الدراسات الى أن أعظم المدن نموا هى أكبرها حجما ؛ أى أن الحجم يورث الحجم . ويصل بعض المتطرفين الذين يؤيدون فكرة النمو المضطرد فى الحجم الى أن جميع مظاهر العالم المادى تتناسب تناسبا طرديا مع الكتلة (أى حجم المدن) ، وعكسيا مع المسافة (أى البعد عن المدن) . ولو صدقت هذه الفكرة لكان معناها أن تظل المدن الكبرى تبتلع المدن الصغرى بالتدريج حتى تتجمع كلها فى مدينة واحدة . وهناك ثالثا : قانون الحجم والتباعد الذى يستند الى مسلمة افقار الصغير واثراء الكبير . ويذهب أصحاب هذا القانون الى أن أول وأشد تأثير لمدينة ناجحة تتضخم سيسرى — بطبيعة الحال — على أقرب المدن لمجالها ويقل بالتدريج بالنسبة للمدن الابعد منها[٢] ؛ أى أن المدينة

---

(١) جمال حمدان ، جغرافية المدن ، عالم الكتب ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٧ ، ص ٢٦٥ .

(2) See Martin J. Beckman; «City Hierarchies and the Distribution of City Size»; Economic Development and Cultural Change; 6 (1958); pp. 243-248.

النــاجحة انما تتضخم ــ بشكل مباشر أو غير مباشر ــ على حساب المدن المحيطة ، وأن للمدينة الضخمة تأثيرا بــالغا على أحجــام المدن المجاورة • وعلى الرغم من صعوبة تحديد السبب والنتيجة (أو الفاعل والمفعول بــه) فيما يتعلق بتأثير كل من الحجم والتباعد ، الا أننا نعتقد أن العلاقة بينهمــا هى علاقــة المضــاف والمضــاف اليه • ولقــد عبر جيفرسون Jefferson تعبيرا قويا عن العلاقة العكسية بين الحجم والمسافة يتمشى مع قانون الغاب حين قال : إن المدن الكبرى كالاشجار العملاقة فى الغاب ، تحرم الاشجار الصغرى من الوصول الى الضوء وتقضى عليهــابــالقزمية وضعف النمو • فهى تميل الى ان تنتقص من نمو وحجم المدن الصغيرة المجاورة التى تقــع فى « ظلها » • وهناك رابعا وأخيرا : قانون المدينة الاولى Primate city وهو قــانون نابع من القوانين السابقة • وطبقا لهذا القانون تظهر مدينــة أولى تحقق سيطرة على بقية المدن الاخرى حتى يبدو الفارق بينهما هائلا • وتحاول المدينة الاولى جمــع أكبر عــدد ممكن من الوظائف الســياسية والاقتصــادية والثقــافية ، والحصول على أكبر نصيب من الاستثمارات • ولقد وجد جيفرسون فى دراسة لــه تناولت ثمــان وعشرين دولة أن أكبر مدينة يزيد عدد سكانها عن ضعفى المدينة التالية مباشرة • وعادة ما تكون المدينة «الاولى» عــاصمة الدولــة ، وتعبر أكثر من أى مدينــة أخرى عن الكيان الوطنى ، وتساهم أكثر من غيرها فى توحيد الأمة[1] • ومع ذلك فان العواصم الاتحادية (الفيدرالية) تمثل شــذوذا عن هذه القاعدة مثــل واشنطن ، وكانبرا ، وبرن ، ولاهاى ، وكذلك العواصم المستحدثة مثــل أنقرة ، والرياض ، واسلام اباد ، ودلهى • كذلك تكون أولوية المدينــة الاولى أشد وأقوى كلما كانت الأمة قديمة الوحدة مثل بلجيكا وفرنســا وألمانيا •

على أننى أعتقد ان أعظم انجازات علماء الايكولوجيا الحضرية تتمثل

---

(1) B. Hoselitz; «Generative and Parasitic Cities»; Economic Development and Cultural Change; 3 (April); 1955; pp. 278-294.

فى نظرياتهم عن النمط الايكولوجى للمدينة • ويمكننا أن نشير فى هذا المجال الى ثلاث نظريات أساسية • أما النظرية الاولى فهى تلك التى يطلق عليها « الفــرض الحلقى » Zonal Hypothesis • فلقــد ذهب إرنست بيرجس Burgess ـــ صاحب هذه النظرية ـــ الى أن المدينة الأمريكية تتخذ فى نموها ـــ ما لم تواجه عوامل معوقة ـــ شكل خمس حلقات أو نطاقات متحــدة المراكز ومتناسقة الى حد ما • ويطلق بيرجس على أقرب الحلقات الى الداخل أو الى المركز حى الاعمال المركزى (CBD) حيث تــدور أكثر نشاطات المجتمع كثافة • أما الحلقة الثانية التالية التى تقع خــارج نطاق الحلقة الاولى فيطلق عليها بيرجس منطقة التحول بسبب تعرضها للتغير نتيجة اتساع الحلقة الاولى ، فضلا عن أنها (أى منطقة التحــول) تتميز بكثافة سكانية عالية ، وانخفاض ملحوظ فى الدخل الفردى ، وظهور التفكك الاجتماعى • أما الحلقة الثالثة فتضم منطقة سكنى العاملين ، خاصة الذين يعمــلون فى المهن الكتابية والصــناعية ؛ بينما تتألف الحلقة الرابعة من الفيللات وأحياء الاعمال المحلية • وأخيرا تقع الحلقة الخامسة خارج حدود المدينة حيث تشكل ضواحى منفصلة • وتمثل هذه الضواحى مناطق سكنية لذوى الدخول المرتفعة ، كما أنها قد تكون مقرا لبعض الاحياء المتخصصة(١) •

ولقد تعرضت نظرية بيرجس لانتقادات عديدة • من ذلك ـــ مثلا ـــ أنه ليس من المحتم أن يكون حى الاعمال المركزى ذا شكل دائرى • إذ مــن الممكن أن يمتــد استخــدام الارض تجاريا بعيدا عن الطرق الممتدة من المركز • كذلك فان الصناعة لا توجد فقط فى المناطق الانتقالية ، وانما كذلك بالقرب من خدمات السكك الحديدية والخدمات المائية أينما كانت • وفضلا عن ذلك فان الاسكان المتخلف قد يوجد فى كثير من أجزاء المدينة ، وخاصة بالقرب من المواقع الصناعية(٢) •

---

(1) Leo F. Schnore; «On the Spatial Structure of Cities in the Two Americas»; in P. Hauser and Schnore; The Study of Urbanization; op. cit; pp. 346-398.

(2) See M. Davie; «The Pattern of Urban Growth»; in G. P. Murdock (ed); Studies in the Science of Society; NewHaven : Yale University Press; 1953; pp. 137-161.

وازاء الانقادات العديدة التى تعرضت لها نظرية بيرجس ، نجد هومر هويت Hoyt ينشر فى سنة ١٩٣٩ نموذجا نظريا يحاول فيه تحديد النمط الايكولوجى للمدينة فى ضوء فكرة القطاع • ولقد أقام هويت نموذجه هذا استنادا الى فكرة مؤداها ، أن انتشار المناطق السكنية بأنواعها المختلفة يخضع لعملية توزيع دخول الافراد • لذلك نجده يقسم هذه المناطق الى ثلاث قطاعات رئيسية : الاول يضم العمال ذوى الدخول المحدودة والايجارات المنخفضة ، والثانى يضم الاغنياء ذوى الدخول الكبيرة والايجارات المرتفعة • أما القطاع الثالث فيضم مناطق النشاطات التجارية فى مركز المدينة • ويذهب هويت — معارضا فى ذلك بيرجس — الى ان النمو الحضرى يتم بأقصى سرعته على طول خطوط النقل الرئيسية وعلى طول الخطوط الاقل مقاومة [1] • غير أن هذا النموذج النظرى قد أكد أيضا أن النمو الحضرى يتحدد فى ضوء امتدادات النمط السائد من أنماط استخدام الارض • لذلك نجد هويت ينظر فى النهاية الى المدينة كدائرة ، والى المناطق المختلفة كقطاعات تشع من المركز ، وأن أنماط استخدام الارض المتماثلة تتكون بالقرب من المركز وتمتد الى الخارج •

وفى منتصف الاربعينيات صاغ هاريس Harris وأولمان Ullman نموذج النويات المتعددة multiple neclei model **الذى يذهب الى أن نمو** المدينة لايعتمد على نواة واحدة ، وانما على نويات متعددة • فهناك النواة الرئيسية فى مركز المدينة وهى منطقة النشاطات التجارية والخدمات الرئيسية ، وهناك نواة تجارة الجملة والصناعات الخفيفة بالقرب من النواة الرئيسية • كذلك توجد نواة الصناعات الثقيلة على أطراف المدينة • وحول هذه النويات تتوزع مناطق سكنية متنوعة بعضها للدخل المحدود وبعض آخر للدخل المتوسط وبعض ثالث للدخل المرتفع[2] • أما مناطق الضواحى

---

(1) E. Bergel; Urban Sociology; op. cit; pp. 75-91.

(2) J. Palen; The Urban World; McGraw-Hill Book Company; N. Y; 1975; Chap. 5.

فتمثل نطاقا انتقاليا بين البيئة الحضرية والبيئة الريفية • على أن هاريس وأولمان قد أشار الى بعض العوامل التى تفسر — مجتمعة — قيام النويات وتباين مناطق استخـــدام الارض • من ذلك أن تتطلب بعض النشاطات تسهيلات نوعية خاصة • فالمصانع — مثلا — تحتاج الى مساحات واسعة من الارض ، كما قد تتجمع بعض النشاطات المتشابهة معا لتتبادل الفائدة كما هو الحال بالنسبة لحى الاعمال المركزى • وفى بعض الاحيان تلجــأ بعض النشاطات — كالتخزين — الى المناطق ذات الايجارات المنخفضة مما قد يؤثر بالتالى على النمط العام لهذه المناطق •

وبالاضافة الى هذه النماذج النظرية الثلاثة ظهرت نماذج أخرى وان كانت أقل شهرة وذيوعا • فلقد قدم وليم ألونزو Alonso نموذجا ايكولوجيا يقوم على فكرة أولية هى ، أن استعمالات الارض تتباين طبقا لاثمانهــا وايجاراتها وذلك فى ضوء القرب أو البعد عن مركز المدينة • وهناك نموذج نظرى آخر يذهب الى أن نمط الاتصالات بين السكان هو العامل المحدد للطابع الايكولوجى للمدينة • اذ بالامكان النظر الى المدينة على أنها شبكة من العلاقات والاتصالات اليومية بين ســكانها بما فى ذلك البيع والشراء والانتقال اليومى من المناطق السكنية الى المناطق التجارية أو أماكن العمل• أما أحدث الاتجاهات الايكولوجية فى دراسة المدينة فهو ذلك الذى يعتمد على منهج تحليل النظم system analysis • وطبقا لهذا الاتجــاه تبــدو المدينة وكأنها نسقا من العلاقات المترابطة بين النشـــاطات الاجتمـــاعية والاقتصادية والثقافية والادارية • ومعنى ذلك أن المدينة تتألف من مجموعة من الانساق الفرعية المتبادلة التأثير والتأثير فى ضوء معطيات عديدة بعضها حضرى متصل بالمدينة والبعض الآخر اجتماعى مرتبط بالمجتمع ككل[١] • ومن خلال هذه الانساق الفرعية تتشكل الوحدة النهائية التى تقوم عليها

---

(١) القطب وابو عياش ، الاتجاهات المعاصرة فى الدرســـات الحضرية ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ص ١٩٨٠ ، ص ١١٢ •

المدينة • وخلال السنوات الاخيرة أبدى بعض علماء الايكولوجيا اهتماما كبيرا بأســلوب التحليل العاملى factorial analysis الذى يحاول حصر آلاف المتغيرات المؤثرة على إيكولوجية المدينة ، ثم تحديد الاهمية النسبية لكل منها [١] •

وقد يكون من المفيد أن نختتم هذه المناقشة ببعض الملاحظات حــول الانماط الايكولوجية لمدن الدول النامية • فلقد لاحظنا أن النماذج التى صاغها علماء الايكولوجيا تتعلق أساسا بالمدن الغربية التى تختلف اختلافا كبيرا عن مدن الدول النامية • والواقع ان الدراسات التى حاولت اختبار هذه النماذج على مدن الدول النامية مازال قليلة للغاية • ومع ذلك فان من الصعب القول بأن نموذجا بعينه يمكن أن يفسر النمط الحضرى لمدن الدول النامية • ففى بعض الاحيان تبدأ مدن الدول النامية باتخــاذ النمــوذج الدائرى أو الحلقى ، ثم تتخذ النموذج القطاعى فى مرحلة لاحقة • وقد يظهر خلال عملية النمو الحضرى نويات تنمو بصورة مستقلة • ومعنى ذلك أن مدن الدول النامية قد تعبر عن النماذج النظرية الثلاثة فى آن واحد • أما تفسير ذلك فيعود الى الظروف التاريخية التى مرت بها هذه المدن • فالجانب الأكبر من هذه المــدن قد نما فى غياب أية قوانين بلدية أو خطة حضرية محددة تضع حدودا على شغل المواقع وأنماط المساكن • وقــد نستثنى من ذلك بعض الاحياء الراقية التى يعيش فيها الاجانب فى مدن الدول النامية[٢] • وفضلا عن ذلك نجد أن أحياء واضعى اليد فى هذه المدن قد أحدثت تغييرا كبيرا على أنماطها الايكولوجية ، مما يحول هذه الاحيــاء الى قطاعات حضرية تتميز بالتخلف الاجتمــاعى والفيزيقى • وفى بعض

---

(١) استخدمت جانيت أبولغد هذا الاسلوب فى احدى دراساتها عن مدينة القاهرة . انظر :

Janet Abu-Lughod; «Varieties of Urban Experience Contrasts : Coexistence and Coalescense in Cairo»; in Lapidus (ed) Middle Eastern Cities; California Univ. Press; 1969.

(٢) جيرالد بريز ، مجتمع المدينة فى الدول النامية ، المرجع الســابق ، ص ٢٠١ •

الاحيان نجد السور الدفاعى يحدد نمط نمو المدينة ، ثم ما يلبث النمو أن يتخذ شكل حلقات بعد نقل هذا السور الى موقع أبعد • كذلك فان موقع المدينة وموضعها قد يؤثران على نمط النمو الحضرى كما هو الحال بالنسبة لبعض المدن أمثال هونج كونج وبومباى ولاجوس والخرطوم • على أننا لا نقصد بذلك اطلاق هذه الاحكام على كل مدن الدول النامية • ففى أمريكا اللاتينية — مثلا — خضع النمو الحضرى فى مدنها للقواعد التى كانت تفرضها القوى الاستعمارية ، فضلا عن الاختلافات الثقافية بينها وبين مدن العالم القديم [١] •

ثانيا — السكان الحضريون :

منذ مطلع القرن التاسع عشر والعالم يشهد نموا سكانيا لم يسبق له مثيل ، حتى أن بعض الباحثين قد أصبحوا يفضلون اطلاق مصطلح « الثورة السكانية » على هذه الظاهرة الديموجرافية • غير أن النمو السكانى الذى طرأ على المدن كان أعلى بكثير من ذلك الذى طرأ على السكان بوجه عام • ويكاد ينطبق هذا النمط من النمو على المستويين العالمى والقومى • ومعنى ذلك أن العالم قد بدأ يشهد منذ مطلع القرن التاسع عشر ما يمكن أن نطلق عليه « ثورة حضرية » • فقبل سنة ١٨٥٠ لم يعرف العالم « دولة حضرية » بالمعنى الحديث لهذا المفهوم • وفى سنة ١٩٠٠ أصبحت بريطانيا « الدولة الحضرية » الوحيدة فى العالم • وبعد مرور ثمانين عاما تقريبا تحولت معظم الدول الاوربية الى دول صناعية — حضرية حيث ارتفعت فيها نسبة السكان الحضريين حتى تجاوزت نسبة السكان الريفيين[٢] • والملاحظ ان التحضر العالمى خلال القرن التاسع عشر كان —

---

(1) Leo F. Schnore; «On the Spatial Structure of Cities in the Two Americas»; in Philip Hauser and Leo Schnore (eds); The Study of Urbanization; op. cit; pp. 347-397.

(2) Kingsley Davis; «The Urbanization of the Human Population»; in Gerald Breese (ed.); The City in Newly Developing Countries; op. cit; pp. 5-20.

الى حد كبير ــ نتيجة لتركز السكان فى مدن أوربا وأمريكا الشمالية • أما فى القرن العشرين فاننا نجد أن معدل التحضر العالمى قد تدعم وازداد نتيجة للزيادة السريعة فى نسبة سكان الحضر فى الدول النامية وعلى الاخص آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية • وبينما نجد الدول الصناعية المتقدمة تصل خلال هذا القرن الى « نقطة التشبع الحضرى » ، تشهد الدول النامية تدفقا سكانيا هائلا من المناطق الريفية الى المناطق الحضرية[١] • وعلى الرغم من معدل التحضر العالى نسبيا فى الدول النامية، الا أن نسبة السكان الحضريين فيها ماتزال ضئيلة نسبيا • ففى سنة ١٩٥٠ ــ مثلا ــ بلغ المتوسط العالمى للسكان الذين يعيشون فى مدن يزيد عدد سكانها عن ٢٠٠٠٠ر٢٠ نسمة حوالى ٢١٪ ، بينما لم يزد هذا المتوسط عن ٩٪ فى أفريقيا و ١٣٪ فى آسيا • كذلك اتضح أن ٢٦٪ فقط من سكان دول أمريكا اللاتينية يعيشون فى مدن يبلغ عدد سكانها ٠٠٠ر٢٠ نسمة • وعلى النقيض من ذلك نجد نسبة السكان الذين يعيشون فى مدن مماثلة تصل فى أمريكا الشمالية الى ٤٤٪ وفى أوربا ٣٥٪ (باستثناء الاتحاد السوفيتى) ، وفى الاتحاد السوفيتى ٣١٪ •

وليس من الصعب علينا تفسير النمو الحضرى الهائل الذى شهده العالم منذ مطلع القرن التاسع عشر[٢] • اذ أن هناك عوامل عديدة أسهمت فى ظهور هذا النمو كزيادة فائض الانتاج الزراعى ، وتحسن وسائل النقل والمواصلات ، والاستقرار السياسى • ولقد أوضح جيرالد بريز Breese أن النسبة المئوية لزيادة مجموع سكان العالم قد ارتفعت من ٢٩٪ فى الفترة من ١٨٠٠ ــ ١٨٥٠ الى ٤٩٪ فى الفترة من ١٩٠٠ ــ ١٩٥٠ •

---

(١) فيلب هاوزر، مشكلات التحضر السريع ، ترجمة السيد الحسينى فى : دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، المرجع السابق ، ص ٩١ .

(٢) أستخدم مصطلح النمو الحضرى للاشارة الى الزيادة المطلقة فى عدد سكان المدن بالنظر الى مجموع عدد السكان .

وفى مقابل ذلك ارتفعت نسبة سكان العالم الذين يعيشون فى مدن تعدادها ٢٠٫٠٠٠ فأكثر ارتفاعا يفوق بكثير ذلك الذى طرأ على الزيادة السكانية العالمية بوجه عام • فلقد بلغت نسبة زيادة سكان هذه المدن ١٣٢٪ فى الفترة من ١٨٠٠ ــ ١٨٥٠ ، بينما بلغت الزيادة فى مجموع سكان العالم خلال نفس الفترة ٢٩٪ • ثم وصلت نسبة الزيادة فى عدد سكان هذه المدن الى ٢٣٩٪ فى الفترة من ١٩٠٠ ــ ١٩٥٠ ، بينما كانت نسبة الزيادة فى مجموع السكان ٤٩٪ • واذا كان سكان العالم قد تضاعفوا ثلاث مرات فى الفترة من ١٨٠٠ ــ ١٩٦٠ ، فاننا نجد سكان المدن (٢٠٫٠٠٠ نسمة فأكثر) قد تضاعفوا أكثر من أربعين مرة ، كما تضاعف سكان المدن التى يتراوح تعدادها فيما بين ٢٠٫٠٠٠ نسمة و ١٠٠٫٠٠٠ نسمة حوالى ٣٥ مرة خلال نفس الفترة • أما سكان المدن التى يزيد عددها عن ١٠٠٫٠٠٠ نسمة فقد تضاعفوا خلال الفترة ذاتها حوالى أربعين مرة[1] •

على أن أهم ما يعنينا هنا هو التعرف على الدلالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى تشير اليها هذه المعدلات الحالية من التحضر • لقد انقضت آلاف السنين قبل أن تتحول المدن الصغيرة التى عرفها العالم منذ فجر تاريخه الى مدن ضخمة • ومن الطريف هنا أن أوربا الغربية (التى شهدت النمو الحضرى الحديث) لم تكن هى التى شهدت فى الماضى السحيق البدايات الحقيقية للتحضر • فحتى العصور الوسطى كانت مجتمعات أوربا الغربية تخضع لنمط ريفى اقطاعى تقليدى • وربما كان هذا النمط سببا أساسيا فى سيطرة الطابع الطفيلى على المدن الاوربية الوسيطة [2] • ونظرا لانخفاض الانتاجية الزراعية ، اتجهت بعض المدن الاوربية الى

---

(١) جيرالد بريز ، مجتمع المدينة الدول النامية ، المرجع السابق ، ص ٥١ .

(2) P. Abrams and E. A. Wrigley (eds.); Towns in Societies : Essays in Economic History and Historical Sociology; Cambridge University Press; 1978. esp. Chap. I; pp. 9-33.

العمل بالتجارة والصناعات الحرفية • ومع ذلك فلقد كان النظام الاقطاعى أحد المعوقات الاساسية التى حالت دون نمو المدن الغربية • اذ أن هــذا النمو لم يكن له ليتحقق دون القضاء على الســيطرة الهائلة التى كــان يمارسها كبار ملاك الارض على الاقنان • على أن نمو التجارة والصناعة الحرفية كان من أبرز العوامل الضاغطة على النظام الاقطاعى • ذلك أن العمل بالنشاطات التجارية والصناعية كان يتطلب اقامة العمال فى المــدن على مقربة من التجار وأصحاب المشروعات الصناعية الصغيرة • وبمرور الوقت ازدادت المنافسة بين المدن الاوربية ، مما أدى الى مزيد من التخصص المهنى والتقدم التكنولوجى ، وبالتالى اتســاع نطاق التعليم بكافة أنواعه حتى يمكن مواجهة متطلبات النظام الصناعى الجديد • وعلى الرغم من أن المدن الاوربية خلال العصور الوسطى كانت صغيرة العدد ولا تضم سوى أعداداً محدودة للغاية من مجمــوع الســكان الاوربيين ، الا أن نمــــو النشاطات الصناعية والتجارية وزيادة الاهتمام بتطــوير التكنولوجيا قد أديا ــ فى وقت لاحق ــ الى نتائج سكانية حضرية بالغة الاهمية • ويبدو أن العامل الحاسم فى النمو السكانى الذى شهدته المدن الغربية خلال القرن التاسع عشر قد تمثل فى زيادة الانتاجية بوجــه عام نتيجة التوســع فى استخدام الطاقة البخارية • ولقــد أوضح تحليل تاريخى تناول نمو المدن الاوربية فيما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر أن نسبة سكان المدن الكبرى (١٠٠ر٠٠٠ نسمة فأكثر) لم تكن تزيد عن ٢ر٢٪ من المجموع الكلى للســكان[١] •

على أن النمو السكانى الحقيقى للمدن الاوربية لم يتحقق الا من خلال اتساع حركة التصنيع • ففى سنة ١٨٠١ كان حوالى ١٠٪ من سكان انجلترا وويلز يعيشون فى مدن يزيد عدد سكانها عن ١٠٠ر٠٠٠ نسمة • ولقد تضاعفت هذه النسبة المئوية بعد مرور أربعين عاما ، ثم تضاعفت مرة

---

(1) Kingsley Davis; «The Urbanization of the Human Population»; op. cit; p. 11.

أخرى بعد مرور ستين عاما • وفى سنة ١٩٠٠ أصبحت بريطانيا أول « دولة حضرية » فى القارة الاوربية • ومن هذه الزاوية ارتبط التصنيع بالتحضر ارتباطا موجبا • فكلما اتسع نطاق حركة الصنيع ، ازدادت نسبة السكان الحضريين • ويقدر بعض الدارسين أن عملية التحول من مجتمع يعيش ١٠٪ من سكانه فى مدن يزيد عدد سكانها عن ١٠٠،٠٠٠ نسمة الى مجتمع يعيش ٣٠٪ من سكانه فى هذه المدن قد استغرقت فى بريطانيا وويلز حوالى تسعة وسبعين عاما ، وفى الولايات المتحدة ستة وستين عاما ، وفى ألمانيا ثمانية وأربعين عاما ، وفى اليابان ستة وثلاثين عاما ، وفى أستراليا ستة وعشرين عاما •وتؤكد هذه الشواهد استمرار العلاقة الموجبة بين النمو الاقتصادى ومعدلات التحضر ، كما تؤكد ما سبق أن أوضحناه من أن نمط التنمية الغربية قد ارتبط ارتباطا عضويا بنمو المدن الغربية • أما تفسير مصادر النمو الحضرى فى ضوء المتغيرات السكانية فلايزال حتى الآن مجالا خصيباً للبحث والدراسة[1] • ويبدو أن الاحتمالات المتاحة أمام الدارسين تتمثل فى اثنين : إما أن يكون النمو السكانى راجع الى زيادة عدد المواليد على عدد الوفيات (الزيادة الطبيعية) فى الحضر عنها فى الريف ، واما أن تكون هناك حركة سكانية من القرية الى المدينة • ويبدو أن أهمية الاحتمال الاول (التفاوت فى معدلات الزيادة الطبيعية بين الريف والحضر) مانزال محدودة للغاية وذلك على الاقل من وجهة النظر التاريخية • فلقد ظلت المدن الغربية تعانى لفترة طويلة خلال القرن التاسع عشر من ارتفاع معدلات الوفيات فيها بسبب الاوبئة التى كانت منتشرة ، حتى أن بعض الدارسين قد قدروا أن متوسط العمر فى لندن (سنة ١٨٤١) لم يكن يتعدى ستة وثلاثين عاما ، وستة وعشرين عاما فى ليفربول ومانشستر • على أن زيادة الاهتمام بالصحة العامة منذ سنة ١٨٥٠ قد أسهم بعد ذلك فى انخفاض معدلات الوفيات بوجه عام • وفضلا عن ذلك أدى التقدم التكنولوجى الى تحسين الظروف الطبيعية

---

(1) Brian Berry; The Human Consequences of Urbanization : Divergent Paths in the Urban Experience of the Twentieth Century; 1973; pp. 1''- 27.

للعمل، مما رفع ـــ بالتالى ـــ من متوسط الاعمار . واذا ما سلمنا بأن معدلات الوفيات فى المدن الغربية كانت أعلى من معدلات المواليد خـــلال النصف الاول من القرن التاسع عشر ، فان الزيادة الوحيدة المحتملة التى كان من الممكن أن تطرأ على سكان هذه المدن قد تمت عن طريق الهجرة الريفية ـــ الحضرية . لذلك فان النمو السكانى الذى حققته المدن الغربية خلال القرن التاسع عشر يعود أساسا الى الهجرة إليها من المناطق الريفية .

ويبدو أن التطور التكنولوجى المصاحب للتصنيع كان من أبرز العوامل الضاغطة التى أدت الى هذه الهجرة الريفية ـــ الحضرية المبكرة فى الدول الاوربية . لقد تحولت الارض فى ظل هذا المجتمع الصناعى «الجنينى» من مصدر واحد ووحيد للعيش الى مجـــرد موقع يضم أعدادا كبيرة من العمال الصناعيين . كذلك فان الطلب على المنتجات الزراعية قد أصبح ـــ بمرور الوقت ـــ أقـــل مرونة من الطلب على الخـــدمات والصناعات الحضرية . وبارتفاع الانتاجية بدأت الخدمات والصناعات الحضرية تستوعب مزيدا من العاملين الذين ما لبثوا أن حصلوا على أجور لم يكونوا يتوقعونها من قبـــل . ولما كانت النشـــاطات غير الزراعية (وعلى الاخص الصـــناعية والتجارية) تميل الى تأكيد أهمية الموقع ، بدأ التنافس على حيازة المناطق التى تتمتع بمزايا اقتصادية خاصة . والنتيجة الطبيعية المترتبة على ذلك ظهور تقـــارب جغرافى أو مكانى بين المشروعات الصـــناعية والتجـــارية المختلفة ، ذلك التقارب الذى شـــكل البداية الحقيقية للنويات الحضرية الصناعية[1] . وفى نفس الوقت بدأت التكنولوجيا الزراعية تحقق تقـــدما ملموسا ، مما أدى الى رفع الانتاجية الزراعية وبالتالى تقليل عدد العمـــال الزراعيين الذين ما لبثوا ان اتجهوا للعمل فى قطاعات أخرى . وفى ضـــوء هذه الاعتبارات يمكننا فهم المنطق الكامن وراء الهجرة الريفية ـــ الحضرية المبكرة فى معظم الدول الاوربية ، وما ترتب على ذلك من تغير نمط التوازن

---

(1) R. P. Beckinsale and J. M. Houston; Urbanisation and Its Problems (Basil Blackwell; 1968); Chap. II.

الريفي ــ الحضري الــذي ظل قائما لقرون عديدة • ففي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين انخفضت نســبة الســكان الريفيين انخفاضا ملحوظا في دول كانجلترا والســويد وبلجيكا •

على أن معدلات زيادة التحضر لا ترتبط ارتباطا لا نهائيا بمعدلات النمو الاقتصادي • اذ أن مثل هذا الارتباط قد يشتد قوة في المراحــل الاولى من التصنيع ، ثم ما يلبث أن يتعرض للثبات في المراحل التالية • ففي الدول الغربية أدت وسائل الاتصال والمواصلات الحديثة كالســيارة والراديو والسينما الى تقليل عدد أيام العمل الاسبوعية وزيادة الرغبــة في الاقامة في المناطق الريفية المجاورة للمدن • وفي نفس الوقت أدت زيــادة حدة المشكلات في المدن الغربية الحديثة الى طرد بعض من سكانها مفضلين الاقامة الريفية على الاقامة الحضرية • ومن هذه الزاوية يمكننا تفسير عدم انخفاض عدد السكان الريفيين في الدول الصناعية بوجه عام خلال العقود الاخيرة ، برغم انخفاض نسبة العاملين في النشــاطات الزراعية • ففي الولايات المتحدة ــ مثلا ــ بلغ صافي الهجرة من المناطق الريفية الى المناطق الحضرية ٢٧ مليون نسمة فيما بين سنتي ١٩٢٠ و ١٩٥٩ وذلك بمعــدل ٧٠٠ر٠٠٠ نسمة سنويا • وفي كل الاحوال فان معدلات التحضر في الدول الصناعية قد انخفضت انخفاضا كبيرا بفضل التقدم التكنولوجي والنمــو الاقتصادي الهائلين اللذين تحققا خلال القرن العشرين • وعند هــذا الحد يتوقف الارتباط بين معدل التحضر ومعدل النمو الاقتصادي عن الاستمرار في الارتفاع • أما تفسير ذلك فمتاح ويسير • اذ أن المناطق الريفية في الدول الغربية لم يعد لديها فائضا سكانيا تصدره الى المدن ، كما أن النمو السكاني الهائل الذي طرأ على ضواحي هذه المدن قد جعل من الهجــرة الريفية ــ الحضرية أمرا صعب التحقيق • وهكذا بدأت المــدن الغربية تشــهد توازنا دقيقا بين اعتبــارات النمو الحضري ومتطلبات التنميــة الاقتصادية ، وهو التوازن الذي طالمــا افتقدته هذه المدن خــلال القرن التاسع عشر •

أما اذا تأملنا موقف الدول النامية الآن ، وجدنا عددا كبيرا من العناصر الفريدة • فمن الحقائق السكانية المألوفة أن هذه الدول تكاد تشكل ثلاثة أرباع الكتلة السكانية العالمية ، كما أنها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحصولها على الاستقلال السياسى وهى تشهد نمـوا حضريا فاق كل تصور وخيال • ولتوضيح ذلك يكفى أن نشير الى أنه فيما بين سنتى ١٩٥٠ و ١٩٦٠ زادت نسبة السكان الذين يعيشون فى مدن يزيد عدد سكانهـا عن ١٠٠٫٠٠٠ نسمة فى الدول النامية بمعدل ضعفى تلك الزيادة التى طرأت على سكان هذه المدن فى الدول الصناعية • ولقد أوضحت بعض الدراسات الحديثة[1] أن سكان المدن الكبرى فى الدول النامية يتضاعفون كل ثلاثة عشر عاما تقريبا ، كما أن هذه الدول قد أضافت الى مجموع سكان العالم حوالى ٢٦٠ مليون حضرى فيما بين سنتى ١٩٥٠ و ١٩٧٠ • وخـلال نفس هذه الفترة ازدادت نسبة سكان مدن الدول النامية التى يبلغ عدد سكانها ١٠٠٫٠٠٠ نسمة حتى وصلت الى ٦٧٪ لكل عقد • ومن الواضح أن هذا المعدل من النمو الحضرى يفوق بكثير ذلك الذى شهدته أمريكا الشمالية وأوربا الغربية خلال القرن التاسع عشر ، كما أننا لا نجد مؤشرات أو دلائل قوية تجعلنا نذهب الى أن هذا المعدل من النمو الحضرى فى الدول النامية سيكف عن الارتفاع خلال المستقبل القريب • وفى دراسة تنبؤية حديثة اتضـح أن ٨٥٪ من نسبة الزيادة السكانية العالمية فيما بين سنتى ١٩٧٠ و ٢٠٠٠ ستأتى من الدول النامية بعامة ومدنها الكبرى بخاصة[2] • أمـا أصرخ التناقضات التى نجدها فى الدول النامية فتتمثل فى ارتفاع نسبة الحضر فيها (حوالى ثلث السكان الحضريين فى العالم ككل) مع غلبة الطـابع

---

(1) Kingsley Davis; «Burgeoning Cities in Rural Countries»; in Scientific American's Cities : Their Origin; Growth and Human Impact; Freeman; San Francisco; 1973; pp. 220 ff.

(2) Irene B. Taeuber; «Population Growth in Less Developed Countries»; in Philip Hauser (ed.); The Population Dilemma; Prentice-Hall; Englewood Cliffs; N. J; 1969; p. 42.

الزراعى عليها •ان عدد السكان الحضريين فى الدول الناميه الان يفوق مجموع عدد السكان الحضريين فى العالم أجمع فى سنة ١٩٥٠ • واذا كانت هذه الدول تشهد نموا سكانيا هائلا ، فانها تشهد — فى المقابل — نموا حضريا كبيرا • وعلى الرغم من الاختلافات الملحوظة بين الدول النامية فى هذا المجال ، الا أن الاتجاه العام هو الارتفاع المستمر فى معدلات التحضر •

ولقد دفعت هذه المؤشرات السكانية بعض الباحثين الى القول بأن الدول النامية تشهد نموا حضريا عاليا خلال المراحل الاولى من التصنيع ، وأن ذلك يشبه الى حد كبير ما شهدته الدول الاوربية خلال القرن التاسع عشر[1] • غير أننى أعتقد أن هذا التشبيه — برغم جاذبيته واغراءاته — يتجاهل كثيرا من العوامل التاريخية (الاقتصادية والاجتماعية) المصاحبة للتحضر • اذ أن نموذج التنمية الاقتصادية والتحضر فى الدول النامية الآن لايمكن أن يكون تكرارا للنموذج الاوربى خلال القرن التاسع عشر • إن ذلك يعنى تجهيل الواقع التاريخى وتحويل الخبرات الانسانية الى صور لا معنى لها • ولعل أول الحقائق السكانية التى يجب تأكيدها هنا هى ، أن معدلات التحضر فى الدول النامية الآن لاتزيد فقط عن معدلات التحضر فى الدول الصناعية الحديثة ، بل انها تزيد أيضا عن تلك التى عرفتها الدول الاوربية خلال المراحل المبكرة من التصنيع • ولقد أوضح كنجزلى ڤافيز Davis أنه برغم ارتفاع معدلات التحضر فى الدول النامية عنها فى الدول الصناعية خلال القرن التاسع عشر ، الا أن هذا الارتفاع ليس كبيرا للغاية • فعند تحليل معدلات التحضر فى أربعين دولة نامية ، اتضح أن نسبة السكان الحضريين فيها قد وصلت الى ٢٠٪ خلال العقد الواحد ، بينما كانت هذه النسبة فى الدول الاوربية خلال العقد الواحد (فى أواخر

---

(1) N. V. Sovani; «The Analysis of Over-Urbanization»; in Gerald Breese (ed.) The City in Newly Developing Countries; op. cit; pp. 322-330.

القرن التاسع عشر) حوالى ١٥٪[١] • كــذلك أوضحت بعض التحليلات الاحصائية لبعض الدول النامية أن معدل النمو السنوى للسكان الحضريين قد وصل الى ٥ر٤٪ فيما بين سنتى ١٩٤٠ و ١٩٥٠ ، بينما كان هذا المعدل بالنسبة لبعض الدول الاوربية فى أواخر القرن التاسع عشر ١ر٢٪ • بل ان هذا المعدل لم يتجاوز فى دول العالم الجـديد (الولايات المتحـدة ، وأستراليا ، ونيوزيلندة ، وكندا ، والارجنتين) أكثر من ٢ر٤٪ سنويا ، برغم معدلات الهجرة العالية اليها من دول العالم القديم[٢] • ومن اليسير فهم التفاوت بين معدلات التحضر فى كل من الدول الصناعية المتقدمة والدول النامية فى ضوء معدلات الزيادة السكانية بوجه عام ، والتوزيعات السكانية الريفية ــ الحضرية بوجه خاص • اذ أن معدل الزيادة السكانية فى الدول النامية منذ سنة ١٩٤٠ قد وصل الى ثلاثة أضعاف معدل الزيادة السكانية فى الدول الصناعية فى أواخر القرن التاسع عشر • واذا كانت العوامل السياسية قد لعبت دورا هاما فى نمو بعض المدن الاوربية خلال القرن التاسع عشر خاصة حينما بدأت المعالم القومية تتحدد بوضوح على مستوى القارة [٣] ، فاننا نجد العوامل الاجتماعية ــ الاقتصادية تلعب الدور الاكبر فى نمـو سكان مدن الدول النامية ، تلك العوامل التى يمكن أن ندرجها تحت تعبيرى «العوامل الطاردة» و «العوامل الجاذبة» • وعلى الرغم من معدلات التحضر العالية فى الدول النامية ، الا أن معدلات النمو السكانى فى مناطقها الريفية ماتزال مرتفعة للغاية • وهنا يبدو فارق هام بين الدول الصناعية خـلال القرن التاسع عشر والدول النامية الآن • ففى الاولى كانت الاوبئة عاملاً ضاغطا محددا النمو السكانى سواء فى الريف أو الحضر ، بينما فى الثانية نجد تقدم مستوى الصحة العامة والرعاية الطبية قـد أديا الى ارتفـاع ملحوظ فى نسبة الزيادة السـكانية • والمعضلة الحقيقية التى يواجهها

(1) Kingsley Davis; «The Urbanization of the Human Population»; op. cit; p. 15.

(2) Ibid; p. 15.

(3) Kingsley Davis; World Urbanization; 1950-1970; (Berkeley; Univ. of California; 1969).

السكان الريفيون فى الدول النامية هى أن استمرار الاقامــة فى المناطق الريفية يعنى مزيدا من البطالة ، بينما الانتقال الى المناطق الحضرية لايخلو من مخاطر البطالة ، فضلا عن الآثار الجانبية العامة المترتبة على ذلك • والملاحظ أن الهجرة الريفية ــ الحضرية فى الدول الصناعية قد أسهمت كثيرا فى تخفيف الضغط على المناطق الريفية ، وبالتالى تكثيف الاستثمار الزراعى ورفع الانتاجية بوجه عام • أمــا فى الدول النامية فاننا لا نجــد موقفا قريبا من ذلك • فبينما هى تواجه معدلا عاليا من النمــو الحضرى ، تعانى ــ فى نفس الوقت ــ من مشكلات حضرية حادة • والنتيجة النهائية لذلك هى : أن التحضر يتحول الى عبء على التنمية الاقتصادية أكثر مما يصبح عونا على تحقيقها •

الباب الثانى

المدينة فى الدول النامية

الفصل الخامس

أمريكا اللاتينية

عرفت أمريكا اللاتينية المراكز الحضرية الكبيرة قبل وصول البرتغاليين والاسبان اليها بوقت طويل • ومعنى ذلك أن النشأة الاستعمارية لبعض مدن الدول النامية لا تكاد تكون شائعة الى حد كبير فى هذه القارة • ففى آسيا وأفريقيا أقامت القوى الاستعمارية الاوربية مدنا عديدة خلال القرن التاسع عشر ، بينما لا نجد نظيرا لهذا الموقف فى أمريكا اللاتينية،مماقديمنحها قدرا من « الخصوصية الحضرية » على الاقل من وجهة النظر التاريخية • بيد أن ذلك لايعنى ان البرتغاليين والاسبان لم يهتموا باقامة مدن فى أمريكا اللاتينية • إن عكس ذلك هو الصحيح تماما • فخلال القرن السادس عشر أنشأ الاسبان عددا من المدن « الاستعمارية » المتشابهة فى بناءاتها الايكولوجية ووظائفها الحضرية[1] • وعلى الرغم من أن النمو اللاحق الذى طرأ على هذه المدن قد طمس بعض معالمها المميزة ، الا أننا مانزال نلمس حتى الآن التشابه الكبير بينها • لقد كان الهدف الاساسى من انشاء هذه المدن هو اقامة مراكز ادارية هامة ونقاط عسكرية حصينة يستطيع من خلالها الاسبان صد أى هجوم عسكرى محتمل • كذلك فلقد كانت هذه المدن بمثابة وسائل أساسية للتحكم فى المناطق الريفية المحيطة بها والحصول على المنتجات الزراعية ، التى ما تلبث ان تتجه الى العاصمة الاسبانية أو « الميتروبولس Metropolis » • على أن هذه المدن الاستعمارية لم تكن تنعم بالاستقلال الذى كانت تتمتع به المدن الانجليزية خلال تلك الفترة •

---

(1) R. Morse; «Recent Research on Latin American Urbanization : A Selecitve Survey with Commentary»; in Gerald Breese (ed.) The City in Newly Developing Countries; Princeton University Press; 1966; pp. 472-506.

إذ أن التاج الاسبانى قد منع أية نشاطات تجارية أو صناعية من شأنها التقليل من تبعية هذه المدن للعاصمة الاسبانية • ويمكننا اعتبار عام ١٥٨٠ أحد المعالم الحضرية الهامة فى أمريكا اللاتينية • اذ اقيمت خلاله ستة عشر مدينة ماتزال قائمة حتى يومنا هذا • أما التوجيه الاقتصادى والاجتماعى والسياسى لهذه المدن فكان صوب مدريد أولا ، وأسبانيا ثانيا • ومعنى ذلك أن هذه المدن لم تكن موجهة لخدمة المناطق الريفية الوطنية المحيطة بها بقدر ما كانت موجهة لخدمة العاصمة الأم : مدريد • بعبارة أخرى بدت هذه المدن وكأنها كيانات « هلامية » لم تتطور بطريقة طبيعية من خلال بيئاتها • وقبل فترة الاستقلال بقليل (حوالى سنة ١٨٢٥) طرأت بعض التغيرات الاجتماعية والاقتصادية المحدودة على هذه المدن الاستعمارية • ومع ذلك فان هذه التغيرات لم تؤد بعد ذلك الى ظهور مدن صناعية من ذلك النمط الذى عرفته أوربا الغربية • فأقصى ما وصلت اليه هذه المدن من تقدم صناعى يتمثل فى بعض الصناعات الخفيفة كالغزل والنسيج ، خاصة وان المزارع الاقطاعية الضخمة haciendas كانت تضمن تزويد هذه الصناعات بالمواد الخام • ولقد كانت سياسة أسبانيا ازاء المستعمرات واضحة كل الوضوح • فالهدف النهائى لهذه السياسة كان استنفاذ الموارد الطبيعية للمستعمرات وعلى الاخص الذهب والفضة والاحجار الكريمة ونقلها بعد ذلك الى مدريد ، ثم تظل هذه المستعمرات بعد ذلك معتمدة اعتمادا كليا على السلع المصنعة التى تصلها من الموانى الاسبانية التى كانت أشبه بقلاع حصينة • ومن الطبيعى أن تحدث هذه السياسة تأثيرات ضارة على مدن أمريكا اللاتينية خلال تلك الفترة • اذ أن هذه المدن قد حرمت من أهم وظيفتين هامتين هما : التجارة ، والصناعة[1] • ويكفى فى هذا المجال أن نقارن بين مدن أمريكا اللاتينية والمدن البريطانية خلال القرن السادس عشر • فبينما استطاعت الاخيرة

---

(1) Lynn Smith; «Urbanization in Latin America»; in Nels Anderson (ed.) Urbanism and Urbanization; Leiden; 1964; pp. 127-142.

تحقيق نمو حضرى هائل بسبب تنوع نشاطاتها ، ظلت الاولى محافظة على حجمها « القزمى » لفترة طويلة • لقد كانت وظيفة موانى المستعمرات الاسبانية مقصورة على تلقى السلع والبضائع التى تأتى اليها كل عـــام وشحن المواد الخام الى أسبانيا •

ولقد أوضحت بعض الدراسات التاريخية أن الاستعمار الاســـبانى لمعظم أجزاء أمريكا الجنوبية قد أدى الى تقلص المدن الهندية التى كانت قائمة قبل الكشوف الجغرافية • اذ أن الاستعمار الاسبانى قد أدى الى تفريغ بعض هذه المدن من سكانها من الهنود الحمر وتحـــويل اقتصادها لخدمة أهداف التجارة الاستعمارية[1] • والواقع أن الاسبان الغزاة لم ينظروا الى هذه المدن الا من خلال الاهداف الاقتصادية التى يمكن أن تحققها لهم ، حتى جمهوريات أمـــريكا اللاتينية لم تفعـــل الشىء الكثير بعد حصولها مباشرة على الاستقلال السياسى من أجل الحفاظ على آثار الحضارات القديمة التى كانت أفضل تعبير عن الكرامة الوطنية والتراث التاريخى • ويبدو أن المدن الساحلية الصغيرة التى أنشأها الغزاة الاسبان والبرتغاليون فى أمريكا اللاتينية خلال الفترة الاستعمارية كانت تتشابه فى عدد كبير من الخصائص • إذ أن هذه المدن كانت فى معظم الاحيان موانى بحرية أقيمت لخدمـــة أهداف اقتصادية وصممت على نحو يضمن تحقيق المتطلبات الامنية والسياسية • بعبارة أخرى كانت هذه المدن تحقق عددا من الوظائف الهـــامة فى آن واحد تبدأ بالوظيفة الحربية ــ السياسية ، مرورا بالوظيفة التجارية ، وصولا الى الوظيفة الادارية الاستعمارية • ومع ذلك فلقد كانت هناك فروق ملحوظة بين المدن التى أقامها الاسبان ، وتلك التى أقامها البرتغاليون • فبسبب قلة عدد سكان البرتغال نجـــدهم يتوغلون الى الداخل قليلا ويستعينون بالقـــوة البشرية الوطنية ، بينمـــا لايضطر الاســـبان الى ذلك مفضلين الاستغلال الاقتصـــادى للمناطق

---

(1) Andre Frank; Capitalism and Underdevelopment in Latin America; New York; Monthly Review Press; 1969.

الشاسعة من خلال التمركز في مواقع حصينة[1] . وأيا كانت العوامل التى أدت الى اختلاف النمط الحضرى فى كل من المستعمرات الاسبانية والبرتغالية ، فان هناك قضايا عامة تطرح نفسها فى هذا المجال . فالاستعمار (الاسبانى والبرتغالى) كان فى حقيقة الامر « استعمارا حضريا » ، أنجزته عقول حضرية أوربية . كذلك فان اختيار مواقع المدن على مستوى القارة بأكملها كان يعكس قدرا كبيرا من العشوائية بسبب سيطرة الاعتبارات الدفاعية والامنية التى كانت كثيرا ما تتغير بسبب تقدم التكنولوجيا العسكرية . وواقع الامر أن المستعمرين الاوائل من الاسبان والبرتغاليين قد سعوا الى تفريغ المناطق المحيطة بالمدن الجديدة من سكانها الوطنيين . أما العلاقة بين هذه المدن فلم تنمو وتتطور الا خلال فترة متأخرة نسبيا ، ذلك أن الحواجز الجغرافية ، والمسافات الهائلة التى كانت تفصل بينها ، فضلا عن تخلف وسائل النقل والاتصال ، كل هذه العوامل أسهمت فى تعميق العزلة بين هذه المدن مما سهل على الاستعمار احتوائها والسيطرة عليها .

وخلال فترة الاستعمار الايبيرى لامريكا اللاتينية طرأت تغيرات ديموجرافية هامة ، على الرغم من صعوبة الوصول الى تعميمات قاطعة فى هذا المجال . فمنذ بداية القرن السادس عشر والقارة تشهد نموا سكانيا ملحوظا . ففى سنة ١٥٧٠ بلغ عدد سكان القارة ١٠ر٢ مليون نسمة فى مقابل ١١ر٤ مليون نسمة فى سنة ١٦٥٠ و ١٨ر٩ مليون نسمة فى سنة ١٨٠٠ . وفى سنة ١٩٠٠ وصل عدد سكانها الى ٦٣ مليون نسمة ، الى أن وصل فى سنة ١٩٥٠ حوالى ١٦٠ مليون نسمة[2] . أما أكبر زيادة

---

(1) Richard Morse; «The Heritage of Latin America»; in Louis Hartz; (ed.) The Founding of New Societies; New York; 1964; pp. 123-177.

(2) See Bert F. Hoselitz and Wilbert E. Moore (eds); Industrialization and Society. UNESCO : Mouton; Paris; 1963 and Philip M. Hauser (ed.) Urbanization in Latin Amerca; UNESCO; Paris; 1961.

سكانية طرأت على أمريكا اللاتينية فقد حدثت خلال العقود الثلاث الماضية ، حيث وصل عدد سكانها الى ٢٩١ مليون نسمة • وفى أواخر القرن الثامن عشر بدا واضحا أن الزيادة السكانية على مستوى القارة قد بدأت ترتبط بالنمو الاقتصادى ، والتحديث التكنولوجى ، والنهضة التى شهدتها المدن الكبرى منذ ذلك الحين • غير أن ذلك لم يتحقق بدرجة واحدة فى كل أجزاء أمريكا اللاتينية • فلقد ظلت بيرو — مثلا — تعانى من التخلف الاقتصادى الشديد لفترة طويلة • ومن خلال السيطرة الاستعمارية شهدت مدن أمريكا اللاتينية بناء طبقيا جامدا يعكس بدقة ووضوح متطلبات هذه المرحلة من الاستغلال الخارجى والداخلى على السواء • فعلى قمة هذا البناء الطبقى نجد كبار ملاك الارض البيض الذى كانوا يتفاخرون دائما « بنقاء » دمائهم وعروقهم • ومن خلال المزارع الاقطاعية الضخمة التى كانوا يملكونها حققوا سيطرة سياسية على مختلف جوانب الحياة الاجتماعية[1] • وهناك أيضا تجار التصدير الذين كانوا يحتكرون تصدير المنتجات الزراعية الى أسبانيا والبرتغال ، ويستغلون — فى نفس الوقت — صغار الفلاحين باغراقهم فىالديون ثم السيطرة على محاصيلهم • وهناك أيضا تجار الاستيراد الذين كانوا من الاسبان الذين يرتبطون ارتباطا قويا بالاجهزة الادارية الملكية • وعلى الرغم من ان أفراد هذه الفئة (تجار الاستيراد) كانوا يدخلون فى صراعات مع أفراد الفئتين السابقتين (أصحاب المزارع الاقطاعية وتجار التصدير) ، الا أن ولاءهم لكبار الموظفين الاسبان كان يضمن لهم الانتماء الى « الطبقة البرجوازية » • واذا كان هذا البناء الطبقى الاستعمارى قد أتاح الفرصة لظهور تنوع داخل الطبقة العليا ، الا أنه لم يسمح بظهوره داخل الطبقة الدنيا • ففيما عدا الطبقة العليا تدخل كل قطاعات السكان داخل الطبقة الدنيا التى تضم فيما تضم الجماعات ذات الدماء المختلطة والسكان المحليين • اذ أن العرق

(1) F. Chevalier; Land and Society in Colonial Mexico : The Great Hacienda; Berkeley : University of California Press; 1965.

ــ فضلا عن العوامل الاقتصادية والثقافية الاخرى ــ كان يشكل أحــد الابعاد الاساسية التى يستند اليهــا البناء الطبقى فى مجتمعات أمريــكا اللاتينية خلال الحقبة الاستعمارية[١] •

ويبدو أن المدن الاستعمارية التى أقامها الاسبان فى أمريكا اللاتينية قد اعتمدت فى نمطها ونموها على توجيهات كل من شارل الخامس وفيلب الثانى • وبمقتضى هذه التوجيهات كانت المدن تقام فى مناطق غير مأهولة بالسكان ، وقريبة قدر الامكان من الأنهار • ومن شأن ذلك أن يسمح لهــا بامكانيات الامتداد المكانى دون مواجهة العقبات الجغرافية أو المشــكلات البشرية • ولقد حرصت القوى الاستعمارية (وعلى الاخص الاسبانية) على وضع مجموعة من القواعد العامة التى تحكم التخطيط الحضرى لهــذه المدن • من ذلك ضرورة اقامة ساحة أو ميدان عام كبير يحيط بالكاتدرائية والمبانى الحكومية الهامة • أما قطع الارض المخصصة للبناء فكانت متساوية ومربعة قدر الامكان ، مما منح التوزيع المكانى لهذه المدن المبكرة طابعا هندسيا • وكما هو الحال فى معظم مدن العصــور الوسطى كانت المنــازل تحاط بجدران عالية من جميع اتجاهاتها • وبسبب النشأة الحربية لهــذه المدن والوظائف الادارية التى كانت تؤديها بالنسبة للريف المحيط بهــا ، بدت مواقع بعض هذه المدن غير ملائمة تماما للنقل والمواصلات • فعلى سبيل المثال أقيمت مكسيكوسيتى على جزيرة تقع وسط بحيرة[٢] • ومعنى ذلك أن الاعتبارات السياسية كانت تلعب الدور الاساسى فى تحديد مواقع المدن • بل إن مكانة المدينة ومرتبتها داخل المدن الاقليمية لم تكن تتحدد فى ضوء الاعتبارات الاقتصادية القومية بقــدر ما كانت تتحدد فى ضــوء الاعتبارات السياسية الاستعمارية • ولقد بذلت الحكومة الاسبانية جهودا

---

(1) Richard Morse; «Recent Research on Latin American Urbanization....» in G. Breese; (ed.) op. cit; p. 481.

(2) John Palcn; The Urban World; McGraw Hilll Book Company; N. Y; 1975; p. 335.

كبيرة من أجل تشكيل بناء طبقى حضرى جامد يتفق مع أهدافها ومصالحها . فكل الوظائف الادارية والدينية والسياسية العليا كانت من نصيب الذين ولدوا فى أسبانيا . أى أن الصدفة البيولوجية كانت المحدد الاساسى للقوة الاقتصادية والسياسية والروحية . أما الذين ولدوا فى مستعمرات أمريكا اللاتينية ـــ مهما كانت ثرواتهم وأوضاعهم العائلية ـــ فكانوا يشغلون الوظائف الدنيا الثانوية . وربما كانت هذه التفرقة الصارخة سببا رئيسيا فى تمرد الوطنيين على السلطات الاستعمارية وتحقيق الاستقلال السياسى فى فترة لاحقة .

وهناك شواهد تاريخية عديدة تشير الى ان المستعمرين الاسبان كانوا ينجذبون الى الاقامة فى المدن وعلى الاخص فى فترات الاستقرار السياسى التى أعقبت الغزوات الاستعمارية . أما المزارع الاقطاعية التى كان الاسبان يملكونها فكانت تخضع للملكية الغيابية . اذ بينما يفلحها الفلاحون الهنود ، يفضل ملاكها من الاسبان الاقامة فى المدينة . ويبدو أن الخطط الحضرية التى اعتمدت عليها المدن الاستعمارية منذ نشأتها قد أتاحت لها ـــ فى فترة لاحقة ـــ امكانيات الاتساع المكانى . اذ ما لبثت الشوارع المستقيمة أن ازدادت طولا ، كما ظهرت مجمعات سكنية تشبه فى خطتها الحضرية المجمعات السكنية القديمة[1] . كذلك فان الاهمية الكبيرة التى احتلها الميدان العام المحيط بالكاتدرائية والمبانى الحكومية كان لها أكبر الأثر فى تحديد النمط الايكولوجى لهذه المدن ، وبالتالى مواقع الاسواق والاسوار والمناطق السكنية . أما قطع أراضى البناء الكبيرة التى كانت تمنح لبعض الاشخاص المتميزين فقد ساعدت فى المدى القصير على تخفيف حدة الكثافة السكانية الحضرية لهذه المدن . وبتقسيم هذه القطع واعادة بنائها بدأت الكثافة السكانية فى الارتفاع كما طرأت تغيرات هامة

(1) Ralph. A. Gakenheimer; «The Peruvian City of the Sixteenth Century»; in G. H. Beyer (ed.) The Urban Explosion in Latin America; Cornell University Press; Ithaca; N. Y; 1967; p. 50.

على النمط الحضرى بوجه عام • ومع ذلك فاننا نجد هنا ضرورة للتمييز بين المدن الاسبانية والبرتغالية فى أمريكا اللاتينية • ففى البرازيل التى كانت مستعمرة برتغالية نجد عددا قليلا من المدن ، ذلك أن البرتغالين — على خلاف الاسبان — قد اعتمدوا فى سيطرتهم الاستعمارية على الاسلوب الاقطاعى الزراعى ، مما أدى الى عدم اهتمامهم بتدعيم المدن القائمة أو اقامة مدن جديدة • لذلك قد لانندهش كثيرا حينما نجد مدنا برازيلية مثل سانتوس وباهيا وريو دى جانيرو قد ظلت صغيرة الحجم ضعيفة البناء على طول الفترة الاستعمارية بأكملها • أما الموانى « الطبيعية » الضخمة التى طورها البرتغاليون فكانت مقصورة على السفن التجارية البرتغالية • ومن هذه الزاوية يمكننا فهم الدور المحدود الذى لعبته التجارة فى نمو هذه الموانى •

ومن المحتمل أن تكون السياسة الاستعمارية الاسبانية والبرتغالية من بين الاسباب الهامة التى أدت الى ظهور اختلافات ايكولوجية واضحة بين المدن فى كل من أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية(1) • ومع ذلك نجد ليو شنور Leo schnore يؤكد فى دراسة هامة له أن أسباب هذه الاختلافات أكبر بكثير من « السياسة الايبيرية » ازاء مستعمرات أمريكا اللاتينية ، ذلك أن النمط الحضرى اللاتينى التقليدى قد ظهر فى مدن العالم الجديد قبل الغزو الاسبانى • ولكى يدلل ليوشنور على وجهة نظره ، نجده يستشهد ببعض الشواهد الاركيولوجية التى تؤكد أن الناس فى حضارتى الأزتيك Aztec والمايا Maya كانوا يعيشون فى مراكز حضرية كبيرة الحجم(2) • ويبدو أن عددا كبيرا من الباحثين المعاصرين قد أصبحوا يميلون الى تأييد هذه القضية • ويكفى أن نستشهد على ذلك بالنص التالى :

---

(1) George A. Theodorson (ed.) Studies in Human Ecology; Row; Peterson; Evanston; III; 1961; pp. 326-327.

(2) Leo F. Schnore; «On the Spatial Structure of Cities in the Two Americas»; in P. Hauser and Leo Schnore (eds.); The Study of Urbanization; N. Y; 1965; p. 369.

« عرفت أمريكا اللاتينية المراكز الحضرية التى تؤدى وظائف مدنية ودينية قبل الغزو الاستعمارى لهـا بفترة طويلة • فالوصف التقليدى لمدينـة اليوكاتان Yucatan يصدق على المـدن القديمـة التى شهدتها منطقة أمريكا الوسطى منذ فترة بعيدة • وقبل وصول الاسبان الى هذه المنطقة اعتاد السكان الوطنيون على الاقامة فى المدن التى لم تكن تخلو من ملامح التخطيط الحضرى المبكر • ففى وسط المدينة توجد المعابد التى تلفهـا ساحات ضخمة • وعلى مقربة من ذلك تقع مساكن الاغنياء ورجال الدين ، ثم تأتى مساكن الاعيان وذوى النفوذ • أما مساكن الطبقة الدنيا فتقع على أطراف المدينة من مختلف اتجاهاتها »(١) • وتتفق هذه الشواهد مع النموذج النظرى الذى صاغه جدعون جوبرج Sjoberg لتفسير « مـدن ما قبل الصناعة » • فطبقا لهذا النموذج تقع المبانى الحكومية الهـامة وأماكن العبادة فى وسط المدينة • كما أن الاقامة فى وسط المدينة هى من رموز المكانة الاجتماعية • فالصفوات السياسية والدينية والتجارية تميل الى العيش فى قلب المدينة ، بينما لا تجد الجماهير الفقيرة الا الاطراف فتتخذ منهـا موطنا لها(٢) • وعلى الرغم من تحفظاتنا على بعض التعميمات التى تناولت « مدن ما قبل الصناعة » ، الا أن السمة المشتركة بينها هى اقامة الصفوات الدينية والسياسية والاقتصـادية فى مناطقها المركزية • اذ أن العيش فى قلب المدينة كان مقصورا على هذه الصفوات • وهناك مبررات قوية تدعم ذلك • فقبل ظهور التكنولوجيا الحديثة وتوطن بعض الصناعات داخل وسط المدينة وما استتبع ذلك من ضوضاء وتلوث وازدحام ، قبل ذلك كله كانت الاقامة فى قلب المدينة تنطوى على ميزات كبيرة حصلت عليها هذه الصفوات وحدها • ويكاد يصدق ذلك على كل مدن أمريكا الشمالية أيضا خلال الفترة

---

(1) E. M. Shook and T. Proskouriakoff; «Settlement Patterns in Meso-America and the Sequency in the Guatemalan Highlands»; in G. Willey (ed.); Prehistoric Settlement Patterns in the New World; N. Y; 1956; pp. 93-100.

(2) Gideon Sjoberg; The Preindustrial City : Past and Present; Free Press; Glencoe; III; 1960; pp. 96-98.

السابقة على الثورة الصناعية • ولقد أوضح هيبيرل Heberle أن المـــدن الأمريكية الصغيرة الجنوبية قد شهدت تحولات هامـــة بسبب التصنيع • فقبل ادخال الصناعات المختلفة ظلت العائلات المرموقة تقيم بالقرب من قلب المدينة ، لكنها ما لبثت أن اتجهت الى الاطراف والضواحى حينمـــا وجدت أنها قد فقدت بالتصنيع كثيرا من المزايا التى كانت تتمتع بها [١] • ويمكننا أن نجـــد تأييدا اضافيا لذلك فى دراســـة ليوشـــنور Leo schnore التى أشرنا اليها قبل قليل • فمن خلال تحليله لسبع دراسات هامة تناولت مدن أمريكا اللاتينية خلال الفترة الاستعمارية ، توصل الى نتيجة مؤداها أن نمط المدينة ذات الساحة الكبيرة المحيطة بالكاتدرائية والمبانى الهـــامة كان هو النمط الشائع فى مختلف أنحاء أمريكا اللاتينية • كما أن امكانيات نمو هذه المدن كانت متاحة بفضل مرونة خططها الحضرية والتى لم تكن تختلف كثيرا عن قريناتها فى أمريكا الشمالية • على أن تقـــدم وســـائل المواصلات والنقل واتســـاع نطاق الاســـواق قد أديا بالطبقة العليا الى الانتقال الى أطراف المدينة ، تاركة الوسط لاقامة الطبقة الدنيا بعـــد أن أصابه التخلف الحضرى • وعلى الرغم من ارتفاع قيمة أراضى وســـط المدينة ، الا أنها قد ظلت محافظة على تخلفها التقليدى[٢] ، وتلك ســـمة تكاد تميز كثيرا من مدن الدول النامية •

وببداية القرن التاسع بدأت المدن فى أمريكا اللاتينية تتخـــذ وضعا متميزا • أما التفسير التاريخى لذلك فيعتمد على عدد من العوامل الهامة • فمن الناحية السياسية بدأت المدن تلعب دورا سياسيا نشطا وعلى الاخص العواصم القومية ، حيث أصبحت بمثابة علامات واضحة على الاســـتقلال السياسى والكرامة الوطنية • ومن الناحية التجارية بدأت المدن تحتـــل

---

(1) Rudolf Heberle. «Social Consequences of the Industrialization of Southern Cities»; Social Forces; 1956; pp. 34-35.

(2) Leo Schnore; «On the Spatial Structure of. . . .» op. cit; p. 373.

مكانة عالية • فبخروج الاستعمار الاسبانى والبرتغالى ، بدأت المدن تحقق انتعاشا تجاريا مما أدى الى تكون جماعات من التجار الوطنيين المتحررين من القيود الاستعمارية • وفضلا عن ذلك بدأت « الارستقراطية الزراعية الوطنية » تتجه الى الاقامة الحضرية وتشارك بعد ذلك فى كثير من النشاطات التجارية والمالية • ومن الناحية الاقتصادية والتكنولوجية طرأت تغيرات حضرية هامة • فلقد سيطرت العقلية « الليبرالية » « التجارية » على مدن أمريكا اللاتينية ، وبدأت التكنولوجيا تدخل المجالات الصناعية والزراعية[1] • وأحد النتائج المترتبة على ذلك زيادة الانتاج الزراعى وتحقيق الفائض الاقتصادى ، مما كان له أكبر الاثر فى انتعاش هذه المدن • ويمكننا أن نضيف الى ذلك الهجرة الريفية ـ الحضرية التى شهدتها أمريكا اللاتينية منذ بداية القرن التاسع عشر • فبينما كانت نسبة سكان المدن فى أمريكا اللاتينية ٢٩٪ فى سنة ١٧٥٩ نجدها ترتفع الى ٣٤٪ فى سنة ١٨٠٠ • وبحصول دول أمريكا اللاتينية على استقلالها السياسى فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر ، بدأت المدن تتحرر من القيود الاستعمارية التى فرضت عليها ، والتى حرمتها بالتالى من فرص النمو السكانى وتعدد الوظائف الحضرية[2] •

وبرغم كل ما سبق فان التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى شهدتها مدن أمريكا اللاتينية خلال العقود الاولى من القرن التاسع عشر كانت محدودة للغاية • فعقب الاستقلال مرت دول أمريكا اللاتينية بفترة انتقالية حاولت خلالها تنظيم قواها البشرية وحصر مواردها الطبيعية • كانت فترة استرخاء لا استنفار • على أن ظهور الوحدات السياسية القومية قد شجع على نمو العواصم السياسية المحلية لتلعب

---

(1) R. M. Morse; From Commnuity to Metropolis : A Biography of Sao Paulo; Brazil; Gainesville; 1958.

(2) John Durand and C. Pelaez; «Patterns of Urbanization in Latin America»; in Gerald Breese (ed.) The City in Newly Developing Countries; op. cit; p. 198.

أدوارا جديدة تختلف عن تلك التى كانت تؤديها خلال الحقبة الاستعمارية • وواقع الأمر أن مدن أمريكا اللاتينية لم تشهد خلال النصف الاول مـــن القرن التاسع عشر نموا ملحوظا فى حجم الطبقة الوسطى الحضرية • فلقد ظل التجار ورجال الاعمال يحتلون ــ فى نظر الافراد العاديين ــ مكانة متدنية نسبيا داخل البناء الطبقى ، ذلك أن ملكية الاراضى الزراعية قــد ظلت من أهم مؤشرات الانتماء الى الطبقة العليا • فمهما ارتفع الدخـــل الذى قد يحققه الشخص من التجارة أو الصناعة الحرفية ، فانه لايكفى وحده للانتماء الى الطبقة العليا[١] • ومن هنا يبدو الاختلاف واضـــح بين مدن أمريكا الجنوبية ومـــدن أمريكا الشمالية خلال تلك الفترة • فبينمـــا ظلت الاولى حريصــــة على تدعيم مكانتها السياسية أبدت الثانية اهتماما فائقا بتثبيت وظيفتها الاقتصادية • وفى أواخر القرن التاسع عشر بدأت مدن أمريكا اللاتينية تشـــهد نموا ملحـــوظا فى الطبقة الوســـطى بسبب التغيرات التكنولوجية التى طرأت على مجال النقل واتساع نطاق الهجرة الخارجية اليها • وبفضل السكك الحديدية والطرق الجديدة ، نمت مناطق حضرية لم تكن معروفة من قبل • ومن خلال المهاجرين الأوربيين الى مدن أمريكا اللاتينية (فى أواخر القرن التاسع عشر) عرفت المدن نظما اجتماعية حضرية جديدة تماما • ونضيف الى ذلك كله ظهور الجماعات الفنية العليا (كالاطباء ، والمهندســـين ، والمدرســـين ، والمحاسبـــين) التى شـــكلت القطاع الاساسى من الطبقة الوسطى الحضرية • بيد أن هذه الجماعات لم تلعب دورا حاسما فى التنمية الاقتصادية لمدن أمريكا اللاتينية ، اذ أنهـــا ظلت حريصة كل الحرص على التحالف والارتباط بالطبقة العليا • ومـــرة أخرى نلمس اختلافا واضـــحا بين مـــدن أمريكا اللاتينية ومـــدن أمريكا الشمالية[٢] • ففى الأخـــيرة لعبت الطبقة الوسطى أدوارا اقتصـــادية

---

(1) Ralph Gakenheimer; «The Peruvian City of the Sixteenth Century»; op. cit; p. 63.

(2) Leo Schnore; «On the Spatial Structure of Cities in the Two Americas»; op. cit.

وسياسية بالغة الاهمية خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، بينما لانجد نظيرا لهذا الموقف فى امريكا اللاتينية •

وخلال القرن العشرين شهدت أمريكا اللاتينية نمــوا حضريا كبيرا ، حتى ان بعض الدارسين قد ذهبوا الى أن معدل التحضر (نســبة الذين يعيشون فى مدن يزيد عدد سكانها عن ٢٠٫٠٠٠ بالنسبة لبقية السكان) فى أمريكا اللاتينية هو واحد من أعلى المعدلات التى يشهدها عالمنا المعــاصر • فمعدل التحضر فى أمريكا اللاتينية أعلى من قرينه فى افريقيا أو آسيا أو بعض مناطق جنوب أوربا ، على الرغم من آن معدل النمو الاقتصادى اقل فى أمريكا اللاتينية منه فى مناطق جنوب أوربا • كذلك فان معدل التحضر فى أمريكا اللاتينية لايقل كثيرا عن نظيره فى الاتحاد السوفيتى أو وسط آوربا • وبعبارة أخرى فان معدل التحضر فى أمريكا اللاتينية يلى مباشرة معدلات التحضر فى كل من أمريكا الشمالية وشمال غرب أوربا وأستراليا ونيوزيلندة• غير أن دول أمريكا اللاتينية ذاتها تتفاوت فيما بينها فيما يتعلق بمعدلات التحضر • فاذا ما اعتمدنا على نسبة السكان الذين يعيشون فى مدن يزيد حجمها عن ٢٠٫٠٠٠ نسمة ، لاحظنا مدى واسعا من التفاوت بين دول أمريكا اللاتينية • فبينما تصل هذه النسبة فى الارجنتين الى ٥٧٫٥٪ ، تنخفض فى هندوراس لتصل الى ١١٫٦٪ (خلال عام ١٩٦١) ، ثم تزداد انخفاضا فى هايتى لتصل الى ٥٫١٪ (خلال عام ١٩٥٠) • وفى المناطق الجنوبيــة من أمريكا اللاتينية (الارجنتين وتشيلى وأرجواى) نجد واحدا من أعلى معدلات التحضر فى العالم • اذ يعيش أكثر من نصف سكان هذه الدول فى مدن يزيد حجمها عن ٢٠٫٠٠٠ نسمة • وفى فنزويلا وكوبا نجد معدلين عاليين من التحضر • اذ بلغ المعدل فى فنزويلا ٤٧٫٢٪ طبقا لتعداد ١٩٦١ ، بينما وصل فى كوبا الى ٣٥٫٥٪ فى سنة ١٩٥٣ • وفى البرازيل كان معــدل التحضر ٢٨٫١٪ فى سنة ١٩٦٠ فى مقابل ٢٩٫٦٪ بالنسبة للمكسيك خلال نفس العام • والملاحظ أن معدلات التحضر فى أمريكا اللاتينية بوجه عام تفوق معدلات النمو الاقتصادى فيها[1] • وباستخــدام بعض المؤشرات

---

(1) J. Durand and C. Palaez; «Patterns of Urbanization in Latin America»; in Gerald Breese (ed.); The City in Newly Developing Countries; op. cit: p. 172.

الاحصائية مثل نسبة العاملين فى النشاطات غير الزراعية ، ومتوسط الدخل الفردى ، ونسبة التعليم ، نلمس تفاوتا ملحوظا بين ارتفاع معدلات التحضر وانخفاض نسب هذه المؤشرات الاحصائية •

واذا ما تناولنا نسبة سكان أمريكا اللاتينية الذين يعيشون فى مـدن كبيرة يزيد عددها عن ٠٠٠ر١٠٠ نسمة ، لاحظنا انخفاضا ملحوظا فى هذه النسبة اذا ما قورنت بنظيرتها فى بعض مناطق العالم[1] • ففى سنة ١٩٦٠ بلغت هذه النسبة فى الارجنتين ٥ر٤٥٪ ، وفى أرجواى ٩ر٤٥٪ (حيث يعيش معظم السكان الحضريين فى مدينة مونتيفديو) وفى تشيلى ٣ر٣٣٪ فى مقابل ٩ر٢٩٪ فى فنزويلا • وعلى أية حال فان المدن الكبرى فى أمريكا اللاتينية تكاد تماثل فى أحجامها المدن الكبرى فى الدول الصناعية كبريطانيا وألمانيا الغربية • وفى أمريكا اللاتينية نجد عشرة مدن رئيسية مليونية يعيش فيها حوالى ٢٥ مليون نسمة أو حوالى ١٢٪ من مجموع سكان القـارة • ويبدو أن النمط الاساسى للتحضر فى دول أمريكا اللاتينية يتمثل فى زيادة سكان المدن الكبرى أو العواصم السياسية • فمن بين دول أمريكا اللاتينية نجد ستة عشر منها تشهد تركزا سكانيا واضحا فى مدنها الكبرى أو عواصمها السياسية • ففى تشيلى ـ مثلا ـ نجد ٣ر٤٧٪ من مجموع السكان يعيشون فى « سنتياجو الكبرى » (١٩٦٠) • وهناك حـالات متطرفة من التركز الحضرى • ففى جامايكا وجواتيمالا وهايتى يعيش أكـثر من ٨٠٪ من سكان هذه الدول فى عواصمها السياسية[2] • والواقع أن هذا النمط مـن التحضر لايكاد يميز دول أمريكا اللاتينية وحدها ، اذ باستطاعتنا أن نلمسه

---

(1) United Nations Population Branch; «Demographic Aspects of Urbanization»; in P. Hauser (ed.) Urbanization in Latin America; Paris; UNESCO; 1961.

(2) J. Durand and C. Palaez; «Patterns of Urbanization in Latin America»; in Gerald Breese (ed.) op. cit; p. 174.

فى كثير من الدول الافريقية والآسيوية على نحـو ما سنرى فى مواضـع لاحقه • وتشير بعض الدراسات السكانيه الحديثة الى أن معـدل التحضر فى أمريكا اللاتينية بوجه عام قد وصـل فى سنة ١٩٧٥ الى ٥٤٪ ، وانه سيواصل ارتفاعه بانتظام حتى نهاية هذا القرن • وحتى سنة ١٩٣٠ لم يكن هناك فى أمريكا اللاتينية سـوى مدينة مليونية واحـدة هى بيونس أريرس ، ثم ما لبثت أن لحقتها ميكسيكوسيتى وريو دى جانيرو وساو باولو • أما هافانا وليما وسنتياجو فقد عدت كل منهما المليون نسمة فى سنة ١٩٠٥ • وفى سنة ١٩٦٠ وصلت كل من بوجوتا وكاراكاس ومونتفيديو الى مرتبة المدن المليونية • واذا كانت هذه المدن المليونية قد ضمت فى سـنة ١٩٦٠ حوالى ٢٧ مليون نسمة ، فانها قد أصبحت تضم فى سنة ١٩٨٠ حوالى ٩٠ مليون نسمة[1]

وتسهم الهجرة الريفية ـ الحضرية بنصيب كبير فى زيادة أحجـام مدن أمريكا اللاتينية بوجه عام ، على الرغم من أننـا قد نجـد بعض الاختلافات الملحوظة بين الدول فى هذا المجـال • ولقد أوضحت بعض الدراسات المعاصرة أن معدلات الهجرة الى مدن أمريكا اللاتينية تفوق بكثير امكانياتها الاقتصادية ، حيث لاتزال بناءات هذه المدن تفتقر الى الدعائم الصناعية التى تمكنها من استيعاب هؤلاء المهاجرين • وفضلا عن ذلك فان الهياكل الاساسية لهذه المدن لاتسمح بمواجهة نمو سكانى حضرى واسع النطاق • ولعل أحد النتائج الهامة المترتبة على ذلك ظهور ونمـو الأحيـاء المتخلفة بكل أنماطها فى معظم المدن الكبرى على نحو ما سنرى بعد قليل • كذلك لوحظ أن هذه المدن ماتزال تفتقد الوسائل والاسـاليب التى تضمن تكيف المهاجرين مع الحياة الحضرية الجديدة ، مما يؤدى الى ظهور ثقافات فرعية متباينة ومتعارضة مع الثقافة الحضرية الاساسية • وعند تفسـير الهجرة الريفية ـ الحضرية فى أمريكا اللاتينية قد يكون من المفيد استخدام

---

(1) W. Rycroft and M. Clammer; A Study of Urbanization; in Latin America; N. Y; 1962.

مفهومى « العوامل الطاردة » « والعوامل الجاذبة » • وعلى الرغم من ذلك فلقد أوضح جيرمانى Germani أن « العوامل الجاذبة » (المتعلقة أساسا بالمدن) لاتلعب الدور الحاسم فى زيادة معدلات الهجرة الريفية ــ الحضرية ، كما أشار الى أنه لم يجد ارتباطا ملحوظا بين العوامل الطــاردة (المتعلقة أساسا بالفقر الريفى) والاتجاه نحو الهجرة الى المدن • وبدلا من ذلك نجد جيرمانى يؤكد « أن الهجرة الريفية ــ الحضرية » ليست مجرد « تعبير ديموجرافى » عن « ضغوط اقتصادية » ، أنها تعبير عن «تغير عقلى» • بعبــارة أخرى فان هجــرة الريفيين الى المــدن هى بديل عن « الثورة الاجتماعية »(١) • أما مارشال ولف Wolfe فلقد حذر من المبــالغة فى الاعتقاد بان المــدن الكبرى تجذب اليها المهــاجرين الريفيين فى أمريكا اللاتينية ، ذلك أن « العوامل الطاردة » فى المناطق الريفية هى التى تلعب الدور الاكبر فى زيادة معدلات الهجرة الى هذه المدن • فمعظم المهاجرين لايجدون عملا زراعيا بسبب زيادة استخدام التكنولوجيا الزراعية المتقدمة، مما يؤدى الى ظهور فائض سكانى ريفى • كــذلك فان أصحاب الملكيات الزراعية المتوسطة قــد بدأوا يفضــلون الاستعانة بالعمــال الزراعيين الموسميين ، مما أسهم بدوره فى ظهور مشكلة البطالة الموسمية الريفية • وأخيرا فان المدن الصغيرة فى أمريكا اللاتينية ماتزال مدن « قزمية » تعجز ــ فى معظم الاحيان ــ عن القيام بدور قيادى بالنسبة للمناطق الريفية المحيطة بها(٢) •

وتميل الدراسات المعنية بالتحضر فى دول أمريكا اللاتينية الى تأكيد الدور الذى تلعبه الهجرة الريفية ــ الحضرية فى زيادة نسبة العاملين فى القطاع الثالث « الخدمات الحضرية » • ذلك أن معدل العمالة الحضرية فى

---

(1) R. Morse; «Recent Research on Latin American Urbanization in Gerald Breese (ed.); op. cit; p. 483.

(2) Marshall Wolfe; «Some Implications of Recent Changes in Urban and Rural Settlement Patterns in Latin America»; U. N. World Population Conference; 1965 (A.8/1/E66).

قطاع الخدمات الحضرية يفوق معدل العمالة فى القطاع الثانى (الصناعة) • ويكاد يكون هذا النمط من العمالة أحد العناصر الاساسية التى تميز مدن أمريكا اللاتينية عن نظيراتها فى أمريكا الشمالية • ولقد حاول بازانيلا Bazzanella التحقق من صدق هذه القضية ، فقسم مناطق البرازيل الى ثلاثة مناطق طبقا لمستوى التصنيع ومعدل التحضر فيها هى : المتقدمة ، والوسيطة ، والمتخلفة • ففيما يتعلق بمعدل التحضر ، اتضح أن المناطق الثلاثة قد كشفت عن تقارب ملحوظ بينها (٣ر٥٠٪ و ١ر٤٦٪ و ٦ر٤٧٪ على التوالى) ، بينما لم تتضح فروق كبيرة بينها فيما يتعلق بنسب العاملين الجدد فى الصناعة • ومعنى ذلك أن معدلات التحضر تميل الى التقارب الشديد فى المناطق الحضرية المتباينة من البرازيل ، وأن نمو قطاع الخدمات يكاد يكون عامل مصاحب للتحضر[١] • وربما كانت أهم انجازات بازانيلا فى هذه الدراسة ربطة الوثيق بين ظاهرتى التضخم الحضرى overurbanization والتضخم الريفى overruralization فى دولة أمريكية لاتينية كبرى كالبرازيل • وفى تحليل آخر للجوانب السكانية الحضرية فى البرازيل ، أوضح سلسو فيرتادو Furtado أن معدل النمو السكانى السنوى فى البرازيل خلال عقد الخمسينيات قد بلغ ٢ر٣٪ ، بينما ارتفع معدل النمو الحضرى السنوى خلال نفس الفترة ليصل الى ٦٪ • وبسبب زيادة استخدام التكنولوجيا الصناعية ، فان القوة العاملة فى الصناعة لم تزد الا بنسبة ٨ر٢٪ فى مقابل ٥ر٣٪ فى الزراعة [٢] •

وباستثناء الاكوادور وكولومبيا وربما البرازيل ، تكاد تعرف معظم دول أمريكا اللاتينية « المدينة الاولى » primate city ، ذلك أن هناك فارقا هائلا بين « المدينة الاولى » وغيرها من المدن الاقليمية سواء من حيث

---

(1) R. Morse; «Recent Research on Latin American Urbanization»; op. cit; p. 485.

(2) S. Rottenberg; «Note on the Economics of Urbanization in Latin America»; U N document E/CN. 12 URB 6; 1965.

الحجم السكانى أو الوظائف الحضرية . وتشير كل الشواهد المتاحة الى أن « المدن الاولى » فى أمريكا اللاتينية (ربما باستثناء المكسيك وكولومبيا) تكاد تجـذب معظم المهـاجرين الريفيين وتستأثر بمعظم الاستثمارات الاجتماعية . وقد نستشهد على ذلك بمدينة « سنتياجو الكبرى » . ففى سـنة ١٩٣٠ كان عدد سكانها حـوالى ٨٠٠٫٠٠٠ نسمة ، ثم ما لبث أن ارتفع فى سنة ١٩٦٥ الى ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ نسمة . وتكاد تضم « سنتياجـو الكبرى » ٣٠٪ من مجموع سكان تشيلى . أما المدينة التالية على ذلك فى تشيلى فلم يزد عدد سكانها عن ٣٦٨٫٣٣٢ نسمة طبقا لتعداد سنة ١٩٦٠ . وعلى الرغم من أن الحكومة التشيلية قد وقفت موقفا حازما ضـد هـذا التضخم السـكانى العاصمى وحرمت بذلك اقامة كثير من المشروعـات الصناعية داخـل العاصمة ، الا أن ذلك لم يمنع المهـاجرين عن التدفق اليها[1] . وعلى الرغم من أن بعض الدارسين يصفون « المـدن الاولى » بالاستغلال الحضرى واعاقة نمـو المدن الاقليمية الاخرى ، الا أن ذلك قد لا يصدق فى بعض الاحيان على بعض دول أمريكا اللاتينية خاصة الصغيرة منها . ففى أرجواى ــ مثلا ــ أتاح التركز الحضرى فى العاصمة فرصـة نمو المشروعات الصناعية والافادة من التكنولوجيا الحديثة وتطوير الهياكل الاساسية الحضرية ، حتى أن بعض الباحثين قد ذهبوا الى أن كل دولة أرجواى ما هى الا عاصمتها مونتفيديو ، وأن الدولة بأكملها قد أصبحت تشكل بيئة ريفية ــ حضرية لا تنطوى على تفاضل بقدر ما تنطوى على تكامل . على أن أرجواى وغيرها من الدول الصغيرة الفقيرة تشكل استثناءا من قاعدة عامة . ذلك أن « المدن الاولى » فى معظم دول أمريكا اللاتينية تعوق بالفعل نمو المدن الاقليمية الصغرى ، وتحـول دون تنمية المناطق الريفية المتناثرة . والمعضلة الاسـاسية التى تواجهها هـذه الدول هى استمرار نمو « المدن الاولى » برغم التطورات الايجابية التى طرأت على

---

(1) R. Morse; «Latin American Cities : Aspects of Function and Structure»; in J. Friedmann et al (eds). Regional Development and Planning; Combridge; 1964; 361-381.

المناطق الريفية[1] • ويعتقد بعض المخططين الحضريين فى أمريكا اللاتينية أن تكاليف تحديث القطاع الزراعى تفوق بكثير تحديث القطاع الصناعى — الحضرى • فعلى سبيل المثال نجد أن تكاليف كهربة الريف تفوق بكثير تكاليف كهربة الاحياء المختلفة داخل المدن • وبسبب الاضطرابات السياسية الحضرية فى كثير من دول أمريكا اللاتينية بدأت بعض الحكومات تولى التنمية الحضرية اهتماما كبيرا حتى ولو كان ذلك على حساب التنمية الريفية •

وتشترك مدن أمريكا اللاتينية مع بقية مدن العالم الثالث فى جذب نسبة كبيرة من المهاجرين الريفيين اليها • فطبقا للتعداد الكولومبى الذى أجرى فى سنة ١٩٦٤ بلغت نسبة المهاجرين فى مدينة بوجوتا أكثر من نصف سكانها ، كما اتضح أن حوالى نصف سكان مدينة سنتياجو من المهاجرين الريفيين • ويبدو أن الهجرة الريفية — الحضرية فى أمريكا اللاتينية تتخذ الطابع الدائم أكثر مما تتخذ الطابع الموسمى كما هو الحال فى بعض الدول الافريقية[2] • كذلك فان معظم المهاجرين الريفيين الى مدن أمريكا اللاتينية ينتمون الى الفئات العمرية الشابة ، ذلك أن كبار السن من القرويين يفضلون البقاء فى القرية وتجنب « المغامرة الحضرية » • واذا ما أخذنا فى اعتبارنا هذه الهجرة الريفية — الحضرية « الشابة » وأضفنا اليها مشكلة الانفجار السكانى بوجه عام ، لاتضح لنا أن نسبة كبار السن فى هذه المدن محدودة للغاية ، مما يعنى خللا فى البناء العمرى « الحضرى » • ففى معظم هذه المدن نجد ٤٠٪ من مجموع سكانها تقل أعمارهم عن خمسة عشر عاما • وفضلا عن ذلك لوحظ أن التوزيع النوعى (ذكور — اناث) فى مدن أمريكا اللاتينية يختلف اختلافا ملحوظا عن قرينه فى مدن العالم الثالث • ففى

---

(1) S. Barraclough; «Rural Development and Employment Prospects in Latin America»; in A. Field (ed.); City and Country in the Third World; Cambridge; Mass; 1970; p. 106.

(2) ECLA; The Social Development of Latin America in the Postwar Periad; EICN. 12/660; May 11; 1963.

الاخيرة نجد زيادة محلوظة فى نسبة الذكور فى مقابل انخفاض ملحوظ فى نسبة الاناث ، بينما نجد فى الاولى (مدن أمريكا اللاتينية) زيادة ملموسة فى نسبة الاناث فى مقابل انخفاض ملموس فى نسبة الذكور • ومن هـــذه الزاوية نجد مدن أمريكا الجنوبية تشبه الى حد كبير مدن العالم الصناعى المتقدم(١) • وعلى الرغم من اجماع الباحثين على ارتفاع نسبة الاناث فى مدن أمريكا اللاتينية ، الا أننا لانجد تفسيرات مقنعة لذلك • غير أننى أميل الى تفسير ذلك فى ضوء ارتفاع معدلات التحضر والنمـــو الاقتصادى فى مدن أمريكا اللاتينية اذا ما قورنت بقريناتها فى بقية دول العالم الثالث •

وتعانى مدن أمريكا اللاتينية من تضخم أحياء واضعى اليد squatter settlements التى تضـــم أعـــدادا كبيرة من المهـــاجرين الريفيين ، حتى أن بعض الباحثين قد ذهبوا الى أن هذه الاحياء قد أصبحت القاسم المشترك الاعظم الذى يميز مدن هذه القارة(٢) • وغالبا ما تضم هذه الاحياء سكانا لاينتمون الى البروليتاريا الصناعية الحضرية المنتجة بقدر ما ينتمون الى « حثالة البروليتاريا » lumpenproletariat اذا ما استخدمنا تعبير فرانتز فانون Fanon • وتختلف مسميات أحياء واضعى اليد باختلاف دول أمريكا اللاتينية ، وان كانت خصائصها تكان تكون واحدة فى معظمها • ويصف بعض الدارسين ســـكان أحياء واضعى اليـــد بالهامشية • فهم ــ جغرافيا ــ يعيشون على أطراف المدينة ، وهم ــ وظيفيا ــ محرومون من الخدمات الحضرية ، وهم ــ اجتماعيا ونفسيا واقتصاديا ــ بعيدون عن الحياة الحضرية بوجه عام • وتتميز أحياء واضعى اليد فى مدن أمريكا اللاتينية ببعض الخصائص المشتركة • فهى أحياء سكنها أصحابها بوضـــع اليد ، كما أنها تقع عادة على تخوم المدن • ولقد أوضحت بعض الدراسات الحـــديثة أن تلك الاحياء ــ أو المدن ــ ليست نتيجة اختيارات فردية

---

(1) P. Hauser (ed.) Urbanization in Latin America; op. cit; 1961.

(2) Asael Hansen; «The Ecology of a Latin American City»; in E. B. Reuter (ed.) Race and Culture Contacts; New York; 1958; pp. 124-142.

عشوائية • فقد بدأت معظم تلك الاحياء تتكون عندما أخـذ بعض الناس — الذين يعيشون فى أحد الاحياء المتخلفة فى المدينة الرئيسية — ينظمـون صفوفهم ويتحركون كجماعة الى قطعة من الارض الفضاء التى قـد تكون مملوكة للحكومة • وفى لمح البصر يظهر واضعو اليد على تلك الارض ، ويقسمونها الى قطع صغيرة ، ويقيمون فوقها مأوى لهم ، يبنونه من مواد مؤقتة وسريعة فى العادة • وقد تتمتع هذه الاحياء بحد أدنى من التنظيم ، مما يكفل اختيار ممثلين عنها للتعامل مع السلطات الحكومية أو مع أصحاب الارض • كما يتطلب الامر — عادة — وجود وسائل معينة لحفظ الامـن الداخلى ، مما قد يفرض على القادمين الجدد الحصول أولا على إذن قبل الانضمام الى هذا المجتمع • وتفتقر مثل هذه الاحياء الى كثير من المرافق الحضرية كالماء والكهرباء والصرف الصحى • ومن الوظائف التى تضطلع بها هذه الأحياء محاولة ادخال تلك المرافق من السلطات البلدية التى غالبا ما تصر على رفض ذلك ، أو تفتقر الى الامكانيات اللازمة لتحقيقه • كذلك فان سكان أحياء واضعى اليد يبذلون جهودا كبيرة للحصول على اعتراف بالامر الواقع وعلى الاخص فيما يتعلق بملكية الارض • وما أن تقبل سلطات المدينة انشاء الطرق ورصفها ، حتى يؤخذ ذلك على أنه اعتراف بحقـوق الملكية • عندئذ يبدأ سكان هذه الاحياء فى تشييد مبان أكثر ثباتا • وبمرور الوقت يفقد قادة الحى نفوذهم السياسى ، وذلك كلما ازداد الحى انصهارا فى مجتمع المدينة • كذلك أوضحت بعض الدراسات الحديثة أن أحيـاء واضعى اليد قد تضم جمعيات أو نوادى ينتمى اليها أبناء قرى بعينها أو اقليم معين • وتتيح هذه الجمعيات فرصة لالتقاء المهاجرين ، كما تهيىء لهم بعض وسائل الترويح • ومن شأن ذلك أن يكفل قدرا من الامان الاجتماعى والعاطفى[1] •

---

(١) بيلز وهويجر ، مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة ، الجـزء الثانى ، ترجمة محمد الجوهرى والسيد الحسينى ، دار نهضـة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ص ٨٧٧ .

وتشير البيانات السكانية التى تتناول مدن أمريكا اللاتينية الى أن أحياء واضعى اليد قد تضخمت خلال السنوات الاخيرة حتى أصبحت تشكل أخطر مشكلة حضرية تواجهها القارة • ففى مدينة ليما كان عدد سكان أحياء واضعى اليد barriada فى سنة ١٩٥٨ حوالى ١٠٠ر٠٠٠ نسمة (١٠٪ من مجموع سكان المدينة ككل) ، ثم ارتفع هذا الرقم الى ٤٠٠ر٠٠٠ نسمة فى سنة ١٩٦٤ (٢٠٪ من مجموع سكان المدينة) • وفى ريو دى جانيرو ارتفع عدد سكان أحياء واضعى اليد favelas من ٢٠٣ر٠٠٠ نسـمة فى سنة ١٩٥٠ (٥ر٨٪ من مجموع سكان المدينة) الى ٦٠٠ر٠٠٠ نسـمة فى سنة ١٩٦٤ (١٦٪ من مجموع سكان المدينة) • وفى سنتياجو بلغ عدد الاسر التى تعيش فى أحياء واضعى اليد **callampa** فى سنة ١٩٥٢ حوالى ١٢ر٥٠٢ أسرة • غير أن هذا الرقم قد ارتفع فقط الى ١٦ر٤٢٠ أسرة فى سنة ١٩٦١ بسبب الحملة التى قامت بها الحكومة التشيلية من أجل محاصرة هذه الاحياء والحد من نموها[1] وتوضح بعض الدراسات الحضرية أن أحياء واضعى اليد ما هى الا نمط من الاحياء المتخلفة المنتشرة فى مدن الدول النامية ، وأنها تجسد الظروف الحضرية القاسية فى دول أمريكا اللاتينية • ففى هذه الاحياء تنتشر الامراض ، وتزداد الامية ، وتشيع الجرائم ، ويتعمق التفكك الاجتماعى[2] • وعلى الرغم مما قد يذهب اليه بعض الدارسين من أن هذه الأحياء تشكل « جيوبا ريفية » داخـل المدن ، وأنها بذلك تتمتع بقدر كبير من الاستقرار الاجتماعى بسبب روابط الجيرة والقرابة التى تربط بين سكانها ، الا أن الدراسات الواقعية التى أجريت على هذه الاحياء تميل الى تأكيد طابع التفكك الاجتماعى الذى يسيطر عليها[3] •

---

(1) ECLA; «Urbanization in Latin America; Results of a Field Survey of Living Conditions in an Urban Sector.»; E/CN. 12/662; 1963; pp. 5-7.

(2) James Morris; Cities; Harcourt Brace; N. Y; 1964; pp. 227.

(3) John Turner; «Squatter Settlements in Developing Countries; in D. Moynihan (ed.) Toward a National Urban Policy; Basic Books; N. Y; 1970; pp. 256-257.

ويبدو أن أحياء واضعى اليد تتشابه عموما مع الاحياء المتخلفة فيما يتعلق بالاصول الريفية للمهاجرين اليها • فلقد أوضح ليدز Leeds فى دراسة له على حوالى ثلاثمائة من الاحياء المتخلفة فى ريو دى جانـــيرو أن معظم الدراسات تتناول المقيمين فى تلك الاحياء باعتبارهم مهـــاجرين ريفيين استقروا بها ، ولكنهم لم يصبحوا بعد جزءا من المدينة • ويعتقد ليدز أن فهم الاحياء المتخلفة يتطلب التعرف على ظروف الحياة فيها والعـــوامل المؤثرة فيها مثل : ملكية الارض ، وانواع الايجارات ، وظروف ســـوق العمل ، وبناء الاجور ، والانماط البديلة للاسكان الرخيص ، ونظام النقل والمواصلات ، وتعصب الموظفين ضد سكان تلك الاحياء ، وطبيعة العلاقات والمنظمات الاجتماعية الداخلية ، والخدمات والاعمال التى يؤديها سكان هذه الاحياء للمجتمع الكبير ، ونسبتهم الى مجموع القوة العاملة[١] •

وهناك اعتقاد سائد لدى علماء الاجتماع الحضرى بأن أحياء واضعى اليد فى مدن أمريكا اللاتينية هى أحياء مؤقتة ، وأن معظم سكانها هم من المهاجرين الريفيين الجدد الذين لم يتمكنوا بعد من الحصول على وظائف دائمة • غير أن ما نلاحظه بالفعل قد لا يؤيد كثيرا هذا الاعتقاد • اذ أن هذه الاحياء قد وجدت لتظل قائمة ، وأنها تتخذ بمرور الايام وجودا دائما • كما أن سكان هذه الاحياء ليسوا بالضرورة من المهاجرين الريفيين بل قد ينتمى بعض منهم الى المدن أو المراكز الحضرية الصغيرة • ولقد أوضح أحد تقارير الامم المتحدة « أن وجود هذه الاحياء المؤقتة هو علامة على رفض سكان المدن لها »[٢] ، كما أشار أحد الدارسين الى أن هذه الاحياء المؤقتة ما هى الا ظواهر حضرية دائمة تضرب بجذورها فى أعماق البنـــاء الاجتماعى ــ الاقتصادى » • ومن الصعب تفسير نشأة أحياء واضعى اليد ونموها فى مدن أمريـــكا اللاتينية بمعـــزل عن الظروف الاجتماعية

---

(1) A. Leeds (ed) Rio's Favelas; University of Texas Press; 1970.

(2) ECLA; «Urbanization in Latin America; op. cit; p. 15.

والاقتصادية التى مرت ــ ومازال ــ بها خلال العقود الاخيرة على أقل تقدير • إذ أن ظهور هذه الاحياء هو نتيجة منطقية وحتمية لوجود قطاعين اقتصاديين متعارضين : الاول مستقر دائم ، والثانى قلق مؤقت • ومن الطبيعى أن يكون القطاع الاقتصادى الثانى من نصيب الهامشيين مــن سكان أحياء أو مدن واضعى اليد • وعلى الرغم من وضوح هذا التفسير الاقتصادى ، إلا أن بعضا من دارسى المدن فى أمريكا اللاتينية يفضلون مناقشة الاعراض دون التعرف على الاسباب • فبدلا من دراســة هــذه الازدواجية الاقتصادية ، نجدهم يهتمون بدراسة النتــائج الاجتمــاعية والثقافية « للهامشية الحضرية » بوجه عام • ولقد أوضحت بعض دراسات الهجرة الداخلية فى أمريكا اللاتينية أن أحد الاسباب القوية لزيادة معدلاتها هو عدم قدرة « القطاع الاقتصادى المستقر الدائم » على النمو والاتساع، وبالتالى اتاحة مزيد من فرص العمالة للســكان الحضريين الهامشيين • وينطبق ذلك بصفة خاصة على القطاع الصناعى الحضرى ، ذلك أن هــذا القطاع مايزال محدود التأثير فى المدن الكبرى ، بينما يكاد ينعــدم تأثيره فى المدن الصغرى • وطالما أن قطاعى الزراعة والصناعة لاينمــوان بالقدر الذى يسمح باستيعاب العمالة الريفية والحضرية ، فان القطاع الثالث (الخدمات) يبدو الامل الوحيد لامتصاص هذه العمالة[1] • ونظرا لافتقار هذه العمالة الريفية والحضرية الزائدة الى المؤهلات الفنية اللازمة للاعمال الصناعية ، فانها تضطر الى الالتحاق بالاعمال اليدوية فى المشروعات الصغيرة أو أعمال الخدمات أو البيع المتجول • ومن وجهة النظر الماركسية «المترمتة» قد يبدو العمال الذين يلتحقون بهذه الأعمال متمتعين بقدر من حرية العمل والاستقرار لا يتمتع بها قرناؤهم الذين يعملون فى مهن دائمة منتظمة • غير أن ذلك لايجد سندا واقعيا • اذ أن هؤلاء العمال يفتقرون الى أقل قدر من رؤوس الاموال حتى أن وضعهم الاقتصادى قد يكون أسوء بكثير من

---

(1) ECLA; «The Social Development of Latin America in the Postwar Period»; op. cit; pp. 63-65.

قرنائهم الفلاحين[١] • والواقع أن أحياء واضعى اليد ليست مقصورة على العمال الهامشيين • فلقد أوضحت دراسة أجرتها الامم المتحدة أن ٤٢٪ من العمال الصناعيين فى مدينة سنتياجو يعيشون فى أحياء واضعى اليد ، وأن الذين لا يرتبطون بالعمل الصناعى المنتظم من سكان هذه الاحياء يفتقدون الامان المهنى ويضطرون الى الانتقال من عمل لآخر بحثا عن ظروف مهنية واقتصادية أفضل[٢] • ويقدر بعض الدارسين فترات البطالة التى يتعرض لها سكان هذه الاحياء بستة شهور سنويا • ومن الطبيعى أن يؤدى ذلك الى انخفاض ملحوظ فى متوسط الدخل الفردى ، ثم انخفاض لاحق فى الانفاق على المقومات الاساسية للحياة كالغذاء والملبس •

وقد يبدو فقراء المدن أقــل خضوعا لاحتكار السوق اذا ما قورنوا بقرنائهم من فقراء الريف بسبب اتساع نطاق السوق الحضرى ووجود منافسة كبيرة بين القوى الاحتكارية المختلفة • ومع ذلك فلقد لوحظ أن مدن أمريكا اللاتينية تخضع عموما لسيطرة الاحتكارات التجارية مما يؤدى الى ظهور أزمات تموينية حادة ، ونمو السوق السوداء ، والمضاربة على أسعار السلع الاساسية • ومن الطبيعى أن يمتص ذلك كله جزءا كبيرا من دخول هؤلاء المستهلكين الحضريين الفقراء • ومن الواضح ان الســكان الحضريين الهامشيين هم أكثر جماعات المدن تأثرا بهــذه الاضطرابات الاقتصادية • وفضلا عن ذلك أوضحت بعض الدراسات الحديثة أن أحياء واضعى اليد تكاد تفتقر الى التخطيط الحضرى ومقومات الحياة الحديثة بوجه عام • فمعظمها لا يعرف أنابيب المياه الجارية ، وأساليب الصرف الصحى ، وعربات جمع القمامة ، والطرق المرصوفة ، فضلا عن المدارس والمستشفيات ونقاط الشرطة • والواقع أن نمو أحــياء واضعى اليد فى مدن

---

(1) Andre Frank; «Instability and Integration in Urban Latin America»; in Andre Frank; Latin America : Underdevelopment or Revolution; Monthly Review Press; N. Y; 1969; p. 278.

(2) ECLA; «The Social Development of .... op. cit; p. 28.

أمريكا اللاتينية يحتم ضرورة تزويدها بهذه الخدمات الحضرية • ففى سنتياجو ــ مثلا ــ لوحظ أن ٥١٪ من سكان هذه الاحياء تقل أعمارهم عن خمسة عشر عاما ، بينما لاتكاد الخدمات التعليمية المتاحة تكفى أكثر من عشر هذه النسبة المئوية[١] •

على أن القضية التى تبدو الآن أكثر أهمية والحاحا تتصل بموقع « الهامشيين الحضريين » داخل مدن أمريكا اللاتينية ، والدور السياسى الذى يمكن أن يلعبونه فى تلك القارة القلقة • فعلى الرغم من أن هؤلاء « الهامشيين » لم تكن لديهم تطلعات اقتصادية عالية قبل هجرتهم الى هذه المدن ، الا أن الحياة الحضرية ذاتها قد أسهمت فى رفع مستوى هذه التطلعات[٢] • ومن الناحية النظرية قد نفترض أن هذا « الاحباط الاقتصادى » يمكن أن يؤدى ــ فى المدى البعيد ــ الى « تمرد سياسى » • بيد أن الظروف المختلفة المحيطة بهؤلاء الهامشيين لا تمكنهم من تكوين « بروليتاريا صناعية ــ حضرية » بالمعنى الماركسى لهذا التعبير • ويزداد الموقف تعقيدا حينما يفقد هؤلاء الهامشيون كل أمل فى تحقيق أى تقدم اقتصادى أو مهنى سواء من خلالهم أو من خلال أبنائهم • واذا ما استمرت معدلات النمو السكانى لهؤلاء الهامشيين الذين يعيشون فى أحياء واضعى اليد ، فان نسبتهم داخل مدن أمريكا اللاتينية سوف تتضاعف كل عشر سنوات تقريبا ، مما يعمق الاحساس « بالازدواجية الحضرية » ويزيد من حدة التباين الطبقى والاجتماعى والثقافى • وهناك شواهد عديدة تشير الى أن سكان هذه الاحياء يشكلون قوة سياسية قادرة على التأثير السياسى ، برغم افتقادهم لبعض عناصر هذه القوة • لذلك فان الحد من نمو هذه الاحياء لا يقضى فقط على « الهامشية الحضرية » ، ولكنه يبطل أيضا « فتيلا سياسيا » محتملا •وعلى الرغم من أن بعض الدراسات الحديثة

---

(1) ECLA; Urbanization in Latin America; op. cit.

(2) R. Morse; «Recent Research on Latin American....» op. cit; p. 496.

قد أوضحت أن « الهامشية الحضرية » مرتبطة « بالهامشية السياسية » (بمعنى السلبية السياسية وعدم الاهتمام بالقضايا العامة) ، الا أن الاحداث الفعلية فى مدن أمريكا اللاتينية قد برهنت على أن« الهامشيين الحضريين » قد يلعبون دورا حاسما فى بعض الازمات السياسية ، وأن قادة الانقلابات العسكرية يسعون الى كسب تأييدهم من خلال التعهد بتزويد أحيائهم بالخدمات الحضرية الضرورية .

هذا وقد أبدى علماء الانثروبولوجيا الحضرية اهتماما فائقا بدراسة العناصر الثقافية المميزة للاحياء المتخلفة فى مدن أمريكا اللاتينية . ويعـد أوسكار لويس Lewis من أبرز العلماء الاجتماعيين اهتماما بهذه العناصر حتى أن اسمه قد ارتبط بمصطلح « ثقافة الفقر» culture of poverty . وتتألف هذه الثقافة من مجموعة من العناصر الشائعة فى الاحياء المتخلفة الفقيرة . أما أهم هذه العناصر فهى : ارتفاع معدلات الوفيات ، وانخفاض متوسطات الاعمار ، وانتشار الامية ، والمشاركة الاجتماعية والسياسية الضعيفة ، والحرمان من الخدمات الحضرية ، وقلة الانتفاع بالتسهيلات والمرافق التى تقدمها المدينة ، وانخفاض مستوى المهارة ، وعدم وجـود مدخرات وكثرة الاقتراض ، وعـدم توافر مخزون منزلى من المـواد الغذائية ، والافتقار الى الخصوصية داخل المسكن ، وكثرة اللجـوء الى العنف بما فى ذلك ضرب الاطفال ، وكثرة هجر الزوجة والاطفال ، وتمركز الاسرة حول الام ، والشعور بالاستسلام أو القدرية ، وانتشار عقـدة الاعتزاز المفرط بالذكورة عند الرجال ، وعقدة التضحية والاستشهاد عند النساء[1] . ولقد توصل لويس الى هذه العناصر الثقافية بعد عدة دراسات حقلية أجراها على مجموعة من أسر الاحياء المتخلفة فى بورتوريكو ، ثم

---

(١) يمكننا أن نجـد مناقشة أكثر تفصيلا لمفهوم « ثقافة الفقر » فى بيلز وهويجر ، مقدمة فى الانثروبولوجيا ، المرجـع السابق ، الجزء الثانى ، ص ٨٧٠ وما بعدها . أما عناصر هذه الثقافة فنجدها معروضة باستفاضة فى :
Oscar Lewis; «The Folk-Urban Ideal Types»; in Philip Hauser and Leo Schnore; The Study of Urbanization; op. cit; pp. 464-495.

توصل بعد ذلك الى حقيقة أساسية هى ، أن الفقر يخلق ثقافة خاصة به ، بمعنى وجود عناصر مشتركة بين الفقراء أينما وجدوا[1] • وعلى الرغم من أن دراسات لويس قد أثارت انتقادات منهجية وسياسية عديدة ، الا أنها قد لفتت الانظار الى أهمية مفهوم « ثقافة الفقر » كوسيلة لفهم كثير من الظواهر الحضرية فى مدن الدول النامية • فعلى سبيل المثال نجد توماس جلادوين Gladwin فى دراسة له عن « الفقر فى الولايات المتحدة » يذهب الى أن الفقر فى المدن الامريكية لا يعنى مجرد انخفاض الدخل ، وانما يعنى كذلك تعرض الانسان للاحتقار واحساسه بالافتقار الى المهارات • ويعتقد جلادوين أن السياسة الامريكية المتعلقة بمواجهة الفقر كانت تقوم دائما على أساس أن الثقافة « تخلد نفسها بنفسها » ، وبالتالى يظل الفقير عاجزا ومحتقرا وضعيفا[2] • والواقع أن جلادوين بدراسته هذه قد حاول تحد مفهوم « ثقافة الفقر » والبرهنة على أن الفقراء لا يختلفون فى أهدافهم وقيمهم عن أبناء الثقافة الاساسية •

كذلك أبدى بعض علماء الانثروبولوجيا اهتماما ملحوظا بدراسة تأثير الثقافة الريفية على المهاجرين الى مدن أمريكا اللاتينية • فلقد أوضح أنتونى ليدز Leeds فى دراسة له على المهاجرين الى مدينتى ريو دى جانيرو وليما أن من الصعب القول بأن الثقافة الريفية تسيطر على سكان الاحياء المتخلفة من المهاجرين الريفيين • اذ أن نسبة كبيرة من هؤلاء المهاجرين قد أتوا من مدن أخرى ، وأن كثيرا من الريفيين المهاجرين قد اتصلوا بالمدينة قبل هجرتهم اليها من خلال الخدمة العسكرية أو الاعمال الموسمية أو الزيارات الطويلة للاقارب الحضريين • ومعنى ذلك أن هؤلاء المهاجرين لا يفتقرون — بالضرورة — الى الاساليب التى تمكنهم من التكيف مع الحياة الحضرية • كذلك اشار ليدز الى أن سكان أحياء واضعى

---

(1) Oscar Lewis; The Children of Sanchez; New York : Random House; Alfred A. Knopf; 1961.

(٢) بيلز وهويجر ، المرجع السابق ، ص ٨٧٣ •

اليد فى مدن أمريكا اللاتينية يعانون ــ بالفعل ــ من الاحساس «بالهامشية» الراجع الى عدم قدرتهم على الاندماج فى حياة المدينة بطرق قانونية أو شرعيه • فقد يلجأ بعضهم الى السرقة فى وقت الازمات الاقتصادية ، لكن البعض الآخر لا يستطيع ذلك حتى ولو أراد • ويضطر هؤلاء «الهامشيون» الى العيش فى ظل مواردهم المحدودة للغاية ، فتنشأ عادات اقتصادية تدور حول التدبير واستغلال كل ما يمكن استغلاله(١) • ولقد قصد ليدز بهذه الدراسة توضيح مرونة البناء الاجتماعى للاحياء المتخلفة فى مدن أمريكا اللاتينية ، وكيف أن مفاهيم « جامدة » كثقافة الفقر قد تحول دون فهم الديناميات الاجتماعية الحقيقية • وبغض النظر عن الاختلافات التفصيلية بين علماء الانثروبولوجيا الحضرية حول العناصر الثقافية المختلفة المميزة للاحياء المتخلفة فى مدن أمريكا اللاتينية ، فاننى أعتقد أن هذه الاختلافات قد تكتسب معانيها ودلالاتها الحقيقية اذا ما نظرنا اليها فى ضوء البناءات الاجتماعية الحضرية بوجه عام • لقد ظل علماء الاجتماع الحضرى ــ والى حد ما علماء الانثروبولوجيا الحضرية ــ يهتمون بدراسة البناء الطبقى الحضرى فى مدن الدول النامية فى ضوء النظريات الغربية المفسرة للبناءات الطبقية الحضرية فى الدول الصناعية • واذا ما سلمنا بأن البناء الطبقى الحضرى فى مدن الدول النامية قد تشكل من خلال عوامل اقتصادية واجتماعية وثقافية (تاريخية ومعاصرة) ، أدركنا مدى الخصوصية التى تميز هذا البناء ، مما قد يساعدنا على فهم أفضل لطبيعة المشكلات التى تواجهها هذه المدن والعوامل المختلفة التى تؤدى الى ظهورها •

---

(1) Anthony Leeds and Elizabeth Leeds «Brazil and the Myth of Urban Rurality : Urban Experience; Work and Values in Squatments of Rio De Janeiro and Lima»; in A. Field (ed.); City and Country in the Third World; Cambridge; Mass; 1970; p. 233.

الفصل السادس

آســيا

هى أكبر قارة « حضرية » على الاطلاق اذا ما أخذنا فى اعتبارنا العدد المطلق للسكان الحضريين[١] • وفضلا عن ذلك شهدت آسيا عددا كبيرا من المراكز الحضرية الهامة منذ فترة مبكرة نسبيا • وعلى الرغم من أن هـــذه القارة الاستوائية تمثل امتدادا مكانيا لمنطقة الشرق الاوســـط التى كانت مهدا للحضارة والتحضر منذ آلاف السنين ، الا أن هذا الامتداد المكانى لم يؤد — على الاقل تاريخيا — الى امتداد حضرى • أى أن مدن آســـيا الموسمية لم تكن نتيجة انتشار ثقافى من منطقة الشرق الوسط بقدر ماكانت نتيجة للاستعمار الغربى لها ، ذلك الاستعمار الذى حدث فى فترة متأخرة نسبيا[٢] • واذا كنا قد استطعنا فى الفصل السابق التوصل الى بعض التعميمات التى تتناول ظواهر التحضر فى أمريكا اللاتينية ، فان تحقيق ذلك بالنسبة لآسيا يبدو صعب المنال • ذلك أن أنماط التحضر فى كل من الصين واليابان والهند ودول جنوب شرق آسيا متباينة الى حد كبير بسبب تنوع الظروف التاريخية • ولست أنكر وجود خصائص حضرية مشتركة بين هذه الدول ، على الرغم من ان الوصول الى تعميمات قاطعة فى هـــذا

---

(١) نقصر مناقشتنا هنا على آسيا الاستوائية monsoon التى تمتد من الباكستان غربا الى أندونيســـيا واليابان شرقا باستثناء المناطق الآســـيوية من الاتحاد السوفيتى . أما الدول العربية الآسيوية (كالعراق والاردن وســـوريا ولبنان والعربية السعودية ودول الخليج العربى) وتركيا وايران فقـــد عالجناها جميعا ضمن فصل خصصناه لمناقشة المدينة فى دول الشرق الأوسط . وأعتقـــد أن هذا التقسيم الجغرافى يتفق — الى حـــد كبير — مع المتغيرات الثقافيـــة والاجتماعية والسياسية المتصلة بظاهرة التحضر .

(2) Roads Murphey; «Urbanization in Asia»; in Gerald Breese (ed.) The City in Newly Developing Countries; Prentice-Hall; Inc; New York; 1972; pp. 58-75.

المجال لايخلو من مخاطر • وبالاضافة الى تنوع الظروف التاريخية التى مرت بها هذه الدول الآسيوية ، فان هناك مشكلات منهجية واحصائية قد تحول دون الوصول الى أحكام على قدر كبير من اليقين • اذ أننا لانستطيع أن نعرف على وجه التحديد عدد السكان الحضريين فى قارة آسيا بأكملها ، كما أننا قد نعجز عن حصر كل العوامل التى أدت الى ارتفاع معدلات التحضر سواء فى الماضى أو الحاضر •ولا شك أن قلة البيانات الاحصائية المتاحة وندرة الدراسات المنشورة قد زادت من صعوبة الوصول الى تعميمات صادقة فيما يتعلق بمعدلات التحضر ونتائجه[1] • وعلى الرغم من أن المعلومات والبيانات المتعلقة بالتحضر فى اليابان وفيرة نسبيا اذا ما قورنت بتلك المتعلقة بالتحضر فى دول آسيوية أخرى ، الا أنها ماتزال محدودة بمقارنتها بالمعلومات والبيانات التى تتناول التحضر فى الدول الصناعية الغربية • وربما أتت الهند بعد اليابان فيما يتعلق بوفرة البيانات الاحصائية المتعلقة بالتحضر • أما فيما يتعلق بالصين فاننا نواجه ندرة شديدة فى البيانات الحضرية وعلى الاخص بعد الثورة الشيوعية ، على الرغم من أن عدد سكان المدن فى الصين يزيد عن عدد سكان المدن فى أية دولة أخرى من دول العالم • ويصدق ذلك أيضا على اندونيسيا التى تأتى فى المرتبة الثالثة من حيث عدد السكان فى قارة آسيا (أكثر من ١٠٠ مليون نسمة) •

والملاحظ أن التحضر أقل ارتباطا بالتصنيع فى آسيا منه فى أوربا أو أمريكا الشمالية • ومعنى ذلك أن آسيا تشهد « تضخما حضريا » برغم انخفاض معدلات التحضر فيها عن نظيراتها فى دول العالم المتقدم • والمؤكد أن عدد سكان المدن الآسيوية قد ازداد زيادة ملحوظة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية دون نمو المقومات الصناعية والتجارية التى تستند اليها هذه المدن • وربما كان ذلك أحد الاسباب التى دعت سوفانى Sovani الى القول

---

(1) Philip Hauser; Urbanization in Asia and the Far East; UNESCO; 1956.

بأن المدن الآسيوية تعانى من « تضخم حضرى » لاتكاد تعرفه معظم مدن العالم بما فى ذلك مدن الدول النامية[١] • على ان التناقض الاساسى الذى نلمسه فى آسيا بوجه عام هو أنه برغم انخفاض معدلات التحضر عن بقيه دول العالم (فى سنة ١٩٧٠ كان ٢١٪ من مجموع سكان القارة يعيشون فى مدن يزيد حجمها عن ٢٠٠٠٠ نسمة) الا ان المدن الآسيوية تعانى من مشكلات حضرية لاتكاد تقع تحت حصر • ولاتكاد آسيا تتفوق فى معدل التحضر الا على أفريقيا • لذلك فان آسيا ــ ككل ــ تعد قارة زراعية بالمعنى الواسع لهذا التعبير • ومع ذلك فاننا نجد تفاوتا فى معدلات التحضر من منطقة لأخرى داخل آسيا• ففى منطقة شرق آسيا يرتفع معدل التحضر (٢٨٫٦٪)•وتضم هذه المنطقة اليابان التى يصل فيها هذا المعدل الى٧٥٪[٢] • واذا كان لنا أن نستنتج من ذلك شيئا فهو : أنه بينما تعد آسيا قارة زراعية، تشهد ــ فى نفس الوقت ــ عددا كبيرا من المدن العالمية الضخمة العملاقة • ففى وسط مدينة شانغهاى يعيش ١١ مليون نسمة لتصبح بذلك أكبر مدينة فى العالم • أما طوكيو التى تضم تسعة ملايين نسمة فتأتى فى المرتبة الثانية • واذا ما أخذنا فى الاعتبار المنطقة الميتروبوليتانية التى تضم طوكيو ويوكوهاما ، وجدنا أمامنا عشرين مليونا من البشر يعيشون فى أضخم « تجمع حضرى » عرفه العالم منذ نشأته • ونضيف الى ذلك عددا من المدن الآسيوية الاخرى الكبرى مثل بومباى وكلكتا وبكين • واذا كان صحيحا أن آسيا تشهد « تضخما حضريا » ، فانه من الصحيح أيضا ان مدنها ماتزال تجذب اليها أعدادا كبيرة من المهاجرين الريفيين على نحو ما سنرى فى مواضع لاحقة •

وفضلا عما سبق فان دراسة المدن الآسيوية لاتخلو من مشكلات منهجية مصدرها صعوبة تحديد اطاراتها أو مجالاتها المكانية • فلقد ظلت المدن الآسيوية التقليدية لفترة طويلة محافظة على حدودها الاقليمية

---

(1) N. V. Sovani; «The Analysis of Overurbanization»; in Gerald Breese; (ed.) The City in Newly Developing Countries; op. cit; pp. 322-331.

(2) The World Population Situation in 1970; United Nations; New York; 1971; p. 64.

وعلاقاتها بالمناطق الريفية المحيطة بها • غير أن ارتفاع معـدلات التحضر فى آسيا خلال العقود الاخيرة قد ميع الحدود بين المـدن من ناحيـة ، ومناطقها الريفية من ناحية أخرى • كما أن « ثورة المواصلات » قد ألغت حواجز المكان والزمان ، بحيث أصبحت المدن الآسيوية على مرمى بصر السكان الريفيين • لقـد بدت المـدن أمامهم وكأنها تغريهم بالعيش فى أحضانها وأحيائها • ومن هذه الزاوية يمكننا تفسير ظهـور المجمعـات الحضرية الكبرى مثل « طوكيو الكبرى » وتلك التى بدأت تتكون خـلال السنوات الاخيرة مثل بومباى وكراتشى ومدراس ودلهى وسنغافـورة وكوالامبور وجاكارتا ومانيلا • والملاحظ أن المدن الآسيوية لاتختلف كثيرا عن بقية مدن الدول النامية فيما يتعلق بتأثير الهجرة الريفية عليها • اذ أن أكثر من نصف سكان المدن الآسيوية قد ولدوا فى مناطق ريفية(١) • ومع أن الهجرة الريفية ــ الحضرية الموسمية شائعة الى حد ما فى بعض الدول الآسيوية ، الا أن معدلات الهجرة الريفية ــ الحضرية الدائمة ترتفع من عام لآخر • وعلى الرغم من المشكلات المنهجية التى قد تواجهنا عند دراسة المدن الآسيوية ، الا أن ذلك يجب ألا يعوقنا عن فهم « الخصوصيـات الحضرية » فى قارة ضخمة كآسيا تضم حوالى نصف سكان مدن العالم • كما ان هذه المدن قد لعبت ــ وماتزال ــ أدوارا سياسية بالغة الاهمية مما يدفعنا الى القاء نظرة تاريخية عليها •

ولقد أوضحت بعض التحليلات التاريخية أن « المكانة الحضرية » التى احتلتها آسيا تعود الى بدايات القرن الثانى عشر الميلادى • ففى سـنة ١١٠٢ كانت كيفينج هى عاصمة معظم أجزاء الصين بحدودها المعروفة لنا الآن ، حيث بلغ عدد سـكان هذه العاصمـة ٤٤٢٫٠٠٠ نسمة ، وبذلك شهدت الصين أكبر مدينة فى العالم خـلال تلك الفترة(٢) • وخلال القرنين

---

(1) U. N-ECAFE Secretariat; The Demographic Situation and Prospective Population Trends in Asia and the Far East; in G. Breese (ed.); The City.... op. cit; p. 67-80.

(2) T. Chandler and G. Fow; 3000 Years of Urban Growth; Academic Press; 1974. p. 23.

الرابع عشر والخامس عشر كانت مدينتى نانكين وبكين من أكبر مدن العالم اذا ما استثنينا القاهرة والقسطنطينية ، ثم لندن بعد ذلك التى وصل عدد سكانها فى سنة ١٨٥٠ الى ٥ر٢ مليون نسمة • وفى سنة ١٩٦٨ كانت آسيا باستثناء الاتحاد السوفيتى تضم تسعة من أكبر مدن العالم المعاصر • واذا ما اعتبرنا الاتحاد السوفييتى جزءا من آسيا ، ارتفع هذا الرقم الى احدى عشر مدينة عملاقة[1] • على أننا يجب أن نميز — تاريخيا — بين نمطين واضحين من المدن الآسيوية • هناك أولا المدن الآسيوية الوطنية التى ظلت لفترة طويلة مراكز سياسية وثقافية هامة • والواقع أن هذه المدن لم تكن تؤدى وظائف اقتصادية أو تجارية بقدر ما كانت تؤدى وظائف سياسية • أى أنها كانت تمثل التجسيد الحقيقى للسلطات السياسية التى تمارسها الحكومات الوطنية • وكانت هذه المدن تقع — عادة — فى داخل الدول الآسيوية باستثناء اليابان وأجزاء من جنوب شرق القارة ، حيث كان من المستحيل ان تقام المدن فى المناطق الداخلية • ويبدو أن وجود هذه المدن فى قلب الدول الآسيوية لم يكن يخلو من اعتبارات أمنية وسياسية[2] • فبقدر ما كانت تتفادى هذه المدن الغزوات البحرية الساحلية ، بقـــدر ما كانت تحكم سيطرتها على مختلف أنحاء البلاد • ومن الامثلة الشهيرة على ذلك بكين ودلهى ، حيث لعبتا أدوارا سياسية وثقافية بالغة الاهمية كما يتبدى ذلك فى تراثهما التاريخى من المعابد والقصور والآثار التذكارية • واذا كانت المدن الصينية قد عرفت الحاجة الى الحماية فأقامت الاسوار التى تحيط بها من كل جانب ، فان المدن اليابانية لم تستشعر الحاجة الى اقامة مثل هذه الاسوار • وهناك ثانيا المدن الآسيوية الاستعمارية التى تدين فى نشأتها الى التغلغل الاستعمارى الغربى فى قارة آسيا الذى اتخذ فى البداية شكل السيطرة الكاملة على طرق التجارة • وتختلف هذه المدن الاستعمارية

---

(1) Ibid; p. 25.

(2) Norton S. Ginsburg; «Urban Geography and (Non-Western) Areas»; in P. Hauser and Leo Schnore; (eds.) The Study of Urbanization; John Wiley & Sons; N. Y; 1965; pp. 411-376.

عن المدن الوطنية من وجوه عديدة • فهى (أى المدن الاستعمارية) نشأت نشأة تجارية ، كما أن معظمها كان يقع على السواحل البحرية من أجـــل تسهيل التجارة والاتصال مع الدول الاستعمارية • وفى بداية الامر ظلت هذه المدن بمثابة مراكز أو نقط تجارية صغيرة الحجم تضم قلاعا للاشراف على حمايتها[١] • غير أن هذه المدن ما لبثت أن حققت نموا كبيرا بعـــد حصول الدول الآسيوية على استقلالها السياسى• ومن الامثلة الواضحة على هذه المدن الآسيوية ذات النشأة الاستعمارية : هونج كونج ، وسنغافورة ، وشانغهاى ، وكلكتا ، وبومباى • أما النمط الايكولوجى لهذه المـــدن فكان يعكس بوضوح نشأتها غير الآسيوية • فخلال الحقبة الاستعمارية كان الآسيويون والاوربيون يعيشون فى أحياء منفصلة ومتباعدة • أما الاحياء الاوربية فكانت تتبع خطة هندسية واضحة : شوارع واسعة ومستقيمة وطويلة ، بينما لم تكن الاحياء الوطنية تتبع خطة هندسية على الاطلاق : حوارى ضيقة مقفلة النهاية متعرجة مزدحمة السكان • وفضلا عن ذلك كانت هذه المدن الآسيوية الاستعمارية تعتمد اقتصاديا على التجارة مع الدول الاوربية وبعض الصناعات الخفيفة • وعلى الرغم من هذه المدن كانت ترتبط مكانيا بآسيا ، الا أنها كانت ترتبط اقتصاديا وتجاريا وسياسيا بأوربا وعلى الاخص بريطانيا[٢] • لقد زرعت فيها القوى الاستعمارية كثيرا من النظم الحضرية الغربية ، وأفقدتها بذلك الارتباط بدولها الوطنية • ومازال هونج كونج وسنغافورة تعكسان حتى الآن هذه التبعية الاقتصادية ، برغم أنهما قد أصبحتا من أهم المراكز التجارية والصناعية فى عالمنا المعاصر •

وهناك تباين ملحوظ بين الدول الآسيوية فيما يتعلق بمعدلات التحضر •

---

(1) John Palen; The Urban World; McGraw-Hill; Inc; N. Y; 1975; p. 395.

(2) N. Keyfitz; «Political-Economic Aspects of Urbanization in South and Southeast Asia; in P. Hauser; and Leo Schnore (eds.); The Study of Urbanization; op. cit; pp. 265 ff.

فاذا ما نظرنا الى نسبة السكان الذين يعيشون فى مدن تعدادها مليون نسمة، لاحظنا تفاوتا كبيرا[١] • فهناك مجموعة من الدول الآسيوية يعيش أقل من ١٠٪ من سكانها فى مدن من هذا الحجم (باكستان ٢ر٤٢٪ ، والصين ٨ر٤ ٪ ، والهند ١ر٥ ٪ ، وتايلاند ٢ر٥ ٪ ، وأندونيسيا ١ر٦ ٪ ، والفيلبين ٢ر٨٪) • ثم هناك مجموعة أخرى فيها ضعف هذه النسبة تقريبا (كوريا الجنوبية ١٢٪ وفيتنام الجنوبية ٣ر١٤٪) • أما اليابان (التى لا تصنف ضمن الدول النامية) فتصل فيها هذه النسبة الى ٥ر٢٤٪ فى مقابل ٢ر٦١٪ فى سنغافورة و ١٠٠٪ بالنسبة لهونج كونج[٢] • ويبدو أن الهجرة الريفية ـ الحضرية فى معظم الدول الآسيوية تشكل المصدر الاساسى للنمو الحضرى بعامة ، وتضخم « المدن الاولى » بخاصة • ولقد أوضحت التحليلات السكانية أن معدلات نمو السكان الحضريين فى آسيا تفوق كثيرا معدلات النمو السكانى بوجه عام ، مما يؤكد الدور الذى تلعبه الهجرة الريفية فى هذا المجال • وربما كانت اليابان هى الاستثناء الآسيوى الوحيد من ذلك • ففيما بين سنتى ١٩٥٥ و ١٩٦٠ تناقصت نسبة السكان اليابانيين الذين يعيشون فى مدن كبرى بسبب السياسة اللامركزية التى انتهجتها الحكومة اليابانية وعلى الاخص فيما يتعلق بالمشروعات الصناعية • لذلك فان معدلات الزيادة الطبيعية كانت تشكل المصدر الوحيد للنمو الحضرى المحتمل [٣] •

ونظرا للتنوعات الحضرية التى تنطوى عليها هذه القارة الضخمة ، فان مناقشة أنماط التحضر الاساسية فى المناطق الهامة فيها تبدو أمرا ضروريا • لذلك فاننا سنتناول فيما تبقى من هذا الفصل الظواهر الحضرية فى كل من الهند واليابان والصين وجنوب شرق آسيا • ويستند هذا

---

(١) طبقا لبيانات الامم المتحدة الصادرة فى سنة ١٩٦٠ •

(٢) جيرالد بريز ، مجتمع المدينة فى الدول النامية ، ترجمة محمد الجوهرى ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٦٦ •

(3)U. N-ESAFE Secretariat ; «The Population Situation ...» in Gerald Breese (ed.) The City ... op. cit; p. 79.

التصنيف الى بعض الاعتبارات لعل أهمها تباين خبرات التصنيع والتحضر من دولة آسيوية لاخرى • فاليابان قــد تنتمى الى آسيا جغرافيا ، لكنها تنتمى الى الدول المتقدمة من حيث درجة التصنيع ومعدل التحضر • كما أن دولا مثل هونج كونج وسنغافوره قد تنتمى الى الــدول المتقدمة من حيث معدلات التحضر ، برغم أنها تنتمى مكانيا الى آسيا • واذا ما أضفنا الى ذلك كله الصين وما تشكله من واقع اقتصــادى ــ سياسى متميز ، تعقدت أمامنا « الصورة الحضرية » ، مما يدفعنا الى تخصيص مناقشـــة مستقلة لهذه المناطق الآسيوية المختلفة • وقبل أن نبدأ هذه المناقشة يتعين علينا تأكيد قضية أساسية هى ؛ أن المعالجة المستقلة للظواهر الحضرية فى هذه المناطق لاتعنى انعدام التشابه بينها بقدر ما تعنى أخذ « الخصوصيات الحضرية » فى الاعتبار قبل الوصول الى أية أحكام عامة • إن التعميمات المتعلقة بالمدن الآسيوية مازالت محدودة للغاية • وأعتقد أن الخطوة الاولى التى يجب أن تسبق التوصل الى هــذه التعميمات تتمثل فى التعرف على الطابع الذى يميز هــذه المدن ، تلك التى تمارس وظائفها فى ظل ظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية متباينة •

واذا ما بدأنا مناقشتنا بدراســة المدن الهندية ، لاحظنا أنها تمثــل خليطا من سمات وطنية وأخــرى أجنبية أو غربيــة • وقــد نلمس هذه « الازدواجية » على مستوى أحياء المدينة الواحدة كما قد نلمسها عــلى مستوى المدينة ككل كما هــو الحال بالنسبة لدلهى ونيودلهى • والملاحظ أن كثيرا من المــدن الهندية الكبرى تدين فى نشأتها للحقبة الاستعمارية ، حيث نجد بصمات الحكم البريطانى مازال واضحــة على الاحياء الراقية التى ظلت لفترة طويلة مقرا للجاليات الاجنبية • وفضلا عن ذلك فان نظام الطوائف الهندية قد أحدث تأثيرا بالغا على ايكولوجية المــدن الهندية • فالطوائف ذات المكانة العليا (كالبراهما) تميل الى الاقامة فى الاحياء الراقية، بينما تميل الطوائف ذات المكانة الدنيا (كالفيزا) الى الاقامة فى الاحياء

الشعبية[١] . واذا كانت هذه الطوائف قد فرضت « حـواجز اجتماعية » بين الجماعات المختلفة ، فانها قد أدت أيضا الى ظهور أنماط ايكولوجيـة لاتخلو من « حواجز مكانية » . ومن بين السمات الهامة المميزة للمـدن الهندية الكبرى وجود أحياء شعبية ذات كثافة سكانية عالية جدا ، ووجود أحياء راقية ذات كثافة سكانية منخفضة للغاية . كذلك فان المدن الهندية تعانى من تضخم أحياء واضعى اليـد أو أحيـاء « الباسطى » bustees الشديدة الشبه « بأحياء العشش والصفيح » . وتلعب وسائل النقل دورا هاما فى تحديد طابع المدن الهندية . وتتدرج هذه الوسـائل من الجمال والحمير حتى سيارات النقل السريعة وقطارات الضواحى السريعة . وبين هذين القطبين نجد عربات التونجا (عربات ذات عجلتين تجرها الخيول) والعربات ذات المقعد الواحـد التى يجرها آدمى ، وعربات الريكشـا البخارية ، والدراجات والعربات التى تجرها الثيران ، وسيارات التاكسى ، والسيارات الخاصة ، وسيارات النقل بأنواعها المختلفة ، وعربات اليـد ، والترام . ومن شأن هذا التنوع فى وسائل المواصلات ان يؤدى الى تعقـد شبكات المرور وعلى الاخص فى المدن الكبرى[٢] .

ولقد أوضح جيرالد بريز Breese أن البنـاء الحضرى للمدينـة الهندية الكبيرة يتألف من عدة قطاعات أساسية : الاحياء الوطنية القديمة ، والاحياء الاجنبية الحديثة ، ومناطق الاسكان الحكومى والمعسـكرات ، والباسطى « أو أحياء الصفيح » ، والجيوب الريفية[٣] . أمـا الاحيـاء الوطنية التى نشأت خلال فترة الاستعمار البريطانى فكانت تشكل نويات

---

(1) J. E. Brush; «The Morphology of Indian Cities»; in R. Turner; (ed.) India's Urban Future; Berkeley : University of California Press ; 1962; p. 58.

(2) B. F. Hoselitz; «The Cities of India and Their Problems»; in R. Turner (ed.); op. cit; pp. 425-443.

(٣) استخدم بريز هـذا التصنيف فى دراسته عن دلهى — نيودلهى التى ضمنها كتابه مجتمع المدينـة فى الدول النامية ، المرجـع السـابق ، ص ص ١١٦ — ١٤٦ .

حضرية ما لبثت أن حققت اتساعا ونموا • وعلى الرغم من اختلاف مساحة هذه الاحياء من مدينة لاخرى ، الا أنها لم تحقق امتدادا مكانيا بسبب موقعها الوسطى • وبرغم الكثافة السكانية فى هذه الاحياء ، الا أن استخدام الارض فيها يتخذ أشكالا متعددة • فهى تضم المساكن والمتاجر والمخازن والمصانع الحرفية الصغيرة • أما شوارع هذه الاحياء فهى غير منتظمة الاتجاه والطول والاتساع • على أن هذه الاحياء الوطنية لم تستطع استيعاب جميع السكان الذين جذبتهم اليها مما أدى الى انتقال الفائض السكانى الى الاحياء المجاورة • ولقد أخفقت جميع محاولات التحكم فى استخدام الارض تحت وطأة الضغط السكانى المتزايد • وأحد النتائج المترتبة على ذلك تحول كثير من الوحدات السكنية الى متاجر أو مصانع صغيرة ، فى حين تحولت وحدات أخرى الى وحدات أصغر لتستطيع ايواء أكبر عدد من السكان • أما الاحياء الاجنبية الحديثة فتتميز بالانفتاح النسبى والنظام والهدوء ، كما أنها تخضع لخطة حضرية أكثر تطورا • ومع ذلك فمنذ حصول الهند على استقلالها تفاوت مصير هذه الاحياء • فقد استطاع بعضها المحافظة على طابعه ، بينما تعرض البعض الآخر للضغوط السكانية مما أدى الى حدوث « تدهور حضرى »[(١)] • وبالاضافة الى ذلك هناك مناطق الاسكان الحكومى التى يعيش فيها بعض موظفى الدولة كالعاملين فى السكك الحديدية ، ورجال الشرطة ، والمهندسين ، والاطباء • وعلى الرغم من أن هذه المناطق تتمتع بخدمات حضرية أفضل من تلك التى تتمتع بها الاحياء الوطنية القديمة ، الا أنها تشترك معها فى بعض الخصائص كالكثافة السكانية العالية ، واختلاط السكن بالتجارة • أما أحياء الباسطى (أو مدن واضعى اليد) فتكاد تكون أحد معالم المدن الهندية الكبرى [(٢)] • فما بين عشية وضحاها تتحول المبانى المؤقتة (المصنوعة من

---

(1) Jal F. Bulsara; Problems of Rapid Urbanization in India; London; 1964.

(2) A. Bopegamage; Delhi : A Study in Urban Sociology; Bombay; 1957; pp. 93-109.

الصفيح) الى أحياء ضخمة تقع على الحدود الخارجية للمناطق الحضرية ، وخاصة على طول الطرق الرئيسية المؤدية الى المدن ٠ وتنمو هذه الاحياء بجوار مشروعات البناء وفى المناطق المتخلفة أو مناطق الفضاء البعيدة فى مختلف أنحاء المدينة ٠ وغالبا ما تتألف الوحدات السكنية فى هـذه الاحياء من حجرة واحدة ، مما يخلق كثافة سكانية عالية فى مناطق تفتقر تماما الى الخدمات الحضرية ٠ وتكاد تقتصر هذه الاحياء على الوافدين الجـدد الى المدينة ٠ وفى بعض الاحيان يقوم الموظفون الحكوميون بحملات تفتيشية فاشلة بهدف القضاء على هـذه الاحياء أو اخضاعها لنوع من الاشراف والرقابة ٠ غير أن هذه الحملات لم تحدث تأثيرا على نموها ٠ وتشير البيانات الاحصائية الرسمية الى أن مدينة دلهى قد عرفت فى سنة ١٩٥٩ حوالى ٨٥ حيا من أحياء واضعى اليد (الباسطى) يسكن فى كل منها عدة آلاف من الاسر ٠ أما عدد السكان الذين كانوا يعيشون فى هذه الاحياء فقـد بلغ ٢٠٠٫٠٠٠ نسمة ٠ وبالاضافة الى هذه الاحياء تشهد المدن الهندية « جيوبا ريفية » بسبب ارتفاع معدلات الهجرة الريفية اليها ٠ وبنمو هذه الجيوب يزداد احتمال اقترابها من القرى المجاورة ٠ وفى حالات أخرى قد يؤدى النمو الحضرى الى تطويق هذه « الجيوب الريفية »[1] ٠ والواقع أن ازالة هذه الجيوب الريفية قد تكون أمرا صعبا ان لم يكن مستحيلا ٠ اذ أنها تتيح فرص الاسـكان الرخيص للمهاجرين الريفيين ، كما أنها قـد تستخدم كمخازن لبعض الشركات بسبب الانخفاض النسبى فى أسعـار أراضيها ٠

ويبدو أن الحجم النسبى لهذه الاحياء والمناطق يتوقف على الظروف التاريخية التى مرت بها كل من المدن الهندية الكبرى ٠ ففى المـدن التى يزداد فيها التأثير الاوربى يتسـع نطاق الاحياء الاجنبية الحديثة ، بينما يضيق نطاقها فى المدن التى لم تشهد اقامة أوربية استعمارية واسعة المدى٠ كذلك فان نمو معدلات التحضر بعد حصول الهند على استقلالها السياسى

(1) R. V. Rao and P. B. Desoi; Greater Delhi : A Study in Urbanization 1940-1957; New York; 1965.

لم يسمح بتظيم عملية التوسع الحضرى فى اطار خطة عامة شاملة • وتكاد تنفرد الهند من بين الدول الآسيوية بنمو « المجمعات الحضرية » الضخمة conurbations • فكلكتا الكبرى ما هى الا « مجمـــع حضرى » ممتـــد على طول أحد الانهار الهندية ، كما أن بومباى ــ هى الاخرى ــ قد تحولت الى « مجمع حضرى » يلتف حول ميناء بومباى ويمتد طول الســـاحل • وهناك صلة وثيقة بين نمو هـــذه « المجمعات » من ناحية والتوطن الصناعى من ناحية أخرى • وقد تكون الصلة العامة بين التحضر والتصنيع ليست قوية فى الهند ، الا أن نمو حركة التصنيع قد يكون أحد العوامل المساعدة على زيادة النمو الحضرى[1] • ومع أن الهند قد بدأت تستخدم خلال السنوات الاخيرة أساليب النقل والمواصلات الحديثة مما خفف من حـــدة المركزية الصناعية الصارخة ، الا أن الشواهد المتاحة لدينا تشير الى أن الاتجاه نحو توطين الصناعات فى المدن الكبرى آخذ فى الازدياد بسبب قلة الاستثمارات التى قد تخصص لاقامة مناطق صناعية جديدة • لذلك فان القرار اليسير الذى يتخذه السياسيون بشأن موقع الصناعات هـــو الافادة من الهياكل الاساسية للمدن الهندية القائمة •

والواقع أن المدن الهندية لا تختلف كثيرا عن مدن أمريكا اللاتينية فيما يتعلق باتساع وانتشار أحياء واضعى اليد • غير أن سكان هذه الاحياء فى الهند يخضعون لظروف أكثر قسوة من تلك التى يخضـــع لها قرناؤهم فى أمريكا اللاتينية • فأحياء « الباسطى » فى الهند هى واحـــدة من أكثر الاحياء المتخلفة تخلفا فى جميع أنحـــاء العالم ، حيث يعيش فيها مئات الآلاف من المهاجرين فى ظل ظروف غـــير انســـانية • ويتدفق المهاجرون الريفيون الى المدن الهندية لانهم فقدوا أى أمل فى حياة ريفية انسانية • وعلى الرغم من مشروعات التنمية الاقتصادية التى أنجزت خـــلال العقود القليلة الماضية فى الهند ، الا أن معدلات النمو السكانى العالية تكاد تبتلع

---

(1) Norman Gist; «Urbanism in India»; in Sylvia Fleis Fava (ed.) Urbanism in World Perspective; Thomas Crowell; 1968.

أى نمو اقتصادى محقق • ففى سنة ١٩٧٢ بلغ عدد سكان الهند ٦٠٠ مليون نسمة ، فى حين وصلت الزيادة السنوية للسكان الى ١٣ مليون نسمة ، أى ما يعادل عدد سكان قارة استراليا بأكملها[1] • وبسبب هذه الزيادة السكانية الهائلة بدأت المدن الهندية تتجه من سيء الى أسوأ • وقد نستشهد على ذلك بما حدث لكلكتا • إذ يبلغ عدد سكان هذه المدينة أكثر من سبعة ملايين نسمة يعيشون فى ظل فقر مدقع • وطبقا للاحصاءات الرسمية الهندية فان ثلاثة أرباع سكان المدينة يعيشون فى أحياء متخلفة مزدحمة تفتقر الى الخدمات الحضرية ، كما أن ٥٧ ٪ من أسر المدينة تعيش فى مساكن مؤلفة من حجرة واحدة • وفى كلكتا تصل الظروف السكنية الى أدنى مستوى لها فى العالم • فهناك أكثر من ٣٠٠٫٠٠٠ شخص لا يجدون مأوى يأويهم ولا يحصلون على الحد الادنى من الطعام ، مما دفع بعض الدارسين الى القول بأن بعض سكان كلكتا يولدون فى الشوارع ويموتون فيها أيضا • لقد تحولت كلكتا الى مدينة هندية ضخمة دون أن تكون لديها المقومات الصناعية والتجارية التى تؤهلها لذلك • وبقدر ما تعانى الهند من « طفح سكانى » (من المقدر أن يصل عدد السكان فى سنة ١٩٨٥ الى ٨٠٨ مليون نسمة) بقدر ما تعانى من « تضخم حضرى »[2] •

واذا ما تناولنا المدن الصينية وجدنا واقعا حضريا مختلفا عن ذلك الذى ألفناه فى المدن الهندية • وعلى الرغم من أن البيانات الاحصائية المتاحة لدينا عن معدلات التحضر ليست حديثة تماما بسبب القيود المفروضة عليها من قبل الحكومة الصينية ، الا أن هناك مجالا مفتوحا للاجتهاد فى حدود ما هو متاح من بيانات • فطبقا للتعداد الصينى الذى أجرى فى سنة ١٩٥٣ بلغ عدد سكان الصين ٥٨٣ مليون نسمة ، ثم ارتفع هذا الرقم — طبقا للبيانات الصينية الرسمية — الى ٦٤٧ مليون نسمة

---

(1) Philip Hauser (ed.) Urbanization in Asia and the Far East; op. cit.

(2) Nirmal K. Bose; «Calcutta : A Premature Metropolis» Cities : A Scientific American Book. Alfred A. Knopf; 1970; pp. 59-74.

فى سنة ١٩٥٧ • وتشير الدراسات التنبؤية التى قام بها مكتب الاحصاء التابع للأمم المتحدة ، الى أن أقل التقديرات تؤكد أن عدد سكان الصين قد وصل فى سنة ١٩٧٥ الى ٨٦٩ مليون نسمة ، بينما تذهب أعلى التقديرات الى أن هذا الرقم قد وصل الى ٩٣٢ مليون نسمة[١] • ويذهب بعض الدارسين الى أن معدل الزيادة الطبيعية فى الصين يصل الى ٢٪ سنويا • ولو افترضنا أن هذا المعدل هو ١٪ فقط ، لكان معنى ذلك أن عدد سكان الصين سيصل الى بليون نسمة فى سنة ٢٠٠٠ • ويكاد يتركز سكان الصين فى المناطق الجنوبية الشرقية من البلاد ، كما أن ٩٦٪ من السكان يعيشون فى ٤٠٪ من مساحة الصين •

وخلال فترة الاستعمار الاوربى حققت المدن الساحلية الصينية (الموانى) نموا سكانيا وصناعيا ملحوظاً • بيد أن هذه المدن قد ظلت طوال القرن التاسع عشر خاضعة تماما للسيطرة الاوربية ، ثم اليابانية فى فترة لاحقة • لقد أجبرت القوى الاوربية حكومة المانشو الضعيفة على التحكم فى الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للمدن الصينية الكبرى[٢] • وداخل هذه المدن كان الاوربيون يعيشون فى أحياء سكنية جديدة منفصلة عن تلك التى يقيم فيها الصينيون ، كما كانوا يتمتعون بحماية الامتيازات الاجنبية • ففى مدينة شانغهاى — التى كانت من أكبر الموانى الصينية ضخامة ورخاء — كانت تفصل أحياء الوطنيين الصينيين عن أحياء الاجانب الاوربيين حديقة ضخمة لا يسمح للصينيين بالتجول فيها أو المرور عبرها • ومثل هذا يكاد ينطبق على العاصمة بكين • ومن الغريب أن عدد الاوربيين المقيمين فى المدن الصينية خلال الفترة الاستعمارية كان قليلا للغاية • ففى كانتون (أكبر المدن الصينية الجنوبية) لم يكن عدد الاوربيين المقيمين

---

(1) Morris B. Ullman; «Cities of Mainland China : 1953-1959» in Gerald Breese (ed.) The City in .... op. cit; pp. 81-103.

(2) N. Ginsburg; «Urban Geography and Non-Western Areas»; in P. Hauser and Leo Schnore; (eds.) The Study of Urbanization; op. cit; 327 ff.

فيها يزيد عن ٨٩٤ شخصا ، بينما كان عدد سكان المدينة من الصينيين يزيد عن مليون نسمة[١] . ويبدو أن الحكومة الوطنية التي خلفت حكومة المانشو فى أوائل القرن العشرين كانت ذات « توجه حضرى » واضح . فمعظم أفرادها كانوا من العسكريين « الحضريين » الذين مارسوا ضغوطا هائلة على الفلاحين من أجل دعم المدن الصينية . بيد أن هذه الظروف قد تبدلت تماما بنجاح الثورة الصينية بقيادة ماوتسى تونج فى سنة ١٩٤٩ . ذلك أن ماو قد اعتمد على الفلاحين فى ثورته وعبر مرارا عن القهر الذى طالما مارسته المدينة الصينية على القرية الصينية[٢] . ولاشك أن هذا المنطلق الايديولوجى كان له أكبر الاثر على الواقع الحضرى الصينى . ولعل أفضل وسيلة لادراك ذلك هى مقارنة الواقع الحضرى فى كل من الصين بعد ثورتها (١٩٤٩) والهند بعد حصولها على استقلالها السياسى (١٩٤٧) . ان ذلك يوضح ما سبق أن أكدناه من أن الايديولوجية السياسية تلعب دورا بالغ الاهمية فى تحديد النمط الحضرى .

وتشير التقديرات السكانية الحديثة (١٩٧٠) الى أن حوالى ٢٠٪ من سكان الصين يعيشون فى مدن ، حيث يبلغ عدد السكان الحضريين ١٦٤ مليون نسمة . واذا ما كانت هذه التقديرات صحيحة ، فان الصين تصبح أكبر دولة فى العالم من حيث العدد المطلق للسكان الحضريين . كذلك تذهب بعض التقديرات السكانية الى أن معدل النمو الحضرى يصل الى ٤ر٤٪ سنويا[٣] . أما الحقيقة الحضرية التى يتعين علينا الاشارة اليها هنا فهى أن الصين تضم أكبر مدينة فى العالم من حيث عدد السكان : شانغهاى . ومنذ نجاح الثورة الصينية فى سنة ١٩٤٩ بدأت معدلات الهجرة الريفية —

---

(1) Ezra Vogel; **Canton Under Communism**; Harvard University Press; Cambridge; Mass; 1969.

(٢) السيد الحسينى ، « تحليل نقدى لكتاب علم الاجتماع والاشتراكية فى الصين المعاصرة » ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، اكتوبر ، ١٩٨٠ ، ص ص ٢٧٧ — ٢٨٨ .

(3) **The World Population Situation in 1970**; United Nations; New York; 1971; p. 62.

الحضرية فى الازدياد التدريجى • ففيما بين سنتى ١٩٤٩ و ١٩٥٦ انتقل ٢٠ مليون صينى من المناطق الريفية الى المناطق الحضرية • غير أن الحكومة الصينية قد اتخذت خلال الستينيات بعض التدابير والاجراءات التى من شأنها تشجيع الهجرة المعاكسة : الحضرية ــ الريفية (من المدينـــة الى القرية) • وخلال فترة الثورة الثقافية التى شهدتها الصين فى أواخـــر الستينيات ، بدأت القيادات الثورية تشجع كثيرا من المثقفين على العـــودة الى الريف والاحتكاك بالفلاحين • وعلى الرغم من أن هذه الهجرة الحضرية ــ الريفية لم تحقق نجاحا ملموسا خلال فترة الثورة الثقافية ، الا أن حقبة السبعينيات قد شهدت تحولا كبيرا لعل أحـــد مظاهره انتقـــال الفائض السكانى الحضرى للعمل فى المزارع الجماعية التى كانت قد حققت نجاحا منقطع النظير • وتكاد تكون الصين هى الدولة الآسيوية الوحيدة التى استطاعت مواجهة الهجرة الريفية ـــ الحضرية وما يترتب عليهـــا مـــن مشكلات اجتماعية واقتصادية وثقافية • واذا كانت الغالبية العظمى من الدول النامية قد أخفقت فى الحد من هذه الهجرة واجبار المهاجرين العاطلين على العـــودة الى قراهم ، فان الصـــين الشعبية قد استطاعت التحكم فيها بفضل القيادة السياسية الحازمة ، والسعى الجـــاد لتذويب الفـــوارق « الطبقية » بين القرية والمدينة •

وربما أمكننا الاستشـــهاد على ذلك بمـــا حـــدث فى أعقاب الازمـــة الاقتصادية التى تعرض لها الصين فى سنة ١٩٦٣ • إذ قررت الحكومة الصينية فى تلك السنة ألا يزيد عدد السكان الحضريين عن ١١٠ مليـــون نسمة • ولتنفيذ ذلك شجعت الحكومة الحضريين من خريجى المدارس العليا والمعاهد الجامعية على الانتقال الى القرى الصينية ، مما أدى الى تخفيف الضغط على الاقتصاد الحضرى والإسهام فى تطوير الزراعة والنهوض بالصناعات الوطنية • ولقد عبر ماوتسى تونج عن موقفه من هذه القضية فأوضح ضرورة عودة الشباب المتعلم الى الريف الصينى من أجل تثقيف الفلاحين ، وأن القيادات الحزبية المركزية يجب أن تشجع الشـــباب على ذلك ، كما يجب على القيادات الحزبية المحلية تذليل كل العقبات التى تحول

دون هجرة شباب المدن الى الريف[1] • ولقد لقيت دعوة ماو للعودة الى الريف ترحيبا كبيرا من جانب الشبان الحضريين حتى أن بعض الدارسين قد قدروا عدد المتطوعين الحضريين الذين توجهوا الى الريف الصينى بحوالى خمسة عشر مليون متطوع خلال عامين فقط ، كما ان بعضا آخر من الدارسين قد وصل بهذا الرقم الى خمسة وعشرين مليون متطوع (فى سنة ١٩٧٣) • واذا كانت هذه التقديرات صحيحة ، فان الصين تكون بذلك قد شهدت أضخم هجرة « حضرية ــ ريفية » عرفها التاريخ • والملاحظ أن نسبة كبيرة من هؤلاء المتطوعين كانوا ينتمون الى المراكز الصناعية والتعليمية الكبرى مثل بكين وشانغهاى وكانتون • فطبقا للتقديرات الصينية فان شانغهاى وحدها قد « صدرت » للريف الصينى أكثر من نصف مليون مثقف ثورى فى نهاية سنة ١٩٦٩[2] • أما النتيجة المباشرة فكانت تحقيق دفعة اقتصادية للريف الصينى ، وتجنيب المدن الصينية المشكلات التقليدية التى واجهتها معظم مدن الدول النامية •

وتعبر شانغهاى عن المدن الصينية خير تعبير • فلقد نشأت هذه المدينة كمركز تجارى خلال فترة الاستعمار الاوربى ، وفرضت بذلك سيطرتها على حضارة زراعية راسخة الجذور • وخلال عقد واحد من نشأة شانغهاى وافتتاحها للتجارة الدولية (١٨٤٣) ، تحولت المدينة الى مركز تجارى ضخم يعكس بوضوح سيطرة الفكر الاوربى الحضرى خلال القرن التاسع عشر • ومن خلال الامتداد المكانى الذى حققه الاوربيون للمدينة باستخدام القوة والتهديد فى معظم الاحيان ، ازدادت مكانة شانغهاى على المستويين القومى والعالمى • وبعد قيام الثورة الصينية واجه المخططون الحضريون الصينيون فى شانغهاى مشكلات عديدة ناجمة عن

---

(1) Mao Tse-Tung; Selected Works of Mao Tse-tung; Vol. 5; Peking; Foreign Languages Press; 1977.

(2) Solomon Richard; Mao's Revolution and the Chinese Political Culture; Berkeley; Calif. Univ. Press; 1971.

الظروف التى مرت بها المدينة خلال الفترة الاستعمارية[١] • فلقد كانت المدينة خلال تلك الفترة مقسمة الى أحياء أجنبية راقية محدودة ، وأخرى وطنية شعبية ممتدة • وكان من الضرورى القضاء على هذه « الازدواجية الحضرية » بتوسيع شوارع الاحياء الوطنية ومدها وتزويدها بالخدمات والمرافق ، مما أدى الى ازالة كثير من المبانى القديمة التى يتعارض وجودها مع متطلبات التخطيط الحضرى • ويشير بعض الدارسين الى ان مجموع أطوال شوارع مدينة شانغهاى قد ارتفع من مائتى ميل الى ألفى ميل فيما بين سنتى ١٩٤٩ و ١٩٧٢ • على أن التركز الصناعى فى شانغهاى على مدى فترة طويلة نسبيا قد أحدث بعض المشكلات الحضرية • ففى المدينة يعيش الآن أكثر من مليون ونصف عامل صناعى يعملون فى مختلف الصناعات كالحديد والصلب ، والآلات ، وبناء السفن ، والمركبات ، والغزل والنسيج • ولقد بذلت الحكومة الصينية جهودا ضخمة من أجل اعادة توزيع المواقع الصناعية على مناطق مختلفة ، وان كانت لم تحقق نجاحا كبيرا فى هـذا المجال بسبب قلة وسائل النقل وندرة رؤوس الاموال • وتحيط بالمدينة مساحات هائلة لانتاج الخضروات والفواكه التى يحتاج اليها سكانها ، كما أن كثيرا من المشروعات الصناعية تقع داخل نطاق المدينة ، مما يترتب عليه مشكلات بيئية كالتلوث والازدحام وتعقد شبكات المرور[٢] • ومع ذلك فان مشكلة التلوث فى شانغهاى لا تنطوى على خطورة بسبب قلة عـدد السيارات المستخدمة • ومن الطبيعى أن ينعكس ذلك على المسـافة بين منطقة السكن ومكان العمل • اذ أن استخدام الدراجات على نطاق واسع (كبديل للسيارات فى المدن الغربية) يجبر الافراد على الاقامة فى مساكن قريبة من أعمالهم • وفى شانغهاى وحدها أكثر من مليون دراجـة ، على الرغم من أن كثيرا من سكان المدينة مايزالون يتطلعون الى اليوم الـذى يقتنون فيه هذه المركبة التى تعتمـد فى حركتها على الطاقة الانسانية •

---

(1) Rhoads Murphey; Shanghai : Key to Modern China; Harvard University Press; Cambridge; Mass; 1953.

(2) John Palen; The Urban World; op. cit; p. 404.

وخلال سنوات الثورة الصينية واجهت شانغهاى ــ شأنها شــأن المدن الأخرى ــ صعوبات بالغة فيما يتعلق بالاسكان • إذ أن سنوات الحرب والدمار لم تترك للفقراء سوى أكواخ صغيرة على طول شوارع المدينة • غير أن الثورة الصينية ما لبثت أن قامت بحركة تعمير واسعة النطاق • وعلى الرغم من أن المساكن الصينية مازالت تعانى من الازدحام ، الا أنها تتميز بالنظافة بسبب صيانة سكانها لها • ويستطيع كل سكان شانغهاى الحصول على المياه النقية والكهرباء ، كما أن الاسرة الصينية فى هذه المدينة لاتدفع أكثر من ربع دخلها كايجار للمسكن الذى تعيش فيه[1] •

أما بكين فقد ظلت عاصمة للصين لفترة طويلة متصلة ترجــع الى سنة ١٢٦٧ ميلادية ، حيث تشغل مساحة تصل الى أربعة آلاف ميل مربع ويعيش فيها ما يربو على ستة ملايين نسمة[2] • وتمثل المدينة مزيجا من أحياء قديمة ، وأخرى بالغة الحداثة • أما ضواحيها فتشكل مجموعة من الكوميونات الريفية (المزارع الجماعية) التى تنتج الغــذاء الضرورى لسكان المدينة • وخلال السنوات الاخــيرة أقيمت مصــانع عديدة على الاطراف الشرقية والجنوبية من بكين • وبسبب قلة السيارات الخاصــة تحاول الحكومة الصينية اقامة المساكن العمالية بالقرب من المصانع • وفى بكين وحدها أكثر من مليون ونصف دراجة يستخدمها السكان فى تنقلاتهم اليومية • وتعيش الاسرة الصينية المكونة من أربعة أو خمســة أشخاص فى مسكن مؤلف من حجرتين أو ثلاثة ، كما تستطيع الحصول على المياه الجارية والكهرباء • وتشير معظم الدراسات الحديثة التى تناولت النمــو الحضرى فى الصين الى أن هذه الدولة لم تشهد خــلال السنوات الاخيرة « أزمة حضرية » من تلك التى عرفتها الدول النامية الاخرى • فعلى سبيل المثال لم تعرف المــدن الصينية مشكلة البطالة التى عانت ــ ومازال ــ

---

(1) Martin Richman; Industrial Society in Communist China; New York; Random House; 1969; p. 57.

(2) H. Ando; Peking; New York; 1968; p. 41.

منها المدن الهندية • كذلك فان المدن الصينية لم تعد تعرف الفوارق الطبقية الصارخة التى كانت أحد ملامحها الاساسية قبل الثورة • وفضلا عن ذلك تشير كل التقارير الحديثة التى تتناول الصين الى ان الغالبية العظمى من السكان يحصلون على الطعام الضرورى والمسكن الملائم ، وأن المدن تتميز بالنظافة والنظام • كذلك فان المدن الصينية لا تعرف كثيرا من المشـكلات الحضرية الشائعة فى مدن الدول النامية والدول الغربيـة على السـواء كالجريمة والتسول والاغتصاب والسرقة والبغاء •

أما اليابان فانها تعبر عن واقع حضرى فريد فى قارة آسيا • ولعل السبب الرئيسى فى ذلك هو أن اليابان تعد واحدة من الدول الصناعية المتقدمة، وأنها بذلك وان كانت تنتمى الى آسيا مكانيا الا أنها تنتمى الى أوربـا الغربية وأمريكا الشمالية اقتصاديا وصناعيا • فاليابان — اذن — هى فى آسيا ، لكنها ليست منها • هى بريطانيا الشرق الاقصى كما يقال ، وهى تكاد تكون الدولة الآسيوية الوحيدة التى لم تخضع لخبرات استعمارية مباشرة • أما التقدم الاقتصادى الذى حققته اليابان منذ منتصف القرن التاسع عشر تقريبا فيعود الى الدور الذى لعبته الصفوة الحاكمة من أجل حشد كل الموارد الاقتصادية وتوجيهها نحو التصنيع[1] • ولقد لجأت حكومة الميجى Meiji التى تولت مقاليد الحـكم فى اليابان منذ سـنة ١٨٦٩ الى الفلاحين ففرضت ضرائب باهظة عليهم ، مما أدى بعد ذلك الى تحقيق فائض اقتصادى كان بمثابة نقطة انطلاق نحو حركة تصنيع واسعة النطاق • وخلال فترة حكم أسرة الميجى حققت المـدن اليابانية نمـوا سكانيا ملحوظا • فطبقا لتعريف الحضر فى اليابان (الوحدات التى يزيد عدد سكانها عن ١٠٫٠٠٠ نسمة) ، زادت نسبة السكان الحضريين اليابانيين

(1) William Lockwood; The Economic Development of Japan; Princeton University Press; 1954; p. 521.

وأنظر أيضا السيد الحسينى ، « اتجاهات علم الاجتماع فى فهم مشكلات الدول النامية » فى : السيد الحسينى وآخرين ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ص ١٢٦ وما بعدها •

من ٢٢٫٩٪ فى سنة ١٨٨٨ الى ٣١٫٩٪ فى سنة ١٩١٨ حتى وصلت الى ٤٩٫٩٪ فى سنة ١٩٤٠ • ومعنى ذلك أن عدد السكان الحضريين فى اليابان قد زاد من خمسة ملايين نسمة الى ٣٧ مليون نسمة خـلال نصف قرن تقريبا • وخلال تلك الفترة شهدت اليابان توازنا ملحوظاً بين نمـو الفائض الاقتصادى الزراعى وزيادة أحجام المدن[1] • وبنشوب الحرب العالمية الاولى اضطرت الحكومة اليابانية الى طرح كثير من المصانع فى شكل أسهم يمكن للافراد شرائها وتبادلها • وفيما بين سنتى ١٩٢٠ ، و١٩٤٠ تضاعف عدد سكان طوكيو والمدن اليابانية الرئيسية الاخرى • غير أن هذا النمو السكانى الحضرى كان موازيا لنمو صناعى حضرى بدا أوضح ما يكون فى اتساع نطاق حركة التصنيع وزيادة عدد العمال الصناعيين • وربما ساعدتنا مقارنة اليابان بالهند على توضيح بعض القضايا التى نثيرها فى هـذا السياق • فخلال قرن من الزمان (منذ سبعينيات القرن التاسع عشر) حققت اليابان نموا اقتصاديا هائلا لم تستطع الهند تحقيق حده الادنى • كذلك فان المدن اليابانية قد نمت نموا وطنيا طبيعيا ، بينما خضعت المدن الهندية للتغلغل الاستعمارى مما كان له أكبر الاثر على تطوراتها اللاحقة • وأخيرا فان المدن اليابانية قد احتلت مكانة بارزة داخل البناء الاجتمـاعى اليابانى ، ليس فقط بسبب ارتفاع نسبة اليابانيين المقيمين فيها ، بل أيضا بسبب الدور الحضـارى الذى لعبته هذه المدن على المستويين الاقليمى والقومى ، وهو الامر الذى طالما افتقدته المـدن الهندية بسبب طابعها الطفيلى الذى هو أحد مخلفات الاستعمار البريطانى •

وتعرف اليابان نمطـا من المـدن يطلق عليه « مـدن القـلاع » castle-towns • وعلى الرغم من أن هذه المدن قديمة النشأة نسبيا ، الا أنها قد ظلت محافظة على أحجامها المتوسطة • هى بعبارة أخرى « الطبقة

---

(1) Irene Taeuber; «Population and Labor Force in the Industrialization of Japan»; in Simon Kuznets and Wilbert Moore (eds.) Economic Growth : Brazil; India and Japan; Durham; 1955; p. 325.

الوسطى من المدن اليابانية » • وتعد طوكيو وأوساكا حالتين فريدتين من « مدن القلاع » التى حققت نموا سكانيا ضخما[١] • ومع أن كثيرا من المدن اليابانية قد تحولت الى مراكز صناعية ضخمة ، الا أنها قبل التصنيع قد لعبت دورا تجاريا هاما فى بداية الأمر وحرفيا فى وقت لاحق • ولقد أوضحت بيانات الامم المتحدة (١٩٧٠) أن نسبة السكان الحضريين فى اليابان قد وصلت الى ٧٢٫٤٪ ، وأنها بذلك تماثل الولايات المتحدة فيما يتعلق بمعدل التحضر[٢] • كذلك فان السكان الحضريين فى اليابان يميلون الى التركز الشديد • اذ يعيش ٤٥٪ من مجموع السكان فيما لا يزيد عن ١٪ من مساحة اليابان • وتشير البيانات السكانية الى أن ٢٤٫٥٪ من مجموع السكان اليابانيين يعيشون فى مدن يزيد حجمها عن مليون نسمة • وخلال القرن العشرين شهدت اليابان نمــوا ملحوظا فى ضــواحى مدنها الكبرى ، ثم ازداد هذا النمو شدة بعد الحرب العالمية الثانية وما نجم عنها من « تخريب حضرى » • واذا ما استشهدنا بمدينة أوساكا ، لاحظنا أن أكثر من ٤٠٪ من وحداتها السكنية قد تعرضت للتخريب والدمار بسبب الهجمات الجوية التى كانت تشنها عليها طائرات الحلفاء • وعلى الرغم من أن نسبة كبيرة من السكان الحضريين يملكون السيارات ويستخدمونها فى رحلاتهم للعمل ، الا أن الســكك الحديدية (من الضواحى الى المدينــة وداخل المدينة ذاتها) ماتزال تستخدم على نطاق واسع من جانب الطبقتين الوسطى والدنيا •

وتضم اليابان أكبر منطقة ميتروبوليتانية فى العالم هى طوكيــو ــ يوكوهاما حيث يعيش فيها أكثر من ٢٠ مليون نسمة • ومنــذ منتصف خمسينيات القرن العشرين وطوكيو تضيف الى منطقتها الميتروبوليتانية حوالى ٢٧٥٫٠٠٠ شخص سنويا • أما ثلاثة أرباع هذا الرقم فتمثل الهجرة

---

(1) Norton Ginsburg; «Urban Geography and Non-Western, Areas; in P. Hauser and Leo Schnore (ed.); op. cit; p. 323.

(2) The World Population Situation in 1975; United Nations; New York; 1971; p. 64.

اليها من مختلف مناطق اليابان • والواقع أن « مجمع طوكيو ــ يوكوهاما » لا يشكل فقط أكبر منطقة حضرية ممتدة فى العالم ، بل إنه أكثر المناطق الحضرية فى العالم ازدحاما وتلوثا • فتلوث الهواء قد تحول الى مشكلة بيئية خطيرة بسبب ارتفاع معدلات الوفيات الناجمة عنه • ومثل هذا يقال أيضا عن تلوث المياه بسبب التخلص من فضلات الصناعات فى مياه المحيط المحيطة بالجزر اليابانية • أما ازدحام المواصلات وتعقد شبكات المرور فقد أصبحا من أهم ملامح المدن اليابانية الحديثة • ففى طوكيو ــ مثلا ــ وصل زحام السيارات فى الطرق العامة حدا لا تكاد تعرفه مدينة معاصرة • كما أن الدراسات الحديثة التى تناولت المشكلات الحضرية فى اليابان قد أوضحت أن المدن تعانى من أزمات حادة فيما يتعلق بالاسكان والخدمات العامة • وخلال السنوات الاخيرة تم ردم أجزاء من خليج طوكيو وتخصيصها لاقامة المنشآت الصناعية • أما بقية الجزر التى ماتزال باقية داخل الخليج فقد أصبحت مستودعا لمخلفات المدينة ، مما أدى الى عواقب بيئية وخيمة[1] •

والواقع أن المشكلات التى تعانى منها المدن اليابانية هى مشكلات « غربية » أكثر منها « آسيوية » • ذلك ان المدن اليابانية تنتمى الى المدن الصناعية المتقدمة ، وتعانى ــ بالتالى ــ من مشكلات « ما بعد الصناعة »، كما أن معدل التحضر فى اليابان لا يعبر عن آسيا بقدر ما يعبر عن أوربا الغربية وأمريكا الشمالية • ويبدو أن كثيرا من المشكلات الحضرية التى تعانى منها اليابان جاءت نتيجة للقرار الذى اتخذه اليابانيون بعد الحرب العالمية الثانية ، ذلك القرار الذى طالب بجعل اليابان أمة صناعية « مصدرة » مرتبطة بالعالم الحر • ولم تهتم الحكومة اليابانية ــ بسبب

---

(1) R. B. Hall; «The Cities of Japan : Notes on Distribution and Inherited Forms» in P. Abrams and E. Wrigley (ed.) Towns in Societies; Cambridge University Press; 1978; p. 140.

هذه الرغبة المحمومة فى التصنيع ــ بتطوير هياكلها الحضرية (النقل والمياه والمجارى والاسكان ... الخ) • فحتى سنة ١٩٦٢ لم يكن نظام الصرف الصحى قد شمل كل أنحاء مدينة طوكيو بحيث أن أكثر من مليون ونصف من سكانها كانوا يتخلصون من فضلاتهم بطريقة بدائية للغاية لا تتسق تماما مع واقع مجتمع صناعى ــ حضرى • وبرغم ذلك كله فان الواقع الحضرى اليابانى ليس قاتما تماما[1] • فاذا كانت اليابان تعانى من مشكلات حضرية حادة ، فانها تمتلك أيضا من الموارد ما يمكنها من مواجهتها ، ذلك أنها (أى اليابان) تمتلك التكنولوجيا والكفاءات الفنية والموارد المالية التى تمكنها من النهوض بمدنها الحالية واقامة أخرى جديدة ، كما أن هناك من الشواهد ما يشير الى أن الحكومة اليابانية قد بدأت خلال السنوات الاخيرة تولى الاستثمارات الاجتماعية الحضرية أهمية كبيرة • ويكاد ينطبق ذلك على بعض الدول الآسيوية الصغيرة التى تمثل « جيوبا غربية » داخل آسيا كما هو الحال بالنسبة لهونج كونج وسنغافورة •

وفى ختام مناقشتنا يمكننا تناول مدن جنوب شرق آسيا • ولعل أول ما يمكن أن يقال فى هذا المجال هو افتقاد هذه المدن لطابع مميز فريد • فهى اما ذات طابع صينى أو ذات طابع أوربى أو أنها تجمع بنسب مختلفة بينهما • والواقع أن تاريخ جنوب شرق آسيا ليس « تاريخيا حضريا » ، كما أن معدلات التحضر قد ظلت منخفضة لفترة طويلة • فمن بين ٢٢٠ مليون نسمة يعيش ٢٥ مليون فقط فى مناطق حضرية • على أننى لا أقصد بذلك القول بأن منطقة جنوب شرق آسيا خالية من المدن الكبرى • إن عكس ذلك هو الصحيح تماما • فلقد أنشأ المستعمرون الاوربيون عددا من المدن الساحلية التى كتب لها ــ فيما بعد ــ النمو والازدهار كما هو الحال بالنسبة لبانكوك فى تايلاند ، وان كنا لا نلحظ ذلك تماما بالنسبة لبعض المدن الاخرى كما هو الحال بالنسبة لجاوة فى أندونيسيا ، حيث ظل

---

(1) John Palen; The Urban World; op. cit; p. 410.

المستعمرون الهولنديون يقاومون نموها • وتتميز مدن جنوب شرق آسـيا بحداثة نموها ، برغم أنها قد تطورت من خلال « نويات حضرية » قديمة نسبيا[1] • وعلى أية حال فان عمر كثير من هذه المدن لا يزيد عن قرن الا بالكاد • وتنقسم معظم هذه المدن الى أحياء « غربية » وأخرى « وطنيه »• أما الاحياء الغربية فهى الاحياء التجارية الهامة ، بينما تظل الاحيـاء « الوطنية » محافظة على طابعها التقليدى الذى نكاد نلمسه فى بقية المدن الآسيوية • ومن الملامح العامة المميزة لمدن جنوب شرق آسيا الجماعات العنصرية أو العراقية التى تكاد تعيش فى أحياء مستقلة ، وان كانت الاحياء الصينية هى أبرزها وأهمها • ولعل ذلك يفسر تركز الحياة التجارية لهذه المدن داخل الاحياء الصينية • واذا كانت هذه المدن تشترك مع بقية مدن آسيا فى جاذبيتها للمهاجرين وظهـور أحياء واضعى اليد على أطرافها ، الا أنها لا تعرف الاتجاه نحو الضواحى بسبب تخلف شبكات المواصلات والنقل[2] • وتشترك مدن جنوب شرق آسيا مع بقية المدن «النامية» فى كثير من مشـكلاتها الحضرية • فعلى أطرافها تنمـو أحيـاء « الصـفيح » و « الخشب » و « الكرتون » وكل ما هو متاح من مواد بناء مؤقتة • ففى مانيلا تتخذ هذه المشكلة وضعا حادا• إذ تضم هذه المدينة أكثر من١٣٠ر٠٠٠ نسمة يعيشون فى أحياء واضعى اليد وهو رقم يكاد يشكل ربع عدد سكان المدينة • وتمتد هذه الاحياء لمسافة أربعين كيلو مترا على حدود مانيـلا تتخللها أكوام الفضلات والبرك الآسنة • وحينما تهب عاصفة قوية تكاد تختفى معها معالم هـذه الاحياء ، ثـم ما تلبث أن تتعرض للطمس اذا ما تعرضت لفيضانات كاسحة •

وتعد سايجون حالة معبرة عن مدن جنوب شرق آسيا • اذ يرجـع التاريخ الحضرى لهذه المدينة الى سنة ١٨٥٩ ، حينما استولى الفرنسيون

---

(1) Norton Ginsburg; «Urban Geography and Non - Western Areas; in P. Hauser and Leo Schnore; op. cit; p. 332.

(2) Norton Ginsburg; «The Great City in Southeast Asia»; American Journal of Sociology; 60; 1955; p. 459.

على موقعها الذى لم يكن يتجاوز عدة أكواخ تسكنها مجموعة من الاسر الوطنية • وعلى هذا الموقع أقام الفرنسيون مدينة سايجون لتكون عاصمة ادارية يديرون من خلالها شئون البلاد • وما لبث الحى الصينى أن حقق نموا مصاحبا لنمو المدينة بوجــه عام ، حتى أصبح ـ بمرور الوقت ـ مركزا تجاريا • ومعنى ذلك أن سايجون قد أصبحت العاصمة الاستعمارية التى كانت تدير من خلالها فرنسا تلك المنطقة الصينية التى عرفت فيمـا بعد باسم فيتنام • وخلال تلك الفترة تطورت أحياء الفرنسيين واتخـذت الملامح الغربية ، بينما ظلت الاحياء الصينية تعكس الطابع الآســيوى التقليدى • وفى سنة ١٩٣٢ ضم الفرنسيون أحياءهم وأحياء الصينيين فى اطار ادارى واحد • وقبل الحرب العالمية الثانية مباشرة أصبحت الغالبية العظمى من ســكان سايجون من الصينيين[1] • ففيما بين سنتى ١٩٤٠ و ١٩٥٣ ازداد عدد السكان الصينيين فى سايجون من ٣٠٠٫٠٠٠ نسمة الى ١٫٤٠٠٫٠٠٠ نسمة • غير أن الحروب المستمرة التى خاضتها فيتنام قد أدت الى زيادة معدلات الهجرة من المناطق الريفية الى سايجون ، حتى وصل عدد سكان المدينة فى سنة ١٩٦٧ الى ثلاثة ملايين نسمة • ولقــد أصبحت سايجون بذلك واحدة من أكثر مدن العالم ازدحاما ، كما أنها تعــد مثالا جيدا على المشكلات الحضرية التى تعانى منها الدول النامية بوجه عام • فعلى أطرافهــا تتمدد أحيــاء « الخشب » و « الكرتــون » التى كثيرا ما تتعرض للحرائق • ومانزال نتذكر حتى الآن ذلك الحريق الرهيب الذى شب فى هذه الاحياء فى منتصف الستينيات موديا بحياة أكثر من ٣٠٫٠٠٠ فيتنامى • أما عن تأثير التدخل الامريكى فى فيتنام وانعكاساته الحضرية فلا يحتاج منا لاكثر من عبارة واحدة هى : التدمير الحضرى •

(1) John Palen: The Urban World; op. cit; p. 411.

الفصل السابع

أفريقيــــا

بفضل حضارة وادى النيل عرفت أفريقيا أقدم المراكز الحضريـــة التى شهدها العالم[1] • فمنذ أكثر من خمسة آلاف عام أقام المصريون عددا من المراكز الحضرية التى كان لهـــا أكبر الأثر فى تدعيم السيطرة السياسية التى كانت تمارسها الحكومة على مختلف أنحـــاء البلاد • ومن ممفيس الى تل العمارنة ظهرت مجموعة من العواصم السياسية التى مانزال نشاهد أطلالها حتى الآن • وتشير الشواهد الاركيولوجية الى أن المدن المصرية التى ظهرت فى دلتا النيل قد اتخذت بناءات اجتماعية تعكس قدرا كبيرا من التخصص المهنى • فبالاضافة الى الصفـــوة الحاكمة ضمت المدن جماعات عديدة من بينها : رجال الدين ، والتجار ، والصناع ، وأصحاب المحلات ، والموظفين الاداريين • وحوالى سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد بدأت بعض المراكز التجارية الصغيرة المحدودة تنمـــو على الشاطى الشمالى لافريقيا بفضل النشاطات التجارية التى كان يقوم بها الفينيقيون على طول ساحـــل البحر المتوسط ، والتى استمرت لقرن كامل تقريبا • وباحتلال الرومان لقرطاجة فى سنة ١٤٦ قبل الميلاد ســـاد « السلام الرومانى » لسبعة قرون كاملة •ولقد كان الرومان هم أول من استغلوا افريقيا على نطاق واســـع وزرعوا فيها بعض النويات الحضرية على طول شاطئهـــا الشمالى • واذا كان الرومان قـــد حطموا قرطاجه ، الا أنها ما لبثت أن

---

(١) سنقتصر معالجتنا فى هذا الفصل على المدن فى افريقيا جنوب الصحراء وشمال افريقيا . أما المدن المصرية والليبية فسنتناولها فى الباب التالى الـــذى سنخصصه لمناقشـة المدن فى منطقة الشرق الاوسط . واذا كنا نشير هنا الى الدور الذى لعبته حضارة وادى فى نشـــأة المدن فى افريقيا ، فان ذلك بهدف ابراز الملامح التاريخية للتحضر فى هذه القارة .

حققت ازدهارا ملحوظا فى فترة لاحقة حتى وصل عدد سكانها الى حوالى ١٠٠,٠٠٠ نسمة[1] • على أن المراكز الحضرية التى أقامها الرومان على الساحل الشمالى لافريقيا كانت بمثابة وسيلة للسيطرة السياسية علــى المناطق الافريقية الداخلية • وفى أواخــر القرن الخامس الميــلادى فقد الرومان سيطرتهم على المدن الافريقية الساحلية الشمالية ، مما أدى الى انكماش التجارة وانهيار الثقافة الحضرية التى كانت قد حققت قدرا من الازدهار • وخلال القرن السابع الميلادى وصــل العرب من شبه الجزيرة العربية الى الشاطىء الشــمالى الافريقى • وعلى الرغم من أن المراكز الحضرية الافريقية الشمالية لم تحقق نمــوا مباشرا بعد الفتح الاسلامى ، الا أنها ما لبثت خلال القرنين الثامن والتاسع أن تحولت الى موانى تجارية ضخمة ، محققة بذلك بداية فترة طويلة متصلة من الازدهار الحضرى •

واذا ما اتجهنا نحو افريقيا جنوب الصحراء وجدنا عددا من الممالك القديمة التى كانت تعتمد فى سيطرتها على مجموعة من العواصم المركزية • وفى معظم الاحيان كانت هذه العواصم تعتمد فى نموها على مدى انتعاش تجارة الذهب والعاج والجلود • وهنا يتعين الاشــارة الى المكانة التى حققتها مدن غرب السودان خلال فترة مبكرة نسبيا وعلى الاخص بعــد الفتوحات الاسلامية • فعلى ضفاف نهر النيجــر ظهرت مدينة تيمبوكتو Timbuktu التى كانت تشــكل مركزا ثقافيا هاما • وبتوغلنا جنوبا يمكننا أن نجد عددا من المراكز الحضرية القديمة نسبيا مثل كانو وكاتسينا وباماكو وسيجو • كذلك فان بعض هذه المراكز قد حققت نموا سكانيا ملحوظا كما هو الحال بالنسبة لمدينة أوكوماسى • وفيمــا بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر نمت بعض مدن غرب أفريقيا نموا واضحا من أمثال ســان لويس ومونروفيا ولاجوس وفريتاون وداكار وأكرا • ومازال هذه المدن تحمل حتى الآن بصمات الماضى ســواء فيما يتعلق بخططها الحضرية أو

---

(1) Peter Gutkind; Urban Anthropology; Van Gorcum & Comp. B. V - Assen; The Netherlands; 1974; p. 12.

ثقافاتها الوطنية • وعلى الشاطىء الشرقى من أفريقيا ظهرت بعض علامات التركز الحضرى فى فترة مبكرة نسبيا ، على الرغم مـن أن البحـوث الاركيولوجية لم تتوصل حتى الآن الى أهم نتائجها فى هذا المجال • لقد ظل هذا الشاطىء الشرقى لفترة طويلة ملتقى لشعوب جنوب غرب آسيا والهند وربما الشرق الاقصى أيضا • أما أهم الموجات السكانية التى تعرض لها هذا الشاطىء فكانت تلك الموجات العربية الاسلامية التى تدفقت عليه خلال القرن السابع الميلادى[1] • ولقد فضـل كثير من الفاتحين العرب الاقامة الدائمة على هذا الشاطىء حيث استطاعوا ممارسة التجارة على نطاق واسع بما فى ذلك تجارة العبيد • وربما كان ذلك أحد أسباب تنـوع الاصول الاثنولوجية لسكان شرق أفريقيا حيث نجـد كثيرا من الملامح العربية والافريقية والهندية[2] •

والواقع أن كثيرا من معلوماتنا الحالية عن المدن الافريقية القديمة قد تم التوصل اليها خلال العقود القليلة الماضية • ولا نستطيع هنا تجاهل الدور الذى لعبه الاستعمار فى هذا المجال • فلقد حال دون نمـو المـدن الافريقية بحجة أن العقلية الافريقية ليست « عقلية حضرية » • وربما كان ذلك هو السبب الذى دفع جمال حمدان الى القول بأن العواصم التاريخية (أو القديمة) تكاد تكون مقصورة على أفريقيا العربية ، وأن العواصم الوطنية (التى ظهرت خلال العصور الوسطى) لم تكن أكثر من همزة وصل بين العواصم التجارية والعواصم التى أقامتها القوى الاستعمارية[3] • وتميل بعض الدراسات الى تأكيد الدور الافريقى الخالص فى نشأة التحضر

---

(1) R. Oliver and G. Mathew (eds.); History of East Africa; Oxford; 1963.

(2) J. L. Gibbs (ed.); Peoples of Africa; New York; 1965 p. 90.

(3) G. Hamdan; «Capitals of the New Africa»; in G. Breese; (ed.) The City in Newly Developing Countries; Princeton University Press; 1972; pp. 146-161.

الافريقى[١] • فعلى سبيل المثال تحولت تيمبكتو (التى لا يزيد عدد سكانها الآن عن ٦٠٠٠ نسمة) الى مدينة ضخمة ، وان كان ذلك لم يستمر إلا لفترة محدودة • وربما كانت الاسكندرية هى أقدم مدن شمال أفريقيا • اذ ظلت لعدة آلاف من السنين محافظة على طابعها وتقاليدها الحضرية • واذا كان الاسكندر الاكبر قد منحها اسمها الحالى فى سنة ٣٣٢ قبل الميلاد ، الا أن المدينة ذاتها كانت قد نشأت قبل ذلك بأكثر من ألف عام • ويبدو أن الاسلام قد لعب الدور الحاسم فى استمرار نمو بعض المدن الافريقية • فالملاحظ أن المدن التى نشأت مع الفتح الاسلامى هى تلك التى تمكنت من الاستمرار فى الوجود حتى الآن كما هو الحال بالنسبة لفاس والجزائر فى الشمال وكانو فى شمال نيجيريا • أما مدن اليوروبا التى ظهرت فى جنوب غرب نيجيريا فلم تعمر طويلا ، بينما نجد مدنا مثل مقديشيو (الصومال) وممباسا (كينيا) قد استمرت فى النمو لفترة طويلة بسبب انتعاشها كمراكز تجارية اسلامية •

ولقد كان البرتغاليون من أوائل الاوربيين الذين وطأوا أرض أفريقيا جنوب الصحراء • فخلال القرن السادس عشر أسسوا عددا من المستعمرات الاوربية على السواحل الافريقية • وكانت هذه المستعمرات أقرب ما تكون الى القلاع التجارية الحصينة التى تقوم بجمع المحاصيل الزراعية وتكديس المواد الخام ثم شحنها بعد ذلك الى أوربا • بيد أن جهود البرتغاليين من أجل التوسع داخل أفريقيا قد باءت بالفشل • فاذا كانوا قد نجحوا فى التوغل داخل الحبشة بفضل بعثاتهم التبشيرية وقوافلهم التاريخية ، الا أنهم ما لبثوا أن ردوا على أعقابهم[٢] • ومن

---

(1) A. L. Mabogunjie; «The Pre-colonial Development of Yoruba Towns;» in D. J. Dwyer (ed.) The City in the Third World; The Pitman Press; London; 1974; pp. 56-35.

(٢) يمكننا أن نجد تحليلا تاريخيا ضافيا للتوسع البرتغالى فى أفريقيا فى جمال حمدان ، استراتيجية الاستعمار والتحرير ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٩ •

المحقق ان الاوربيين قد ظلوا حتى القرن التاسع عشر غير حريصين على اقامة مراكز حضرية دائمة ومتطورة • وخلال الربع الاخير من ذلك القرن بدأ الاوربيون فى التعجيل بالسيطرة الفعلية على أفريقيا • إذ أندفع البريطانيون والفرنسيون والالمان والبلجيك صوب هذه القارة فاقتسموها وحولوها الى مستعمرات تابعة لهم • لذلك فان المدن الافريقية التى نعرفها الآن كانت نتيجة لانجازات هذه الحقبة الاستعمارية • إذ بدأت كل مستعمرة من المستعمرات الافريقية تحرص على وجود عاصمة ادارية — سياسية تعبر عنها • واذا ما تتبعنا تواريخ نشأة هذه المدن ، وجدنا معظمها فى تلك الفترة (أى الربع الاخير من القرن التاسع عشر) : أكرا (١٨٧٦) ، أبدجان (١٩٠٣) ، برازفيل (١٨٨٣) ، كنشاسا (١٨٨١) ، كامبالا (١٨٩٠) ، نيروبى (١٨٩٩) ، جوهانسبيرج (١٨٨٦) • وتكاد تكون كل المدن الافريقية التى ظهرت خلال تلك الفترة ذات نشأة استعمارية باستثناء مدينتين ذات طابع وطنى هما : أديس أبابا (١٨٨٦) وأم درمان (١٨٨٥)• وعلى الرغم من ذلك كله فان معظم المدن الافريقية المعاصرة قد نشأت خلال القرن العشرين ، ذلك أن الزيادة الكبيرة فى عدد السكان الحضريين فى أفريقيا جنوب الصحراء لم تتم الا منذ ثلاثة عقود تقريبا • وحتى نشوب الحرب العالمية الثانية كانت معظم المدن الافريقية صغيرة الحجم نسبيا • فاذا ما استشهدنا بنيروبى — التى تعد واحدة من المدن الافريقية الحديثة — وجدنا أن عدد سكانها فى سنة ١٩٢٠ لم يكن يزيد عن ٢٠٫٠٠٠ نسمة ، ثم ارتفع الى ٣٣٫٠٠٠ نسمة فى سنة ١٩٣٠ • وما لبث عدد السكان أن حقق قفزة كبيرة فى الخمسينيات حتى وصل الى ٢٠٠٫٠٠٠ نسمة • أما الآن فقد وصل عدد سكان المدينة الى أكثر من ٦٠٠٫٠٠٠ نسمة • ويكاد ينطبق هذا النمط من النمو الحضرى على كثير من المدن الافريقية الاخرى[1] •

---

(1) John Palen; The Urban World; McGraw-Hill Book Company; New York; 1972; p. 359.

ولقد بذل بعض الباحثين جهدا كبيرا من أجل التمييز بين أنمـاط المدن الافريقية واستخدموا فى هـذا المجال معايير ثقافية وقبلية ودينية واقتصادية • غير أننى أميل الى التمييز بين نمطين أساسيين من المـدن الافريقية : مدن وطنية أقامها الافريقيون ، ومـدن استعمارية غربيـة أسسها الاوربيون • وعلى الرغم من أن هذا التمييز قد لا يكون دقيقا فى بعض الحالات الخاصة التى يختلط فيها الاوربيون بالافريقيين ، الا أنه قد يصلح للتفرقة بين نمطين حضريين بارزين • وتبدو المدن الوطنية أوضح ما تكون فى شمال أفريقيا وغربها • وربما اعتبرت مدن اليوروبا من أشهر المدن ذات النشأة الافريقية • وتضم معظم هذه المدن أعدادا كبيرة نسبيا من السكان ، على الرغم مما يذهب اليه بعض الدارسين من أن هذه المـدن لا تعدو أن تكون تجمعات كبيرة من السكان الزراعيين ، أو ان شئنا الدقة مجموعة قرى متجاورة • ويطلق على هذه التجمعات مسميات عـديدة من بينها : « المـدن الريفية » أو « القرى المتحضرة » • أمـا البنـاء الايكولوجى للمدينة الافريقية الوطنية فلا يعكس قـدرا كبـيرا مـن التباين[1] • ففى وسطها يقع السوق المركزى الذى غالبا ما يكون ساحة ضخمة مفتوحة من كل الجهات ، خالية تقريبا من المحلات المتخصصة التى تتخذ مواقع دائمة • وعلى مقربة من السوق يوجد قصر الرئيس أو الامير الحاكم • واذا ما كانت المدينة الوطنية ذات طابع اسلامى ، فان المسجد غالبا ما يقع فى وسطها • وحول هذا الوسط تنتشر مساكن كبار الموظفين والاعيان • ويكاد يتمتع كل حى من أحياء المدينة الوطنية بقدر كبير مـن الاستقلال • ومن الطبيعى أن تلعب الانتماءات القبلية والدينيـة دورا هاما فى تحديد الطابع الايكولوجى للمدينة • فالاسوار والبوابات تفصل ـ فى كثير من الاحيان ـ الاحياء عن بعضها البعض • أما الشـوارع فلا تكاد تسمح الا بمرور الانسان والحيوان بسبب ضيقها وتعرجها • ومن

(1) A. L. Epstein; «Urban Communities in Africa»; in M. Gluckman; (ed.); Closed Systems and Open Minds : the Limits of Naivety in Social Anthropology; Chicago; 1964; pp. 83-102.

النادر أن تضم مساكن هذه المدينة الوطنية أكثر من طابقين ‍• أما مواد بناء المساكن فهى محلية وبدائية الى حد كبير • وحينما بدأت القوى الاستعمارية تفرض سيطرتها على هذه المدن الوطنية ، ظهرت مناطق ادارية ذات طابع غربى ، مما أدى الى شق بعض الطرق الرئيسية التى كان يجب أن تتخلل الاحياء القديمة • أما المناطق التى كان يقيم فيها الاوربيون فكانت منفصلة تماما عن تلك التى يقيم فيها الوطنيون • غير أن مناطق الاوربيين ما لبثت أن تحولت بمرور الوقت الى أحياء تجارية حديثة(١) •

أما المدن الافريقية ذات النشأة الاوربية الاستعمارية فتختلف — فى كثير من الوجوه — عن المدن الافريقية ذات النشأة الوطنية • فالمدن الاولى تبدو وكأنها صورة مصغرة من المدن الغربية سـواء من حيث خططهـا الايكولوجية أو تنظيمها الاجتماعى • ففى أكرا — مثلا — تعيـد مساكن الاوربيين الى أذهاننا الفن المعمارى الذى سيطر على بريطانيا فى عصرهـا الفيكتورى • وتكاد تكون هذه المدن مخصصة للاغراض السكنية للاوربيين ، حتى أن الافريقيين لا يملكون حق التجول فيها ليلا • وفى وسط المدينة يقع الحى التجارى الذى يضم المحلات التجارية المتخصصة ، والهيئات الادارية الاستعمارية ، فضلا عن الفنادق والبنوك • أمـا الاحياء التى يسـكنها الافريقيون فى هذه المدن ذات النشأة الاوربية فغالبا ما تقع على أطرافها ، بينما يضطر الافريقيون الذين يعملون داخل أحياء الأوربيين الى التوجـه اليها للعمل فى الصباح ثم يعودون الى مساكنهم النائية فى المسـاء(٢) • وتصل حالات التفرقة العنصرية « الحضرية » أقصاها فى دولة كجنـوب أفريقيا ، حيث نجد فصلا مكانيا واجتماعيا وثقافيا بين الاحياء التى يعيش فيهـا كل من الاوربيين والافريقيين والهنـود والملونين (ذوى الاعراق المختلطة) • ويكاد يكون العرق هو أحد المعالم الاساسية المميزة لـدن

---

(1) Krapf-Askari; Yoruba Towns and Cities; London; 1969.

(2) M. Freilich (ed.) Marginal Natives : Anthropologist at Work; New York; 1970.

جنوب أفريقيا • ففى ضوئه يتحدد التوزيع المكانى للمدن[1] • ومعنى ذلك أن الطبقة أو الثقافة تكاد تلعب دورا ثانويا فى هذا المجال اذا ما قـورن بالدور الذى يلعبه العرق •

وبرغم الاختلافات الملحوظة بين المدن الافريقية ، الا أن هناك وجوه شبه عديدة بينها لا يمكن تجاهلها • فمعظم هذه المدن حديثة النشأة بحيث لا يعود تاريخها لأكثر من قرن من الزمان • كما أن عددا كبيرا منها قد نشأ فى بداية الامر كمراكز استعمارية ادارية صغيرة من خـلالها يمكن السيطرة على موارد القارة وسكانها[2] • واذا كانت بعض المدن الافريقية مثل دار السـلام (تنزانيا) وسـان لويس (السنغال) ومونروفيـا (ليبيريا) نشأت فى فترة مبكرة نسبيا ، فان ذلك هو الاستثناء لا القاعدة • وهذا يعنى أن كثيرا من المدن الافريقية تفتقد التقاليد الحضرية الراسخة التى عرفتها بعض المدن الاخرى فى آسيا وأمريكا اللاتينية على نحو مارأينا فى الفصلين السابقين • وفضلا عن ذلك فان المـدن الافريقية تشترك فى خاصية عامة هى تنوع الاصول الاثنولوجية لسكانها • ففى بعض الاحيان قد تضم المدينة الواحدة عددا هائلا من الجماعات العرقية المتباينة • ومن شأن ذلك أن يؤثر على البناء الايكولوجى والتنظيم الاجتماعى فى المدينة الافريقية • أما الخاصية الديموجرافية التى تكاد تكون القاسم المشـترك الاعظم بين المدن الافريقية فهى ارتفاع نسبة الجماعات العمرية الشـابة بسبب ارتفاع معدلات الهجرة الريفية ـ الحضرية وانخفاض متوسطات الاعمار عموما • فمن المألوف أن نجـد أكثر من ٦٠٪ من سكان المدينـة الافريقية ممن تقل أعمارهم عن خمسـة وثلاثين عاما • ومن الصعب فى هذا الفصل القصير أن نناقش بالتفصيل النتائج الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المترتبة على اختلال البناء العمرى فى المـدن الافريقية • إلا أننا

---

(1) R. Rotberg and Mazrui (eds.) Protest and Power in Black Africa; New York; 1970.

(2) R. Dumont; False Start in Africa; New York; 1966.

نستطيع القول بأن مدننا شأنها هكذا لابد وأن تشهد جماعات عمرية شابة تتميز بمطامح عالية ، لكنها غالبا ما تفشل فى تحقيقها بسبب ضيق البنـــاء المهنى الحضرى ، وافتقاد أفراد هذه الجماعات للمهارات التى تمكنهم من تحقيق مطامحهم[١] • كذلك فان المدن الافريقية تشهد اختلالا موازيا فى التوزيع النوعى للسكان (ذكور ــ اناث) • إذ ترتفع نسبة الذكور ارتفاعا مذهلا ، مما يخلق بالتالى مشكلات اجتماعية وشخصية عديدة •

وتشهد أفريقيا تناقضا حضريا لافتا • فعلى الرغم من أنها أقل قارات العالم « تحضرا » اذا ما أخذنا فى الاعتبار نسبة السكان الذين يعيشـــون فى مدن يزيد حجمها عن ٢٠٫٠٠٠ نسمة ، الا أنها تشهد نموا حضريا يفوق ما تشهده بقية قارات العالم اذا ما أخذنا فى الاعتبار معدلات نمـــو السكان الحضريين خلال العقود الثلاث الماضية • ففى سنة ١٩٧٠ بلغت نســـبة السكان الافريقيين الذين يعيشون فى مدن يزيد حجمها عن ٢٠٫٠٠٠ نسمة حوالى ٢١٪ فى مقابل ١١٪ بالنسبة للذين يعيشون فى مدن يزيد حجمها عن ١٠٠٫٠٠٠ نسمة[٢] • وبرغم انخفاض هاتين النسبتين ، الا أن قـــارة أفريقيا قد شهدت فيما بين سنتى ١٩٦٠ و ١٩٧٠ نمـــوا سكانيا حضريا سريعا وصل الى ٤٫٧٪ • واذا كانت هذه النسبة تعبر عن معدل النمـــو الحضرى على مستوى القارة ، الا أننا نجـــد هذا المعدل بالنسبة لبعض المدن يصل الى مدى يتراوح فيما بين ٧٪ و١٠٪ • والواقع أن معدلات التحضر هذه تعد واحدة من أعلى المعدلات التى يشهدها عالمنا المعاصر • وفى سنة ١٩٧١ بلغ عدد سكان قارة أفريقيا ٣٥١٫٧٣٤٫٠٠٠ نسمة ، ومعدل

---

(1) S. Tangri; «Urbanization; Political Stability; and Economic Growth;» in J. Finkle and R. Gable (eds.) Political Development and Social Change; John Wiley & Sons; Inc; 1971; pp. 212 - 217.

(2) United Nations; The World Population Situation in 1970; 1971; p. 65.

زيادة طبيعية يصل الى ٢,٦٪ سنويا[١] • ولو افترضنا استمرار هـذا المعدل من الزيادة الطبيعية ، فان سكان أفريقيا سوف يتضاعفون قبـل سنة ٢٠٠٠ ميلادية • ويعود ارتفاع معدل الزيادة الطبيعية الى ارتفـاع معدل المواليد ، والانخفاض النسبى (برغم استمرار ارتفاعه) فى معـدل الوفيات • واذا ما استمر معدل الوفيات فى الانخفاض بنسبة أسرع من معدل المواليد ، فان نسبة الزيادة الطبيعية ستميل الى الارتفاع أكثر من ميلها الى الانخفاض • وباستثناء غانا وكينيا لا تكاد تعرف دول أفريقيا جنوب الصحراء أساليب تحديد النسل مما قد يعرض هذه القارة لانفجار سكانى محتمل •

وهناك اختلافات اقليمية واضحة فيما يتعلق بمعـدلات التحضر فى أفريقيا • ففى شمال أفريقيا (الجزائر والمغرب وتونس وليبيا) يرتفع معدل التحضر اذا ما قورن بمعدل التحضر فى جنوب الصحراء • إذ يتراوح هذا المعدل بالنسبة للدول الافريقية الواقعة على البحر المتوسط فيما بين ٢٠٪ و ٤٠٪ (طبقا لعدد السكان الذين يعيشون فى مدن يزيد حجمها عن ٢٠,٠٠٠ نسمة)[٢] • ومن اليسير تفسير ذلك فى ضوء الظروف التاريخية التى مرت بها هذه الدول الافريقية الشمالية • إذ أنها كانت أكثر احتكاكا بالحضارات المختلفة ، فضـلا عن مكانتها التجارية التاريخية التقليدية • واذا ما اتجهنا جنوبا وجدنا اما مناطق جبلية أو صحراوية لا تسـاعد على النمـو الحضرى • وفى غرب أفريقيا ووسطها نجـد معـدلات تحضر « متوسطة » (بالرغم من انخفاضها الشديد عن المعدلات العالمية) حيث تتراوح فيما بين ٥٪ و ٢٠٪ (طبقا لعدد السكان الذين يعيشون فى مـدن يزيد حجمها عن ٢٠,٠٠٠ نسمة) • أما المدن الكبرى فهى تلك التى تقع على

---

(1) United Nations Economic Commission for Africa; Demographic Handbook of Africa; Addis Ababa; 1971; p. 12.

(2) Gerald Blake; «Urbanization in North Africa : Its Nature and Consequences»; in D. Dwyer (ed.) The City in the Third World; Pitman Press; London; 1974; pp. 67-80.

الساحل أو فى منطقة يسهل الوصول اليها • وتعود نشأة معظم هـذه المدن الى الحقبة الاستعمارية • وربما كانت نيجيريا من بين دول عرب أفريقيا التى تمتلك مدنا ضخمة الحجم نسبيا • أما منطقة شرق أفريقيا فهى أقل مناطق القارة « تحضرا » • أما أعلى معدلات التحضر فى شرق أفريقيا فنجدها فى زامبيا حيث يصل المعدل الى ١٠٪[1] ، بينما لا يزيد هذا المعدل فى تنزانيا عن ٥٪ بالنسبة لمجموع السكان الحضريين و ٢ر٢٪ بالنسـبة لسكان المدن التى يزيد حجمها عن ٠٠٠ر١٠٠ نسمة • وتكاد تكـون حالة تنزانيا معبرة الى حـد ما عن الموقف الحضرى فى معظم أنحـاء شرق أفريقيا • أما التحضر الفريد الذى تتميز به أفريقيا فهو الـذى تعرفه جمهورية جنوب أفريقيا • إذ يصل المعدل فيها الى ٤٥٪ • والواقـع أن هذه الدولة وان كانت تنتمى الى أفريقيا جغرافيا ، الا أنها تنتمى الى أوربا الغربية ثقافيا وحضاريا إن لم نقل تحضرا • واذا كنا قد وجدنا فى جمهورية جنوب أفريقيا أعلى معدلات التحضر (٤٥٪) ، فاننا نجـد فى بوروندى أقل معدلات التحضر (٢ر٢٪) •

وخلال عقد الستينيات من هذا القرن حصلت ثلاثين دولـة أفريقية على استقلالها السياسى ، حيث بدت العواصم السياسية بالنسبة للقادة الافريقيين الوطنيين وكأنها خير معبر عن هذه الكيانات السياسية الجديدة • لذلك فان مفهوم « المدينة الاولى » يكاد ينطبق على أفريقيا أكثر من أية قارة أخرى • فالعواصم السياسية الافريقية تلعب أدوارا ثقافية وادارية وصناعية وتجارية بالغة الاهمية • ويكاد ينطبق ذلك على معظم المـدن الافريقية • ففى السنغال ــ مثلا ــ تضم داكار ١٦٪ من مجموع سكان الدولة ، بينما تستهلك ٩٥٪ من الطاقة الكهربائية التى تمتلكها البـلاد ، كما تضم ثلاثة أرباع العمال الصناعيين السنغاليين ، وأكثر من نصف عمال النقل والخدمات • وينطبق ذلك على لاجوس • فعلى الرغم من ان هـذه

---

(1) United Nations Economic Commission for Africa; World Population Prospects 1965-1980; Addis Ababa; 1969; pp. 56-57.

المدينة هى مجرد واحدة من المدن النيجيرية العديدة حيث تضم ١٪ من مجموع سكان الدولة ، الا أنهـا تحصل على ٤٦٪ من مجمـوع الطاقـة الكهربائية فى نيجيريا ، وتمتلك أكثر من ٥٦٪ من التليفونات وحـوالى ٣٨٪ من مجموع المركبات الآلية(١) • ويبدو أن « المدن الاولى » فى أفريقيا تؤثر تأثيرا سالبا على الريف المحيط بها ، على الرغم مما يذهب اليه بعض الدارسين من أن هذه المدن هى الاداة الاساسية للتنمية الاقتصادية فى أفريقيا بوجه عام • فاذا ما خرج المرء من هذه المدن ، واجه أدغال أفريقيا التى طالما صورتها الكتابات الادبية • ومعنى ذلك أن المـدن الافريقية لا تلعب دورا هاما فى « تحضير » الريف المحيط بها سـواء على المستوى الثقافى أو البنائى • ولقد أبدى بعض الدارسين المعاصرين اهتماما كبيرا بدراسة العلاقة بين نمو المدن الافريقية وظهور حركات الاستقلال الوطنى • وعلى الرغم من اتفاق هـؤلاء الدارسين على الـدور الذى لعبته المـدن الافريقية فى التعجيل بالحصول على الاستقلال ونمو النزعات القومية (٢)، الا أننا لا نستطيع تجاهل الدور الاستغلالى الذى مارسته هذه المدن على الريف الافريقى بوجه عام • وربما كان هذا الاستغلال الحضرى أكـثر وضوحا فى أفريقيا من أية قارة أخرى بسبب تخلفها الشديد اذا ما قورنت بأمريكا اللاتينية أو آسيا • وفى محاولة لتشخيص أبعاد التحضر فى أفريقيا أوضح وليام هانس Hance أن المدن الافريقية تتميز بمعـدلات عالية من النمو السكانى بسبب طوفان الهجرة الريفية اليها ، وارتفاع نسـب الزيادة الطبيعية ، مما أضعف العلاقة بين معدلات النمو السكانى الحضرى من ناحية ، ومعدلات النمو الاقتصادى من ناحية أخرى • كذلك فان زيادة معدلات التحضر فى أفريقيا لا ترتبط بتنمية ملحوظـة للمناطق الريفية ، مما يشجع على « الخروج الريفى » و « النمـو الحضرى » • وهذا يعنى

---

(1) William Hance; Population; Migration and Urbanization in Africa; Columbia University Press; New York; 1970; pp. 293-394.

(2) T. Hodgkin; Nationalism in Colonial Africa; Muller; London; 1956; p. 18.

أن علاقة المدينة الافريقية بظهيرها الريفى هى علاقة سيطرة اقتصـادية وبشرية وثقافية • وفضلا عن ذلك فان المدن الأفريقية تشهد أعلى معدلات بطالة فى العالم ، كما أن المهاجرين اليها يفتقرون عموما الى المهارات التى تمكنهم من الالتحاق بأعمال انتاجية مفيدة(١) •

والواقع أن العلاقة بين التحضر والنمو الاقتصـادى فى أفريقيا ليست بمثل هذا القـدر من البساطة • فمن وجهة النظر الديموجرافية نجـد أن أفريقيا تشهد الآن واحدا من أعلى معدلات النمو الحضرى فى عالمنا المعاصر • ففى غرب أفريقيا تضاعفت أحجام المدن خلال فترة تقل عن العقـد ، بينما مايزال أكثر من ٨٠٪ من سـكان أفريقيا يعيشون فى مناطق ريفيـة ، ويتخذون من الزراعة مصدرا أساسيا لمعيشتهم • ومعنى ذلك أنه برغم ارتفاع معدلات النمـو الحضرى الافريقى ، الا أن المدن لا تضم الا نسبة محدودة من مجموع السكان الافريقيين(٢) • إن الدور الذى لعبته المـدن الافريقية خلال القرن العشرين يتجاوز حدودها الادارية والقانونية • ذلك أن أهمية هذه المدن لا تعود فقط الى استقبالها لكثير من المهاجرين الريفيين ، بل تعود أيضا الى كونها تعبيرا عن أسـلوب فى الحياة يتطلع اليه كثير من السكان الريفيين • فالمدينة بالنسبة لهم هى التعبير الحقيقى عن الحياة « السعيدة » الجديدة ، وهى رمز التصميم على تجاوز ظروف الماضى • ولا يعنى ذلك أن الافريقيين يرغبون فى التخلص من ماضيهم بقدر ما يعنى أنهم يتطلعون الى فرص اقتصادية واجتماعية وثقافية أفضل من تلك المتاحة لهم • ومن هذه الزاوية بدأ بعض علماء الاجتماع يذهبون الى أن التحضر هو أحد العلامات الهامة المعبرة عن النمو الاقتصادى • غير أن الواقع

---

(1) William Hance; Population; Migration and Urbanization in Africa; op. cit; pp. 293-294.

(2) H. Miner; «The City and Modernization : an Introduction» in H. Miner (ed.); The City in Modern Africa; New York; 1967; pp. 1-20.

الحضرى الافريقى لا يؤيد ذلك تماما • فزامبيا — مثلا — ذات معدل تحضر منخفض برغم أن متوسط الدخل الفردى فيها عال نسبيا • كما أن بعض الدول الافريقية الفقيرة اقتصاديا تعرف أيضا معدلات منخفضة من التحضر كما هو الحال بالنسبة الى مالاوى • وفى نفس الوقت نجد دولة كنيجيريا ذات معدل تحضر مرتفع مصاحب لمعدل نمو اقتصادى مرتفع أيضا[١] • ومعنى ذلك أنه اذا كانت بعض الدول الافريقية « المتحضرة » نسبيا تشهد نموا اقتصاديا ملحوظا ، الا أننا نجد دولا أخرى « أقل تحضرا » برغم أنها تشهد نموا اقتصاديا سريعا • على أننى لا أميل الى الاستغراق فى هذه التفاصيل الاحصائية التى قد تؤدى — فى نهاية الامر — الى « تجهيل » الواقع الحضرى الافريقى • فبرغم تسليمى بأهمية هذه التفاصيل الاحصائية ، الا أنها يجب أن تستند الى فهم عميق للبناء الاجتماعى — الاقتصادى الافريقى • واذا كانت أفريقيا تضم عددا كبيرا من « المدن الاولى » ، إلا أنها تضم أيضا عددا غفيرا من « المدن الضعيفة » المتهالكة أو قل « تراب المدن » • وتحاول هذه المدن « القزمية » مقاومة الانقراض والسيطرة التى تمارسها عليها « المدن الاولى » • كذلك فان ارتفاع معدلات البطالة فى المدن الافريقية (يتراوح فيما بين ١٠٪ و ٣٠٪ بالنسبة للذكور الذين تزيد أعمارهم عن أربعة عشر عاما) يجعل من الحياة فيها نضالا مستميتا لا يفضى دائما الى انتصار على الواقع الحضرى[٢] • وربما كان ذلك هو أحد الاسباب التى دفعت بعض الدارسين المعاصرين الى القول بأن « نمط التحضر الافريقى هو أكبر عقبة تواجه التنمية الاقتصادية فى هذه القارة السوداء » •

ولا نستطيع فهم المكانة التى تحتلها المدن الافريقية دون التعرف على

---

(1) A. L. Mabogunie; Urbanization in Nigeria; London; 1968.

(2) A. W. Southhall; «Determinants of the Social Structure of African Urban Populations»; in D. Forde (ed.) Social Implications of Industrialization and Urbanization in Africa South of the Sahara; Paris; 1959; pp. 557-578.

الظروف التاريخية ــ البنائية التى مكنتها من ذلك . اذ أن هذه المدن كانت موطن الادارات الاستعمارية ، ثم ما لبثت أن تحولت بعد الاستقلال الوطنى الى عواصم سياسية ونافورات ثقافية ، حتى بدت وكانها نوافذ أفريقيا على العالم . واذا كان القرويون الافريقيون يستطيعون الآن الاستماع الى الراديو وقراءة الصحف ومشاهدة التلفزيون ، الا أن مجتمعاتهم الريفية لا تمثل بالنسبة لهم نموذج « الحياة الطيبة » . إن تاريخ المدن الافريقية ــ شأنها شأن بقية مدن الدول النامية ــ هو تاريخ الثقافة السياسية والابداع والابتكار . وبسبب ما تنطوى عليه هذه المدن من تنوع عرقى واجتماعى ولغوى وسياسى ، فانها تتيح للقرويين المهاجرين اليها فرص الاختيار بين أساليب مختلفة من الحياة . وسواء كانت المدن الافريقية مصدرا للتحديث أو عبئا على البناء الاجتماعى القومى ، فان الحقيقة ستظل باقية وهى : أن هذه المدن ستظل تلعب أدوارا بالغة الاهمية حتى ولو نهضت القرى من كبوتها واستطاعت الاسهام فى تحقيق معدلات عالية من النمو الاقتصادى . وترتبط هذه القضية بكثير من الاعتبارات الايديولوجية والمثالية التى ماتزال تسيطر على زعماء الدول الافريقية . فعلى الرغم من جهود جوليوس نيريرى لاحداث تغييرات حقيقية فى كل من المدينة والقرية ، الا أن هذه التغيرات ماتزال محدودة مكبلة بسبب السيطرة القوية التى تمارسها الصفوة البيروقراطية على كافة وجوه الحياة الاجتماعية فى تنزانيا[1] . واذا كانت غالبية أصوات الناخبين تتركز فى المناطق الريفية الافريقية ، الا أن « القوى البيروقراطية » تتخذ من المدن الكبرى موطنا لها . وهكذا تبدو « الاوليجاركية الافريقية » حضرية الاقامة ، بينما « البروليتاريا الافريقية » ريفية النشأة والاقامة أيضا[2] . لذلك ليس من الغرابة أن نجد المدن الافريقية موطنا للسخط السياسى

---

(1) R. Rotberg and A. A. Mazrui (eds.) Protest and Power in Black Africa p. cit; p. 13.

(2) J. Nelson; «The Urban Poor : Disruption or Political Integration: in Third World Cities; op. cit; p. 395.

ومجالا خصبا لظهور الصفوات التى تتخذ من الانقلابات العسكرية هواية مفضلة ■

وتشهد المــدن الافريقية نموا سكانيا هائلا بسبب زيادة معــدلات الهجرة الريفية اليها • وفى حدود البيانات الاحصائية المتاحة يمكن القــول إن نسبة كبيرة من سكان هذه المدن هم من الوافدين أو المهاجرين اليها • ففى أبيدجان (عاصمــة ساحل العاج) ، لوحظ أن ٢٩٪ فقط من سكانها هم الذين ولدوا داخلها • وفى أديس أبابا اتضح أن ٤٤٪ من سكانها هم الذين ولدوا ونشأوا فيها • ومع ذلك فيجب أن نأخذ فى الاعتبار أن ٧٠٪ من الذين ولدوا فى أديس أبابا لا تزيد أعمارهم عن خمسة عشر عاما • وربما كانت عوامل « الطرد الريفى » أشد تأثيرا من عوامل « الجــذب الحضرى » بالنسبة لافريقيا ، وان كنا نميل الى تاكيد العلاقة التكاملية ــ لا التفاضلية ــ بين هذه العوامل • ففى شرق افريقيا قد يبدو الاستمرار فى الاعتماد على الاقتصاد الزراعى بالنسبة للفلاحين أمرا لا يخلــو مــن مخاطر ، ذلك أن الاراضى الزراعية الرعوية غالبا ما تتعرض للاستنفاذ ، مما قد يفرض على الفلاحين ظروفا اقتصادية قاسية لا يستطيعون تحملها • كما أن تكاليف تزويد هذه المناطق بالمياه والمدارس والمســاكن قد تكون باهظة • ومعنى ذلك أن عوامل الطرد تلعب دورها قبل أن تتمكن عــوامل الجذب من الظهور • ومن ذلك يبدو أن الهجرة الى المدينة قد لا تكون فقط بسبب الرغبة فى الحصول على فرص اقتصادية أفضل ، بل لأنهــا الحــل الوحيد المتاح من أجل الاستمرار فى البقاء • وخلال الحقبة الاستعمارية كان العمال الافريقيون يجبرون على ترك قبائلهم والالتحاق بأعمال التعدين والزراعة والتشييد • فلقد أجبر الاستعمار البلجيكى العمــال الافريقيين على العمل فى مشروع مد السكك الحديدية من الكونغو الى المحيط • وبانتهاء هذا المشروع فى سنة ١٩٣٤ وصل عدد الضحايا من العمال الافريقيين أكثر من خمسة عشر ألفا • ومثل هذا يقال عن كل من الاستعمــار البريطانى والفرنسى • واذا كانت الهجرة الاجبارية القهرية قد اختفت من أفريقيا ، الا أن الهجرة الاختيارية الى المدن (وان لم تخل من جبرية) قد أضحت

ظاهرة واسعة الانتشار • ويتعين علينا الاشارة الى بعض الضغوط التى تمارسها حكومة جنوب افريقيا على العمال الزراعيين من أجل الهجرة الى المدن والالتحاق بأقسى وأشق وأرخص الاعمال اليدوية • إننا نجد فى دوله ليبيريا شركة فايرستون للمطاط تلجأ الى رؤساء القبائل وتمنحهم مكافآت رمزية من أجل الحصول على الاعداد الضرورية من العمال الزراعيين اللازمين للعمل فى مزارع المطاط[١] • واذا كانت القوة لم تعد نستخدم بشكل مباشر من أجل تهجير العمال الزراعيين ، الا أنهم يجدون أن الاختيار الوحيد المتاح أمامهم هو الهجرة للعمل فى المزارع أو المصانع • ويبدو أن بعض الحكومات الافريقية قد بدأت تعى النتائج السياسية المترتبة على الهجرة الريفية الحرة الى المدن ، خاصة وأنها تؤدى بعد ذلك الى رفع معدل البطالة بالنسبة لسكان المدن أنفسهم • ففى غانا وبساحل العاج فرضت الحكومتان بعض القيود على الهجرة الريفية — الحضرية[٢] •

وتميل الدراسات السوسيولوجية والانثروبولوجية المعنية بالمدن الافريقية الى ابراز كل من عوامل التفكك والتكامل داخل الحياة الحضرية • فعلى الرغم من أن الروابط الاسرية الحضرية قد تتعرض للضعف . الا أن هناك عناصر ثقافية تحول دون انهيارها تماما • وهذا يعنى ان المدن الافريقية قد لا تشهد ما ذهب اليه لويس ويرث Wirth من سيطرة « السطحية » و « اللاشخصية » و « الانتقالية » عليها • وأعتقد أن « المعضلة الديموجرافية » التى تواجهها المدن الافريقية تؤدى بدورها الى نتائج اجتماعية وثقافية وخيمة • فمعظم هذه المدن تشهد خللا فى التوزيع النوعى

---

(1) R. Clower et al; Growth Without Development : An Economic Survey of Liberia; Northwestern Univ. Press; 1966; p. 158.

(2) M. Banton; «Social Alignment and Identity in a West Africa City;» in Hilda Kuper (ed.); Urbanization and Migration in West Africa; Univ. of Calif. Press; Berkeley; 1966.

(ذكور — اناث) للسكان(١) • واذا كنا نجد فى مدن غرب أفريقيا توزيعا نوعيا معتدلا نسبيا (٩٥ أنثى لكل ١٠٠ ذكر) ، الا أننا نجد فى مدن وسط أفريقيا توزيعا نوعيا مختلا الى حد ما (٨٥ أنثى لكل ١٠٠ ذكر) • ويزداد هذا الاختلال حدة فى مدن جنوب أفريقيا حيث تمنع الحكومـــة العنصرية العمال الافريقيين الحضريين من اقامة زوجاتهم معهم داخل المـــدن • وفى ظل مجتمع مفتقد الى التقاليد الاسرية يزداد الادمان على الخمور والميل الى ارتكاب الجرائم فضلا عن الاغتصاب • وتشهد بعض الدول الافريقية معدلات عالية نسبيا من الجرائم بسبب الظروف السياسية القلقة والاحوال الاقتصادية القاسية • فبعـــد انتهـــاء الحرب الاهلية النيجيرية واجهت الحكومة مشكلة ارتفاع معدل الجرائم ، مما اضطرها الى الاخـــذ بعقوبة الاعدام فى محاولة للحد من السلوك الاجرامى •

وتمثل المدن الافريقية اطارا عاما تتداخل فيه عناصر الحياة القبلية التقليدية مع عناصر الحياة الحضرية الحديثة • فعلى الرغم من أن المحاكم الرسمية تتولى الفصل فى المنازعات القانونية التى تنشأ بين الافراد ، الا أن « محاكم كبار السن » ماتزال تلعب دورا هاما فى هذا المجال(٢) • ومرة أخرى نجد واقع المـــدن الافريقية لا يؤيد وجهة نظر ويرث الذاهبة الى سيطرة « الروح البيروقراطية » الرسمية على المدن المعاصرة • وتبدو الحياة الحضرية بالنسبة لسكان المدن الافريقية تجربة جديدة ، خاصة وأن نسبة كبيرة منهم من المهاجرين اليها من المناطق الريفية • ولقد أوضحت بعض الدراسات أن المهاجرين الريفيين الجدد يقررون التوجه الى المدينـــة وهم يتوقعون بعض المساعدات التى سيحصلون عليها من زملائهم المهاجرين

---

(1) A. L. Epstein; «Urbanization and Social Change in Africa»; in G. Breese; (ed.) The City in Newly Developing Countries; op. cit; pp. 246-287.

(2) Michael J. Lowy; «Me Ko Court : The Impact of Urbanization on Conflict Resolution in a Ghanian Town»; in G. Foster and R. Kemper (ed.) Anthropologists in Cities; Little; Brown. Boston; 1974; pp. 153-177.

القدامى . لذلك فإننا نتوقع وجود روابط شخصية وعائلية قوية بين هؤلاء المهاجرين برغم الضغوط الشديدة التى قد يتعرضون لها . ومن الممارسات الشائعة فى المدن الافريقية أن يتعهد الاقارب الحضريين المهاجرين الجدد بالتشجيع والدعم الى أن يتمكنوا من الاستقلال الذاتى . لذلك فان هؤلاء المهاجرين قد لا يستشعرون العزلة الاجتماعية ، مما يساعدهم بعد ذلك على الدخول فى علاقات اجتماعية أوسع تشمل سكان الحى ، أولئك الذين ينتمون الى نفس الاصول الريفية أو القبلية فى معظم الأحيان . ولقد أوضحت دراسة تناولت الهجرة الريفية الى مدينة دار السلام (تنزانيا) أن الافريقى القروى المهاجر الى المدينة يعرف مسبقا الاشخاص الذين سيقدمون له يد المساعدة ، تلك التى قد تبدأ بايوائه لتنتهى بالحصول على عمل له(1) . وفى غرب أفريقيا يمكننا أن نجد أيضا — وبدرجة أكبر — هذا النمط من مساعدة المهاجرين الريفيين الى المدن . وفى حالات الهجرة الموسمية التى اشتهرت بها المدن الافريقية نجد الاسرة الحضرية تقدم العون للمهاجر طوال فترة اقامته التى قد تستمر لعدة شهور ، يعود بعدها الى القرية لمارسة أعماله الزراعية . وتكاد تنفرد المدن الافريقية بهذا النمط من الهجرة الموسمية . فحينما يحين وقت الحصاد يبدأ المهاجرون الى المدينة فى العودة الى قراهم لمارسة نشاطاتهم الزراعية .

واذا كانت بعض الدراسات قد أوضحت أن التحضر قد أضعف العلاقات والروابط التقليدية الافريقية ، الا أن هناك شواهد واقعية مقابلة تؤكد أن التحضر فى أفريقيا قد أدى الى نتيجة عكسية ؛ أعنى تقوية الانتماءات القبلية(2) . ذلك أن الهجرة الى المدينة تعنى — ضمنا — أن المهاجر يتمتع بوعى قبلى عميق يمكنه من الاحتكاك بالافراد الذين ينتمون

---

(1) J. A. Leslie; A Social Survey of Dar es Salaam; Oxford Univ. Press; London; 1963; p. 33.

(2) William J. Hanna and Judith L. Hanna; Urban Dynamics in Black Africa; Aldine-Atherton; Chicago; 1971; p. 107.

الى ثقافات أخري • كذلك فان سـلوك المهاجرين الريفيين الى المـدن الافريقية يعكس استمرارا لسيطرة الروح القبلية ، حيث نجـد بعض الاحياء تكاد تكون مقصورة الاقامة على الذين ينتمون الى أصـول قبلية متشابهة • ولقـد أوضـح جدعـون جوبرج Sjoberg أن الجماعات الثقافية والعرقية والقبلية والمهنية تؤدى عددا من الوظائف الهامة بالنسبة للمهاجرين الجدد الى المدينة • فالجماعات القبلية والعرقية تقـدم هؤلاء المهاجرين لسـكان المدينـة القدامى وتزودهم بالافكار والمعلومات التى تمكنهم من مواجهة الحياة الحضرية الجديدة ابتداء من كيفية الحصـول على مسكن وعمل حتى احترام قواعد السلوك الحضرى • ونظرا لارتباط هذه الجماعات القبلية والعرقية بالثقافة الريفية ، فان المهاجرين الجـدد يجدون فيها ما يربطهم بالماضى وما يمكنهم من مواجهة الحاضر • وفى كثير من الاحيان يبدو المهاجر القديم بالنسبة للمهاجر الجـديد أمل المستقبل وحلم النجاح • كذلك أوضح جوبرج أن المهاجرين قد يعودون الى قراهم من فترة لاخرى ، مما قد يسهم فى نشر الثقافة الحضرية داخـل المناطق الريفية[1] • وأيا كان الأمـر فان الروابط القرابية والقبلية ماتزال تلعب دورا هاما فى عملية التكيف الاجتماعى الحضرى ، برغم ما يذهب اليـه البعض من أن هذه الروابط تحول دون نمـو الروح القومية وتعـوق مشروعات التنمية والتحديث • وتشير التطورات السياسية التى مرت بها معظم الدول الافريقية الى أن التوحدات والانتمـاءات القبلية تلعب دورا مزدوجا : فهى وان كانت مصدرا للتضامن الاجتماعى ، الا أنها سببا فى حدوث الاضطرابات السياسية • ففى أثيوبيا كانت الصفوة الحاكمة خلال حكم الامبراطور المخلوع هيلاسيلاسى تنتمى الى قبيلة أمهرة ، كمـا أن جومو كينياتا قد أحاط نفسه بطبقة حاكمة ينتمى كل أفردها الى قبيلته • ومن الامور المألوفة تماما فى أفريقيا أن يلجأ قادة الانقلاب الجـديد الى

(1) Gideon Sjoberg; «Cities in Developing and in Industrial Societies : A Cross-Cultural Analysis»; in P. Hauser and Leo Schnore (eds.) The Study of Urbanization; Wiley; New York; 1965; pp. 226-227.

تعيير القادة السياسيين والاداريين الذين كانوا جزءا من النظام القديم . واستبدالهم بقادة ينتمون الى قبيلة الزعيم السياسى الجديد • ولعل خير مثال على ذلك الحرب الاهلية النيجيرية التى حاولت خلالها قبيلة الايبو اقامة دولة مستقلة (بيافرا) ، لكنها فشلت فى تحقيق هذا الهدف • والواقع أن هناك تعارضا واضحا بين المبادىء القومية التى يعلنها القادة الافريقيون والممارسات القبلية التى كثيرا ما تبدو فى المواقف الفعلية •

ومن الطبيعى أن تؤدى الحياة الحضرية الى اضعاف معالم البناء التقليدى الريفى • وقد نستشهد على ذلك بالتغير الذى طرأ على مكانة كبار السن من القرويين • إن الشباب الافريقى المهاجر الى المدينة يستطيع تحقيق دخل أعلى من ذلك الذى يحققه شيخ فى القرية ، كما أن نظام الأجر الفورى من شأنه اضعاف الاحساس بالروابط الجماعية التى ألفها الافريقى فى قريته قبل هجرته الى المدينة[1] • ومعنى ذلك أن الشاب المهاجر يستطيع تحقيق الاستقلال الاقتصادى فى سن مبكرة نسبيا ، كما يتمكن من التحرر من القيود القبلية والقرابية وما تفرضه عليه من التزامات • ولا يستطيع شيخ القرية أن يقدم نصائح فعالة لهذا المهاجر بسبب افتقاده الى المعلومات المفيدة فى هذا المجال ؛ بل ان مثل هذه النصائح قد تؤدى الى عواقب وخيمة اذا ما أخذ بها المهاجر وطبقها فى حياته الحضرية • إن شيخ القرية الذى يحتل مكانة بارزة بسبب تقدمه فى العمر هو — فى نظر المهاجر — شخص عاطل لا عمل له • ويشير ذلك الى ان التأثير الذى تمارسه الصفوة الريفية « التقليدية » يميل الى الضعف والتقلص خاصة اذا ما تعلق ذلك بالحياة الحضرية • وفى داخل المدن الافريقية يمكننا أن نجد الآن صفوة وطنية فى طور التكوين • وتتألف

---

(1) P. Mercier; «On the Meaning of tribalism in Black Africa;»; in Van Den Berghe (ed.); Africa : Social Problems of Change and Conflict; San Francisco : Chandler; 1965; pp. 130-144.

هذه الصفوة من الشباب الذين تلقوا تعليمهم فى الدول الاوربية وعلى الاخص بريطانيا وفرنسا • ويعمل معظم هؤلاء الشباب فى المهن الفنية العليا كالطب والمحاماة والهندسة والتدريس الجامعى • ويعانى هؤلاء الشباب من « الازدواج الثقافى » • فبينما لا يستطيعون تجاهل الثقافة الافريقية الوطنية ، نجدهم يبدون ارتباطا قويا بالثقافة الغربية • وفى معظم الاحيان يحصل هؤلاء الشباب على دخول عالية اذا ما قورنت بتلك التى يحصل عليها العمال الحضريون • ففى غرب أفريقيا — مثلا — يحصل الشاب الجامعى على عشرة أضعاف دخل العامل الحضرى[1] •

ولا نستطيع أن نغفل دور الجماعات « الآسيوية » داخل المدن الافريقية • ففى شرق وجنوب أفريقيا عاشت جماعات من هنود شبه القارة الهندية يطلق عليها عادة الجماعات « الآسيوية » • وفى بداية الامر هاجرت هذه الجماعات الى افريقيا للعمل فى مد السكك الحديدية ، لكن كثيرا من أفرادها قرروا البقاء والاقامة الدائمة فى المدن الافريقية • وخلال الحقبة الاستعمارية كان الهنود يشغلون وضعا يتوسط الاداريين الاستعماريين من ناحية ، والعمال الافريقيين من ناحية أخرى • ولقد عمل هؤلاء الهنود فى الوظائف المدنية الدنيا ، كما أن الناجحين منهم قد مارسوا أعمال التجارة والمقاولات[2] • ففى كينيا وأوغندا وتنزانيا كان كل أصحاب المحلات الصغيرة من « الآسيويين » ، كما كانت لهم أسواقهم وأحياءهم الخاصة التى تفصلهم عن بقية السكان الافريقيين • والواقع أن التفاعل الاجتماعى بين « الآسيويين » والافريقيين كان محدودا للغاية • وعلى الرغم من المكانة الاقتصادية العليا نسبيا التى حققها « الآسيويون » داخل مدن شرق أفريقيا ، الا أن أوضاعهم ما لبثت أن تعرضت للخطر •

---

(1) P. C. Lloyd; Africa in Social Change; Penguin Books; Baltimore; 1967; p. 150.

(2) A. Southhall; «Determinats of the Social Structure of African Urban Populations With Special Reference to Kampala»; in D. Frode (ed.) Social Implications of Industrialization and Urbanization in Africa South of the Sahara; op. cit.

فبظهور حركات الاستقلال الوطنى فى أواخـــر ستينيات القرن العشرين ، بدأت الحكومات الافريقية فى طرد هؤلاء الآسيويين والاســتيلاء عــلى ممتلكاتهم دون تعويض مقابل فى معظم الاحيان • ومانزال نتذكر ما فعله عيدى أمين « بالآسيويين » فى سنة ١٩٧٢ حينما أعلن تأميم ممتلكاتهم دون تعويض مقابل • وباستثناء جــنوب أفريقيا التى مازال تعرف العمالــة « الآسيوية » ، فان أفريقيا الآن لم تعد تعرف عمالة « آسيوية » يعتــد بها • بل إن التقارير الحديثة المعنية بهذه القضية تشير الى أن هذه العمالة قد وصلت الى نقطة التصفية الكاملة •

وتعانى المدن الافريقية من معظم المشكلات الحضرية التى تعــانى منها الدول النامية عموما والتى أشرنا الى جانب منها فى الفصلين السابقين • وما يعنينا هنا هو الاشارة الى بعض المشكلات النوعية التى تواجهها المدن الافريقية • ولقد سبق أن أوضحنا كيف أن هذه المــدن تواجه مشــكلة مستعصية كالبطالة ، وأن مواجهتها والتغلب عليها قد يتجــاوز فى بعض الاحيان قدرات الحكومات الافريقية بسبب ارتباط هــذه المشكلة بالبنــاء الاجتماعى ــ الاقتصادى الافريقى • أما المشكلة الخطيرة الثانيــة التى تواجهها هذه المدن فهى الاســكان • ولا تقتصر هــذه المشــكلة على قله أو ندرة الوحــدات الســكنية فى المــدن الافريقية ، بل انهــا تتصــل أيضا بانتشار أحياء واضعى اليد أو الاحياء المتخلفة عمومــا • وتشــير بعض التقديرات الى أن ثلث سكان المدن الافريقية يعيشون فى « أحيــاء الصفيح » الواقعة على أطرافها • ونظراً لارتفاع معدلات الهجرة الريفية ــ الحضرية ، واجهت المدن أزمة اسكانية حادة • غير أن حجم هذه الاحيــاء يختلف من دولة لاخرى • ففى كازابلانكا شمالا يصل عدد سكان هــذه الاحياء الى ١٨٠٫٠٠٠ نسمة ، وفى لوساكا جنوبا يصــل هذا العدد الى ٨٠٫٠٠٠ نسمة • وتحاول معظم الحكومات الافريقية تنفيذبعض مشروعات الاسكان الشعبى ، وان كان نجاحها فى ذلك يتوقف على مواردها وامكانياتها الاقتصادية[1] • وفى مواجهة نمــو الاحياء المتخلفة لجأت بعض الدول الى

(1) R. Clower; et al; Growth Without Development; op. cif; -93.

اصـدار تشريعات تنص على عـودة المهاجرين العاطلين الى قراهم والا تعرضوا للعقوبات التى يفرضها القانون • غـير ان هذه التشريعات لم تنجح بعد فى تحقيق أهدافها بسبب قوة عوامل الطرد والجذب • كذلك نجد حكومات أفريقية تلجأ الى النهوض بالقرى وجعلها أكثر جاذبية لسكانها فى محاولة للحد من هجرتهم الى المدن • غير أن جهود هـذه الحكومات فى هذا المجال لا تتجاوز « المشروعات التجريبية » ، ذلك لان النهوض بالريف الافريقى يتجاوز القدرات الاقتصادية المحدودة للدول الافريقية ، فضـلا عن أن الهجرة الى المدن تتحدد فى ضوء ضغوط اقتصادية واجتماعية قد لا تسهم البرامج الحكومية الحالية فى الحد منها •

وبامكاننا تفسير المشـكلات الحضرية الحادة التى تواجهها المـدن الافريقية فى ضوء التخلف الاقتصادى الذي تعانى منه هذه القارة • فعلى الرغم من أن الدول الافريقية قد تحررت من الاستعمار الاوربى ، الا أنها لم تتحرر بعد من مشكلة الاعتماد على محصول زراعى واحد ووحيد ، مما يعرض اقتصادياتها لتقلبات الاسعار العالمية للمحاصيـل التى تخضـع — فى معظم الاحيان — لاحتكار عالمى صـارخ • ففي منتصف الستينيات منيت غانا بنكسة اقتصادية خطيرة بسبب انخفاض أسعار الكاكاو ، كمـا أن أثيوبيا قد تعرضت هى الاخرى لنكبة مماثلة خلال تلك الفترة بسبب تقلبات أسعار البن • ومثل هذا يقال عن ليبيريا فيما يتعلق بالمطاط الخام ، وزامبيا فيما يتعلق بالنحاس الخام • وهذا يعنى صعوبة وضـع خطط اقتصادية بعيدة المدى بسبب تقلب أسعار المواد الخام • وفضلا عن ذلك فان معدلات النمو الاقتصادي فى أفريقيا بوجه عام ضعيفة وبطيئة للغاية اذا ما قورنت بقريناتها فى أمريكا اللاتينية وآسيا • فلقد أوضحت احدى الدراسات المسحية أن ٢٨ دولة أفريقية (تضم ٧٢٪ من مجموع سـكان القارة) لم تتمكن من تحقيق المعدلات الدنيا من النمو الاقتصادى (حوالى ٣٪)[1] • فاذا ما تناولنا قطاع الزراعة ، لاحظنا أن ٧٧٪ من السـكان

---

(1) John Palen; The Urban World; op. cit; p. 268.

الافريقيين الذين هم فى سن العمل يمارسون النشاطات الزراعيه . على الرغم من أن معدلات نمو الانتاج الزراعى قد ازدادت فقط بنسبة ٢٪ خلال الستينيات ، واذا ما أخذنا فى الاعتبار الزيادة السكانية الافريقية . فان نصيب الفرد من المواد الغذائية قد إنخفض الى ٢ر٪ خلال نفس الفترة ، أما الصناعة فى أفريقيا فليست أفضل حالا من الزراعة ، اذ لاتزال الصناعة تدور حول انتاج المواد الخام أكثر مما تدور حول تصنيعها ، وفضلا عن ذلك فهناك شواهد عديدة تشير الى أن كثيرا من المشروعات الصناعية الافريقية ماتزال تفتقر الى المهارات اللازمة والقوى العاملة المدربة فضلا عن قلة الاستثمارات الانتاجية بوجه عام[1] ، ويمكننا أن نلمس اختلافات ملحوظة بين الدول الافريقية فى هذا المجال ، ففى نيجيريا — مثلا — أمكن اقامة بعض المشروعات الصناعية الهامة بسبب عائدات البترول الضخمة التى حققت نموا ضخما منذ سنة ١٩٧٣ ،

وقد يكون من المفيد أن نختتم هذا الفصل بمناقشه تحليليه مركزة لاحدى المدن الافريقية ، وربما كانت أديس أبابا أكثر ملاءمة من غيرها لتحقيق هدفنا ، فهى تجسد كثيرا من المشكلات التى تعانى منها مدن أفريقيا جنوب الصحراء ، وتعد أديس أبابا « مدينة أولى » بالمعنى الدقيق لهذا المفهوم ، ففى سنة ١٩٧٣ بلغ عدد سكانها ٨٠٠ ر٠٢٥ر١ نسمة ، أى حوالى ٧٥٪ من مجموع السكان الحضريين فى أثيوبيا ، ومع ذلك فان أديس أبابا لا تضم أكثر من ٣ر٤٪ من مجموع سكان أثيوبيا ، أما المدينة الثالية فى الحجم فهى أسمرة حيث بلغ عدد سكانها فى سنة ١٩٦٧ حوالى ١٧٦ر٠٤١٠ نسمة ، وفيما عدا هاتين المدينتين لانجد فى أثيوبيا مدينة أخرى يزيد عدد سكانها عن ٠٠٠ر٦٠ نسمة ، وعلى الرغم من الطابع الريفى الزراعى الذى يسيطر على أثيوبيا ، الا أن أديس أبابا تعد واحدة من أكبر مدن أفريقيا جنوب الصحراء ، إذ لا تتفوق عليها فى الحجم سوى مدن

---

(1) A. Southhall; Social Change in Modern Africa; London : Oxford Univerisity Press; 1969.

اتحاد جنـــوب افريقيا وكنشاسا (زائير) ولاجـــوس (نيجيريـــا)[١] •
ويصف بعض الدارسين أديس أبابا بأنهـــا عاصمة أفريقيا بسبب الـــدور السياسى الهام الذى تلعبه على مستوى القارة • فهى مقر منظمة الوحدة الافريقية واللجنة الاقتصادية الافريقية التابعة للامم المتحدة • وفضلا عن ذلك فان أديس أبابا قد نشأت نشأة أفريقية خالصة ، برغم أنها قد تأسست خلال العصر الذهبى الاستعمارى (فى سنة ١٨٨٦) • وحينما أقيمت مدينة أديس أبابا (التى تعنى باللغة المحلية : الزهرة الجميلة) لم يكن يتوقع السكان الاثيوبيين أن تظل العاصمة الدائمة ، ذلك أن الامبراطور مينيليك Menilike قد قصد باقامتها أن تكون مقرا مؤقتا • وبسبب عدم وجود تقاليد حضرية راسخة ، فان أباطرة أثيوبيا كانوا يغيرون دائما مواقع عواصمهم لاعتبارات اقتصادية (استنفاذ الموارد الطبيعية) أو أمنية (مواقع دفاعية أفضل) • ولقد كانت أديس أبابا خلال تلك الفترة هى العاصمة الثامنة التى انتقل اليها الامبراطور مينيليك • غير أنه فى هـــذه المرة قد أقام قصره على تل مرتفع يقع فى شمال المدينة ، ثم منح مساعديه وأقاربه قطعا مجـــاورة من الارض لبناء مساكنهم • وفى بداية الامر بدا الطابع الاقطاعى للمدينة واضحا ومحددا حيث اتخذت الاحياء « البدائية » شكلا يعبر بصرامة عن التناقضـــات القبلية والاقطاعية[٢] • وبسبب ارتفاع المدينـــة عن سطح البحر (أكثر من ٨٠٠٠ قدم) فانها لم تعرف بعض الامراض الافريقيـــة كالملاريا والكوليرا ، وان كانت قد واجهت صعوبات فى الاتصال بالمناطق الريفية المنخفضة بسبب تخلف وسائل النقل والاتصال • وبنمو المدينـــة بدأت المنطقة الشرقية المجاورة لقصر الحاكم تتحـــول الى مركز ادارى ، بينما بدأت المنطقة الغربية المحيطة بالسوق القديم تتحول الى مركز تجارى حـــديث نسبيا •

---

(1) United Nations Economic Commission for Africa; Demographic Handbook for Africa; 1971; p. 66.

(2) W. Shack; «Urban Tribalism and the Cultural Process of Urbanization in Ethiopia»; in A. Southhall and E. Bruner (eds.); Urban Anthropology; Chicags; 1966.

ولقد حكم هيلاسيلاسى البلاد منذ سنة ١٩١٦ • وعلى الرغم من أنه قد ألغى الرق رسميا فى أوائل العشرينيات ، الا أن تجارة العبيد لم تختف داخل أديس أبابا وخارجها • وفى سنة ١٩١٠ قدر عدد العبيد فى المدينة بحوالى ٢٥٫٠٠٠ عبدا من بين سكان المدينة الذين بلغ عددهم ٦٠٫٠٠٠ نسمة• وعلى الرغم من أن تجارة العبيد لم يعد لها وجود الآن فى هذه المدينة ؛ الا أن أبناء وأحفاد العبيد السابقين مايزالون يعملون الآن فى أشق وأقسى الاعمال • وخلال فترة الاستعمار الايطالى لاثيوبيا (فيما بين سنتى ١٩٣٦ و ١٩٤١) ، حاول الايطاليون تطوير مدينة أديس أبابا لتكون عاصمة « لامبراطوريتهم الافريقية » التى كانوا يسعون لاقامتها • ومانتزال بصمات الايطاليين واضحة على هذه المدينة برغم قصر فترة الاستعمار الايطالى • إذ شق الايطاليون خمسة طرق رئيسية تشع من المدينة ، مما منحها مزيدا من الاهمية باعتبارها مركزا للنقل والمواصلات • وفضلا عن ذلك أقام الايطاليون عددا من المنشآت الحضرية الهامة التى منحت المدينة طابعها الحضرى • وبرغم ذلك كله فمانتزال أديس أبابا أقرب الى الطابع الريفى منها الى الطابع الحضرى • فلقد أوضح أحد المسوح أن ٩٠٪ من مساكن المدينة مانتزال مبنية بالطوب اللبن ؛ وأن ٨٠٪ من سكانها لا يستخدمون الادوات الكهربائية المنزلية الحديثة[1] • ومن الممكن تفسير سيطرة هذا الطابع الريفى على المدينة فى ضوء إرتفاع معدلات الهجرة الريفية اليها • فحوالى ثلاثة أرباع السكان الذين تزيد أعمارهم عن خمسة عشر عاما قد ولدوا خارج أديس أبابا • وتعانى المدينة من ارتفاع شديد فى معدل البطالة ، مما يدفع كثير من المهاجرين الى الالتحاق بأعمال الخدمة المنزلية والمهن غير الانتاجية • ويعتبر التسول من الأعمال المألوفة داخل المدينة ، كما أن البغاء يكاد يخضع لقواعد منظمة لا تخطئها الفتاة الحبشية[2] •

وتكاد تكون الوظيفة السياسية ــ الادارية هى أهم الوظائف التى

(1) Joh Palen; The Urban World; op. cit; p. 379.
(2) Ibid; p. 380.

تؤديها أديس أبابا • فالصناعات الحرفية فيها تكاد تكون محدودة ؛ كما ان المدينة لا تلعب دورا تجاريا فريدا بالنسبة لاثيوبيا • أما الوظيفة السياسية ـ الادارية فتتمثل فى كون المدينة مقرا للحكومة الاثيوبية ، والسفارات الاجنبية ، ومنظمة الوحدة الافريقية ، واللجنة الاقتصادية التابعة للامم المتحدة • وخلال السنوات الاخيرة قامت الحكومة بتحديث وسائل النقل والمواصلات ، كما بذلت جهودا ملحوظة لتطوير كل من التعليم والصناعة الحرفية • وعلى الرغم من المحاولات العديدة التى قامت بها الحكومة الاثيوبية من أجل ارساء دعائم صناعية قوية ، الا أن التصنيع فى أثيوبيا مايزال فى مرحلته « الطفولية » • أما المواصلات التى تربط أديس أبابا بالمدن والمناطق الريفية الاخرى فمانتزال بدائية الى حد كبير[1] • ومع أن هناك رحلات يومية تربط أديس أبابا بأوروبا ، الا أن السلع الثقيلة التى تأتى عن طريق البحر تنقل بعد تفريغها بواسطة سكك حديدية متخلفة أنشأها الفرنسيون حينما كانوا يريدون الربط بين أديس أبابا وجيبوتى • وباختصار فان أديس أبابا مدينة أفريقية تجمع بين عناصر اقطاعية تقليدية وأخرى رأسمالية حديثة • إنها مدينة السيارة « المرسيدس » التى لا يزيد فيها متوسط الدخل الفردى عن ٦٩ دولارا فى العام • هى مدينة الشقق الفارهة دون شبكة مجارى صحية • واذا كانت أديس أبابا قد تعثرت كثيرا خلال حكم هيلاسيلاسى (الاقطاعى ـ الرأسمالى) ، فانها تتطلع الآن للتقدم الحضرى خلال حكم منجستو هيلا مريام (الاشتراكى ـ البروليتارى) • واذا ما تحقق هذا التقدم فان الايديولوجية السياسية تصبح ـ حينئذ ـ مفتاحا سحريا للتنمية الحضرية •

---

(1) Ibid; p. 381.

الباب الثالث

المدينة فى دول الشرق الأوسط

الفصل الثامن

من المدينة العتيقة الى المدينة الحديثة : نظرة تاريخية

من الشرق الاوسط ظهرت أقدم وأعرق المراكز الحضرية التى عرفها العالم • فما نزال نشاهد كوكبة من المدن القديمة ابتداء من وادى النيـل بمصر الى منطقة ما بين النهرين فى العراق • واذا كان الفتح الاسلامى قد أضاف الى رصيد الشرق الاوسط مدنا جديدة ، الا أنه قد منح المـدن القديمة مزيدا من النمو والازدهار • وبينما كانت المدن العربية تناضـل من أجل البقاء خلال العصور الوسطى ، كانت المدن الاسلامية فى الشـام والعراق ومصر وايران تلعب أدوارا سياسية وثقافية ودينية واقتصادية حاسمة ، الى الحد الذى يجعلنا نذهب الى أن الاسلام يعـد — بحق — دين المدن • واذا كان ماكس فيبر Weber قد أوضح فى كتاباته(١) الدور الذى لعبته البروتستانتية فى نشأة الرأسمالية وما صاحبها من ظـواهر (كالتصنيع والتحضر) ، فاننا مانزال بحاجة الى دراسـة متعمقة للعلاقة بين الاسلام والتحضر • فخلال فترة التوسـع الاسلامى أسهمت المـدن الاسلامية فى تطوير ونشر « ثقافة حضرية » بكل ما ينطوى عليه هذا التعبير من معان(٢) • وقد يختلف المؤرخون وعلماء الاجتماع حول تحديد معالم الحياة الحضرية فى المدن الاسلامية المبكرة ، لكننى أعتقد أن حدة هـذا الاختلاف قد تخف اذا ما تعلق الامر بالعلاقة السببية بين الاسـلام والنمو الحضرى •

إن دراسة المدن الاسلامية المبكرة تتطلب منذ البداية تحديدا دقيقا

---

(1) Max Weber; The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism; translated by Talcott Parsons; Ne wYork; 1948.

(١) انظر جمال حمدان ، المدينة العربية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، جامعة الدول العربية ، ١٩٦٤ .

للوظائف التى كانت تؤديها • ويمكننا أن نشير فى هذا المجال الى بعض منها • فلقد كانت هذه المـدن تمثل أسواقا تجارية رئيسية ، وعواصـم سياسية مؤثرة ، وقواعد عسكرية ثابتة ، فضلا عن الدور الدينى الحاسم الذى كانت تؤديه بوصفها مقصد الحجاج من كل مكان • بيد أن ذلك يجب ألا يدفعنا الى التعميم • فلقد أوضح حورانى[١] Hourani أن المدن التى أنشأها الفاتحون العرب تختلف عن تلك التى كانت قائمة قبـل الفتح الاسلامى • ومعنى ذلك أن المدن الاسلامية القريبة من البحر المتوسـط والتى خضعت للمؤثرات الاغريقية والرومانية تختلف عن المدن الاسـلامية الشرقية التى ظهرت فى فارس وتركيا • واذا كانت هذه المدن قد اختلفت من مكان لآخر ، فانها قد اختلفت أيضا من زمان لآخر على نحو ما سنشير فى موضع لاحق • والقضية التى تعنينا هنا بالدرجة الاولى تتعلق بوجود خصائص مشتركة تجمع بين المدن الاسلامية التى ظهرت فى منطقة الشرق الاوسط ، ثم تأثير هذه الخصائص على الحيـاة الحضرية الحـديثة • ولا نستطيع فى هذا المجال مقاومة اغراء المقارنة بين المدن الاسلامية والمدن الغربية خلال العصـور الوسطى • فلقد أوضـح ماكس فيبر Weber فى مؤلفه « المدينة » The City أن المدن الغربية كانت تبدو وكأنها قـلاع محصنـة ، لكنهـا كانت تلعب ــ فى نفس الوقت ــ أدوارا اقتصاديـة وسياسية هامة • فهى موطن الاسواق ، ومصدر التشريعات ، ومقر السلطة السياسية[٢] • أما المدن الاسلامية خلال العصور الوسطى فقد نشأت أيضا نشأة حربية حيث كانت الاسوار المحيطة بها رمزا للحماية والدفاع ، كما أنها كانت تمثل مراكز تجارية هامة • ويبدو أن البعد السياسى كان من أهم الابعاد التى ميزت بين المدن الغربية والمدن الاسلامية خـلال العصـور الوسطى • فبينما كانت الاولى تشهد بناء طبقيا جامدا ، كانت الثانية تؤكد المساواة بين المواطنين سواء بين سكان المدن أو بينهم وبين سكان الريف •

---

(1) A. Hourani; «The Islamic City in the Light of Recent Research»; in The Islamic City; ed. A. Hourani & S. Stern; London; 1970.

(2) Max Weber; The City; New York; 1958.

ولقد أوضح حورانى فى معرض مناقشته لطبيعة المدن الاسلامية الـــدور الذى لعبته المناطق الريفية المحيطة بها فى تدعيم نموها الاقتصادى ، وان المناطق الريفية كانت بحاجة الى « حاكم حضرى » يسيطر عليها ويدير شئونها • والواقع أن الضرائب التى كان يدفعها الفلاحون قـــد أسهمت فى تحقيق مزيد من النمو الحضرى[1] •

ويبدو أن هناك قدرا ملحوظا من الاتفاق بين المؤرخين على أن المدن الاسلامية قـــد شهدت طبقتين أو جماعتين متميزتين : الاولى تضم كبار التجار ، والثانية تتألف من العلماء أو رجال الدين الاسلامى[2] • وعلى الرغم من الروابط العديدة التى كانت تربط بين هاتين الجماعتين ، الا أنهما لم يشكلا — فى أى وقت من الاوقات — تحديا صريحا للسلطة السياسية • لقد كان الخليفة أو الحاكم الاســـلامى يعتمد على جماعات من الموظفين لادارة الشئون العامة والاشراف على مختلف نشاطات الدولة ابتداء من العدل حتى الدفاع • أما علاقة الحاكم برؤساء القرى وشيوخ أحياء المدن والصناع وأهل الذمة ، فلم تكن تتجاوز جباية الضرائب والجزية • والملاحظ أن معظم كبار الموظفين التابعين للخليفة أو الحاكم كانوا من أصول حضرية ، مما اتاح فرصا عديدة للاتصال بالسكان دون الاستعانة بتنظيمات رسمية متطورة • ويبدو أن الفتح الاسلامى لم يكن مرتبطا — فى معظم الاحيان — بظهور تنظيمات بيروقراطية ضخمة ومتطورة تتلاءم مع النشاطات العديدة المعقدة التى فرضتها ظروف التطـــور الاقتصادى والاحتكاك الثقـــافى • فالطوائف الحرفية والاسواق والحمامات والمجالس البلدية وجـــدت جميعها فى منطقة الشرق الاوسط قبل الفتح الاسلامى • وربما كانت الاسرة هى أهم جماعة اجتماعية شهدتها المدن الاسلامية خـــلال العصـــور الوسطى ؛ حيث كانت تؤدى أدوارا مهنية وتعليمية وسياسية بالغة الاهمية • واذا كانت هـــذه المـــدن قـــد عرفت صـــورا مبكـــرة من التخطيط الحضرى

(1) A. Hourani; «The Islamic City....»; op. cit.

(2) S. M. Stern; «The Constitution of the Islamic City»; in The Islamic City; op. cit; p. 29.

كالميادين الكبيرة والحدائق العامة ، فان ذلك يعود الى النزعات الخيرية لبعض الحكام أكثر مما يعود الى اعتبارات بيئية وتنظيمية •

وهناك ارتباط ملحوظ بين البناء الايكولوجى والبناء الاجتماعى للمدن الاسلامية ، على الرغم من العوامل التى أدت الى تباينات هامة فى هذا المجال كالموقع والمناخ والمبانى والسمات الثقافية عموما • فلقد كانت المدن الاسلامية الاساسية مقرا للسلطة السياسية ؛ ومركزا لادارة الشئون الدينية ، وحصنا قويا للدفاع القومى • وفى هذه المدن كان يوجد مقر الحاكم الذى يتخذ فى بعض الاحيان شكل ضاحية منفصلة كما هو الحال بالنسبة للفسطاط فى مصر • وقد يوجد هذا المقر داخل تجمع حضرى قائم بالفعل كما هو الحال بالنسبة لقصر توبكابى فى اسطنبول • كذلك فلقد كان « المسجد الكبير » والسوق من أهم معالم هذه المدن • والواقع أن « المسجد الكبير » فى المدينة الاسلامية كان يؤدى وظائف متنوعة : فهو مكان للصلاة والعبادة ، وهو مركز ثقافى وتعليمى ، وهو أيضا مقر للتقاضى ، بل انه كان مجالا لكثير من النشاطات الاخرى كتناول الطعام والترفيه [1] • ويرتبط بهذا « المسجد الكبير » عددا من المدارس الدينية التى تتولى تدريس علوم الدين الاسلامى • وباستثناء « المسجد الكبير » وقصر الحاكم لم تشهد المدن الاسلامية المبكرة مبانى ضخمة مميزة • وفى بعض الاحيان كانت توجد مستشفى بجانب هذا المسجد[2] • أما الحمامات فكانت بمثابة أماكن تتم فيها العلاقات الاجتماعية غير الرسمية من خلال عمليتى الاستحمام والتدليك • ويعد السوق أحد الملامح الايكولوجية المميزة للمدن الاسلامية • ففى داخله مجموعة كبيرة من المحلات التجارية التى تتفاوت فى أحجامها ونشاطاتها • وغالبا ما تكون منطقة السوق ذات

---

(1) V. t. Costello; Urbanization in the Middle East; Cambridge Univ. Press; London; 1977; p. 10.

(2) O. Graber «The Illustrated Maqamat of the Thirteenth Century : The Bourgeoisie and the Arts»; in The Islamic City; op. cit; p. 213.

أسقف قماشية لحماية الناس من حر الصيف ومطر الشتاء ، كما أنها تضم ميدانا داخليا وعدة بوابات تقفل فى المساء خوفا من نهب اللصوص وقطاع الطرق • أما مساكن عامة الناس فى هذه المدن الاسلامية فكانت نمطية الى حد كبير • اذ كانت هذه المساكن شبيهة بتلك التى نألفها الآن فى مدن دول الخليج العربية وبعض المدن الايرانية : طابق أو طابقين يحيط بهما فناء صغير • ويبدو أن هذا النمط من المسكن يتلاءم مع ظروف المناخ وطبيعة الحياة الاسرية الاسلامية • ومن خلال التصميمات الهندسية للمساكن المختلفة التى وجدت فى المدن الاسلامية يمكننا أن نفهم كيف ان الظروف المناخية القاسية — وعلى الاخص درجة الحرارة العالية فى الصيف — قد أدت الى اقامة منافذ ومساقط للهواء البارد ، فضلا عن المبالغة فى عدد النوافذ ، والافادة قدر الامكان من سقف المسكن خلال الامسيات الصيفية • ومن الواضح أن خطة المساكن فى تلك الفترة كانت تتلاءم تماما مع الظروف الخاصة للاسرة الاسلامية • فالرجال كانوا يجلسون فى حجرات الضيافة ، بينما كانت النساء (أو الحريم) تقبع فى حجرات خاصة نائية • وكان ذلك يتطلب فى بعض الاحيان أن يكون المسكن من طابقين يخصص الادنى منه لاستقبال الضيوف ، بينما يخصص الاعلى لاقامة النساء •

وتعد مدينة القاهرة خلال العصور الوسطى من أبرز الامثلة المعبرة عن طابع المدن الاسلامية خلال تلك الفترة • ففيما بين سنتى ٩٧٠ و ١٢٥٠ ميلادية خضعت مصر لحكم الفاطميين . ونمت كنتيجة لذلك مدن البحر المتوسط بسبب انتعاش التجارة وسيولة المواصلات • والواقع أن المجتمع الحضرى المصرى قد شهد خلال تلك الفترة حركة تجارية واسعة النطاق ارتبطت بتسامح دينى وحرية ثقافية • أما مدينة القاهرة فكانت تخضع لسيطرة حاكم عسكرى يستعين بقوات الامن والقضاة فى تحقيق النظام والاستقرار • وكانت المدينة تنقسم فى ذلك الحين الى عدة مناطق أو شياخات • ولكى يضمن الحاكم تحقيق مزيد من السيطرة على المدينة ، كان يستعين بقوات سرية أو « مخبرين » تنقل اليه معلومات عن الخلافات

التى تنشأ بين الجماعات الدينية والسياسية المتصارعة[1] • أما العلاقه بين مدينة القاهرة والمناطق الريفية فكانت علاقة ذات طابع شخصى فى المحل الاول • فكثير من أغنياء المدينـــة كانوا يملكون أراضى زراعية فى القرى المصرية ، بينما كان الفلاحون يقومون بأقسى الاعمال البدنية • ويبدو أن سكان مدينة القاهرة كانوا يبدون نفورا من الثقافـــة الريفية ، حتى أن زواج قاهرى من ريفية كان يبدو أمرا صعبا ، ان لم يكن مستحيلا[2] • وخـــلال تلك الفـــترة كان بالامكان تقسيم مدينـــة القاهرة الى طبقتين أساسيتين : الاولى هى الطبقة العليا التى تضم كبار رجـــال الاعمال ، والثانية هى الطبقة الدنيا التى تضم العمال اليدويين • والواقع أن موظفى الدولة لم يصلوا الى حد تشكيل طبقة إجتماعية محددة المعالم ، مما ساعد على ظهور الاستقطاب الطبقى الذى حال دون ظهـــور طبقة اجتمـــاعية وسطى • والملاحظ أن المكانات الاجتماعية فى مدينة القاهرة كانت موروثة الى حد كبير • فالابناء يميلون الى العمل فى نفس المهن التى يعمـــل بهـــا آباؤهم ، وان كان التعليم الدينى قد سمح لبعض الابناء من الحصول على مكانات اجتماعية رفيعة • ومن بين الرموز التى كانت تشـــير الى المكانة الاجتماعية المرتفعة اقامة الولائم والبذخ فى المناسبات العامـــة • ويبدو أن القاهريين قد ربطوا كثيرا من المهن بالمكانة الاجتماعية المنخفضة كالكناسين ومنظفى الحمامات ، بل ان الحرف اليدوية قـــد بدت فى بعض المناسبات وكأنها تتخذ وضعا متدنيا داخل البناء الاجتماعى • ولقد أوضح باير Baer أن المرأة فى مدينة القاهرة خلال العصور الوسطى كانت تعمل فى الصناعات الحرفية الى جانب أعبائها المنزلية ، بل ان هذه المدينة قد عرفت عـــددا

(1) S; D; Goitein; «Cairo : An Islamic City in the Light of the Geniza Documents»; in I. M. Lapidus; (ed); Middle Eastern Cities; Berkeley and Los Angeles; 1969; p. 91.

(2) S; D; Goitein; A Mediterranean Society : The Jewish Community of the Arab World; Vol. 1 : Economic Foundations; Cambridge; Mass: 1967.

ملحوظا من الممرضات والخياطات والماشطات[١] .

أما الاقليات الدينية (اليهودية والمسيحية) التى عاشت فى مدينة القاهرة خلال تلك الفترة ، فكانت تميل الى تشكيل مجتمعات محلية مستقلة تعيش على مقربة من المعابد والكنائس . ولقد عاشت هذه الاقليات فى ظل تسامح دينى مكنها من مشاركة المسلمين فى كثير من النشاطات الاقتصادية والثقافية . أما حرية العبادة لهذه الاقليات فكانت مكفولة بشرط أن تدفع الجزية المفروضة عليها ، وألا يصدر عنها مايهدد النظام السياسى . ونظرا لحرص هذه الاقليات على الارتباط بالحكام السياسيين ، فانها قد تمتعت بنفوذ كبير حتى بدت وكأنها تشكل دولة داخل الدولة . ولقد استمرت هذه الظروف حتى بداية القرن الثالث عشر ، حينما بدأت النزعة الاقطاعية العسكرية تمارس سيطرتها على مصر . وباقامة مدينة الفسطاط اختفت العزلة المكانية الواضحة بين المسلمين والمسيحيين واليهود حيث أصبحت مساكنهم متجاورة ، كما ظهر امتزاج طبقى حضرى واضح حينما تجاورت مساكن الحرفيين ذوى المكانات الاجتماعية المتباينة[٢] . وهناك شواهد تاريخية عديدة تشير الى أن عددا كبيرا من مساكن هؤلاء الحرفيين قد تحولت الى ورش صغيرة للغزل والنسيج . بيد أن ذلك كله لا يعنى أن الفسطاط لم تكن تخضع لخطة حضرية . فلقد ظلت الطبقة العليا تقيم فى مناطق خاصة وتعيش فى مساكن متميزة الى حد بعيد اذا ما قورنت بالطبقة الدنيا .

ويبدو أن كثيرا من الخصائص الحضرية التى ميزت القاهرة خلال تلك الفترة قد وجدت — بدرجات مختلفة — فى المدن الاسلامية الاخرى كدمشق وبغداد[٣] . فهناك شواهد تاريخية تشير الى أن هذه المدن قد

---

(1) G. Baer; Studies in Social History of Modern Egypt; Chicago; 1969.

(2) R; Levy; The Social Structure of Islam; Cambridge; 1962.

(3) P. Hitti; History of the Arabs from the Earliest Times to the Present; London; Macmillan & Co LTD; 1960; pp. 343-351.

شهدت ارتفاعا ملحوظا فى عـدد العاملين بالصناعات الحرفية . فلقـد اشتهرت البصرة بصناعة الصابون والزجاج ، كما عرفت القاهرة بصناعة الكتان والمشغولات اليدوية . كذلك فلقد شـهدت هذه المدن نموا كبيرا فى عدد العاملين بالمهن الكتابية والادارية بسبب التوسـع فى اقامة الدواوين المختلفة . ومن بين المهن الهامة التى ظهرت خلال تلك الفترة مهنة «الكاتب» التى كانت تختص باذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسـائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة ، ومهنة « الحاجب » التى كانت تتولى تقديم الناس للخليفة طبقا لمكاناتهم وأهمية أعمالهم . ومن خلال الكتابات المختلفة المتاحـة عن هذه الفترة يمكن القول ان الوظائف السياسية كانت تحتل قمـة البناء الاجتماعى . فعلى سبيل المثال نجد ابن المدبر يفرق بين أربع طبقات أساسية هى : الخلافة ، والوزراء والكتاب ، وأمراء الثغور وقواد جيوشهم ، وأخيراً القضاه[1] . أما المكانة الاجتماعية للتجار وأصحاب الحرف فكانت موضع خلاف . فبينما نجد ابن الفقيـة يضعهم فى أدنى السلم الاجتماعى ، نجد اخوان الصـفا يشيرون فى شىء من المبالغة الى أن « الناس كلهم اما صناع أو تجار »[2] . ويفسر ابن خلدون التنوع المهنى الذى شهدته المدن الاسلامية قائلا : « فاذا زخر بحر العمران وطلبت فيـه الكماليات ، كان من جملتها التـأنق فى الصـنائع واجادتها ، فكملت بجميع متمماتها وتزايدت صنائع أخرى معها مما تدعـو اليه عوائد الترف وأحواله من جزار ودباغ وخراز وصائغ وأمثال ذلك . وقد تنتهى هذه الاصناف اذا ما استبحر العمران الى أن يوجد منها كثير من الكمالات ، والتأنق فيها فى الغاية ، وتكون من وجـوه المعـاش فى المصر لمنتحلها ، بل تكون فائدتها من أعظم فوائد الاعمال ، لما يدعو اليه الترف فى

---

(١) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، العصر العباسى الثانى فى الشرق ومصر والمغرب والانـدلس ، القاهرة ، النهضة المصرية ، الجزء الثالث ، ص ٢٧١ وما بعدها .

(٢) فون جرونباوم ، حضـارة الاسلام ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، القاهرة ، مكتبة مصر ، بدون تاريخ ، ص ٢٧٦ .

المدينة مثل الدهان والصفار والحمامى والطباخ والسفاح والهراس ومعلم الغناء والرقص وقرع الطبول على التوقيع ، ومثل الوراقين الذين يعانون صناعة انتساخ الكتب وتجليدها وتصحيحها ، فان هذه الصناعة انما يدعو اليها الترف فى المدينة من الاشتغال بالامور الفكرية وأمثال ذلك ...»[١] .

على أن علامات الانهيار الحضرى ما لبثت أن ظهرت واضحة على المدن الاسلامية فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر . وأحد أسباب ذلك ظهور الدولة العثمانية وانهيار الامبراطورية البيزنطية فى منتصف القرن الخامس عشر . لقد أطاح العثمانيون بالمماليك وفرضوا سيطرتهم على الشرق الاوسط بأكمله باستثناء فارس وبعض الاراضى المتنازع عليها مع الامبراطورية الرومانية . وفى ظل حكم العثمانيين بدأت الطوائف الحرفية فى المدن الاسلامية تتعرض لتغيرات كبيرة لعل أبرزها خضوعها لتفرقة حادة بين كل من سادة الحرف والصناع والصبية الصناعيين . ومن خلال ذلك بدأت هذه الطوائف تمارس احتكارا تجاريا لكثير من السلع[٢] . والواقع أن الدولة العثمانية قد أقامت تحالفا قويا مع هذه الطوائف بهدف إحكام السيطرة على النشاطات الاقتصادية والسياسية فى البلاد . ويبدو أن الطوائف الحرفية التى كانت قائمة فى المدن الفارسية قد شهدت نفس هذه الظروف ، اذ بدت وكأنها صورة مماثلة للطوائف التركية[٣] . وعلى أية حال فان الانجازات الحضرية الاسلامية (السياسية والعسكرية والثقافية) قد وصلت الى قمة ذروتها فى أوائل القرن السادس عشر ، حينما اعتقد المسلمون أنهم ليسوا بحاجة الى معرفة أى شىء عن « الغربيين البرابرة » . ومع ذلك فان القضية التى ماتزال تفرض نفسها هى استمرار الاتساع المكانى للامبراطورية العثمانية

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، القاهرة ، لجنة البيان العربى ، ص ٩٣٢ .

(2) H. A. Gibb; Islamic Society and the West; London; 1950.

(3) Issawi; The Economic History of the Middle East; Chicago; 1966.

برغم الانهيار الدائم فى الحياة الحضرية للمدن التابعة لها • فلقد شهدت المدن الاسلامية خلال تلك الفترة انخفاضا ملحوظا فى أعداد سكانها بسبب الغزوات العديدة التى تعرضت لها من جانب الصليبين والمغول والاتراك • وتشير البيانات التاريخية إلى ان عدد سكان مدينة بغداد خلال القرن السادس عشر كان يتراوح فيما بين ٥٠٫٠٠٠ و ١٠٠٫٠٠٠ نسمة ، وهو رقم لا يصل الى عُشر الرقم الذى وصل اليه سكان هذه المدينه فى وقت لاحق • ولقد أوضح شارل عيسوى أن سكان مصر خلال القرن الثامن عشر لم يكن يزيد عن ٢٫٥ مليون نسمة ، بينما كان يصل الى أربعة ملايين نسمة خلال القرن الرابع عشر [١] • كذلك فلقد انخفضت أعداد السكان فى كل من سوريا والعراق وشبه الجزيرة العربية ، كما تقلصت مساحة الاراضى المنزرعة وتعرضت التجارة للانهيار السريع • واذا كانت الاسكندرية وطرابلس (الغرب) وبغداد قد ظلت كمراكز تجارية هامة خلال القرن السابع عشر ، فان ذلك يعود الى ظروف عارضة تشكل الاستثناء من القاعدة •

ومن بين العوامل الاقتصادية التى أدت الى الانهيار العام للحياة الحضرية فى المدن الاسلامية استنفاذ مصادر الاخشاب • فلقد كانت الصناعة الحرفية الخشبية أحد الصناعات المزدهرة فى هذه المدن ابتداء من بناء السفن حتى صناعة المحاريث والفؤوس • على أننى أعتقد أن الظروف الخارجية والداخلية التى تعرضت لها المدن الاسلامية كانت من أهم عوامل انهيارها • فلقد أدت الغزوات الصليبية والمغولية والتركية الى تحويل الدول العربية الى مجتمعات عسكرية « اقطاعية » • فبينما كانت الامبراطورية العثمانية تتعرض لضعف سياسى وعسكرى بسبب حروبها المستمرة ، تعرضت — فى نفس الوقت — لهزات اقتصادية خطيرة بسبب النمو الصناعى والتجارى الذى بدأت تحققه الدول الاوربية فى ذلك الحين[٢] • وهكذا بدأت السلطة المركزية للامبراطورية تتعرض للضعف

---

(1) Ibid; pp. 3-4.

(2) Ira M. Lapidus; (ed.) Middle Eastern Cities; University of California Press; Berkeley; 1969; J. V.

الشديد ابتداء من القرن السابع عشر ، كما أبدت بعض الاقاليم رغبتها فى الاستقلال • وفضلا عن ذلك بدأت المدن الاسلامية خلال تلك الفترة تشهد تدهورا علميا وثقافيا لعل من أبرز ملامحه زيادة التزمت الدينى ، وضعف روح الاجتهاد فى تفسير النصوص القرآنية ، وعدم الحرص على ملاءمة القواعد الدينية مع الظروف الاقتصادية والاجتماعية المتغيرة • وعلى المستوى الاقتصادى ازداد الاحتكاك التجارى وبدأت الاقليات الدينية تحصل على مزيد من المزايا الاقتصادية التى مكنتها من ممارسة تأثير سياسى بالغ على الامبراطورية • ومن الملاحظات الساخرة أن تكون هذه الأقليات الدينية التى حققت أقصى درجات القوة والثراء هى المبرر الوحيد الذى استخدمته القوى الأوربية للتدخل فى الشئون الداخلية للامبراطورية العثمانية •

ولقد ظلت مدن الشرق الأوسط تتعرض للتدهور المستمر حتى بداية القرن التاسع عشر ، حينما بدأت تدخل مرحلة أخرى بسبب الغزو الأوربى لها وما أدى اليه ذلك من تغيرات اقتصادية وسياسية بعيدة المدى • ففى سنة ١٧٩٨ غزا نابليون بونابرت مصر فاتحا بذلك عهد جديد ارتبطت فيه مصر بالاقتصاد العالمى • بيد أن الجيوش الأوربية لم تدخل معظم دول الشرق الأوسط الا فى فترة متأخرة نسبياً ، أعنى فى أوائل القرن العشرين • ومن الطبيعى أن يؤدى الاحتكاك الاقتصادى بين القوى الاوربية ودول الشرق الأوسط الى تغيرات حضرية هامة لعل أبرزها : نمو التجارة ، وبداية التصنيع ، واستخدام التكنولوجيا الغربية • على أن أهم التغيرات التى حدثت على الاطلاق كانت زيادة نسبة التحضر • فلقد بدأت مدن الشرق الأوسط تشهد فى البداية زيادة تدريجية فى أعداد سكانها ، لكنها ما لبثت بعد الحرب العالمية الثانية أن شهدت نموا سكانيا صاعقا(1) • على

---

(1) Kingsley Davis and Hilda Hertz Golden; «Urbanization and the Development of Pre-Industrial Areas;» in Paul K. Hatt and Albert J. Reiss; Jr. (eds); Cities and Society; Free Press; New York; 1957; pp. 120-140.

أن هذا النمو الحضرى لم يكن مقصورا على دول الشرق الاوسط ، اذ يكاد يكون أحد الملامح المميزة لدول العالم الثالث • ويمكننا بعد ذلك مناقشة هذه القضايا النظرية وتوضيح أبعادها المختلفة فى ضوء الظروف الخاصة التى مرت بها مدن الشرق الاوسط خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين •

يبدو أن هناك اتفاقا كبيراً بين العلماء الاجتماعيين على أن منطقة الشرق الاوسط قد تحولت خلال القرن التاسع عشر من نمط اقتصاد الاعاشة الموجه الى تحقيق الكفاف ، الى نمط الاقتصاد النقدى الموجه الى التصدير والارتباط بالقوى الاستعمارية[١] • فعشية الحرب العالمية الاولى بدت التنمية الزراعية هى الامل الوحيد لتحقيق التقدم الاقتصادى ، إذ لم يكن النفط قد اكتشف بعد فى منطقة الشرق الاوسط • ونتيجة لذلك أقيمت بعض مشروعات الرى الهامة فى سوريا والعراق ومصر ، كما أدخلت المحاصيل النقدية أو التجارية التى تتلاءم مع احتياجات الاسواق الاوربية• وباستثناء مصر التى شهدت خلال تلك الفترة مشروعات صناعية «قزمية »، كانت دول منطقة الشرق الاوسط موجهة تماما لخدمة الاقتصاد الزراعى الغربى • واذا كانت رؤوس الاموال الاوربية قد حاولت ـ فى نفس الوقت ـ تدعيم الهياكل الاساسية الضرورية للنمو الاقتصادى ، فزودت المدن الكبرى فى الشرق الاوسط بالكهرباء والماء ووسائل الاتصال ، الا أن شئون التجارة والمال قد ظلت حكرا على الاوربيين • والواقع أن التقدم الصناعى الذى حققته المدن الاوربية كان على حساب الطوائف الحرفية التى زخرت بها مدن الشرق الاوسط • ومن هنا تبدو أهمية الفهم البنائى لظاهرتى التخلف والتقدم على المستوى العالمى[٢] • والمحقق أن هذه

---

(١) السيد الحسينى ، « القرية فى الدول النامية ، تحليل نقدى لبعض اتجاهات التغير الاجتماعى » فى : السيد الحسينى وآخرين ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٣٧٩ .

(٢) أندر جوندر فرانك ، علم اجتماع التنمية ، ترجمة السيد الحسينى ، فى ميادين علم الاجتماع ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

الطوائف الحرفية الحضرية قد كافحت كفاحا مستميتا من أجل البقاء فى مواجهة حركة التصنيع الغربية الهائلة التى عمت الاسواق بسلع جديدة لم تشهدها مدن الشرق الاوسط من قبل[1] • وهكذا بدأ البناء الصناعى لهذه المدن يتعرض لتغيرات عنيفة • ففى مدينة القاهرة بدأ شيوخ الاحياء يفقدون جانبا كبيرا من نفوذهم ، كما اضطرت الحكومة للتدخل فى شئون الطوائف الحرفية ووضعها تحت الرقابة المباشرة • ومن الامور التى يمكن تسجيلها خلال تلك الفترة أن المدن المصرية الكبرى قــد بدأت تشهد طبقة ادارية جديدة أحدثت تأثيرا بالغا على بناءاتها الاجتماعية • ولم تعد الاحيــاء تمثل وحدات اجتماعية مستقلة ، اذ بدأت تشهد خليطا سكانيا يعبر عن مختلف الطبقات والديانات • واذا كان بعض الدارسين يميلون الى تأكيد استمرار التفرد الاقليمى داخل المدن المصرية خلال تلك الفترة ، الا أن ذلك قد يؤدى الى تجاهل التغيرات الهامة التى طرأت عليها • من ذلك ــ مثلا ــ توقف الغارات التى كان يقــوم بها الاشقياء على الاحيــاء المختلفة ، والسيطرة التى بدأت تحققها قوات الامن على الحياة الحضرية ، وسهولة الاقامة أو الانتقال من حى لآخــر ، وتقلص دور رجــال الدين حتى أن تأثيرهم قد أصبح مقصورا على المجالات الاخلاقية[2] •

ومن خلال التغلغل الاوربى فى منطقة الشرق الاوسط طرأت تغيرات هامة على المناطق البدوية والريفية والحضرية • فالتجار الاوربيون بدأوا يجوبون المناطق الريفية لشراء المحاصيل الزراعية ثم تخزينها وتصديرها من الموانى التى عجلوا باقامتها • ومن الطبيعى أن يؤدى ذلك الى رواج اقتصادى فى بعض المدن الاقليمية ، وبالتالى نمو أحجامها وتنوع وظائفها • ويبــدو أن المدن الكبرى قد تعرضت لبعض الانكماش بسبب انهيــار الصناعات الوطنية والحرفية • وربما كان أكبر تغير حضرى شهدته منطقة

(1) C. Issawi; The Economic History of the Middle East; op. cit; p. 112.

(2) G. Baer; Studies in Social History of Modern Egypt; op. cit; pp. 216-220.

الشرق الاوسط خلال القرن التاسع عشر ظهور المدن المصرية الواقعة على قناة السويس (بورسعيد والاسماعلية والسويس) • اذ أن هـذه المدن تدين فى نشأتها ونموها وازدهارها الى حفر هذه القنـاة ونمـو حركـة التجارة عبرها • وبغض النظر عن هـذه الحالة الاستثنائية ، فان آثـار التوسع الاوربى قد انتقلت من المـدن الكبرى الى القـرى الصـغيرة فى منطقـة الشرق الاوسـط[1] • إذ أن ادخـال المحاصـيل النقـدية قـد أدى الى التوسـع فى الملـكية الخاصـة للاراضى الزراعيـة ، ممـا أسـهم فى تعميـق الهـوة بين المـالكين وغـير المـالكين [2] • وهكذا نجد معالم التغير تلوح فى الافق • فالاقتصاديات القومية لـدول الشرق الاوسط بدأت تتجه لخدمة أهداف القوى الاستعمارية ، وأصبحت النقود — ولأول مرة — هى الوسيلة الاساسية للتبادل ، كما بدأ التجار الاوربيون يحكمون سيطرتهم على الانتاج الزراعى • أما المـدن الاقليمية فقد بدأت تشهد ازدهارا ملحوظا ، لكن الى حين •

ولقد أحدثت هذه التطورات الاقتصادية والسياسية تأثيرا بالغا على مواقع مدن الشرق الاوسط • اذ بدأت المدن الساحلية أو الموانى تحقق أهمية كبيرة نتيجة لضرورات التصـدير وتقدم وسائل الاتصال • وبفضل اكتشاف السفن البخارية ومد السكك الحديدية ، أصبحت مـدن الشرق الاوسط أكثر خضوعا للمدن الغربية التى كانت تحقق فى ذلك الحين نموا اقتصاديا يفوق الخيال • وخلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ،بدأت موانى البحر المتوسط تشـهد انتعاشا اقتصاديا تدريجيا ، بينمـا أدى افتتاح قناة السويس الى تدعيم المصالح البريطانية وانتشارها ، مما أدى

---

(1) I. H. Harik; «The Impact of the Domestic Market on Rural-Urban Relations in the Middle East»; in R. Antoun and I. Harik; (eds); Rural Politics and Social Change in the Middle East; Bloomington; Ind., 1972; p. 349.

(2) G. Baer; Studies in Social History of Moden Egypt; op. cit; pp. 62-78.

الى نمو بعض المدن البحرية الهامة مثل جـدة وعدن والبحرين وخورم شهر • ويبدو أن النمو السكانى الذى شهدته هذه المدن البحرية قد تحقق من خلال هجرة آلاف الهنود والاندونيسيين والصوماليين اليها • فلقد أشار شارل عيسوى الى أن أكثر من ربع سكان مدينتى الاسكندرية وبورسعيد فى سنة ١٩٠٧ كانوا من الاجانب[1] • ومهما يكن من أمر ، فان النمو الحضرى الذى شهدته هذه المدن كان بطيئا للغاية خلال النصف الثانى من القـرن التاسع عشر • اذ أن النمو السكانى الذى شهدته المـدن البحرية كان على حسـاب المـدن الداخلية ، إن لم نقـل على أنقاض الصناعات الحرفية المنهارة • ففى مصر بلغ عدد سكان الحضر فى سنة ١٨٢١ حوالى ٤٠٠٫٠٠٠ نسمة ، ثم ارتفع هذا الرقم فى سنة ١٩٠٧ الى ١٫٥٩٦٫٠٠٠ وعلى الرغم من هذه الزيادة الملحوظة فى عدد سكان الحضر ، الا أن نسبتهم فى ضـوء العدد الكلى لسكان مصر قد ارتفعت فقط من ٥ر٩٪ الى ٣ر١٤٪ • وينطبق ذلك أيضا على سوريا التى كانت دولة حضرية قبل القرن التاسـع عشر ، كما ينطبق على العراق التى لم تشهد نموا حضريا ملحوظا فيما بين سنتى ١٨٦٧ و ١٩٣٢ • وهناك بعض التغيرات الحضرية الهامـة التى يمكن أن نسجلها خلال تلك الحقبة • ففى أواخر القرن التاسـع عشر بدأت بعض مدن الشرق الاوسط تعرف الضواحى الحضرية الصغـيرة المنفصلة التى تقع خارج الاسوار التى أقيمت فى فترة مبكرة • وفى معظم الاحيان كانت هذه الضواحى تتخذ نمطا حضريا غربيا • ومن هنا يمكن القول إن ظهور نمط الضواحى فى مدن الشرق الاوسط كان بتأثير عوامل خارجية وليس بفعل ضروريات داخلية • ويبدو أن المدن الساحلية كانت أكثر عرضة للتغير والنمو من المدن الداخلية بسبب تعرضها للغزو المباشر من الخارج وضرورة تكيفها مع متطلبات التجارة العالمية النامية •

---

(1) C. Isawi; The Economic History of the Middle East; op. cit; pp. 108-109.

وعشية الحرب العالمية الاولى تفككت أوصال الامبراطورية العثمانية. وبدأ الشرق الاوسط يشهد أوضاعا سياسية واقتصادية تختلف عن تلك التى ظل يشهدها لقرون عديدة • ولولا الاصلاحات الداخلية الهامة التى قام بها كمال أتاتورك ، ورفض تركيا لفكرة تقسيم الشرق الاوسط الى دول قومية مستقلة ، لتغيرت معالم الخريطة السياسية لهذه المنطقة فى وقت مبكر • وفى ضوء هذه النظرة العامة يمكننا تحليل عوامل النمو الحضرى فى دول الشرق الاوسط فى الفترة اللاحقة على الحرب العالمية الاولى • إذ أن هذه الدول قد شهدت خلال العقود الخمسة الاخيرة زيادة ملحوظة فى نسب سكانها الحضريين • ويمكننا تفسير ذلك فى ضوء أربعة عوامل أساسية هى : المركزية السياسية ، والاضطرابات السياسية الداخلية ، وتغير طابع التجارة الخارجية والعلاقات الخارجية عموما ، وأخيرا اكتشاف النفط واستغلاله فى صناعات مختلفة • فاذا ما تناولنا العامل الاول (المركزية السياسية) ، لاحظنا أن النمط الادارى الاوربى (وعلى الاخص الفرنسى والالمانى) قد تغلغل فى مناطق الامبراطورية العثمانية فى وقت مبكر نسبيا ، قد يعود الى بداية القرن التاسع عشر[1] • ويقوم هذا النمط الادارى على تركيز الوظائف الادارية • وقد يفسر لنا ذلك أسباب نشأة بعض المدن فى الشرق الاوسط • اذ ان هذه المدن لم تنشأ نتيجة لضرورات اقتصادية بقدر ما نشأت لخدمة أغراض ادارية • ولنا أن نستنتج من ذلك عدم وجود علاقة قوية بين مؤشرات النمو الاقتصادى من ناحية ودلائل النمو الحضرى من ناحية أخرى[2] • ففى العراق وسوريا ولبنان ارتبط الاستقلال السياسى بتركيز الوظائف الادارية والسياسية فى مدنها الرئيسية أو إن شئنا الدقة فى عواصمها السياسية • ولاشك أن نمو سكان المدن قد مارس بعض الضغوط الاقتصادية والسياسية على الحكومات ،

---

(1) Kenneth Little; Urbanization as a Social Procoss; London; 1974;

(2) See S. E. Ibrahim; «Urbanization in thc Arab World»; Population Bulletin of the United Nations Economic Commission for Western Asia 7 (1974); 74-124.

خاصة وأن مشروعات التنمية الصناعية قد ارتبط باهمال المناطق الريفية • وفيما بين الحربين العالميتين شهدت دول الشرق الاوسط تقدما ملحوظا فى فى وسائل الاتصال ، مما ساعد على تدعيم الامن فى كل من المناطق الريفية والحضرية • بيد أن التوسع فى مشروعات الرى ، واستبدال الحيوانات بالآلات الميكانيكية قد حدا من حركـــة القبائل البدوية فى كثير من المناطق الصحراوية[1] • وليس من الصدفة أن يكون نمو الوعى السياسى فى مدن الشرق الاوسط قد ارتبط بزيادة معـــدلات الهجرة الريفية ــ الحضرية وضعف النمو الصناعى الذى ارتبط ببطالة حضرية واسعة النطاق •

كذلك فلقد أدت الاضطرابات السياسية التى شهدتها منطقة الشرق الاوسط بعد الحرب العالمية الاولى الى نمو حضرى سريع المدى • ففى سنة ١٩١٤ هاجر ٥٠٫٠٠٠ أرمنى هربا من المذابح التى أقامها لهم الاكراد • كما أن إنشاء دولة اسرائيل قد أدى الى هجرة ٩٠٠٫٠٠٠ فلسطينى الى مناطق أخرى لعل أهمها عمان وبيروت والرياض ودول الخليج العربـــى • وفضـــلا عن ذلك أدت بعض الاضطرابات الداخلية فى بعض الـــدول الى إرتفاع معدلات الهجرة الريفية ــ الحضرية ، خاصة اذا ما كان الامـــر متصلا بالانقلابات العسكرية[2] • واذا ما انتقلنا الى تأثير تغـــير نمط التجارة على النمـــو الحضرى ، لاحظنا ان قناة السويس قد أعادت تحديد موقع دول الشرق الاوسط • لقد أعادت القناة توجيه العـــلاقات المكانية ، بل أكاد أقول خلقت عالما جديدا • فبواسطة القناة نمت حركـــة التجارة العالمية ، وازدادت السياحة ، وأصبح الحج الى المدن الاسلامية فى متناول اليد • ولا نستطيع أن نغفل فى هذا المجال تأثير « الخروج الابيض » على النمو الحضرى فى دول الشرق الاوسط • فمن الحقائق التاريخية المألوفة ان الاوربيين فى مصر وتركيا والشـــام كانوا يتولون خلال القرن التاسع

---

(1) Z; Y; Herschlag; Introduction to the Modern Economic History of the Middle East; Leiden; 1964; p. 112.

(2) G. E. Ffrench and A. G. Hill; Kuwait : Urban and Medical Ecology; Heidelberg; 1971; p. 13.

عشر ، وظائف الطبقة الوسطى المتصلة بالادارة والتجارة • وبانتهاء الحرب العالمية الثانية ، بدأت هذه الدول تستبدل الاوربيين بالوطنيين ، مما كان له أكبر الاثر فى نمو سكان المدن وتغير أنماطها الايكولوجية •

وأخيرا فلقد كان لظهـــور البترول تأثيرا بالغا على النمط الحضرى فى منطقة الشرق الاوسط • فلقد شهدت الســـعودية والكـــويت وقطـــر والامارات العربية نموا سكانيا حضريا بمعـــدل الصاعقة • اذ تضاعفت نسبة سكان الحضر أربع مرات خلال ربع قرن (من ١٩٥٠ حتى ١٩٧٤) • ففى الكويت ارتفعت النسبة من ٥١٪ عام ١٩٥٠ الى ٩٠٪ عام ١٩٧٤ ، وفى قطـــر من ٥٠٪ الى ٧٦ر٥٪ ، وفى الامارات العربية من ٢٥٪ الى ٦٤ر١٪[1] • ومثل هذا يمكن أن ينطبق ــ الى حـــد ما ــ على ليبيـــا والجزائر وعمان والعراق • ففى هذه الدول ظهرت مدن البترول بين يوم وليلة ، فتدافع اليها المغامرون والمضاربون حتى وصلوا الى أقصى وأقسى البيئات • وتظهر هذه المدن فى بداية الامر كمجموعة خيام ، فاذا ما نجح البئر انفجرت المدينة فى نوبة رخـــاء محمومة فتنمو نموا مذهلا فى معدله وسرعته[2] • والملاحظ أن معظم مدن استخراج البترول فى هـــذه الدول هى من المدن الصغيرة الحجم ، اذ أن حياتها مرتبطة بسرعـــة الاستخراج مما يهدد عمرها المنتظر • وهكذا فبقدر ما تكون النشأة فجائية سريعة ، بقدر ما تكون النهاية القريبة قدرا محتما • وما تلبث أن تتحول هذه المدن الشيطانية الى « مدن أشباح » ، أو كما يقال « جبانات حضرية » • واذا كانت هذه المدن واقعة فى مناطق زراعية فانها عند نشأتها تأخـــذ الارض من الزراعة والفلاحين ، ولكن عند انقراضها لا تعود الزراعة ولا الفلاحون بعد أن حولها التعدين الى جيوب مهجورة وتربة فاســـدة • وعندما اكتشف

---

(١) هيفاء الشنوانى ، « ظاهرة النمو الحضرى » ، المؤتمر الرابع عشر للشئون الاجتماعية ، جامعة الدول العربية ، ١٩٧١ ، ص ص ٢ ــ ٣ •

(٢) جمال حمدان ، جغرافية المدن ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٨ •

البترول فى منطقة الشرق الاوسط كان التكرير يتم داخلها • بيـد أن زيادة الطلب على البترول ، ونمو أحجام الناقلات البحرية ، ومراعاة الاعتبارات الاستراتيجية والسياسية ، قد أدت جميعها الى نقـل معامل التكرير الى الدول الصناعية الغربية ، وان كنا نلحظ فى السنوات الاخـيرة اتجاهـا عكسيا • والواقع أن ظهور البترول لم يؤثر فقط على الدول المنتجـة له (كالسعودية وايران والامارات العربية والكويت وقطر والعراق وليبيا) ، بل انه قد أحدث تأثيرا غير مباشر على دول أخرى كمصر (من خلال قناة السويس) ولبنان (من خلال مصارفها وذلك قبل نشوب الحرب الاهلية فى سنة ١٩٧٥) •

واذا ما تناولنا أنماط النمو الحضرى فى دول الشرق الاوسط ، لاحظنا وجود اختلافات واضحة بينها برغم الاستمرار المضطرد فى زيادة نسـبة سكان المدن[1] • وقد يدفعنا ذلك الى القول بأن دول الشرق الاوسط تشهد « عموميات » حضرية بقدر ما تشهد « خصوصيات » سكانية • ففى تركيا ارتفعت نسبة سكان الحضر فيما بين سنتى ١٩٣٥ و ١٩٥٠ من ٦ر٧٪ الى ٧ر١٨٪ ، لكن هذه النسبة ما لبثت أن ارتفعت فيما بين سنتى ١٩٥٠ و ١٩٦٥ الى ١٣٨٪ • ولقد كانت الهجرة الريفية ــ الحضرية السبب المباشر فى ارتفاع معدل النمو الحضرى فى تركيا[2] • وفى مصر لم تكن نسـبة سكان الحضر فى سنة ١٨٩٩ تزيد عن ٥ر١٤٪ من مجموع السـكان ، بينما وصلت فى سنة ١٩٦٦ الى ٤١٪ • أما البيانات الاحصائية الحديثة فتشير الى أن هذه النسبة قد وصلت فى سنة ١٩٧٤ الى ٣ر٤٤٪[3] • وفى ايران ارتفعت نسبة سكان الحضر من ٢١٪ خـلال عقد الاربعينيات الى ٣١٪

---

(1) J. D. Clarke; «Introduction»; in Population of the Middle East and North Africa; ed. by I. Clarke and W. B. Fisher; London; 1972.

(2) J. Dewdney; «Turkey : Recent Population Trends»; in Ibid; p. 113.

(٣) انظر البيانات السكانية المتعلقة بمصر فى :
United Nations Year Book; 1974.

فى سنة ١٩٥٦ و ٣٩٪ فى سنه ١٩٦٦[1] • أمــا العراق فقد ظلت نسبة سكان الحضر فيها ثابته نسبيا (٢٥٪) فيما بين سنتى ١٨٦٧ و ١٩٣٠ • ولقد وصل معدل النمو السنوى للمــدن العراقية فيما بين سنتى ١٩٥٧ و ١٩٦٥ الى ٥ر٧٪ ، بينما كان معدل النمو السكانى فى العراق ككل ٣ر٥٪ ويفسر بعض الدارسين ذلك فى ضوء ارتفاع معدلات الخصوبة فى المــدن العراقية بوجه عام ، فضــلا عن تأثير الهجرة الريفية الحضرية[2] • وفى سوريا ارتفعت نسبة سكان الحضر من ٣٧٪ فى سنة ١٩٦٠ الى ٤٠٪ فى سنة ١٩٧٠ • وربما كانت دمشق هى أكبر المدن السورية التى شهدت نموا سكانيا • أما بالنسبة للمملكة العربية الســعودية فان التقديرات تشــير الى أن نسبة سكان الحضر قد ارتفعت فيها من ٢٤٪ الى ٣٣٪ فيمــا بين سنتي ١٩٦٢ و ١٩٧٠ ، وأن هــذا الارتفاع يعود الى اتســاع نطاق عملية توطين البــدو[3] • وعلى الرغم من أننا لا نملك بيانات احصائية أحدث عن السعودية ، الا أننا نتوقع ارتفاعا ملحوظا فى نسبة سكان الحضر بسبب اتساع نطاق العمالة الوافدة الضرورية لانجاز مشروعات التنميــة الاقتصادية والاجتماعية • ومثل هذا يمكن أن ينطبق — بدرجات مختلفة — على دول الخليج العربية التى أشرنا الى طابع النمو الحضرى فيها قبــل قليل • أما فى ليبيا فقد ظلت نسبة سكان الحضر فيهــا منخفضة الى حد كبير حتى بداية ستينات القرن العشرين ، حينما بدا اكتشاف البترول على نحو تجارى • ويذهب هارتلى Hartley الى أن نســبة سكان الحضر فى ليبيا قد ارتفعت من ١٨٪ الى ٢٥٪ فيما بين سنتى ١٩٥٤ و ١٩٦٦[4] •

---

(1) J; Bharier; «A Note on the Population of Iran; 1900-1966»; Population Studies; 22 (1968); pp. 273-279.

(2) R. I. Lowless; «Iraq : Changing Population Patterns»; in J; I; Clarke and W. B. Fisher; op. cit; p. 66.

(3) R. Mc Gregor; «Saudi Arabia : Population and Making of a Moderate State»; in Ibid; p. 172.

(4) R. G. Hartley; «Libya : Economic Developoment and Demographic Responses»; in Ibid; pp. 242-273.

وعلى الرغم من أن كل الشواهد الاحصائية المتاحة تؤكـد حدوث نمو حضرى واسع النطاق فى دول الشرق الاوسط ، الا آن تفسيرات ذلك ماتزال موضع نقاش وجدل • فالبعض يؤكد آن الهجرة الريفية ــ الحضرية هى السبب الاساسى المباشر لنمو سـكان مدن الشرق الاوسط ، بينما نجـد البعض الآخر يفسر ذلك فى ضوء تفاوت معـدلات الخصوبة فى كل مـن المناطق الريفية والحضرية • فلقد أوضحت جانيت أبو لغد فى دراسة هامة أن معدلات الخصوبة لا تختلف فى ريف مصر عن معدلات حضرها ، بينما تقل معدلات الوفيات فى الحضر عنها فى الريف • ومعنى ذلك أن فرص زيادة سكان المدن المصرية (نتيجة للزيادة الطبيعية) أعلى من فرص زيادة سكان القرى المصرية[١] • وفى دول أخرى لوحظ أن التفاوت فى معـدلات الخصوبة والوفاة يؤدى الى تركز سكانى واضح بالنسبة للجماعات العمرية الشابة ، بينما ترتفع نسبة الجماعات العمرية المعمرة فى المناطق الريفية • والواقع أننا لا نقصد بذلك الفصـل بين تأثير كل من الهجرة الريفية ــ الحضرية والزيادة الطبيعية على النمو الحضرى فى مدن الشرق الاوسط • ان عكس ذلك هو الصحيح تماما • ففى كثير من المدن تبدأ الهجرة الريفية ــ الحضرية باحداث نمو حضرى ، ثم ما تلبث الزيادة الطبيعية أن تعجل من هذا النمو الحضرى • أما سبب هذا التعجيل فيعـود الى أن معظم المهاجرين الى المدن ينتمون الى الفئة العمرية الشابة التى ترتفع معـدلات خصوبتها وتقل معدلات وفياتها •

ويمكننا الاستشهاد على ذلك بمدينتى الكـويت والقاهرة • فلقـد ظلت الكويت لفترة طويلة تعتمد فى اقتصادها على صيد الاسماك والغوص على اللؤلؤ وصناعة السفن والحرف اليدوية[٢] • وفى نهاية القرن التاسـع

(1) J. Abu-Lughod; «Urban-Rural Differences as a Function of the Demographic Transition : Egyptian Data and an Analytical Model»; American Journal of Sociology; 69 (1963); pp. 476-490.

(٢) يجدر الاشارة الى أننا نتناول مدينة الكويت كمثال يوضح لنا طابع مدن الخليج العربى مثل الدوحة وابو ظبى ودبى والى حد ما البحرين • ويمكننا

عشر ، أصبحت الكويت تحت الحماية البريطانية • أما عدد سكانها فلم يزد فى سنة ١٩٠٧ عن ٣٥٫٠٠٠ نسمة • وحتى سنة ١٩٥٠ لم تطرأ زيـــادة ملحوظة على عدد سكان مدينة الكويت • على أن « مصباح علاء الدين » قد منح الكويت ابتداء من ذلك التاريخ ما لم يكن يخطر على بال بشر • إذ ما لبث النفط أن تدفق فتحولت مدينة الكويت خلال سنوات قليلة الى قبلة الباحثين عن الثروة والرخاء والامان • لقد كان معظم المهاجرين الى الكويت من دول أخرى • ومن نتائج ذلك أن ارتفع عدد سكان الكويت من ٦٠٫٠٠٠ نســـمة خـــلال الثلاثينيات الى ١٠٠٫٠٠٠ نســـمة فى منتصف الاربعينيات • وفى سنة ١٩٥٢ بلغ عدد سكان الكويت ١٦٠٫٠٠٠ نسمة ، لكنه ما لبث أن حقق قفزة ضخمة ليصل الى ٤٦٧٫٣٣٩ نسمة فى سنة ١٩٦٥ ، ثم يصل الى مليون تقريبا فى سنة ١٩٧٥ • وقبل اكتشاف النفط كان سكان مدينة الكويت خليط من الكويتيين والعبيد الذين آتوا فى فترة ســـابقة من شرق أفريقيا ، كما أن التفرقة بين الكويتيين وغـــير الكويتيين لم تكن قد ظهرت الا بصدور قانون الجنسية فى سنة ١٩٤٨ • وليس من الصدفة أن يكون صدور هذا القانون مصاحبا لظهور النفط بكميات وفيرة • وبحلول الخمسينيات شهدت مدينة الكويت بداية الرخاء واتســـاع نطاق الهجرة اليها • ففى سنة ١٩٥٧ كانت نسبة غير الكويتيين (المهاجرين) تشكل ٤٥٪ من المجموع الكلى للسكان ، ثم ارتفعت فى سنة ١٩٦٥ الى ٥٣٪ • وقبل ظهور النفط كان معظم المهاجرين الى الكويت من امارات الخليج العربى وايران وعمان • بيد أن مصادر الهجرة ما لبثت أن تغيرت بعـــد ظهـــور الثروة النفطية • وبدون الدخول فى تفاصيل دقيقة ، فان معظم المهاجرين الجدد الى مدينـــة الكويت كانوا من الفلسطينيين والاردنيين والمصريين والسوريين واللبنانيين • ولقـــد أوضحت بعض التحليلات الحديثـــة أن

= أن نجد تحليلا عاما لبعض القضايا العامة التى نشير اليها هنا فى محمـــد الرميحى ، البترول والتغير الاجتماعى ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٥ ، وكذلك معوقات التنمية الاجتماعية والاقتصادية فى مجتمعات الخليج العربى المعاصرة ، شركة كاظمة ، الكويت ١٩٧٧ •

الهجرة الخارجية الى مدينة الكويت قد أحدثت نتائج بالغة الاهمية فيما يتعلق بالبناء السكانى • فلقد ارتفعت نسبة الذكور العاملين ارتفاعا ملحوظا كما ارتفعت نسبة الفئة العمرية الشابة (١٥ ــ ٤٥) • ومثل هذا يقال عن نسبة الذين يقرأون ويكتبون بسبب الطابع الانتخابى الــذى يحكم هذا النمط من الهجرة • وعلى الرغم من الــدور الحاسم الذى تلعبه الهجرة فى النمو الحضرى لمدينة الكويت ، الا أننا لا نستطيع تجاهل تأثير الزيادة الطبيعية • فخلال السنوات الاخيرة تطورت الخدمات الصحية فى مدينــة الكويت حتى كادت تفــوق نظيراتها فى الــدول الاوربية • ومن الطبيعى أن يــؤثر ذلك على معــدلات الوفيات التى ما لبثت أن انخفضت انخفاضا سريعا • واذا ما أخــذنا فى الاعتبار استمرار ارتفاع معدلات المواليد ، استطعنا أن ندرك الــدور الذى تلعبه الزيادة الطبيعية فى النمــو السكانى لمدينــة الكويت • ولعل هذه الشواهد توضح لنا أنه برغم الصلة الوثيقة بين الهجرة والزيادة الطبيعية ، الا أن تحديد التأثير النسبى لكل منهما قد يكون عسيرا فى بعض الاحيان[١] • أما علاقة النمــو الحضرى بالتنميــة الاقتصادية فى مدينة الكويت فما تزال بحاجة الى مزيد من التحليل والتأمل ، على الرغم من الدراسات الحديثة القليلة التى بدأت تعنى بالتصنيع والتحضر فى الدول الخليجية العربية[٢] •

واذا ما استخدمنا مصطلحات والت روستو Rostow أمكننا القول ان التحضر فى الكويت قد مر بمرحلة تقليدية بدأت من بداية العصــور الوسطى الاسلامية حتى اكتشاف النفط خلال ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين • فلقد كانت مدينة الكويت ــ شأنها فى ذلك شأن معظم المــدن

---

(1) A. G. Hill; «The Gulf States : Petroleum and Population Growth»; in J. I. Clarke & W. Fisher; (eds.) Population of the Middle East and North Africa; op. cit; pp. 244-255.

(٢) يمكننا الاشارة الى بعض الدراسات الحديثة الجيدة التى تناولت التحديث والتصنيع والتحضر فى بعض دول الخليج العربى . انظر على سبيل المثال : جهينه العيسى ، التحديث فى المجتمع القطرى ، دار كاظمــة للنشر ، الكويت ، ١٩٧٩ ، أمل الصباح ، الهجرة الى الكويت ، جامعــة الكويت ، ١٩٧٨ . كذلك يمكننا الاشارة الى الدراسات العديدة التى تضمنتها مجلــة دراسات الخليج وشبه الجزيرة العربية الصادرة عن جامعة الكويت .

العربية المطلة على الخليج العربى ـ صغيرة الحجم ، محاطة بأسوار وقلاع دفاعية • ويبدو أن مســاكن وشوارع ومرافق هذه المدن كانت تعكس بوضوح طابع العلاقات القبلية والالتفاف حول الاسرة • ولقد سيطرت على هذه المــدن كل الخصــائص التقليدية التى ألفنا قراءتها فى مؤلفات علم الاجتماع الحديث • بيد أن مدينة الكويت قد مرت بعد ذلك بمرحلة نشأة وتكوين بفضل اكتشاف النفط وما ترتب على ذلك من هجرة واسعة النطاق اتخذت اتجاهين : الأول داخلى تمثل فى استيطان البــدو وانتقالهم الى المدينة ، والثانى خارجى تمثل فى استقبال مهاجرى الدول الاخرى للعمل فى المشروعات المختلفة • وفى هذه المرحلة كان معظم هــؤلاء المهاجرين من الهند وباكستان وايران[١] •وبسبب عدم قدرة الهياكل الاساسية لمدينة الكويت عن استيعاب المهاجرين ظهرت فى البداية مــدن « الصــفيح » و « الاكواخ » • وفى تلك المرحلة لم تكن التكنولوجيا قد تمكنت من قهر الجغرافيا • اذ كان على هــؤلاء المهاجرين أن يعملوا فى أقسى الظروف المناخية والطبيعية ، أعنى فى غياب مكيفات الهواء ومبردات الماء • ولم تخل هذه المرحلة من تغيرات هامة •فلقد بدأت مدينة الكويت تشهد نمــوا عمرانيا ملحــوظا تمثل فى بداية الامــر فى انشــاء الهياكل الاساســية (الفيزيقية والاجتماعية) ، فأقيمت المرافق العامــة وأنشــأت الاجهــزة الادارية والقضائية والسياسية • أما أكثر التغيرات الايكولوجية أهمية فى تلك المرحلة فهى تخطى أسوار القلاع واستمرار الزحف عبر الصحراء وفى مختلف الاتجاهات المحاذية لشاطىء الخليج ، حتى بدت المدينة وكأنها تتخذ شكل حلقات دائرية • أما المرحلة الثالثة التى مرت بها مدينة الكويت فكانت مرحلة التحضر السريع • فيها تحقق الرخاء الاقتصادى دفعة واحدة ، واستمر النمو الحضرى بمعدل لم يسبق لــه مثيل ، وتشكلت الجماعات الطبقية الحضرية الاساسية ، وبدأت الروابط القبلية فى التحلل لتحل محلها روابط طبقية ماتزال فى طور التكوين •

---

(١) عبد الله أبو عياش واسحق القطب ، النمو والتخطيط الحضرى فى دول الخليج العربى ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٨٠ ، ص ٨٣ وما بعدها .

أما مدينة القاهرة فانها تعبر عن واقع تاريخي حضري مختلف تماما عن ذلك الذي ألفناه في مدينه الكويت . فالقاهرة هي ألف عـام من عمر الزمان . هي المدينة الاولى في قطاع هائل متصل من العالم القديم . تحتل موقعا فريدا هـو خاصرة مصر . هي مجمـع الوادي والفرعين وملتقى الصحراويين وأكبر واحة في العالم في أكبر صحراء في الدنيا . ان شئنا الدقة قلنا انها أكبر مدينة صحراوية في العالم على أكبر نهـر في الدنيـا تقريبا[١] . تبدو القاهرة بالنسبة لمصر وكانما القطر على موعـد فيـها . والواقع أن كل عواصم مصر تقريبا كانت تدور في فلك القـاهرة الآن . فمنف هي البدرشين ، وهيليوبولس هي عين شمس ومصر الجـديدة ، وبابليون هي مصر القديمة ، والفسطاط هي القاهرة الفاطمية . لقد قيل بحق ان موقع القاهرة هو من اختيار « الآلهة » . والواقع أن مصر تعد من أوائل دول العالم التي حققت فيها القرية فائضا اقتصاديا . وهذا يعني انها قد شهدت في فترة مبكرة « ثورة حضرية » . ان المدينة في مصر قديمة قدم الكتابة الهيروغليفية على الاقل . ولقد ظلت مدينة القاهرة حتى بداية القرن التاسع عشر تعبر عن ملامح العصور الوسطى ، الى أن جـاء محمد على الذي أبدى اهتماما كبيرا بتطوير المدينة وتوسيع نطاقها . على أن النمو الحقيقي الذي حققته القاهرة قد تم على يـد حفيده الخـديوى اسماعيل الذي أفاد كثيرا من الحرب الاهلية الامريكية نتيجة لانخفاض انتاج القطن الامريكي ، مما كان له أكبر الاثر على ارتفاع أسـعار القطن المصري . ولقد أنفق اسماعيل بسخاء على تطوير مدينة القاهرة فأنشأ حي الاسماعيلية ليكون منطقة سكنية للطبقة العليا ، كما زود بعض أحيـاء المدينة بالكهرباء والمياه النقية . بل إن اقامة الاوبرا في عهد اسماعيل لم يكن يخلو من دلالة حضرية هامة . وفي سنة ١٩١٧ لم تكن نسبة الاجانب

---

(١) جمال حمدان ، مقدمة الترجمة العربية لكتاب « القـاهرة » تأليف ديزموند ستيوارت ، ترجمة يحيى حقي ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

فى مدينة القاهرة تزيد عن ١٠٪ من مجمـوع سكانها البالغ ٨٠٠٫٠٠٠ نسمة[١] • بيد أن هذه النسبة قد بدأت فى الانخفاض بعـد ذلك بسبب ظهور جماعات مهنية مصرية قادرة على قيادة كثير من المهام الادارية والفنية• ولقد بدأت الصـفوة المهنية المصرية الجديدة فى الانتقال من قلب مدينة القاهرة الى ضواحيهـا ، ثم ما لبثت جماعات المهاجرين من الريف الى المدينة أن احتلت المساكن القديمـة التى تركتها هذه الصفوة المهنية • والملاحظ أن هذا النمط الايكولوجى التتابعى يكاد يكـون شائعا فى معظم مدن الشرق الاوسط • وبحدوث « الخروج الابيض » من القاهرة بقيام ثورة ١٩٥٢ تغيرت معالم الازدواجية الحضرية (الثقافية والطبقية) التى ظلت تشهدها هذه المدينة لفترة طويلة[٢] •

وتشير النظرة العابرة الى المدن الاقليمية المصرية بعامـة ومدينة القاهرة بخاصة الى وجود قدر ملحوظ من الازدواجية[٣] • اذ نجد قطاعين أساسيين : الأول قديم يقع عادة فى جنوب المدينة ، ويمتاز بقلب تجـارى ذو طابع وطنى ، ويقوم عادة فى ظل جامع كبير تنتشر حوله غابة من المساجد الصغيرة • وفى كل الاحوال فان هذا القطاع يحاول مقاومـة الانقراض الحتمى • أما القطاع الحديث فهو ابن القرن الماضى وأقرب الى الطابع الاوربى : فهو مقر الجاليات الاجنبية ، وموطن الطبقات الغنية ، كما أن شوارعه مستقيمة وتتخذ شكلا هندسيا معينا • ويقع هذا القطاع الحديث عادة فى الشمال حتى يستأثر بالرياح الشمالية الطازجة النقية ، كما أنه ينجذب دائما الى شاطىء النيل • واذا ما حاولنا تحديد النمط الحضرى

---

(1) G. Baer; Studies in Social History of Modern Egypt; op. cit; p. 144.

(2) G. Abu-Lughod; «Varieties of Urban Experience : Contrast; Coexistence and Coalescence in Cairo»; in I. Lapidus; Middle Eastern Cities; op. cit; p. 105.

(3) G. Hamdan; Studies in Egyptian Urbanism; Cairo; 1959.

للمدن المصرية ، لاحظنا أن النيل قد لعب دورا حاسما فى هذا المجال [١] • فكل مدن الصعيد تقع على النيل حتى أصبح شارعها • بيد أن قبضة النيل تخف فى الدلتا • اذ نجد الموانى الكبرى على الساحل والقناة مرتبطة بالبحر أكثر من النيل ، وان كانت تستمد مقومات حياتها من مياه النيل ومحاصيل تربته • لذلك نستطيع القول ان مدن القناة هى نتاج المياه العذبة بقدر ما هى نتاج المياه الملحة • وفى داخل الدلتا تكاد تقع المدن الكبرى اما على فرعى النيل أو على ترعه المختلفة دون استثناء • كذلك فاننا نلحظ أن أكبر المدن المصرية حجما تقع على أهم المجارى النهرية . وأصغرها حجما تقع فى أطراف الدلتا (طنطا والمنصورة فى مقابل الزقازيق ودمنهور) • ويبدو تأثير النيل طاغيا على مستوى البناء الايكولوجى الداخلى للمدن المصرية • فأغلب المساكن والمبانى الممتازة والخدمات الراقية توجد على شاطىء النيل • ومعنى ذلك أن النهر يجذب اليه الطبقات الاجتماعية العليا والنشاطات الحساسة • وربما لهذا السبب اتخذت معظم المدن المصرية شكلا مستطيلا على طول النيل • واذا كانت مدن الدلتا تحاول الحصول على أكبر مساحة واقعة على النيل ، فان كل مدن الصعيد مستطيلة على النيل نصا • وهذا يعنى — ببساطة — أن النمط الحضرى للمدينة المصرية يتبع النيل بأمانة •

ومن الطبيعى أن يكون النمط الايكولوجى المعاصر لمدينة القاهرة قد تطور من خلال عمليات تاريخية مستمرة استمرت لاكثر من ألف عام • فخلال العصر العربى كانت الفسطاط (القاهرة) تقع فى الجنوب • كانت مدينة حربية معلقة على التل ومحصنة بالطبيعة • والمحقق تاريخيا أن القاهرة المعزية قد ظلت تحافظ على طابعها الحربى لفترة طويلة • وآية ذلك استمرار وجود الاسوار التى كانت أفضل وسيلة للحماية الخارجية • على أن نمو المدينة قد بدأ فى وقت لاحق يتحرر من جبل المقطم والاسوار •

---

(١) جمال حمدان ، شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، القاهرة ، كتاب الهلال ، ١٩٦٧ .

ولقد كان محمد على هو أول من اخترق الحدود التى كانت مفروضة على القاهرة متجها الى شبرا أولا ، ثم جاردن سيتى التى أصبحت سكنا لعائلته • واذا كان اسماعيل هو منشىء الاسماعيلية ، فان توفيق هو منشىء التوفيقية • أما مدينة الجيزة فقد ظلت حتى بداية القرن الحالى مدينة متواضعة ، لكنها ما لبثت أن بدأت تتسع شمالا كشريط يزداد سمكا وعمقا • وبنهاية الحرب العالمية الثانية نمت أحياء كثيرة فى الجيزة ، مما يعنى أن النمو العمرانى لمدينة القاهرة قد بدأ يتخذ اتجاه الغرب • والملاحظ أن نمو مدينة القاهرة قد ظل يتجه الى الشمال والشمال الشرقى باستثناء قفزتين حضريتين : الاولى هى حلوان التى أنشأها اسماعيل كمدينة استشفاء ، والثانية هى المعادى التى أنشأها الاستعمار كمقر لجاليته • وفى اتجاه الغرب استعمرت القاهرة نهر النيل ذاته (أعنى جزيرتى الجزيرة والروضة) ، ثم امتدت لتربط شرقها بغربها • ومعنى ذلك أن تاريخ القاهرة هو امتداد الاطراف بقدر ما هو تكثيف فى الداخل • وأحد نتائج ذلك أن بدأ جسم المدينة يمتلىء حتى الاختناق ، بحيث لا نجد رئة خضراء أو مساحة مكشوفة • ان جبل المقطم الذى كان ينظر اليه بهيبة كبيرة خلال القرن الماضى لم يعد هو المتحكم فى ايكولوجية مدينة القاهرة • لقد اتسعت المدينة من المقطم الى الهرم ، ومن حلوان الى شبرا • ولقد كان هذا الاتساع على حساب الاراضى الزراعية وعلى الاخص فى المناطق الغربية من المدينة • لذلك فان شعار الرمل للعمران والطين للزراعة لايخلو من دلالات اقتصادية وحضرية بالغة •

واذا ما أردنا قدرا من التخصيص ، قلنا ان الازدواجية الحضرية فى مدينة القاهرة تبدو أوضح ما تكون فى اعتماد بعض أحيائها على خطة حضرية ، بينما تنمو الاحياء الاخرى بطريقة عشوائية ، أو ان شئنا الدقة بدون خطة • وتتضح العشوائية فى القطاع الشرقى والجنوبى من القاهرة شرق النيل • ففى هذا القطاع القديم نجد الازقة الضيقة والحوارى المسدودة والملتوية والمتعرجة ، فضلا عن ارتفاع الازقة وانخفاضها بسبب الموقع التلى • وفى القطاع الحديث نجد تخطيطا هندسيا واضحا فيما عدا

بعض الجيوب العشوائية • والطريف هنا أن الشـــوارع الرئيسية تتجه مع النيل وتتخذ انحناءاته وتعرجاته بأمانة ، حتى أن الشوارع العرضية نجدها عمودية على الطولية • ومع ذلك فان الاحياء الراقية فى مدينـــة القاهرة لا تتبع خطة ايكولوجية واحدة • فالشوارع فى الزمالك تتخذ شكل المعين ، بينما تتخذ فى جاردن سيتى شكل الدائرة • وفى مدينة القاهرة نجد مجموعة من البؤر المشعة التى تشكل مركزا لخطوط المواصلات • من ذلك محطة مصر ، والعتبة ، وباب اللوق ، والسيدة زينب[١] • والواقع أن النمو السكانى لمدينة القاهرة ــ فضلا عن انشطارها الى قسمين بسبب تأثير النيل ــ قد أسهم فى تعقيد مشكلة المواصلات الارضية • اذ لاتزال معظم شوارع المدينة لا تتجاوز اتساع شوارع مدن العصور الوسطى [٢] •

وتؤدى مدينة القاهرة عددا كبيرا من الوظائف بعضها يتصل بالعمل والانتاج والبعض الآخر يتصـــل بالخدمات • فاذا ما تناولنا الوظيفـــة الادارية ، لاحظنا أن القاهرة قد ظلت طوال تاريخها مركزا لبيروقراطية ضخمة • فأكثر من ثلث موظفى الدولة يعيشـــون فيها • وتبدأ المناطق الادارية من ميدان التحرير بمجمعه الضخم لتمتد نحو ميل وصـــولا الى ميدان الجمهورية : قاعدة الحكم • أما الوظيفة التجارية فتتركز فى قلب المدينة حيث نجد مدى واسعا يبدأ من تجارة التجزئة والجملـــة حتى المؤسسات والشركات والبنوك والمحال التجارية الضخمة • وفى أطراف المدينة (باتجاه محطة مصر) توجد مخازن الجملة لقطع غيار الســـيارات والاطارات والادوات الكهربائية • وفى الاحياء القديمة تكثر تجارة الحرف اليدوية حتى يبدو المحل وقد خرج الى الرصيف • وفيما يتعلق بالوظيفة الصناعية فان القاهرة تعد عاصمة الصناعة المصرية • ويمكننا أن نميز بين

---

(١) جمال حمدان ، مقدمة الترجمة العربية لكتاب ديزموند ستيوارت ، القاهرة ، المرجع السابق •

(2) G. Abu-Lughod; «Tale of Two Cities : The Origins of Modern Cairo»; Comparative Studies in Society and History; 1965; pp. 429-457.

نوعين من الصناعات : صناعة خفيفة بسيطة يدوية صغيرة تقليدية ، وصناعة ثقيلة حديثة معقدة آلية • واذا كانت الصناعة الثقيلة تقع على أطراف المدينة ، فان الصناعة الخفيفة تقع فى داخلها • وتميل الصناعة الخفيفة الى التوطن فى الاحياء القديمة الفقيرة ، وان كانت أسماء الشوارع الآن لم تعد تشير كثيرا الى التخصص المهنى (النحاسين ، الفحامين ، المغربلين ••• الخ) • أما الصناعة الثقيلة الاحدث تاريخا فان عوامل الطرد تقذف بها الى أطراف المدينة • ويمكننا الاستشهاد على ذلك بقاعدتين صناعيتين هامتين تقعان فى طرفى المدينة هما : حلوان وشبرا • ففى شبرا بدأ النمو الصناعى بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بصناعات الغزل والنسيج ثم ضمت صناعات أخرى مكملة • أما حلوان فقد شهدت نموا صناعيا قريبا لايزيد عن عقدين من الزمان الا قليلا • واذا كان الخديوى اسماعيل قد أقام هذه الضاحية لاسباب طبية أهمها الاستشفاء بالمياه المعدنية ، الا أنها ما لبثت أن تحولت خلال ستينات القرن العشرين الى غابة من المصانع والمداخن والافران تنتج القضبان والعربات الحديدية والفلنكات وأسياخ الحديد ، فضلا عن صناعة السيارات[1] • أما الوظيفة التعليمية لمدينة القاهرة فانها واضحة كل الوضوح • فجمهور الطلبة فى هذه المدينة يصل الى مليونين • وهناك تدرج تعليمى مرتبط بتدرج مكانى • فالمدارس الابتدائية تخدم الاحياء الصغيرة المحدودة ، والمدارس الثانوية تخدم أحياء أكبر • أما مدارس الجاليات الاجنبية فتقع فى قلب العاصمة التجارى • ويبدو أن التعليم العالى فى مدينة القاهرة يرتبط بالاطراف • اذ أن الجامعات تحتاج الى مساحات شاسعة من الاراضى • لذلك ليس صدفة أن تكون جامعة القاهرة فى أقصى الغرب وجامعة عين شمس فى أقصى الشرق ، تتوسطهما جامعة الازهر التى ماتزال تدفع ثمنا باهظا هو عدم قدرتها على الاتساع المكانى • ومن الطريف هنا أن نجد التعليم الفنى

---

(١) جمال حمدان ، مقدمة الترجمة العربية لكتاب ديزموند ستيوارت • القاهرة ، المرجع السابق •

فى مصر مرتبط بمواقع المهنة • فأغلب المدارس الصناعية تقع قرب الاحياء الصناعية (بولاق) • وأخيرا نجد القاهرة تؤدى وظيفة صحية وترفيهية هامة • فهى موقع المستشفيات المركزية الاساسية التى عادة ما تقــع فى الاطراف بسبب ما تتطلبه من هدوء واتساع • ويرتبط بذلك « مدينــة الاموات » التى تقع فى الجنوب الشرقى • ففى حى الامام الشافعى بدأ الاحياء يزحفون على الاموات ويطاردونهم ، حتى أن « مدينــة الاحياء » قد تداخلت مع « مدينة الموتى » بصورة قابضة للنفوس • وفيما يتعلق بالترفيه نجد معظم نوادى القاهرة تقع فى المناطق الخلوية ، وان كان نادى الجزيرة ونادى الزمالك يمثلان نصف الجزيرة الجنوبى ، ويشكلان بذلك أكبر رقعة رياضية متصلة • واذا كان موقع هذين الناديين قد بدا ملائما عندما أنشأهما الاستعمار لجنوده ، فان النمــو الحضرى المتصل للمدينة يفرض ضرورة اعادة النظر فى موقعهما •

ويبدو أن الهجرة الريفية الى القاهرة تشكل العامل الاساسى فى نموها السكانى • فمحور الهجرة هو من القرى الى العاصمة ، اذ ان فقر القرية المصرية هو السبب المباشر فى لفظ فائض السكان الى المدن والعاصمة على الاخص • ومن الحقائق التاريخية أن الازهر قد لعب دور هاما فى زيادة سكان القاهرة خلال القرن التاسع عشر • اذ كانت أسماء شيوخ الازهر تنسب الى قراهم الاصلية • ويمكن القول ان الازهر قد لعب بالنســبة للقاهرة فى أوائل القرن الماضى نفس الدور الذى لعبته الادارة فى أوائل القرن العشرين ، ونفس الدور الذى تقوم به الصناعة حاليا • غــير أن تيارات الهجرة الريفية الى القاهرة قد تعاظمت خلال العقود الاخيرة بسبب الفارق الحضارى الهائل بين مناطق الطرد الفقيرة المزدحمة المتخلفة ومناطق الجذب الغنية المتقدمة[1] • ويبدو أن كثافة الهجرة تتناسب تناسبا طرديا

---

(١) للحصــول على شــواهد احصائية يمكن الرجوع الى دراستين احصائيتين هما : محمود عوده ، الهجرة الى مدينة القاهرة ، المجلة الاجتماعية القومية ، ١٩٧١ ، عزت حجازى ، القاهرة ، من منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٧١ •

مع ثقل وحجم المدينة • فمعدلات الهجرة من المنوفية عالية بسبب الاكتظاظ السكانى الشديد • واذا كانت القاهرة تسحب وحدها ٥٣٪ من عدد المهاجرين الريفيين الذين يأتون من المنوفية والقليوبية والشرقية والدقهلية، فان الاسكندرية تسحب مهاجريها من غرب الدلتا ، فى حين تسحب مدن القناة مهاجريها من شرق الدلتا • وليس من الصدفة أن يكون اتجاه الهجرة فى مصر متسقا مع اتجاه النيل : من الجنوب الى الشمال • ولقد أوضحت جانيت أبو لغد أن منطقة القاهرة الكبرى كانت تضم فى سنة ١٩٦٦ حوالى ٢٨٪ من سكان مصر ، وأن موضع هذه المدينة يجمع بين خصائص الصعيد والدلتا[(١)] •فالقاهرة تبدأ مدينة صعيد لتنتهى مدينة دلتا • كذلك أوضحت جانيت أبو لغد أن ٤٦ر٩٪ من المهاجرين الى القاهرة أتوا من ريف الدلتا فى مقابل ٤١ر٤٪ من ريف الصعيد ، وأن معظم مهاجرى الوجه البحرى يقيمون فى الشمال بينما يقيم غالبية مهاجرى الوجه القبلى فى الجنوب • ولقد أوضح عزت حجازى أن صافى الهجرة الى القاهرة فى سنة ١٩١٧ مقارنا بمجموع سكان المدينة قد وصل الى ٢٠٪ ، ثم ما لبثت هذه النسبة أن ارتفعت فى تعداد ١٩٢٧ الى ٢٨ر٤٪ بسبب ظروف الحرب العالمية الاولى •ولقد ظلت النسبة محافظة على ارتفاعها طوال العقود الثلاث اللاحقة حتى وصلت فى سنة ١٩٦٠ الى ٢٨ر٦٪[(٢)] • كذلك نجد محمود عوده يصنف جماعات المهاجرين الى القاهرة الى فئتين : تضم الاولى الصفوة المتعلمة الساعية الى تحقيق حراك اجتماعى (٢٠٪) ، وتضم الثانية أغلبية غير متعلمة هاربة من عوامل الطرد (٨٠٪) ، وأن ٨٥٪ من المهاجرين يقعون فى الفئة العمرية المنتجة[(٣)] • وتميل الدراسات التى تناولت الهجرة الريفية الى القاهرة الى تبنى مفهومى « المناطق الطاردة »

(1) J. Abu-Lughod; «Migrant Adjustment to City Life : The Egyptian Case»; in Gerald Breese; The City in Newly Developing Countries; op. cit; pp. 376-388.

(٢) عزت حجازى ، القاهرة ، المرجع السابق .

(٣) محمود عوده ، الهجرة الى القاهرة ، المرجع السابق .

و « المناطق الجاذبة » كأداتين تحليليتين • ومن بين العوامل الطاردة ضآلة فرص العمل فى الريف وانخفاض مستوى الدخول الزراعية • فبينما ارتفع عدد سكان مصر فيما بين سنتى ١٨٩٧ و ١٩٦٦ من ٩ر٧ مليون نسمة الى ١ر٣٠ مليون نسمة ، زادت مساحة الاراضى المنزرعة فقط من ١ر٥ مليون فدان الى ٦ مليون فدان • ومعنى ذلك أن نصيب الفرد من الارض الزراعية قد انخفض من ٥٣ر٪ من الفدان الى ٢٠ر٪ من الفدان • أما العوامل الجاذبة فتتمثل فى اتساع البناء المهنى لمدينة القاهرة وكونها مركزا ثقافيا وتعليميا وصحيا • ومن هذه الزاوية يمكن القول ان مصر لا تعانى فقط من تضخم سكانى ، بل انها تعانى أيضا من تضخم عاصمى • فبينما كانت نسبة سكان القاهرة بالنسبة لعدد سكان مصر ٦ر٧٪ فى سنة ١٩٢٧ ، ازدادت الى ٩ر١٠٪ فى سنة ١٩٤٧ ، حتى وصلت الى ١٤ ٪ فى سنة ١٩٦٦ • واذا ما أخذنا فى الاعتبار سكان القاهرة الكبرى ، فان هذه النسبة تصل فى سنة ١٩٦٦ الى ٢٠٪ • فالقاهرة تمثل أكبر قاعدة صناعية فى مصر ، وأضخم تجمع طبى ، وأكبر بناء تعليمى[١] • لذلك فان علاقة القاهرة بالمدن الاقليمية والمناطق الريفية هى علاقة « اقطاعية » أدت الى إضعاف « الطبقة الوسطى » من المدن • فمن بعد القاهرة والاسكندرية تهوى أحجام المدن التالية وتهبط هبوطا ذريعا • وفى سنة ١٩٦٠ بلغ عدد سكان القاهرة والاسكندرية نصف عدد سكان مدن مصر (٤ر٤٩٪) • والواقع أن كل المحاولات التاريخية التى حاولت جعل مصر قطعة من أوربا قد حاولت ان تجعل من القاهرة جزءا من هذه القارة • لذلك فان هذه المدينة قد بدأت تتحول من « نافورة فكرية » الى « بالوعة اقتصادية » • ان مصر هى من البلاد القليلة التى يطلق فيها اسم الدولة على العاصمة •

---

(١) يمكن الحصول على شواهد احصائية مؤيدة لذلك فى : عبد المنعم شوقى ، مجتمع المدينة : (الاجتماع الحضرى) ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، وكذلك مرزوق عبد الرحيم ، « الهجرة الريفية الحضرية فى مصر : انماطها ودوافعها والآثار المترتبة عليها » الحلقة الدراسية الاولى لعلم الاجتماع الريفى ، منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، ١٩٧٠ .

لذلك يبدو لنا أن الاقليمية أو اللامركزية هى مطلب أساسى لتحقيق تنمية حضرية فعالة فى مصر ، بل اننى أعتقد أن حل كثير من مشكلات القاهرة يبدأ أساسا من الريف المصرى •

وتدفعنا المناقشات السابقة الى تناول العلاقة بين حجم المدينة والنمو الاقتصادى فى منطقة الشرق الاوسط بوجه عام ، خاصة وأن دول هذه المنطقة تشهد معدلات تحضر متباينة تشير الى ظروف مختلفة تبدأ من « الخلخلة الحضرية » حتى « التضخم الحضرى » • ففى كل من تركيا وايران والعربية السعودية نجد المدن الكبرى لا تضم أكثر من ٢٠٪ من سكان كل منها • أما بقية دول الشرق الاوسط فتكاد تعرف العاصمة الاساسية أو العاصمتين الاساسيتين ، مما دفع بعض الباحثين الى القول بأن معظم عواصم الشرق الاوسط هى « مدن أولى » Primate Cities تضم أعدادا ضخمة من السكان مما جعل الفارق بينها وبين المدن التالية كبيرا جدا[1] • ومعنى ذلك أن معظم دول المنطقة تفتقر الى التوازن الضرورى بين أحجام عواصمها ومدنها الرئيسية من ناحية ، وبقية مناطقها الحضرية والريفية من ناحية أخرى ، مما قد يؤدى الى التأثير على معدلات النمو الاقتصادى والتغير الاجتماعى • واذا ما قبلنا تفرقة هوسيلتز Hoselitz بين المدن « المنتجة » generative والمدن « الطفيلية » parasitic ، وجدنا كثيرا من مدن الشرق الاوسط

---

(١) من الملاحظ أن « المدينة الاولى » لا توجد فقط فى الدول النامية ، ولكنها وجدت ايضا خلال فترات تاريخية متباينة فى بعض الدول الغربية كما هو الحال بالنسبة لاستوكهولم فى السويد ، وأسلو فى النرويج ، وباريس ذات مرة بالنسبة لفرنسا . ويذهب هوسيلتز الى أن معظم الوظائف الرئيسية لتلك الدول قد تركزت فى تلك المدن فى مرحلة مبكرة جدا من تاريخها . وتتخذ « المدن الاولى » فى كثير من الاحيان طابعا طفيليا . فهى تلتهم الاستثمارات وتمتص القوى العاملة وتسيطر على النمط الثقافى للدولة . انظر :

S. Mehta; «Some Demographic and Economic Correlates of Primate Cities»; in G. Breese; (ed) The City in Newly Developing Countries; op. cit; pp. 295-308.

تنتمى الى النمط الاخـــير الذى غالبـــا ما يتصف « بالتضخم الحضرى » overurbanization نتيجة لارتفاع معدلات الهجرة الريفية ــ الحضرية • وربما كانت دراسة جانيت أبو لغد عن مدينة القاهرة من أشهر الدراسات التى تناولت هذه القضية • فلقد أشارت الى أن طوفان الهجرة الريفية ــ الحضرية قد أحدث نموا سكانيا لا مبرر له فى كل من القاهرة والاسكندرية، حيث تصل نسبة السكان بهاتين المدينتين حوالى ٣٥٪ من مجموع سكان مصر ، مما يشكل عقبة أمام النمو الاقتصادى الذى يمكن أن تحققه المدن الاقليمية[١] • ولقد أشار شارل عيسوى الى شىء قريب من ذلك حينما أوضح أن مدينة طهران قد استهلكت فى سنة ١٩٦٥ حـــوالى ٤٠ ٪ من مجموع الطاقة الكهربائية الايرانية و ٥٠٪ من مجموع المنتجات البترولية المخصصة للاستهلاك المحلى • وفى العراق لوحظ أن ٦٥٪ من مجمـــوع الاطباء يعيشون فى مدينة بغداد • ويفسر شارل عيسوى ذلك فى ضوء فكرة المركزية الادارية التى عرفتها دول الشرق الاوسط ، والتى تؤدى ــ فى نهاية الامر ــ الى حرمان المدن الصغيرة من أفرادها الموهوبين الـــذين يتطلعون باستمرار الى العاصمة[٢] •

والواقع أن من الصعب وصف كل عواصم الشرق الاوسط بالطابع « الطفيلى » • فلقد أشار بيرى Berry فى دراسة له تناول فيها عددا كبيرا من عواصم الدول الى أن هناك علاقة بين حجم الدولة (فى ضوء عدد السكان) وسيطرة المدينة «الاولى» • ففى الدول الصغيرة الحجم البسيطة التركيب تتاح الفرصة لنمو العواصم بينما لا تتاح لها نفس فرصة النمو فى الدول الكبيرة الحجم ذات التاريخ الطويل[٣] • واذا ما طبقنا وجهة نظر

---

(1) Abu-lughod; «Urbanization in Egypt»; Economic Development and Cultural Change; 13; 1965; pp. 313-343.

(2) Issawi; C; «Eonomic Change and Urbaniztaion in the Middle East»; in I. M. Lapidus (ed); Middle Eastern Cities; op. cit; pp. 117 ff.

(3) B. Berry; City Size Distributions and Economic Development; Chicago; 1961.

بيرى على منطقة الشرق الاوسط . وجدنا استثناءات هامة • فعلى الرغم من ان مدن الخليج العربية قد تؤيد وجهة نظر بيرى ، الا أن القاهـرة وبغداد ودمشق لا تؤيدها • وقد يبدو من الملائم هنا مقارنة أبعاد النمو الحضرى فى كل من الدول الغربية ودول الشرق الاوسط • ففى الأولى (الغربية) بدأ النمو الصناعى فى بعض المناطق الصناعية المحورية ، ثم ما لبث بعد فترة معينة أن انتقل الى مناطق أخرى هامشية ، مما أدى الى تكثيف العمـل الصناعى فيها ورفع معدلات نموها الاقتصادى • وما التخصص الصناعى الذى عرفت به المدن الغربية الا مثالا واحـدا على ما نذهب اليه هنا • أما دول الشرق الاوسط فان الموقف مختلف تمـاما • فالدافع الى التخصص الصناعى يقل الى حد كبير بسبب ضآلة أجور العمال الصناعيين الحضريين وتضخم أعدادهم نتيجة لارتفاع معدلات الهجرة الريفية ــ الحضرية • ولقد أوضح بيرى أنه برغم حرص حكومات الدول النامية على تحقيق اللامركزية الصناعية الحضرية ، الا أن ذلك ما يزال مطلب عسير المنال[1] • وفضلا عن ذلك فان هناك اعتبارات سياسية يجب أخذها فى الاعتبار عند دراسة مدن الشرق الاوسط • ان الحدود القومية لكثير من دول هذه المنطقة قد تحددت منذ عقود قليلة • فعلى سبيل المثال تشكلت كل من المدن السورية والعراقية من خلال المتطلبات الاقتصادية التى ظهرت على وجه الخصوص بعد الحرب العالمية الاولى • وخلال القرن التاسع عشر بأكمله ظلت ايران مؤلفة من عدد من المدن الاقليمية المحيطة ببعض المناطق الزراعية ، وهو موقف مناقض تماما لما حدث فى مصر حينما كانت القاهرة هى قبلة مصر • وعلى أية حال فان كثيرا من العناصر البنائية والثقافية التى تشهدها مدن الشرق الاوسط تقترب من تلك التى تشهدها مدن العالم الثالث عموما ، خاصة اذا ما أخذنا فى اعتبارنا بعض القضايا الهامة كتأثير الاستعمار الاوربى ، والهجرة الريفية ــ الحضرية ، والتكيف الثقافى والاجتماعى • ومن بين هذه القضايا نجد الهجرة الريفية ــ الحضرية ماتزال بحاجة الى المعالجة المستفيضة •

---

(1) B. Berry; The Human Consequences of Urbanization; London; 1971.

الفصل التاسع

الخروج الريفى والنمو الحضرى : الهجرة والتكيف

يصعب فهم النمو الحضرى الذى شهدته مدن الشرق الأوسط خلال العقود القليلة الماضية دون التعرف على أسباب « الخروج الريفى » . وعلى الرغم من كثرة الدراسات الاحصائية التى تناولت الهجرة الريفية ــ الحضرية ، الا أن التحليلات النظرية ما تزال محدودة للغاية . وربما كان مفهوما « منطقة الطرد » و « منطقة الجذب » من أشهر الادوات التحليلية التى استعان بها الدارسون فى دراسة عوامل الهجرة الريفية ــ الحضرية ونتائجهــا . ومن الطبيعى أن تختلف العلاقــة بين « مناطق الطــرد » و « مناطق الجذب » من دولة لاخرى فى منطقة الشرق الأوسط . ويتعين علينا الاشارة الى المعنى الذى يشير اليه هذين المفهومين . « فمنطقــة الطرد » تشير الى كل العوامل التى تدفع القرويين دفعا نحو المدينة بفعل الظروف الاجتماعية والاقتصادية والفيزيقية التى تعانى منها القرية . أما « منطقة الجذب » فتشير الى كل الظروف التى تجذب المهاجرين الى المدينه بحثا عن فرص عمل أفضل وظروف معيشية أرقى[1] . ومعنى ذلك أن عوامل الطرد كامنة فى القرية بينما عوامل الجذب مكفولة فى المدينة . ان التوازن بين هذين النوعين من العوامل يتوقف على اعتبارات عديدة منها : مدى التفاوت الحضارى بين القرية والمدينة ، والموقع الجغرافى للقرية ، ونوع المواصلات التى تربطها بالمدينة ، ومعدل النمــو الاقتصادى الحضرى ، وظروف العمل الزراعى وحجم الملكية الزراعية ، فضلا عن بعض السمات السيكولوجية كالدافعية والطموح والتحصيل التعليمى .

---

(1) C. J. Jansen; «Social Aspects of Internal Migration; Cambridge University Press; 1969.

وسنحاول فيما يلى مناقشة كل من العوامل « الجاذبة » و « الطاردة » فى ضوء الشواهد الواقعية التى كشفت عنها الدراسات والبحوث التى تناولت مدن الشرق الاوسط •

فاذا ما بدأنا بمناقشة العوامل « الجاذبة » وجدنا جانيت أبو لغد تؤكد فى دراستها عن مدينة القاهرة أن سكان القرى والمدن الصغيرة المصرية ينجذبون الى المدن الكبرى (وعلى الاخص القاهرة والاسكندرية) لانهم يعتقدن أنها تتيح لهم فرصا أفضل للحياة ، وأن نسبة ملحوظة من الشباب يهاجرون الى القاهرة للدراسة فى الجامعات والمعاهد العليا ، لكنهم سرعان ما يكتسبون الثقافة الحضرية فيفضلون الاقامة فيها[1] • وفى دراسة تناولت دوافع الهجرة الريفية الى طهران اتضح أن ٧٢٪ من المهاجرين فى سنة ١٩٦٦ كانوا يسعون الى الحصول على وظائف أفضل ، وأن ٢ر٥٪ فقط من المهاجرين هم الذين انتقلوا الى طهران بسبب اكمال تعليمهم • ويمكن تفسير ذلك فى ضوء ارتفاع معدلات الدخول فى مدينة طهران اذا ما قورنت بالمدن الايرانية الاخرى[2] • وفى دول الخليج العربية نلمس موقفا مختلفا • فاذا ما استشهدنا بالكويت لاحظنا نموا كبيرا فى أعداد المهاجرين خلال العقود الثلاث الماضية بعد اكتشاف النفط ، وذلك على الرغم من القيود التى تفرضها الحكومة الكويتية على الهجرة اليها نظرا لاعتبارات اثنولوجية وسكانية وسياسية • وفى العراق ازدادت الهجرة الريفية الى بغداد وعلى الاخص من المناطق العراقية الجنوبية • ويبدو أن العامل الاقتصادى هو أهم العوامل المحركة للهجرة الى بغداد • فلقد أوضح مكى عزيز أن الدخل الشهرى الذى يحصل عليه المهاجر الى بغداد (بغض النظر عن مستوى تدريبه ومهارته) يكاد يعادل الدخل

---

(1) Abu-Lughod; «Migrant Adjustment to City Life : The Egyptian Case»; in G. Breese; (ed.); The City in Newly Developing Countries; Princeton University Press; 1972; pp. 376-388.

(2) V. Costello; Kashan : A City and Region of Iran; London; 1976; esp. The Introduction.

السنوى الذى يحصل عليه القروى الذى يعمل فى قرية عراقية جنوبية • ففى بغداد يستطيع المهاجر أن يحصل على عمل ملائم ، مما يمكنه من التحرر من كبار ملاك الاراضى الزراعية والمرابين • وفضلا عن ذلك سجلت هذه الدراسة أن المهاجرين الى بغداد يحصلون على فرص تعليمية ورعاية طبية لم يكونوا يحصلون عليها فى قراهم الاصلية ، وأنهم قد قبلوا تماما الحياة الحضرية حتى أنهم لا يرضون عنها بديلا[١] •

وحينما نناقش العوامل « الطاردة » نجد الحروب والاضطرابات السياسية التى شهدتها منطقة الشرق الاوسط قد لعبت دورا بارزا فى ظهور أنماط « استثنائية » من الهجرة ، مما كان له أكبر الاثر على الانماط الحضرية المعاصرة • فلقد أدى انشـــاء دولة اسرائيل الى هجرة مئات الالوف من اللاجئين الفلسطينيين الى مختلف مدن العالم العربى • غير أن نسبة كبيرة من هؤلاء اللاجئين ـــ وعلى الاخص الفقراء منهم ـــ قـــد انتقلوا الى ضواحى بيروت حيث أقاموا « مدن الصفيح » ، ثم ما لبثوا أن انتقلوا الى المناطق الجنوبية من لبنان • والواقع أن الحرب الاهلية اللبنانية التى نشبت فى سنة ١٩٧٥ لا تخلو من دلالات حضرية بالغة ، اذ أنهـــا تجســـيد لما يمكن أن نطلق عليه « العنف الحضرى » أو « حـــرب العصابات الحضرية » • ويمكننا أن نشير أيضا لحادثة أخرى شـــهدها الشرق الاوسط هى هجرة أعداد كبيرة من الاسر التركية من جـــزر بحر ايجه الى الاراضى التركية طبقا لاتفاقية لوزان التى أبرمت فى ســـنة ١٩٢٣[٢] • ولا نستطيع أن نغفل الاشارة الى ما حدث للمدن الكردية فى ظل الامبراطورية العثمانية وعلى الاخص فيما قبل الحرب العالمية الاولى • فمنذ ذلك الحين ازداد الوعى القومى لدى الاقليات الكردية بسبب ظهور قيادات مثقفة استطاعت احياء نزعة الاستقلال الذاتى • ومن هذه الزاوية يمكننا فهم الصراعات الحادة التى نشأت بين الحكومة العراقية والاكراد ،

(1) V. Costello; Urbanization in the Middle East; Cambridge Univ. Press; 1977.

(2) F. Mansur; Bodrum : A Town in the Aegean; Leiden; 1972.

والتى أدت بها الى هدم كثير من القرى الكردية وهجرة سكانها الى الاحياء الكردية داخل المدن العراقية (١) •

وبالاضافة الى العوامل السياسيه هناك عوامل اقتصادية « طاردة » تلعب دورا هاما فى تحديد الهجرة الريفية ـــ الحضرية فى منطقـــة الشرق الاوسط • الا أن تأثير هذه العوامل الاقتصادية يختلف من اقليم لآخـــر ومن دولة لاخرى • ففى تركيا لوحظ أن الهجرة الريفية تتجه الى المـــدن الساحلية أكثر مما تتجه الى المدن الداخلية ، كما أنها تتجه نحو الغرب بأكثر مما تتجه نحو الشرق • ويرتبط ذلك ـــ بطبيعة الحال ـــ بمعدل النمو الاقتصـــادى فى المناطق المختلفة • فلقـــد أوضحت احدى الدراسات أن الهجرة الريفية فى تركيا الى المدن المطلة على البحر الاسود قد ازدادت خلال السنوات الاخيرة بسبب الرخاء الاقتصادى النسبى الذى تنعم به هذه المدن(٢) • وفى ليبيا نلمح موقفا مختلفا • فطبقا لتعداد ١٩٦٤ اتضح أن ثلاثة أرباع المهاجرين الليبيين قد اتجهوا الى مدينة طرابلس التى تمثل أكبر تجمع سكانى فى البلاد • ومن بين مبررات الهجرة الى هذه المدينة موقعها الهام ، خاصة وأنها تتمتع بظهير من الاراضى الخصبة • وفى اقليم فيزان (الذى يقع فى جنوب ليبيا) أدت صعوبات الصرف وارتفاع مستوى المياه فى الاراضى الزراعية الى هجرة أعداد كبيرة من الليبيين الى المدن • والواقع أن هذين المثلين (تركيا وليبيا) يوضحان لنا كيف أن الهجرة من المناطق الريفية قد تزداد حينما يشتد ضغط السكان على الموارد الطبيعية المتاحـــة •

وتنطوى الهجرة الريفية ـــ الحضرية على دلالات ســـياسية بالغة

---

(1) R. I. Lawless; «Iraq : Changing Population Patterns»; in J. I. Clarke & W. B. Fisher (eds); Populations of the Middle East and North Africa; London; 1972; p. 104.

(2) J. Dewdney; «Turkey : Recent Population Trends»; in J. I. Clarke & W. B. Fisher (eds) Ibid; pp. 48-65.

الاهمية • فلقد لوحظ أن طبيعة المبادىء السياسية التى تتبناها حكومات دول الشرق الاوسط قد انعكست على الواقع الريفى ـ الحضرى • ففى تركيا ومصر وايران والعراق أحدثت مشروعات الاصلاح الزراعى نتائج اجتماعية ـ اقتصادية هامة • وبمقتضى هذه المشروعات تكونت طبقة وسطى ريفية نتيجة لاعادة توزيع الاراضى الزراعية التى استولت عليها الحكومات من كبار الملاك • وعلى الرغم من أن هذا الموقف قد يؤدى ـ على الاقل نظريا ـ الى تقليل معدلات الهجرة الريفية ـ الحضرية ، الا أن ذلك لم يتحقق فى الواقع • ولقد أوضحت فى موضع سابق المشكلات العديدة المترتبة على هذا النمط من الاصلاح الزراعى ، والمتمثلة فى خضوعه لبعض الجماعات الطبقية المحافظة وعدم ظهور أجهزة تعاونية بديلة قادرة على سد الفراغ الذى تركه كبار الملاك[1] • والمحقق ان نمط التطور الرأسمالى الذى شهدته بعض دول الشرق الاوسط قد أدى الى عواقب وخيمة • من ذلك انتشار البطالة بين الفلاحين ، ثم هجرتهم الى المدن لينضموا الى جماهير الفقراء الحضريين • ولقد أوضحت دراسة مصرية حديثة كيف أن القرية المصرية عبر تاريخها (وعلى الاخص فيما قبل ١٩٥٢) قد شهدت ظهور طبقات ممتازة متتابعة ، غالبا ما كانت دخيلة ، وكيف أن الفلاح المصرى على طول تاريخه قد خضع لنظام ضريبى قاس ، خلق فى نهاية الامر أرستقراطية زراعية وبروليتاريا ريفية واسعة النطاق[2] • ويمكننا أن نضيف الى ذلك عوامل أخرى قد تسهم فى دفع الريفيين الى ترك قراهم لهثا وراء سراب المدن • فالانتاجية الزراعية ضئيلة الى حد بعيد ، فى الوقت الذى ترتفع فيه نسبة العمالة الزراعية الى درجة عالية • يضاف الى ذلك استغلال الوسطاء والمرابين للفلاحين ، مما يعنى ابتلاع الفائض

---

(١) السيد الحسينى ، القرية فى الدول النامية ، دراسة نقدية لاتجاهات التغير الاجتماعى ؛ فى : السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٨ ، ص ص ٣٩٠ ـ ٣٩٨ .

(٢) محمود عوده ، القرية المصرية بين التاريخ وعلم الاجتماع ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، الفصل الرابع .

النقدى الذى قد يحققونه[١] • ومن هنا نستطيع أن نفهم استمرار ارتفاع معدلات الهجرة الريفية ـ الحضرية فى معظم دول الشرق الاوسط برغم مشروعات الاصلاح الزراعى التى تمت فى مصر والعراق وايران وتركيا • وهناك شواهد تشير الى أن الاصلاح الزراعى فى كثير من دول العالم الثالث لا يحدث نتائجه الايجابية الا فى المدى البعيد[٢] ، خاصة اذا ما ترتب عليه ادخال أساليب انتاجية جديدة واعادة توزيع حقيقى للملكية الزراعية • وفى العراق لوحظ أن القرى قد بدأت تفقد خلال عقدين من الزمان نسبة كبيرة من شبابها النشطين بسبب الهجرة الى المدن العراقية ، ممــا أدى الى انخفاض الانتاجية الزراعية بسبب استمرار أساليب الانتاج التقليدية• وتواجه الحكومات العراقية فى بعض الاحيان موقفا تواجهه معظم حكومات دول الخليج العربية وهو تخصيص جزء من عائدات النفط لاســتيراد محاصيل زراعية من الخارج [٣] •

ومن الطبيعى أن تؤثر الظروف الديموجرافية والاقتصادية لمــدن الشرق الاوسط على الحياة الاجتماعية للمهاجرين الريفيين الذين يفدون اليها • فلقد أبدت بعض الدراسات الحديثة اهتماما بالعمليات الايكولوجية والاجتماعية المرتبطة بالهجرة الى مدن الشرق الاوسط ، حيث أشارت جانيت أبو لغد الى أن القرويين الذين يهاجرون الى القاهرة يقيمون عند وصولهم فى مناطق الاطراف التى تتعايش فيها أساليب الحياة الحضرية والريفية ، فضلا عما تتميز به هــذه المناطق من تجانس عنصرى وروح دينية قوية ومعدلات عالية من الامية والخصوبة ، وتلك خصائص تكاد تميز

---

(1) S. Saul and R. Woods; «African Peasantry»; in T. Shanin; (ed); Peasants and Peasant Societies; Penguin Books; pp. 60 ff.

(2) A. G. Frank; Capitalism and Underdevelopment in Latin America; Penguin Books; 1969.

(3) R. A. Fernea; «Land Reform and Ecology in Post-Revolutionary Iraq»; Economic Development and Cultural Change; 17 (1969); pp. 356-381.

الريف المصرى بأكمله[1] • كذلك أوضح بيترسين Petersen فى دراسته عن الهجرة الى القاهرة أن المهاجرين الريفيين الجدد يميلون الى الاستقرار على الحدود الريفية ــ الحضرية للمدينة ، مفضلين ذلك على الاقامة فى الاحياء الداخلية المزدحمة التى تتميز بمعدلات عالية من الامية وقدر كبير من التجانس الدينى[2] • ويبدو أن بيترسين قد قصد من دراسته القاء الشكوك حول الفكرة الذاهبة الى أن المهاجرين الى القاهرة يميلون الى تكوين « جيوب » حضرية صغيرة تعبر عن القرى التى أتوا فيها • ولقد أوضح مسح لمدينة طرابلس الليبية فى سنة ١٩١٧ أن الاسر المهاجرة من اقليم مصراطه والاقاليم الاخرى كانت تعيش جنبا الى جنب ، حتى أنها قد شكلت مجتمعات محلية متجانسة الى حد بعيد • بيد أن الاحياء المتخلفة فى المدينة ما لبثت أن ظهرت بعد الاحتلال الايطالى ، مما أدى الى ظهور نويات حضرية متباعدة تستقبل المهاجرين ذوى الاصول الريفية الواحدة • ويبدو ان طهران تشهد وضعا مختلفا فى هذا المجال • فهى لاتكاد تشهد أحياء متخلفة على نطاق واسع ، لان المهاجرين الى المدينة سرعان ما يكتسبون عناصر الحياة الحضرية ويتوحدون معها • ومع ذلك فلقد لوحظ أن معظم المهاجرين الفقراء يميلون الى الاقامة فى الاحياء الجنوبية من طهران ، وهى أحياء متاخمة لحدود صحراوية ، كما أنها أكثر دفئا من الاحياء الشمالية المتاخمة للحدود الجبلية • على أن حركة المهاجرين الى المدينة وداخلها قد تتم من خلال عدة مراحل واضحة المعالم • ففى مدينة مشهد بايران ، لوحظ أن المهاجرين الجدد قد شكلوا فى البداية أحياء غير مستقرة قريبة من المركز التجارى حيث تتميز بزيادة نسبة الذكور على نسبة الاناث بشكل طاغ • وفى مرحلة لاحقة بدا المهاجرين فى الانتقال الى الاحياء التى تتيح لهم فرص العمل الدائم المستقر •

ومن الصعب فهم الهجرة الريفية ــ الحضرية فى ضوء المفاهيم

---

(1) J. Abu-Lughod; «Migrant Adjustement to City Life....»; op. cit.

(2) K; K; Petersen; «Demographic Conditions and Extended Family Households : Egyptian Data»; Social Forces; 1968; pp. 531-537.

الديموجرافية وحدها • اذ أن العوامل والمتغيرات الاجتماعية تلعب دورا هاما فى تشكيل معدلاتها وتحديد نتائجها • وربما كان موضوع التكيف الاجتماعى للمهاجرين الى المدن من أكثر الموضوعات التى أولاهـا علماء الاجتماع الحضرى عنايتهم واهتمامهم • غير أن ما يعنينا هنا هو التعرف على ملامح عملية التكيف الاجتماعى للمهاجرين الى مدن الشرق الاوسـط والدور الذى تلعبه الاسرة والقرابة والجماعات الاجتماعية الاخـرى فى هذا المجال • ونحن لا نزعم أن مدن الشرق الاوسط تشهد ظروفا فريدة فيما يتعلق بالتكيف الاجتماعى للمهاجرين ، اذ أن المدن الافريقية والآسيوية تشهد ظروفا مشابهة • ومع ذلك فاذا كان للخصوصيات الثقافية والبنائية أن تلعب دورها ، تعين علينا التعرف على تلك الملامح المتميزة التى تحـدد طابع التكيف الاجتماعى للمهاجرين الى مدن الشرق الاوسط • ومنذ البداية نجد ضرورة لتأكيد قضية أولية هى ، أن التنظيم العائلى التقليدى الـذى تشهده منطقة الشرق الاوسط يرتبط أوثق الارتباط بالاختلافات الايكولوجية التى تميز أساليب الحياة البدوية والريفية والحضرية • ويميل كثير مـن علماء الاجتماع الى تأكيد انتشار الاسرة الممتدة فى دول الشرق الاوسط ، وان كان هذا الانتشار يختلف من منطقة لاخرى • فهو فى الهلال الخصيب أكثر وضوحا منه فى وادى النيل(١) • وحينما يؤكد هؤلاء العلماء سيطرة الاسرة الممتدة فى منطقة الشرق الاوسط ، فانهم يقصدون بذلك اقامة أكثر من جيل داخل المسكن واشتراكهم فى حياة عائلية واحدة ، حيث تعد الاسرة وحدة مالكة يشرف عليها الاب طبقا للصلاحيات التى تمنحها له الشريعة الاسلامية (٢) •

على أن مسلمة الاسرة الممتدة فى منطقة الشرق الاوسط قـد تعرضت لانتقادات عديدة • فلقد تساءل بيترسين Petersen عن مـدى شيوع

---

(1) G. Baer; Population and Society in the Arab East; London; 1964.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر علياء شـكرى ، الاتجاهات المعاصرة فى دراسة الاسرة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الاسرة الممتدة الابوية فى مصر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، وانتهى الى رفض هـذه القضية استنادا الى اعتبـارات ديموجرافية • فالزواج بالنسبة للذكور المصريين (سواء فى المدينة أو القرية) لا يتم قبل وصولهم سن الخامسة والعشرين • واذا ما علمنا أن معدلات الوفيـات فى مصر ظلت مرتفعة لفترة طويلة ، فان فرصـة الاب فى أن يرى أبنائه متزوجين تكاد تكون محدودة ، كما أن فرصته فى أن يرى أحفاده تقل عن ذلك بسبب ارتفاع معدلات وفيات الاطفال[1] • وأعتقد أن وجهة نظـر بيترسين لا تنطبق فقط على مصر ، بل تنطبق أيضا على كثير من شـعوب الشرق الاوسط ، مما يدفعنا الى التحفظ على كثير من المسلمات المتعلقة بشيوع الاسرة الممتدة فى هذه المنطقة من العالم • وربما كانت الالتزامات الجماعية هى أكثر السمات المميزة للاسرة الشرق الاوسطية • ففى كثير من الاحيان يقوم الابناء الراشدون بتقديم الدعم المادى لاسر آبائهم حتى ولو كانوا (أى الابناء) يعيشـون فى ظل حياة أسرية مستقلة[2] • فمن الشواهد المألوفة أن يساعد الاخ الاكبر الاخ الاصغر على اكمال تعليمه اذا ما كان الاب عاجزا عن تقديم هذه المساعدة • كما أن الفتـاة غـير المتزوجة تكون موضع اهتمام الابوين وأخوتها حتى زواجها • واذا ما طلقت المرأة أو ترملت ، عادت الى منزل أحد آخوتها : لان فى رعايتهـا والاهتمام بها شرف للعائلة[3] • والواقع أن مفهوم « الشرف العائلى » ليس مقصورا على منطقة المشرق العربى • ذلك أن بعض الدراسـات قد أوضحت مدى شيوع هذا المفهوم فى تركيا أيضا •

وفى ضوء هذه التصورات يمكننا التعرف على النتائج الاجتماعية التى تحدثها الهجرة الريفية ــ الحضرية على أسرة الشرق الاوسط • فمن

(1) K; K; Petersen; «Demographic Conditions and Extended Family Households : Egyptian Data»; op. cit.

(2) T. Prothro; L. Diab; Changing Family Patterns in the Arab East; American University of Bierut; 1974.

(3) J. Gulick; Tripoli : A Modern Arab City; Cambridge; Mass : 1967.

وجهة النظر الديموجرافية ، نجد أن معظم المهاجرين الى المدن ينتمون الى الفئة العمرية الشابة ، ثم يلتحقون بأعمال حضرية تحقق لهم الاستقلال الاقتصادى عن آبائهم المقيمين فى الريف • وفى بعض الاحيان قد يرسل الابناء لآبائهم بعض المساعدات المالية • ولنا أن نتوقع بعد ذلك تغير نمط السلطة فى الاسرة الريفية الاصلية للمهاجر • اذ تتقلص الادوار التقليدية للأب ، تلك السلطة التى كانت تتخذ مظاهر عديدة من بينها اختيار قرينات أبنائه ودفع المهور وتحديد مواعد الزفاف • وفضلا عن ذلك فان الهجرة الى المدينة تقلل من فرص زواج الابناء من بنات العمومة أو الخئولة بسبب اتساع نطاق عملية الاختيار للزواج • ولقد أوضحت دراسة حديثة لنا أن التعليم الجامعى فى مدينة الدوحة قد أحدث تغيراً كبيرا على نمط اختيار القرناء والقرينات[١] • وفى معظم مدن الشرق الاوسط نجـد العـوامل الديموجرافية تسهم فى حدوث تغيرات اجتماعية هامة • ومن بين هـذه العوامل الديموجرافية نجد ارتفاع معدلات الزيادة الطبيعية وانخفاض معدلات الوفيات وزيادة نسبة المستقلين اقتصاديا • ففى تركيا نجد فروقا ريفية ــ حضرية واضحة فيما يتعلق بهذه الخصائص الديموجرافية حيث بلغت معدلات المواليد ٤٩ فى الالف ، بينما لم تتجاوز فى المناطق الحضرية ٢٤ فى الالف • ولقد أوضحت احدى الدراسات أن معـدلات المواليد فى تركيا ترتفع فى المناطق الريفية التى تزداد فيها نسبة الامية وتقل فيهـا العيادات الطبية التى تقدم النصح والمشورة للراغبين فى تنظيم النسل[٢] • كذلك فلقد لوحظ ارتفاع فى نسبة الذكور وانخفاض فى نسبة الاناث فى المدن التركية الاساسية ، حيث بلغت هذه النسبة ١١٦٨ من الـذكور لكل ألف من الاناث ، بينما كانت هذه النسبة فى القرى التركية ٩٠٧ من الذكور لكل ألف من الاناث • ويمكننا أن نجـد بيانات مشابهة فى ايران • ففى

---

(١) السيد الحسينى وجهينـه العيسى ، الاتجاهات والقيم المرتبطـة بالزواج لدى الشباب القطرى ، حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية ، جامعة قطر ، تحت الطبع .

(2) J. Dewdney; Turkey; London; 1971; p. 59.

سنة ١٩٦٦ بلغت هذه النسبة فى المدن الايرانية الكبرى ١٠٨٤ من الذكور لكل ألف من الاناث • وفى جده بلغت هذه النسبة ١٣٢٦ من الذكور لكل ألف من الاناث وذلك فى سنة ١٩٦٣ • وفيما يتعلق بدول الخليج العربية سجلت احـدى الدراسـات الاحصائية ارتفاعا ملحوظا فى نسب الذكور وانخفاضا مقابلا فى نسب الاناث • ففى الامارات العربيـة — مثلا — وصلت نسبة الذكور فى سنة ١٩٧٥ حوالى ٦١٫٣٪[١] • ومهما قيل عن اختلال التوزيع النوعى للسكان فى مدن الخليج العربية ، فان هذا الاختلال يتضاءل كثيرا أمام الشذوذ النوعى الذى تشهده المدن الافريقية حيث قد تصل نسبة الذكور الى خمسة أو ستة أضعاف نسبة الاناث[٢] •

على أن حالة مصر تتطلب منا بعض التأمل • فلقد أوضحت جانيت أبو لغد أن معدلات الخصوبة فى الحضر المصرى تقل عن نظيرتها فى الريف المصرى[٣] ، وأن هذا النمط يكاد يكون شائعا فى ليبيا ولبنان ، بينما لا يكاد يوجد فى كل من تركيا وايران وسوريا والعربية السعودية على نحـو ما أوضحنا قبل قليل • ومعنى ذلك أن حالة مصر وبعض بلدان الشرق الاوسط لا تؤيد القضية الشائعة الذاهبة الى أن معدلات الخصوبة فى الحضر تقل عن نظيراتها فى الريف • كذلك أوضحت جانيت أنه بسبب عدم وجود فروق واضحة فى معدلات الخصوبة بين كل من الريف والحضر فى مصر ، فان الزيادة الطبيعية تسهم بنصيب كبير فى النمو السكانى للمدن ، على الرغم من وجود علاقة واضحة بين الهجرة والنمو الطبيعى للسكان[٤] • وفى

(١) جامعة الدول العربية ، الامانة العامة ، الجهاز الاحصائى ، جدول رقم (١) •

(2) D; J; Dwyer (ed); The City in the Third World; London; 1974.

(٣) يمكننا أن نجد تأييدا جزئيا لهذه القضية فى دراسـة مصرية أجريت فى منتصف الستينيات . انظر : عبد الخـالق ذكرى ومرزوق عبد الرحيم ، الاتجاه نحو تنظيم الاسرة فى قرية مصرية ، الحلقة الثانية للدراسات والبحوث الاحصائية ، القاهرة ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ص ١٩٩ — ٢٢١ .

(4) J. Abu-Lughod; «Migrant Adjustement to City Life....» op. cit.

دراسة لى عن الفروق الريفية ــ الحضرية فى بعض الخصائص السكانية فى مصر ، اتضح وجود فروق فى خاصيتين ديموجرافيتين همـا : المهنة والتعليم ، بينما لم تظهر فروق فى خاصيتين ديموجرافيتين أخريين هما : العمر والحالة الزواجية ، وذلك على مستوى الوحدات البنائية المتباينة الاحجام • وفى ضوء هذه الشواهد يبدو لنا أن مفهوم « المتصل الريفى ــ الحضرى » لم يتحقق واقعيا بالنسبة للوحدات البنائية المصرية • فاذا كان هذا المتصل يقوم على دعامتى التدرج المستمر والتباين المتسق ، فاننا نستطيع القول بأننا لم نتمكن من الحصول الا على شكل ضعيف نسبيا للمتصل قوامه المهنة والتعليم (١) •

وفى ضوء هذه الخصائص الديموجرافية يمكننا التعرف على عملية التكيف الاجتماعى المصاحبة للهجرة الريفية ــ الحضرية فى دول الشرق الاوسط • إذ تميل معظم الدراسات التى أجريت فى هذا المجال الى تأكيد عدد من العمليات الاساسية التى تتميز بقدر كبير من الشـيوع • فلقد أوضحت دراسة عن المهاجرين الى مدينة طرابلس الليبية أن استمرار وفود المهاجرين يحول دون ظهور روابط قوية توحد بينهم ، وذلك بسبب نمو المهن الحضرية الجديدة واضطرار المهاجرين الى العمل فى مناطق مختلفة ومتباعدة(٢) • غير أن القاهرة تشهد موقفا متباينا • فالمهاجرون الجـدد اليها يلقون مساعدة كبيرة من زملائهم القدامى سواء فيما يتعلق بالحصول على أعمال تتناسب مع قدراتهم أو التكيف مع الثقافة الحضرية بوجـه عام(٣) • ولقد أوضحت احدى الدراسات أن المهاجرين الاميين الى مدينة

---

(١) السيد الحسينى ومحمد على محمد ، الفروق الريفية ــ الحضرية فى بعض الخصائص السكانية ، تحليل احصائى ، الحلقة الدراسية الاولى لعلم الاجتماع الريفى فى مصر ، منشـورات المركز القومى للبحـوث الاجتماعيـة والجنائية ، القاهرة ، ١٩٧١ •

(2) V. F. Costello; Urbanization in the Middle East; Cambridge University Press; London; 1977; p. 56.

(3) J. Abu-Lughod; «Migrant Adjustement to City Life....»; op. cit.

القاهرة يلتحقون عادة بأعمال بسيطة (كالتجارة المتجولة) لا تتطلب منهم تكيفا شخصيا كبيرا • كذلك فان المؤسسات الرسمية المعنيـــة بالعمالة لا تلعب دورا كبيرا فى تكيف المهاجرين مع الحياة فى مدينة القاهرة • وبدلا من ذلك تلعب جماعات القرابة والجيرة دورا هاما فى تكيف المهاجرين مع الحياة الحضرية[١] •

ويبدو أن ثقافات مجتمعات الشرق الاوسط تميل الى تاكيد أهمية العلاقات الشخصية والقرابية التى قد تصل الى حد كبير من الاتســـاع ؛ حتى أن الفرد لا يجد ضرورة لاقامة أشكال أخرى من العلاقات • ويمكننا أن نجد انعكاسا لذلك على مدن الشرق الاوسط • ففى مدينة الدوحـــة ـــ مثلا ـــ نجـــد الاحياء ترتبط بأسماء بعض القبائل • وقد يكـــون من الطريف أن نشير هنا الى أن هذه المدينة لم تستشعر بعد ضرورة منـــح شوارعها أسماء وبيوتها أرقاما ، على الرغم من النمو العمرانى والسكانى الذى شهدته خلال السنوات الاخيرة • وينطبق ذلك ـــ بدرجات مختلفة ـــ على بقية مدن الخليج العربية • ومن اليســـير فهم الدور الـــذى تلعبه الجماعات القرابية فى عملية تكيف المهاجرين الى مدن الشرق الاوسط اذا ما أشرنا الى طابع البناء التقليدى الذى يميز الحياة الاجتماعية فى هـــذه المنطقة من العالم • فلقد أوضح جبرائيل باير Baer أن الولاء للجماعات القرابية يتم من خلال الانحدار من سلف واحـــد ، مما يدعم الاحســـاس بالانتماء الجماعى لاجيال عديدة[٢] • ومن خلال هذه القضية يمكن تفسير الانماط الايكولوجية التى تتخذها القرية بخاصة والمدينة بعامة • ولقـــد أوضحت قبل قليل أن الطابع الحضرى لمدن الخليج العربية يكاد يكـــون انعكاسا العلاقات القرابية السائدة • فكلما اتســـع نطاق هذه العلاقات ،

---

(1) K; K; Petersen; «Villagers in Cairo : Hypotheses Versus Data»; American Journal of Sociology; 77; 1971; pp. 550-573.

(2) G. Baer; Population and Society in the Arab East; London; 1964; p. 169.

كبر حجم الحى مكانيا وسكانيا . وعلى الرغم من التحولات التى شهدتها مدن الشرق الاوسط خلال السنوات الاخيرة والتى انعكست بالتالى على طبيعة العلاقة بين القرابة والطابع الحضرى ، الا أن العلاقات القرابية ماتزال تلعب دورا هاما . ففى بيروت التى تعد من أكثر مدن الشرق الاوسط انفتاحا على العالم تؤدى القرابة وظائف هامة . اذ أنها ماتزال تعد من أهم وسائل الحصول على مزايا سياسية واقتصادية[١] . ولقد أوضحت دراسة مكى عزيز عن الهجرة الريفية الى مدينة بغداد أن الجماعات القرابية الحضرية تسهم فى تكييف المهاجرين الجدد مع الحياة الحضرية . اذ أن هؤلاء المهاجرين يكونون تصورات معينة عن الفرص المهنية المتاحة فى المدينة قبل وصولهم اليها ، وذلك من خلال المهاجرين القدامى الذين يزورون قراهم الاصلية من وقت لآخر . كذلك أوضح عزيز ان الهجرة الى بغداد لا تتم على مرحلة واحدة ، اذ يسبقها هجرة الى مدينة الكوت حيث يقضى المهاجر فترة معينة يتمكن خلالها من جمع بعض المدخرات والحصول على مزيد من المعلومات عن بغداد . وما أن يصل المهاجرون الجدد الى بغداد حتى يلجأون الى أقاربهم الحضريين ، فيقيمون معهم ويسهمون فى تكاليف الحياة المشتركة ولا يترددون فى اتخاذ الحصير فراشا لهم . ويحاول المهاجرين خلال تلك الفترة الحصول على أعمال تتلاءم معهم، فيطرقون أبوابا عديدة تبدأ بالمؤسسات الرسمية حتى المشروعات التجارية الصغيرة الخاصة . وتتميز الاحياء التى يقطنها هؤلاء المهاجرين بالازدحام الشديد اذا ما قورنت بالقرى التى أتوا منها . وعلى الرغم من ذلك فلقد سجل مكى عزيز استمرار العلاقات القبلية أو العرقية داخل هذه الاحياء . فأفراد كل قبيلة يتبرعون بالاموال لبناء أماكن عامة لاستقبال الضيوف ، كما تقام مقاهى شعبية عامة يلتقى فيها المهاجرون الذين ينتمون الى نفس القبيلة[٢] . ومن ذلك يبدو واضحا أن العلاقات القرابية تلعب دورا كبيرا فى مساعدة المهاجرين على التكيف مع الحياة الحضرية الجديدة .

---

(1) J. Gulick; Tripoli : A Modern Arab City; op. cit.

(2) V. F. Costello; Urbanization in the Middle East; op. cit; p. 58.

وعلى الرغم من أن الدراسات التى تناولت المهاجرين الى مدن الشرق الاوسط قد أجمعت على أهمية الدور الذى تلعبه الجماعات القرابية فى تكيفهم الاجتماعى مع الحياة الحضرية . الا أن هذه الدراسات لاتتفق جميعها حول طبيعة التغيرات الشخصية التى تطرأ على المهاجرين نتيجة لاحتكاكهم بالثقافة الحضرية • فلقد أوضح دانيل ليرنر Lerner أن مجرد الاقامة فى مدينة لا يعنى ـ بالضرورة ـ تكوين نظرة « حديثة » للفرد • ويؤكد ليرنر أن معرفة القراءة والكتابة . والتفاعل مع أساليب الاتصال الجماهيرى ، يمكنان الفرد من الانفتاح مما يؤدى به فى نهاية الامر الى اكتساب خصائص الشخصية « الحديثة » • كذلك فان التعاطف مع الآخرين empathy يتيح للفرد فرصة تكوين اتجاهات عامة • ويميز ليرنر بين مراحل مختلفة للتحضر فى مجتمعات الشرق الاوسط • هناك التحضر المكانى الذى يتمثل فى انتقال مجموعة من القرويين الى المراكز الحضرية المجاورة • وحينما تصل نسبة سكان الحضر الى ١٠ ٪ من مجموع السكان ، وتصل نسبة الذين يعرفون القراءة والكتابة الى ٤٠٪ ، تظهر مرحلة جديدة من التحضر • وفى المرحلة الاخيرة تلعب كل من وسائل الاتصال الجماهيرى والمشاركة السياسية دورا كبيرا فى تشكيل الحياة الحضرية[1] • على أن ليرنر قد ميز بين ثلاثة أنماط من الشخصية فى مجتمعات الشرق الاوسط • أما النمط الاول فيضم « الحديثين » moderns الذين يتصفون عادة بالانفتاح على العالم ، ومعرفة القراءة والكتابة ، والاقامة فى المدن ، وتبنى آراء عديدة حول مختلف القضايا والمواقف • أما النمط المقابل فيشمل التقليديين traditionals الذين يتسمون بالانغلاق حول الذات والامية والاقامة فى القرى وعدم المبالاه بأمور الآخرين

---

(1) D. Lerner; The Passing of Traditional Society. Modernising of Middle East; London; 1964.

يمكننا أن نشير الى دراستين عربيتين استعانتا بمفاهيم ليرنر بطرق مختلفة فى دراسة التغير الاجتماعى والتحديث انظر : محمود عوده ، أساليب الاتصال والتغير الاجتماعى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧١ ، وجهينه العيسى ، التحديث فى المجتمع القطرى ، دار كاظمة ، الكويت ، ١٩٧٩ .

والتمسك بآراء جامدة نمطية • ويتوسط هذين النمطين نمط ثالث يضم « الانتقاليين » transitional الذين يشاركون » الحديثين « بعض الخصائص كالتعاطف من الآخرين ، لكنهم يفتقدون مقومات العناصر الحديثة كمعرفة القراءة والكتابة • ولقد وجد ليرنر أن الاميين الذين يعيشون فى مدن الشرق الاوسط يكونون آراء وتصورات عن الحياة أكثر تنوعا من قرنائهم الاميين الذين يعيشون فى المناطق الريفية ، كما أوضح أن « الانتقاليين » يولدون عادة فى مناطق ريفية أو مدن صغيرة ، لكنهم مايلبثوا أن يقيموا بعد ذلك فى مناطق حضرية أكبر(١) • وعلى الرغم من الانتقادات العديدة التى يمكن أن توجه الى تصنيف ليرنر ، الا أنه قد يصلح لكشف التنوعات المختلفة التى ينطوى عليها السلوك الريفى ـ الحضرى فى سياقات مختلفة(٢) •

واذا كانت الحركة الكلية للمهاجرين الى المدن تتوقف على العوامل الإقليمية والاجتماعية والاقتصادية ، الا أن قرار كل مهاجر بالانتقال الى المدينة والتكيف مع حياتها انما يتوقف على دوافعه وامكانياته الذاتية • فلقد أوضحت دراسة تركية أنه كلما كبر سن المهاجر الى مدينة أنقره ، قلت فرص مشاركته فى الحياة الحضرية عموما ، وازدادت صلته بالثقافة الريفية التى كان ينتمى اليها • وتنتهى هذه الدراسة الى نتيجة هامة مؤداها ، أن الهجرة الريفية ـ الحضرية فى تركيا تبدو انتخابية • فالغالبية العظمى هم القادرون على الدخول فى الحياة الحضرية وتمثلها واستدماجها(٣) • وفى دراسة أخرى تناولت الهجرة الى مدينة طرابلس الليبية ، اتضح « تفاوت ملحوظ » بين المهاجرين فى درجة تمثل الثقافة

---

(1) D. Lerner; The Passing of....op. cit; p. 162.

(٢) ناقشت هذه الانتقادات فى موضع آخر . انظر السيد الحسينى ، اتجاهات علم الاجتماع فى فهم مشكلات الدول النامية » فى : السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، المرجع السابق ، ص ص ١٠٢ وما بعدها .

(3) V. F. Costello; Urbanization in the Middle East; op. cit; p. 60.

الحضرية (قيست فى ضوء القدرة على التعاطف مع الاخرين ، والاتجاه نحو تحرر المرأة ، ودرجة التدين ، ومستوى المشاركة فى الحياة الحضرية). ومرة أخرى نجد العمر هنا يلعب دورا حاسما . فالمشاركة فى الحياة الحضرية تقل بشكل ملحوظ بالنسبة للمهاجرين من كبار السن . كذلك فان التعليم يلعب دورا وسيطا بالغ الاهمية . فذوو المؤهلات التعليمية العليا من المهاجرين يتكاملون بشكل أقوى وأعمق مع الحياة الحضرية ابتداء من العلاقات الشخصية حتى وسائل الاتصال الجماهيرى[١] . واذا ما أضفنا نتائج دراسة ليرنر Lerner الى نتائج الدراستين التركية والليبية ، اتضح لنا أن التحديث بعامة والتكيف الحضرى بخاصة ، يتوقفان على مجموعة من الظروف الاقتصادية والاجتماعية والاقليمية والثقافية . أما الوصول الى نظرية عامة تفسر كل ذلك فى منطقة الشرق الاوسط فلايزال أملا بعيد المنال بسبب الندرة النسبية للدراسات التى تتناول التكيف الحضرى فى مجتمعات هذه المنطقة .

ولا نستطيع اغفال الدور الذى تلعبه وسائل الاتصال الجماهيرى فى تكيف المهاجرين الريفيين الى مدن الشرق الاوسط . فلقد أوضحت الدراسة الليبية التى أشرنا اليها قبل قليل أن وسائل الاتصال الجماهيرى والتعليم يلعبان دورا هاما فى عملية التكيف الحضرى . ويختلف التعليم عن وسائل الاتصال الجماهيرى فى قدرته على فرض أنماط سلوكية على جماعات عمرية واحدة . كذلك فلقد أشار ليرنر الى أن مجتمعات الشرق الاوسط تشهد علاقة وثيقة بين معرفة القراءة والكتابة ووسائل الاتصال الجماهيرى . فالذين يقرأون الصحف والمجلات هم القادرون اقتصاديا على الذهاب الى السينما من حين لآخر ، وهم أيضا القادرون على اقتناء أجهزة الراديو[٢] . ومن هنا نستطيع أن نفهم سبب تأكيد بعض علماء الاجتماع للدور الذى تلعبه وسائل الاتصال فى التمييز بين القرية والمدينة . ولقد

---

(1) Ibid; p. 61.

(2) D. Lerner; The Passing of .... op. cit; p. 235.

أوضح ليرنر أن السينما فى مدن الشرق الاوسط تلعب دورا تثقيفيا بالغ الاهمية • واذا ما أخذنا فى الاعتبار أن دراسة ليرنر قد أجريت فى أوائل الخمسينات (١٩٥١ / ١٩٥٢) ، فان لنا أن نتوقع الآن دورا هائلا يلعبه التلفزيون فى ريف وحضر الشرق الاوسط على السواء • وعلى الرغم من أن معظم وسائل الاتصال الجماهيرى فى منطقة الشرق الاوسط تخضع للرقابة الحكومية ، الا أن ذلك لا يقلل من أهمية دورها التثقيفى • ومع ذلك نجد بعض الدارسين يذهبون الى ان السينما والراديو لا يلعبان الدور الاكبر فى تشكيل السلوك الحضرى فى مجتمعات الشرق الاوسط • ففى تركيا أوضحت احدى الدراسات[1] أن تغير الاتجاهات السياسية فى الريف التركى كان يتم من خلال الاتصالات الشخصية بين الناس أكثر مما يتم من خلال برامج وسائل الاتصال الجماهيرى • وفى دراسة حديثة أوضحت جانيت أبو لغد أن الاتجاهات السياسية للمهاجرين الى المدن المصرية تختلف باختلاف مكاناتهم الاجتماعية وأساليب تكيفهم مع الحياة الحضرية • فالذين يفضلون البقاء فى القرى المصرية يحاولون المشاركة فى السياسة المحلية والحصول على رموز المكانة من خلال العمل السياسى الاقليمى • وينطبق ذلك أيضا على الذين يهاجرون الى المدن لفترة قصيرة يظلون خلالها على صلة وثيقة بالتطورات التى تحدث فى قراهم • أما المهاجرون الذين يقررون الاقامة الدائمة فى المدن بهدف الحصول على المؤهلات الجامعية العليا ، فانهم يرتبطون — فى نهاية الامر — بالصفوة الحضرية التى تسهم فى توجيه السياسة القومية • كذلك نجد الذين ينتقلون الى المدن لأداء الخدمة العسكرية ويقررون الاقامة الدائمة فيها بعد ذلك ، يبدون اهتماما سياسيا ، وان كان ذلك يتوقف على طبيعة مهنهم وأماكن عملهم • أما أفقر المهاجرين الذين يتركون القرى فهم أولئك الذين لا تتاح لهم فرصا اقتصادية ملائمة ، مما يدفعهم الى الالتحاق بالأعمال اليدوية غير الماهرة • وفى معظم الاحيان يظل هؤلاء المهاجرون الفقراء بمنأى عن القضايا السياسية العامة ، وان كانت السنوات الأخيرة قد برهنت على

(1) V. F. Costello; Urbanization in the Middle East; op. cit; p. 66.

امكانية استخـــدامهم فى المظاهرات الســـياسية فى مـــدينتى القـــاهرة والاسكندرية[١] • ويبدو أن هؤلاء المهاجرين الفقراء هم أكـــبر مصـــدر للتجمعات الجماهيرية العامة المصرية • فبفضلهم شيع جثمان مطربة الشرق « أم كلثوم » (١٩٧٥) فى موكب مهيب لم يحظ به جثمان تشيرشـــل أو ستالين •

وفى لبنان أوضح فؤاد خورى فى دراسة له على ضاحيتين لبنانيتين ان الهجرة الريفية الى المدينة تؤدى الى تحول الولاء من العائلة فى القرية الى المذهب الدينى فى المدينة[٢] • ومع ذلك فان العائلة قد تكتسب مزيدا من التضامن والدعم اذا ما تعرضت قيمتها الأســـاسية للانتهـــاك • وفى القرى التى تقطنها جماعات قرابية متباينة تتاح الفرصة لظهور صراعات عديدة • ولقد أشار خورى أيضا الى أن المذهب الدينى يلعب دورا هاما فى تشكيل السياسة القومية فى لبنان ، وان كان لا يلعب مثل هذا الدور على مستوى القرية اللبنانية • ففى القـــرى تعيش جمـــاعات المسلمين (من الشيعة والسنة) والمارونيين المسيحيين فى شبه حالة ســـلام حيث تتبـــادل الزيارات من حين لآخر • على ان الحرب الأهلية التى تشهدها لبنان منذ سنة ١٩٧٥ تكشف عن أن « السلام » الذى يشير اليه خورى هو سلام « مصطنع » لا يعبر تماما عن طبيعة الأشياء •

وقد يكون من المفيد ان نختتم هذه المناقشة بالاشارة الى مكانة المرأة داخل مدن الشرق الأوسط • والواقع أن الكتابات العديدة التى تناولت هذه القضية تميل الى تأكيد المكانة المتدنية التى تحتلها المرأة فى مجتمعات الشرق الأوسط وعلى الأخص اذا ما قورنت بالمكانة العالمية التى تحتلها

---

(1) Abu-Lughod; «Rural Migration and Politics in Egypt»; in R. Antoun and I. Harik; Rural Politics and Social Change in the Middle East; Bloomington; Ind; 1972; pp. 315-334.

(2) F. Khuri; «Sectarian Loyalty Among Rural Migrants in Two Lebanese Suburbs : A Stage Between Family and National Allegiance»; in Ibid; pp. 116.

قرينتها فى المجتمعات الغربية • وفى معظم هذا الكتابات نجد تلميحات ـ صريحة أو ضمنية ـ للدور الذى تلعبه القيم الاسلامية فى هـذا المجال وعلى الأخص فيما يتعلق بتأكيد سلطة الرجل وحقه فى تعـدد الزوجات والطلاق • غير أن مجتمعات الشرق الأوسط قد شهدت تغيرات عميقة فى هذا المجال • فالمؤشرات الاحصائية المتعلقة بتعليم المرأة ، والتحاقها بالمهن المختلفة ، ونسب تعدد الزوجات ، تؤكد جميعها أن الصورة « التقليدية » للمرأة فى مجتمعات الشرق الأوسط لم تعد هى تلك الصورة « النمطية » التى ألفنا مطالعتها فى الكتابات السوسيولوجية الغربية • والواقع أننا لو حللنا مضمون كثير من القوانين المدنية فى معظم دول الشرق الأوسـط ، وجدنا أن المرأة تحظى بمزايا (كحق الارث) لا تكاد تحظى ببعضها المرأة الغربية • وفضلا عن ذلك كله فان العنـاصر التقليـدية التى كانت تميز الأسرة العربية قد تعرضت للتغير الشديد خلال العقود الأخـيرة نتيجة لازدياد الاتصال بالعالم الخارجى ، ونمو الوعى الاجتماعى والسياسى ، وتغلغل العناصر العلمانية فى كافة وجوه الحياة الاجتماعية •

على أن ذلك لا يمنعنا من الاشارة الى بعض الخصوصيات الثقافية التى تتميز بها الاسرة الشرق أوسطية • فلقـد أوضـح دود Dodd أن المجتمعات الغربية تمنح الأخلاقيات العائلية (أو الشرف العائلى) أهمية فائقة[1] • ويدخل فى اطار هـذه الأخلاقيات عـددا كبـيرا من الأنماط السلوكية والمعرفية كارتفاع صوت المتحـدث والظهـور أمام الناس • ولا تتصل هذه الأخلاقيات بالنساء أو الاطفال فقط ، وانما تتعلق بالرجال • ومن بين القواعد التى تلقى احتراما كبـيرا أن تكون المهن السـياسية والعسكرية حكرا على الرجال ، وأن تكون الاعمال المنزلية وتربية الاطفال موقوفة على النساء[2] • وفى كل الاحوال فان بناء الأسرة فى مجتمعـات

(1) P. C. Dodd; «Family Honour and the Forces of Change in Arab Society»; International Journal of Middle East Studies; 4 (1973); pp. 40-54.

(2) C. A. O Van Nieuwenhuijze; Social Stratification and the Middle East; Leiden; 1965.

الشرق الأوسط يتيح للرجل ممارسة السلطة على زوجته ، ويتسق مع السلطة التى قد يمارسها الأخ على أخته • وقد يسمح المجتمع للمرأة بالاحتكاك بعدد محدود من الاقارب الذين يكونون محل ثقة كبيرة • ومن الطريف أن نشير هنا الى ان كمال أتاتورك ورضا بهلوى قد حرما ارتداء النساء للحجاب فى المدن التركية والايرانية ، مما أحدث ردود فعل عميقة سواء من جانب الرجال أو النساء • ومن الأمور ذات الدلالة البالغة أن الحجاب يبدو فى بعض المجتمعات ظاهرة حضرية أكثر منه ظاهرة ريفية[1] • ففى الحقول تعمل النساء سافرات ، بينما ترتدى بعض النساء الحضريات الحجاب عند خروجهن الى المدينة • ولقد أوضحت دراسة حديثة أن المكانة التقليدية للمرأة فى المجتمع الليبى تتحدد فى ضوء المعانى التى يمنحها الأفراد للخصائص البيولوجية لكل من الرجل والمرأة • فالذكورة ترتبط بالشجاعة والكبرياء والعدوان ، مما يدفع الأفراد الى ضرورة تخليد أنفسهم من خلال انجاب الذكور •

واذا كانت الهجرة الى المدن تؤدى الى اضعاف البناءات القرابية والعائلية الكبيرة ، الا أنها تسهم أيضا فى احداث تغييرات هامة على اتجاهات الرجال نحو النساء • فلقد أوضحت دراستان احداهما ليبية والأخرى تركية أن المهاجرين الذين أقاموا فى المدن قد تبنوا بعض الآراء والاتجاهات التقدمية فيما يتعلق بمكانة المرأة ، وأن الانتقال من اقتصاد الاعاشة الريفى الى اقتصاد النقد الحضرى قد خلع على المرأة قيمة اقتصادية لم تكن متاحة لها فى ظل الحياة القروية ، حتى أن عمل المرأة قد أصبح مطلبا اقتصاديا للأسرة اذا ما أرادت الاستمرار فى الحياة الحضرية • كذلك أوضحت دراسة مصرية أن الاتحاد النسائى المصرى يدين فى نشأته لجهود مجموعة من النساء القاهريات النشطات ، وأن تعليم المرأة فى مصر

---

(١) جدعون جوبرج ، الفروق الريفية ــ الحضرية ، دراسة فى علم الاجتماع الريفى ، ترجمة محمود عوده فى : محمد الجوهرى وآخرون ، ميادين علم الاجتماع ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٦ .

بوجه عام يعد من العوامل الأساسية المؤثرة على انخفاض معدلات الخصوبة وعلى الاخص فى المناطق الحضرية[1] • وفى مدينة الكويت يبدو تأثير التعليم على مكانة المرأة حاسما • فمن خلاله تمكنت المرأة الكويتية من العمل فى مهنة التدريس والمهن الأخرى (كالطب) التى قد تتيح فصلا بين الجنسين • أما نسبة العاملات الكويتيات فى المهن التجارية والصناعية فما تزال محدودة للغاية • وعلى الرغم من التغيرات الهامة التى شهدتها المدن العربية ، الا أن بعض الدارسين من أمثال دود Dodd يؤكدون استمرار قوة العناصر التقليدية داخل المدن • فتقارب معدلات الخصوبة فى كل من المناطق الريفية والحضرية هو أحد المؤشرات الدالة على قوة المعايير التقليدية داخل المدن المصرية واللبنانية • على أن وجهة نظر دود Dodd تقف عاجزة أمام الفروق الريفية — الحضرية التى تشهدها معظم دول الشرق الأوسط • وعلى الرغم من أن مدن هذه المنطقة تتشابه فى كثير من مظاهرها الايكولوجية والثقافية ، الا أننا نلمس فروقا ملحوظة بينها فيما يتعلق بمدى اختلاط الجنسين • فما تزال بعض المدن كالكويت تحرص على العزلة بين الجنسين فى كثير من المناسبات ، الا اذا استثنينا بعض المناسبات كالأفراح التى تقام فى الفنادق الكبرى • وهناك مدن أخرى كبيروت والقاهرة يعد اختلاط الجنسين فيها من الأمور المألوفة تماما • وبين هذين النمطين نجد مدينة كطهران تحرص فيها المرأة على التردد على الأماكن العامة وهى محجبة • ولعل الأحداث التى تعرضت لها ايران منذ وصول الخمينى الى السلطة ان تكون مؤشرا على أن الحجاب لا يتعارض مع الثورية ، وتلك قضية طالما أكدها فرانتز فانون Fanon فى معرض تحليله للثورة الجزائرية •

---

(1) J. Abu-Lughod; «Urbanization in Egypt»; Economic Development and Cultural Change; 13 (1965); pp. 313-343.

الفصل العاشر

البناء الطبقى الحضرى : معالم التطور

يصعب فهم البناء الطبقى الحضرى فى منطقة الشرق الأوسط دون التعرف على الظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية (التاريخية والمعاصرة) التى مرت بها • وبقدر ما نلمس تشابها بين مدن هذه المنطقة فيما يتعلق ببناءاتها الطبقية ، بقدر ما نلمس اختلافا بينها • ففى معظم دول الشرق الأوسط ظلت الزراعة هى المصدر الأساسى للثروة وتراكم رؤوس الاموال • ولم تكن الحكومات لتستطيع بسط نفوذها دون التدخل فى هذه الثروة عن طريق فرض الضرائب واحتكار التجارة فى بعض المحاصيل الزراعية • على ان بدايات القرن العشرين قد شهدت نموا اقتصاديا ملحوظا فى هذه الدول • اذ بدأت مصادر الدخل والثروة تزداد تنوعا ، مما أفقد الزراعة قدرا من أهميتها المحورية • وبفضل مشروعات الاصلاح الزراعى التى تمت فى تركيا والعراق ومصر والجزائر ، بدأت الأرض الزراعية تفقد قدسيتها التاريخية كرمز من رموز المكانة الاجتماعية• والواقع أن ظهور الطبقة الوسطى (الحضرية والريفية) فى كثير من دول الشرق الأوسط يعد من أبرز وأهم التطورات الاجتماعية التى يمكن أن نسجلها خلال العقود القليلة الماضية • وعلى الرغم من أن التصنيع قد أسهم فى ظهور طبقة عمالية حضرية فى كل من ايران وتركيا ومصر ، الا أن هذه الطبقة العمالية ما تزال تفتقد كثيرا من العناصر الأساسية التى تميز قرينتها فى الدول الصناعية الرأسمالية أو الاشتراكية على السواء • غير أن ظهور النفط فى الدول الخليجية والمملكة السعودية والعراق وليبيا قد أسهم فى ظهور أنماط اقتصادية تختلف عن تلك التى ألفتها هذه الدول فى الماضى وتلك التى تعرفها الآن بقية دول الشرق الأوسط • الا أننا — مع ذلك — لا نذهب الى حد القول بأن تأثير النفط على هذه الدول كان واحدا بالضرورة • ففى البحرين لا نسمع الصدى القوى للنفط الذى يحدثه فى

أبو ظبى • واذا كانت دبى وأبو ظبى تشتركان فى بعض السمات الثقافية العربية كسباق الجمال (الهجن) والقنص بالصقور ، الا أن الأولى (دبى) تظل قلعة تجارية هامة ، بينما تحرص الثانية على التنمية الحضرية أو العمرانية • وعلى أية حال فلقد أدى النمو الحضرى فى معظم دول الشرق الأوسط الى ارتفاع كبير فى أسعار الأراضى التى تقع فى داخل المــدن أو على حدودها ، مما أسهم فى ظهور جماعات طبقية حضرية جديدة لم تكن معروفة من قبل • كذلك فان نمــو قطاع الخدمات قــد أدى الى تشكيل جماعات أخرى تتخذ من المدن موطنا لها (كرجال البنوك والتأمين والعاملين فى شركات الطيران والسياحة ••• الخ) • اذ ان الخدمات فى منطقة الشرق الاوسط هى خدمات حضرية أكثر منها ريفية •

ولقد أوضح بيرى Berry أن البناء الاقتصادى الحضرى فى منطقة الشرق الأوسط يشبه ذلك الذى يوجــد فى معظم الدول الناميــة[(١)] • ويتألف هذا البناء من ثلاثة قطاعات أساسية : يضم الأول العمال غــير المهرة بما فى ذلك الباعة الجائلين ، وموزعى أوراق اليانصيب ، وعمال البناء المؤقتين ، والبغايا ، والقوادين ، والمتسولين ، واللصوص • وتتروا ح نسبة عمال هذا القطاع فيما بين ١٠٪ و ٤٠٪ من مجمــوع القــوة العــاملة الحضرية • وتميل معظم الدول النامية الى عدم ادراج هؤلاء العمال ضمن قوة العمل فى المدن • كذلك أوضح مسح حديث نسبيا أجرى على مدينــة القاهرة أن حوالى ٢٥٪ من المهاجرين اليها يعملون فى النشاطات الخاصة وعلى الأخص البيع المتجول أو بيع الرصيف على أفضل تقدير[(٢)] • كمــا أشار مكى عزيز الى ان نسبة عالية من المهاجرين العراقيين الريفيين الى بغداد يعملون فى أعمال البناء والتشييد والمهن الهامشية كتنظيف الشوارع ،

---

(1) B. J. L. Berry; City Size Distributions and Economic Development; Department of Geography Research; Paper No. 2; Chicago; 1961.

(2) K. K; Petersen; «Villagers in Cairo : Hypotheses Versus Data»; American Journal of Sociology; 77; 1971; pp. 560-573.

وحمل البضائع على الاكتاف ، وتوصيل السلع من مكان لآخر[١] • وتشتد المنافسة بين هؤلاء العمال وتضعف قوتهم التفاوضية داخل سوق العمل ، مما يدفعهم الى قبول الأجور التى لا تقيم الأود الا بالكاد • وتشير الشواهد العابرة التى يمكن أن نستلخصها من واقع مدن الشرق الأوسط الى ان أى نمو اقتصادى حضرى يؤدى تلقائيا الى زيادة أعداد المهاجرين الى المدن • أما القطاع الثانى فيضم العاملين فى المشروعات التجارية الصغيرة والصناعات الحرفية اليدوية التى تستند الى اعتبارات عائلية أو قبلية أو طائفية • والواقع أن انتاج هذا القطاع متنوع الى حد كبير • فهو يبدأ من انتاج السلع البسيطة التى تطرح فى أسواق الفقراء حتى انتاج السلع الكمالية • وربما تعد أسواق السجاد (البازار) فى المدن الايرانية أفضل مثال على ذلك[٢] • اذ يحتاج العامل لعدة سنوات متتالية من العمل المتواصل حتى ينتج سجادة راقية • أما القطاع الثالث والأخير فيضم العاملين فى المشروعات الصناعية والتجارية التى تستند الى الاستخدام المكثف لرؤوس الأموال فضلا عن العاملين فى المؤسسات الحكومية والمهن الفنية العليا (كالطب والمحاماه والهندسة والتدريس الجامعى) • ويتميز القطاع الأخير بضخامة حجم استثماراته ، وارتفاع انتاجيته ، واعتماده على تكنولوجيا متطورة نسبيا • ويمكننا أن نجد تعبيرا واقعيا عن هذه القطاعات الثلاث وأوزانها النسبية داخل الاقتصاد الحضرى اذا ما ألقينا نظرة على الاحصاءات الرسمية للحالة المهنية والنشاط الاقتصادى فى دول الشرق الأوسط بوجه عام • فتقلص النشاطات التقليدية (القطاع الثانى على وجه الخصوص) قد يعنى نمو النشاطات الحديثة (القطاع الثالث) •

---

(1) V. F. Costello; Urbanization in the Middle East; Cambridge University Press; London; 1977; p. 70.

(2) V. F. Costello; Kashan : A City and Region of Iran; London; 1976.

وفى تحليل جيد للبروليتاريا الحضرية فى الدول النامية بوجه عام ، أوضح محمد الجوهرى أن العمال الصناعيين ــ شأنهم شأن المثقفين ــ ظاهرة حضرية ، بل تقتصر فى الغالب على المدن الكبرى دون سـواها . وتنتمى الغالبية الغالبة من هؤلاء العمال الى أصول ريفية حيث يتمكنون من خلال اقامتهم الحضرية تبنى تصورات وأفكار عامة فى محاولة للتكيف مع متطلبات العمل الصناعى[١] . ومن هنا يمكن أن نفهم موقف هـؤلاء العمال من النقابات الصناعية وما تحدثه من نشر قيم ومبادىء عامة . على أننا لا نستطيع منح النقابات الصناعية تأثيرا أكبر من ذلك . اذ أن جانبا كبيرا من البروليتاريا الحضرية فى الدول النامية لا ينتمى الى أية تنظيمات نقابية أو عمالية . وربما كانت الأهمية الحقيقية التى تتمتع بها النقابات فى الدول النامية تعود الى ارتباطها بمشروعات التصنيع التى أنجزت بعد نيل الاستقلال السياسى . على أن كثيرا من النقابات العمالية فى الـدول النامية ما تزال بعيدة عن أدوارها السياسية والاجتمـاعية الحقيقية . فالجهود التى تبذلها من أجل رفع مستوى مهارة العمال وتكيف المهاجرين الجدد مع الحياة الحضرية ماتزال محدودة للغاية[٢] . وربما كانت أهم وظائف هذه النقابات كونها أحد وسـائل الحراك الاجتماعى للقيـادات العمالية .

وعند دراسة البناء الاقتصادى الحضرى فى مدن الشرق الأوسط ، تبدو أمامنا مشكلات احصائية عديدة . من ذلك ــ مثلا ــ صعوبة التفرقة بين المستقلين والتابعين اقتصاديا . ففى النشاطات التقليدية (كالحـرف اليدوية وصناعة السجاد) التى تتم على أساس عائلى تذوب الفروق بين

---

(١) محمد الجوهرى ، البناء الطبقى فى الدول النامية ، فى : السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، الباب الثانى .

(٢) انظر لمزيد من التفصيل : عبد المنعم الغزالى ، تاريخ الحركة النقابية المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، وكذلك أحمد أبو زيد ، « الحركة النقابية والتحرر الافريقى » ، مجلة السياسة الدولية ، العدد الرابع ، ١٩٦٦ ، ص ص ٧٤ ــ ٨٥ .

كل من النشاط الاقتصادى الخاص والأسرى • وطالما أن كل أفراد الأسرة يشاركون فى عملية انتاجية واحدة فان التعرف على كثير من العناصر الاقتصادية يصبح أمرا مستحيلا • كذلك فان معدلات النشاط الاقتصادى فى مدن الشرق الأوسط تختلف باختلاف الجنس والنوع ، كما أنها تتأثر بالبناء السكانى بوجه عام • ففى العراق نجد البيانات الاحصائية تشير الى أن قوة العمل تصل الى ٤٠٪ من مجموع السكان ، فى مقابل ٣٣٪ فى ليبيا ، و ٢٤٪ فى سوريا • وفى دول الخليج العربية فاقت نسبة قوة العمل كل تصور • فطبقا لبيانات سنة ١٩٧٥ وصلت هـذه النسـبة فى الكويت ٧ر٦٩٪ ، والبحرين ٦ر٣٩٪ ، وقطر ١ر٨١٪ ، والامارات العربية ٨ر٨٤٪ • ومن الطبيعى أن تكون الهجرة الشابة الى هـذه الدول ــ والتى اتسع نطاقها خلال السنوات الأخيرة ــ سببا أساسيا فى ظهور هـذا النمط من العمالة الشابة[١] • وباستثناء دول الخليج العربية فان النمط السـكانى العام لدول الشرق الأوسط يؤكد اتساع قاع هرم الأعمار ، ممـا يعنى ارتفاع نسبة التابعين اقتصاديا ، فضلا عن أن المرأة لم تدخل بكل قواها وامكانياتها السوق المهنى • فلا تزال المرأة فى معظم هذه الدول تفضل العمل فى بعض المهن كالتدريس والتمريض • وفضلا عن ذلك لوحظ أن البيانات السكانية التى تتناول دول الشرق الاوسط تميل الى تقديم معدلات بطاله منخفضة ، كما تتجاهل تماما ما يمكن أن نطلق عليـه « البطـالة المقنعة » التى تعنى الالتحاق بالعمل دون وصـول الانتاجية الى حدها الأدنى • ولقد أوضحت دراسة عن البطالة فى حى حضرى يقع جنـوب مدينة طهران أن المبحوثين العاطلين قد عبروا عن يأسهم من الحصـول على عمل بسبب قلة الفرص المتاحة وعدم وجود هيئات أو مؤسـسات تزودهم بالبيانات الضرورية لذلك[٢] • وفى غياب نظام متطور للتأمين على

(1) ILO Document Wep 2-26 W; p. 30.

(2) W. L. Bartsch; «Unemployment in Less Developed Countries · A Case Study of a Poor District of Tehran»; International Development Review; 13; 1971; pp. 19-22.

البطالة (كما هو معروف فى الدول الغربية الصناعية) تصبح البطالة فى مدن الشرق الأوسط أمرا مروعا •

وباستثناءات قليلة تبدو لنا وجوه شبه عديدة بين البناء المهنى فى معظم مدن الشرق الأوسط وعلى الأخص الكبيرة الحجم منها • ومهما قيل عن ظروف العمل السيئة القاسية التى يواجهها العمال الحضريون فى هذه المدن ، فانها ما تزال أفضل بكثير من تلك التى يعمل فيها قرناؤهم الريفيون • ان ارتفاع أعداد العاملين فى المهن « الهامشية » التى لا ترتبط ارتباطا وثيقا بالبناء الاقتصادى الحديث ، لهو أفضل دليل على « الازدواجية » التى يعانى منها الاقتصاد الحضرى فى مدن الشرق الأوسط بوجه عام • ولقد أوضحت فى موضع آخر ، المشكلات التى تخلقها هذه « الازدواجية » حينما تتعايش الاساليب الانتاجية الحديثة مع الأساليب الانتاجية التقليدية[١] • والواقع أن الفارق بينهما هو نفس الفارق الذى يفصل بين المتخصص الفنى والبائع المتجول • ومن هنا يمكننا فهم المعنى الشامل الذى يشير اليه مفهوم « الازدواجية » • فهو يتضمن معانى اقتصادية واجتماعية وثقافية • وعلى الرغم من ظروف العمل غير المستقر التى يتعرض لها قطاع كبير من عمال مدن الشرق الأوسط ، الا أن الحكومات تقف فى كثير من الأحيان عاجزة عن اتخاذ حلول حاسمة • ففى تركيا (ومصر الى حد ما) يضطر أصحاب المشروعات الصغيرة الى فصل العمال بعد التحاقهم بالعمل بفترة قصيرة فى محاولة للهروب من التأمينات الاجتماعية على العمال[٢] • ومن خلال هذه النقطة يمكن تفسير استمرار انتقال العمال المهاجرين من عمل لآخر برغم استمرار الحصول على أجور منخفضة[٣] •

---

(١) السيد الحسينى ، العالم الثالث : تنمية أم تبعية ؟ فى : السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، المرجع السابق ، الفصل الثانى •

(2) W. L. Bartsch; «Unemployment in Less....» op. cit; p. 20.

(3) B. J. L. Berry; City Size Distributions and Economic Development op. cit.

واذا ما حاولنا تحديد معالم البناء الطبقى الحضرى فى دول الشرق الأوسط ، واجهنا صعوبات عديدة • ففى كثير من الأحيان تختلط الحدود بين الجماعات الاجتماعية المختلفة وتتنوع معايير المكانات الاجتماعية بحيث يصعب تحديد الخطوط الطبقية الأساسية • فالاعتماد على الملكية والدخل قد لا يكفى لتحديد الجماعات الطبقية • اذ قد تتدخل الاعتبارات الدينية والأخلاقية والقبلية والثقافية لتؤدى الى تكوينات طبقية لا تتسق مع المؤشرات الكمية الاحصائية التى يعتمد عليها المولعون بالاحصاءات من علماء الاجتماع • واذا كان لنا أن نتخذ موقفا اجرائيا ، فاننا قد نعتمد على المهنة كوسيلة لتحديد البناء الطبقى فى مدن الشرق الأوسط • وقد يبّرر ذلك ، الأهمية الخاصة التى تلعبها المهنة بوصفها أهم عناصر البناء الطبقى[1] • فهى تعكس — الى حد كبير — مستوى التعليم ، كما أنها ترتبط بالدخل ارتباطا ملحوظا ، فضلا عن أنها تعد من أفضل المعايير الطبقية التى تكشف عن الجوانب الثقافية للطبقات المختلفة • ولقد سبق ان أوضحت فى موضع سابق أن المجتمعات الحضرية التقليدية فى الشرق الأوسط كانت تنقسم الى طبقتين أساسيتين : الأولى هى الطبقة العليا التى تضم الحكام وكبار ملاك الارض والبرجوازية التجارية ورجال الدين الأثرياء • أما الطبقة الثانية فكانت الطبقة الدنيا التى تكاد تضم بقية سكان المدن • على أن هذا البناء الطبقى الحضرى التقليدى قد تعرض لتغيرات شديدة خلال القرن الحالى نظرا للتحولات الديموجرافية والاجتماعية والاقتصادية التى طرأت على دول الشرق الأوسط بوجه عام ومدنها بوجه خاص • ولقد أشار دانيل ليرنر Lerner الى أن عملية التحول من المجتمع التقليدى (ما قبل الصناعة) الى المجتمع الحديث (الصناعى) فى منطقة الشرق الأوسط انما هى عملية تاريخية فريدة تحكمها اعتبارات ثقافية[2] • وبغض النظر عن التصنيفات السيكولوجية الجامدة

(١) السيد الحسينى ، عرض وجيز لأهم اسهامات لويد وارنر فى دراسة التدرج الاجتماعى ، المجلة الاجتماعية القومية ، مايو ١٩٦٦ ، ص ص ٩١—١١١ .

(2) D. Lerner; The Passing of Traditional Society; Modernizing the Middle East; London; 1964.

التى طرحها ليرنر ، الا أن كثيرا من أفكاره قـد تصلح كمحاولة لرصد التغيرات التى طرأت على البناء الطبقى فى هذه المنطقة من العالم •

ولقد أوضح سنيبيرج Snaiberg فى دراسة له على مدينة أنقرة أن التناقض بين البناء الاجتماعى لكل من المدينة والقرية قد ازداد حدة نتيجة للتصنيع • فخلال فترة التحول من المجتمع التقليدى (ما قبل الصناعة) الى المجتمع الحديث (الصناعى) طرأت تغيرات هامة على معايير التدرج الطبقى • فقد بدأ الانجاز أو الأداء يعد أساسا هاما من أسس التقويم الطبقى ، كما بدأت الخصائص الشخصية (الانتماء القبلى أو العائلى أو الثروة الموروثة ••• الخ) تفقد أهميتها كأحد المعايير الطبقية • كذلك أشار سنيبيرج الى أن الهيئات الطوعية قد ازدادت بشكل ملحوظ خلال هذه الفترة الانتقالية ، وأنها كانت تلعب دورا « تحديثيا » هاما بسبب المبادىء والقيم العامة التى تتبناها • على أن أهم ما يميز هذه المرحلة الانتقالية ظهور الطبقة الوسطى الحضرية ، برغم زيادة حجم التباين الطبقى بين كل من القرية والمدينة من ناحية ، وداخل المدينة ذاتها من ناحية أخرى[1] • أما جاكوبس Jacobs فقد أجرى دراسة على ايران بهدف التعرف على طبيعة البناء الطبقى • والطريف فى هذه الدراسة أن الباحث لم يعتمد على المعايير الطبقية التقليدية (كالثروة والدخل والمهنة ••• الخ) التى طالما استخدمها علماء الاجتماع فى تحليلاتهم النظرية وبحوثهم الواقعية • وبدلا من ذلك استخدام الباحث معيار الاحساس بالأمان • فالطبقة الايرانية العليا تمتلك خصائص شخصية هامة كالشجاعة والقدرة على القيادة ، لذلك فأفرادها ينتمون الى أغنى العائلات وأكثرها عراقة ، تلك التى ظلت لفترة طويلة مرتبطة بالطبقة الحاكمة فى ايران • أما بقية أفراد المجتمع الايرانى فيفتقدون الاحساس بالأمان خاصة اذا ما تعلق ذلك بالسلطة السياسية • ومعنى ذلك أن

(1) A. Snaiberg; «Rural-Urban Residence and Modernism : A Study in Ankara Province; Turkey; Demography; 7 (1970); pp. 71-80.

الثروة لا تستطيع أن تعوضهم عن الاحساس بالأمان الذى هو أحد دعائم الانتماء الطبقى[1] • وبرغم الطرافة التى تنطوى عليها هذه الدراســة ، الا أنها لا تسهم بالكثير فى الدراســة السوسيولوجية للبنــاء الطبقى فى واحدة من أهم دول الشرق الأوسط • وربما كانت الدلالة الهــامة التى كشفت عنها نتائج هذه الدراسة هى رفض المعايير التقليدية الغربية فى دراسة البناء الطبقى فى الدول النامية بوجه عام • ويمكننا أن نجد تأييدا لهــذه القضية فى تحليل هالبيرن Halpern للبنــاء الطبقى فى مصر • فلقد ذهب الى أن التحكم فى القرارات السياسية وتوجيه التغير الاجتماعى يرتبطان بالبناء الطبقى المصرى أكثر من ارتبــاط الملكية به • فتشــكل الطبقــة الاجتماعية هو علامة على وجــود دور عام مشــترك متصــل بالتغــير الاجتماعى • وينتهى هالبيرن من ذلك الى أن الطبقة الوســطى المصرية الجديدة تتحدد فى ضوء الأفكار والأفعال المتصلة بعملية التحديث[2] •

وفى تحليل شامل للتدرج الاجتماعى فى مجتمعات الشرق الأوسط ، أوضــح عالم الاجتماع الهولندى فان نيوهــوزه Van Nieuwenhuijze أن من الصعب فهم بناءات هذه المجتمعات دون التعرف على جــذورها الحضارية التاريخية • اذ من العبث تطبيق مفهوم التدرج الاجتمــاعى المستخدم فى علم الاجتماع الغربى عند دراسة هذه المجتمعات الشرقية • لقد لعب الاسلام دورا هاما فى تطور هــذه المجتمعات وتشكيل بناءاتها الطبقية ، وهو دور يختلف تمام الاختلاف عن ذلك الذى أدته المسيحية بالنسبة للمجتمعات الغربية • وبفضل الاسلام بدت مجتمعــات الشرق الأوسط عبر تاريخها وهى تتمتع بقدر كبير من الاستقرار برغم التباينات الاثنولوجية واللغوية والثقافيــة[3] • وعلى الرغم من أن التطــورات

---

(1) N. Jacobs; The Sociology of Development : Iran as an Asian Case Study; New York; 1966.

(2) M. Halpern; «Egypt and the New Middle Class»; Comparative Studies in Society; and History (1967); pp. 97-108.

(3) Van Nieuwenhuijze; Social Stratification and the Middle East; Leiden; 1965.

التاريخية التى مرت بها هذه المجتمعات الاسلامية قد أدت الى ظهـور بناءات طبقية تقليدية ، الا ان الاسلام ــ فى جوهره ــ هو أفضل وأكمل دعوة للمساواة والعدالة الاجتماعية • وتوضح لنا هذه المناقشة كيف أن تحديد معالم البناء الطبقى فى مجتمعات الشرق الأوسط ينطوى على صعوبات محققة مصدرها عدم قدرة المفاهيم الطبقية الغربية على تفسير الواقع الطبقى فى هذه المجتمعات من ناحية ، وندرة الدراسات الواقعية حول هذا الموضوع من ناحية أخرى[١] • ويبدو لنا أن أفضل وسيلة متاحة للتغلب على هذه الصعوبات تتمثل فى البدء باستعراض الدراسات الواقعية المتاحة عن البنـاء الطبقى فى مدن الشرق الأوسط • ولتنظيم المناقشة نبدأ بتصنيف الجماعات الطبقية الحضرية الأساسية الى ثلاث : عليا ، ووسطى ، ودنيا ، على أن نتعرف على الخصائص الثقافية التى تميز كلا منها •

فاذا ما بدأنا بتناول الطبقة العليا فى مدن الشرق الأوسط ، لاحظنا ارتباطها الوثيق بمصادر الثروة والسلطة السياسية • وتشكل هذه الطبقة صفوة قليلة العدد تتحكم فى القرارات القومية الأساسية[٢] • فخلال حكم شاه ايران المخلوع (محمد رضا بهلوى) كانت هذه الصفوة أو الطبقـة تتشكل من حوالى ألف أسرة ايرانية تقيم فى قصورها الواقعة فى المـدن الايرانية الأساسية • وفى السـعودية تتألف هذه الطبقـة من الأسرة الحاكمة وبعض الأسر الأخرى المتعاونة معها • وتميل هـذه الطبقة الى

---

(١) قدم محمد الجوهرى اطارا نظريا لدراسـة البنـاء الطبقى فى مصر • انظر : محمد الجوهرى « البناء الطبقى فى الدول النامية » فى : السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، المرجع السـابق . ولقد قام كاتب هذه السطور باختبار هذ الاطار النظرى ، انظر : السيد الحسينى ، الطبقة الاجتماعية والسلوك الانجابى ، مجلة دراسـات سكانية ، عـدد خاص ، ١٩٧٦ •

(2) Van Nieuwenhujze; Social Stratification and the Middle East; op. cit.

احتكار جانب كبير من مصادر الثروة والملكية • ويمكننا أن نضيف الى ذلك أصحاب المناصب الادارية الكبرى فى بعض دول الشرق الاوسط • ففى مصر وسوريا والعراق وليبيا والجزائر تكونت جماعات ادارية ذات نفوذ كبير ، حيث تتولى الاشراف على مشروعات التنميـــة الاقتصادية والاجتماعية • وفى تركيا ورثت الصفوة الادارية التقاليد السياسية العثمانية التى تؤكد أهمية المركزية ، بينما نجـــد فى الكويت وضعا مختلفا • فنتيجة للحرص الشديد على « تكويت » المناصب الادارية العليا حقق كثير من الكويتيين ذوى الكفاءات العـــادية حراكا اجتماعيا سريعا فى فترة قياســـية [1] • وباستثناءات قليلة يمكن القول ان الارستقراطية الزراعية فى دول الشرق الأوسط لم تتكون الا خلال فترة الدولة العثمانية • وفى وقت لاحق بدأت هذه الارستقراطية تلعب دورا سياسيا هاما وعلى الأخص فى المؤسسات البرلمانية • ومن الصعب فى هذه الدول الفصل بين مصـــالح كبار التجار وملاك العقارات والمقاولين وأصحاب المشروعات الصناعية[2] • ففى لبنان ـــ مثلا ـــ نجد اتحادا بين غرفتى الصناعة والتجـــارة . كمـــا أن نفس الأشخاص قد يقومون بممارسة نشاطات صناعية وتجارية فى وقت واحد • وفى ايران لوحظ أن الثروة المتراكمة من الملكية الزراعية والصناعة الحرفية والتجارة قد توجه للاستثمار فى المشروعات الصناعية الحديثة •

وعلى الرغم من أن الصفوات السياسية والاقتصادية فى مجتمعات الشرق الأوسط تلعب أدوارا بالغة الاهمية على المستوى القومى ، وتقيم بالتالى فى المدن الرئيسية الكبرى ، الا أننا نســـتطيع القول بأن المـــدن الاقليمية الصغرى لها صفواتها السياسية والاقتصادية المحلية • ولقـــد أوضحت احدى الدراسات التى أجريت على مدينة كرمان الايرانيـــة أن

---

(1) G. Ffrench; A. Hill; Kuwait : Urban and Medical Ecology; Heidelberg; 1971.

(2) G. Baer; Population and Society in the Arab East; London; 1964; pp. 207-210.

صفوة هذه المدينة الاقليمية تتألف من كبار علماء الدين المحليين ، وذوى الملكيات الزراعية الكبيرة ، وأصحاب المحلات التجارية الرئيسية ، فضلا عن المثقفين ذوى الميول الغربية[1] . كذلك أوضحت هذه الدراسة أن هناك عناصر مشتركة توحد بين أفراد الطبقة العليا فى هذه المدينة لعل أهمها : الثروة ، والسلطة السياسية ، والتأثير فى مجرى الحياة المحلية . ويمكننا أن نضيف الى ذلك ممثلى السلطة المركزية كالمحافظ ، ومدير الأمن ، والمديرين المتحكمين فى النشاطات الاقتصادية والاجتماعية المحلية . والواقع أننا لا نملك الا القليل من المعلومات الدقيقة عن الحياة الاجتماعية للصفوات فى مدن الشرق الأوسط ، خاصة وأن أفراد هذه الصفوات يميلون الى الفصل بين شئونهم الخاصة وحياتهم العامة . ومع ذلك فان هناك ملاحظات عامة يمكن تسجيلها فى هذا المجال . من ذلك أن أفراد هذه الصفوات يتمكنون من الاقامة فى مساكن فخمة تقع فى أرقى أحياء المدن . وغالبا ما تكون هذه المساكن فى شكل فيلات أو قصور صغيرة مستقلة تحيطها جدران من كل جانب . ويستطيع أفراد هذه الصفوات الحصول على ما يلزمهم من طباخين وخدم ، ذلك أنهم ينظرون الى الأعمال المنزلية (كالطهى والكنس وغسل الاطباق وزراعة حديقة المنزل) باحتقار شديد . وفى بعض الأحيان قد تضطر بعض سيدات الطبقة العليا الى الانضمام للجمعيات الخيرية أو ممارسة بعض العادات السيئة كلعب القمار فى المنازل. وقد يكون من المفيد هنا اقتباس نص من رواية تتناول الحياة الاجتماعية لنساء الطبقة العليا العراقية . يقول الكاتب على لسان امرأة عراقية : « تلقى السيدة العراقية الثرية كل يومين طوفانا من السيدات العراقيات الزائرات . ومنذ الصباح حتى منتصف النهار يبدأن فى لعب الورق وتناول الشاى وعصير الليمون ، ثم يبدأن ثرثرة محمومة تغطى كافة الموضوعات التى تتعلق بأحوالهن وأحوال جيرانهن . وتنتهى هذه الثرثرة بأحاديث لا تخلو من مبالغة تتناول حياتهن الجنسية وانفاقهن على السلع الكمالية

(1) P. W. English; City and Village in Iran : Settlement and Economy in the Kirman Basin; London; 1966.

وكل ما يخطر على بال من فضائح الناس .وما أن ينفض هذا الجمع من النساء حتى تبدو قاعة الجلوس وكأنها أطلالا . فهنا وهناك تبدو أطباق وأوانى مليئة بفضلات المسليات والمشهيات »[١] .

أما الطبقة الوسطى الحضرية فى مدن الشرق الأوسط فتضم قطاعا كبيرا من ذوى المهن الفنية العليا (كالأطباء والمهندسين وأساتذة الجامعات) وضباط الجيش والمديرين والمنفذين وصغار التجار . ومن الطبيعى أن يختلف حجم هذه الطبقة باختلاف أحجام المدن ومستوى التطور الاقتصادى والاجتماعى فى دول الشرق الأوسط بوجه عام . وعلى الرغم من آننا لا نملك بيانات صادقة عن حجم هذه الطبقة فى مدن الشرق الأوسط ، الا أننا نتوقع أن تكون محدودة الحجم اذا ما قورنت بنظيراتها فى المدن الغربية . وخلال مراحل تاريخية مختلفة لعبت المؤسسات الدينية الاسلامية دورا حضريا بارزا . ففى عصرها الذهبى كان علماء الدين والوعاظ وأئمة المساجد يحتلون مكانة اجتماعية متميزة[٢] . بيد أن هذه المكانة الاجتماعية قد تعرضت للانخفاض نتيجة لتغلغل الروح العلمانية فى كثير من دول الشرق الأوسط . ففى تركيا أصبحت القواعد الاخلاقية — بدلا من المبادىء الدينية — هى الموجه الأساسى للعمليات التجارية . وعلى الرغم من أن الشريعة الاسلامية ما تزال مصدر التشريع لقوانين الأحوال الشخصية والارث ، الا أن الوضع الاقتصادى لرجال الدين الاسلامى قد تدهور بسبب حرمانهم من أنصبتهم التقليدية فى الضرائب الزراعية وتقلص بعض المصادر كالأوقاف[٣] ، فضلا عن انتشار التعليم العلمانى فى المدن الاسلامية الذى قد يتيح فرصا واسعة للحصول على مهن أعلى هيبة وأكثر دخلا . والمحقق أن المهن الحضرية العلمانية (غير الدينية) قد حققت أقصى درجات نموها فى مدن الشرق الأوسط خلال القرن

---

(1) J. Jabra; Hunters in a Narrow Street; London; 1960.

(2) A. Hourani; «The Islamic City in the Light of Recent Research»; in A. Hourani; A; S. Stern (eds); The Islamic City; London; 1970.

(3) G. Baer; Population and Society in the Arab East; London; 1964.

العشرين • فمعظم الوظائف الادارية والفنية والسياسية أصبحت متاحه بالدرجة الأولى للذين يتلقون تعليما علمانيا عاليا • ففى مصر نما الجهاز الادارى نمــوا هائلا خلال الأربعينيات والخمسينيات من هذا القرن • وفيما بين سنتى ١٩٤٠ و ١٩٥٤ زاد عدد الوظائف الحكومية بنسبة ٦١٪ ، حيث كانت المدن المصرية الكبرى هى المسرح الأساسى لهذه الزيادة ، وكان القطاع الحكومى هو أكبر مستقبل لها[١] • وربما كانت مهنة التدريس هى أكبر المهن التى تعرضت للنمو السريع فى مصر • كذلك فلقد ازداد الاقبال على كليات الآداب والحقــوق والتجارة خــلال عقــدى الأربعينيــات والخمسينيات • ومن الطبيعى أن يتجه خريجو هذه الكليات الى الوظائف الادارية الحكومية • وخلال عقد الستينيات بدأ الاهتمام بالتعليم الفنى أو التكنولوجى ، كما بدأت دراسات العلوم البحتة والرياضيات والزراعة تحقق ازدهارا ملموسا • وربما كان الطب هو أقدم المهن الفنية العليا التى حققت مكانة متميزة فى مصر خلال فترة مبكرة نسبيا من هذا القرن [٢] •

أما المدن التى شهدت تطورا صناعيا حديثا فقد عرفت طبقة وسطى تتآلف ــ فى معظمها ــ من الفنيين الذين تلقوا تعليمهم فى الدول الغربية • وأفضل مثال على ذلك مدن البترول التى تكاد تكون قلاعا صناعية تضم الخبــراء المتخصصين فى استخراج النفط ومعالجته • ففى مدينة عبدان بايران نجد هؤلاء الفنيين يعيشون فى شــبه عزلة جغرافية عن العالم الخارجى ، اذ تخصص لهم ضاحية متكاملة يجدون فيها كل ما يطمحون اليه من وسائل الترفيه المــادية والفكرية والجسمية[٣] • وفى الكويت وأبو ظبى وقطر وليبيا والعراق ، أقامت شركات البترول ــ بالتعاون مع الحكومات الوطنية ــ مدنا بترولية تتكامل فيها كل مقومات الحياة الحديثة حتى لتبدو الحضارة

---

(1) Ibid; pp. 217-218.

(2) Joseph S. Szyliowicz; Education and Modernization in the Middle East; Cornell Univ. Press; 1973; pp. 179-232.

(3) N. Jacobs; The Sociology of Development : Iran as an Asian Case Study; New York; 1966.

الغربية وقد زرعت وسط الصحراء • ومن الطبيعى أن تؤثر هذه « الجزر » الغربية على الحياة الحضرية فى مدن الشرق الأوسط • فكثير من أبناء هذه المدن يعملون فى شركات البترول ، حيث تتاح لهم فرصة الاحتكاك بالخبراء الغربيين وتبنى أساليب حياة غربية ما تلبث أن تنتقل الى قطاعات وطنية أوسع • وعلى الرغم من أن هؤلاء الخبراء الأوربيين يعيشون فى شبه عزلة جغرافية ، الا أن تأثيرهم الثقافى يبدو هاما • وأحد مظاهر هذا التأثير تغير النظرة الى أنساق التدرج الاجتماعى فى مجتمعات الشرق الأوسط ، تلك الأنساق التى ظلت لفترة طويلة تعتمد اعتمادا أساسيا على الدين والقرابة • وعلى أية حال فان هذه النقطة ما تزال بحاجة الى مزيد من الدراسات الواقعية قبل الوصول الى أية تعميمات ذات صدق عام •

ويبدو أن الطبقة الوسطى الحضرية فى دول الشرق الأوسط تحافظ على بعض خصائصها المشتركة برغم اختلاف ظروف البيئة الحضرية والنمط الاقتصادى • ففى دراسة أجراها سمير خلف وكونستاد Constad على حى الحمرا ببيروت ، اتضح أن هذا الحى قد نما حول الجامعة الأمريكية التى تأسست فى سنة ١٨٦٦ • ومنذ انشاء هذه الجامعة وهى تجذب اليها الأساتذة والباحثين ، حتى بدا الحى بعد قرن تقريبا وكأنه مؤلف من قطاع متميز من الطبقة الوسطى[1] • ولقد أوضحت هذه الدراسة أن البناء المهنى لحى الحمرا يتميز ببعض الملامح المميزة حيث يتألف من العاملين فى المهن الكتابية (٢٣٪) والمنفذين (١٥٪) ورجال الاعمال (٢٦٪) • أما النسبة المئوية المتبقية (٣٦٪) فتمثل أصحاب المهن الفنية العليا بما فى ذلك أساتذة الجامعة والباحثين • واذا كان لنا أن نستنتج شيئا من هذه النسب المئوية فهو ارتفاع نسبة الطبقة الوسطى فى هذا الحى ، وهو ارتفاع يعد انعكاسا لسيطرة الطابع التجارى على لبنان بوجه عام • وعلى الرغم من ان هذه الدراسة قد أكدت أن الطبقة الوسطى

---

(1) S. Khalaf and P. Konstad; Hamra of Beirut : A Case of Rapid Urbanization; Leiden; 1973.

الحضرية فى لبنان أصغر حجما من نظيرتها فى أمريكا الشمالية ، الا أنها قد أوضحت أيضا أن أفراد هذه الطبقة هم حملة لواء الثقافة والفكر ، ومصدر التغير الاجتماعى المستمر • وفضلا عن ذلك أكدت الدراسة ارتفاع معدلات الحراك الاجتماعى داخل هذا الحى • اذ أن أكثر من نصف الأبناء قد شغلوا مهناً أعلى مكانة من تلك التى شغلها أو يشغلها آباؤهم •

وعلى الرغم من أن الطبقة الوسطى فى مدينة حديثة كبيروت تشبه فى بعض الوجوه نظيرتها فى مدينة تقليدية ككرمان ، الا أن مكوناتهما تختلف اختلافا واضحا • ففى كرمان نجد الطبقة الوسطى تضم الجماعات الحضرية التقليدية وعددا قليلا من المتعلمين الذين يحملون اتجاهات معادية للثقافة التقليدية[1] • ويبدو ان الطبقة الوسطى فى هذه المدينة تكتسب معالمها المميزة فى ضوء « موقفها من التحديث » اذا ما استخدمنا تعبير هالبيرن Halpern • اذ أن كثيرا من المشروعات الحديثة التى شهدتها المدينة كانت نتيجة للضغط المستمر الذى مارسه هؤلاء المتعلمون • وعلى الرغم من أن التعليم يعد أحد خصائص الطبقة الوسطى فى هذه المدينة ، الا أن الغالبية العظمى من أفراد هذه الطبقة تتألف من صغار تجار السوق (البازار) وكبار الحرفيين والصناع • ذلك أن الحياة الاقتصادية والدينية فى المدينة تكاد تدور حول هذه الجماعات المهنية التجارية والصناعية • وتدفعنا هذه النقطة الى تناول الدور الذى ما تزال تلعبه الطوائف الحرفية فى المدن الايرانية من خلال التحكم فى الأسواق التجارية وممارسة كثير من النشاطات الدينية • ففى طهران وكرمان ويزد وكاشان وقم ، تنظم هذه الطوائف خلال شهر محرم حلقات ندب تصل الى الأذى البدنى حزنا وألما على مقتل الامام الحسين بن على • على أننى أعتقد أن الدور السياسى الذى تلعبه هذه الطوائف الايرانية لا يقل خطورة وأهمية عن أدوارها التجارية والاقتصادية • فمن خلال التحالف الوثيق بين هذه الطوائف

---

(1) P. W. English; City and Village in Iran : Settlement and Economy in the Kirman Basin; op. cit.

الحرفية ورجال الدين ، تمكن آية الله الخمينى ــ وبشكل درامى سريع ــ من الانقضاض على النظام الشاهنشاهى بعد تفريغه من مضامينه السياسية والاجتماعية • والواقع أن الموقف الايرانى فى هذا المجــال لا يخلو من تفرد • وبدون الدخول فى تفاصيل البناء السياسى ــ الدينى ــ التجارى فى ايران ، فان الاحداث الأخيرة قد برهنت على أن القطاعات الحضرية التى بدت فى نظر كثير من المثقفين معقل الرجعية (رجال الدين والتجار) ، ما لبثت أن تحولت الى قوة ثورية هائلة •

وفى كثير من مدن الشرق الأوسط تبدو الطبقة الوسطى وكأنها أكثر الطبقات حرصا على تدعيم مكاناتها الاجتماعية وتحسين ظروفها المعيشية • وغالبا ما يتم ذلك من خلال الحصول على الثروة أو المؤهلات التعليمية العليا • وتشير بعض الدراسات الى أن التعليم والدخل هما أبرز المعايير الطبقية فى مدن الشرق الأوسط ، كما أن الحضريين ينظرون باحتقار الى الأعمال اليدوية • ولقد أشار جوليك Gulick الى أن كثــيرا من طــلاب الشرق الأوسط لا يرغبون فى العمــل خلال العطــلات الصيفية بسبب احتقارهم للعمل اليدوى ، وأن خادمات المنــازل تعد من رموز المــكانة الأسرية ، وأن صاحب أى محل تجارى يحرص على تشغيل بعض الاطفال لتوصيل السلع الى المشترى الذى يظل قابعا فى ســيارته وســط طريق مزدحم[1] • كذلك أوضح مورو بيرجر Berger فى دراسته عن البيروقراطية المصرية أن عدد السعاه الواقفين أمام مكاتب كبار الموظفين هو أحد رموز المكانة الاجتماعية[2] • وباستثناء المملكة العربية السعودية ودول الخليج العربية ، تميل النساء فى مدن الشرق الأوســط الى ارتداء ملابس ذات طراز غربى ، كما أن الانفاق المظهرى الاستهلاكى قــد يعد ــ فى نظــر الاسرة رمزا من رموز المكانة العليا • وليس من الصعب على أى زائر لمدينة

(1) J. Gulick; Tripoli : A Modern Arab City; Cambridge; Mass; 1967.

(2) M. Berger; Bureaucracy and Society in Modern Egypt; Princeton University Press; 1956.

شرق أوسطية تقليدية كالقاهرة أن يجد آلاف المقاهى وقد اكتظت بزبائنها الذين يجدون متعة حقيقية فى تأمل سلوك المارة • وفى مدينة كأصفهان قد نجد الاسرة بأكملها تخرج فى أمسيات الصيف تتأمل ما تحتويه المحلات التجارية من سلع وبضائع • ومن الطريف أن نجد المرأة فى اصفهان ترتدى « الشادور » فوق ملابس غربية حديثة • والواقع أن مدن الشرق الأوسط لا تخلو من تناقضات • فعلى الرغم من ملامحها الايكولوجية الاقتصادية التقليدية ، الا أن مساكن الطبقة الوسطى تتخذ طابعا غربيا الى حد كبير • فالاسرة النووية الحضرية قد تعيش فى شقة مؤلفة من حجرتين مزودة بأثاث ملائم لا يخلو من نكهة غربية ومعدات كهربائية تنم عن اتصال دائم بالمقومات المادية للحياة الاسرية الاوربية • ومن الملاحظات التى يمكن تسجيلها هنا أن بعض سكان المدن الصغرى فى منطقة الشرق الاوسط قد يجدون صعوبة فى ممارسة بعض الانماط السلوكية غير المألوفة كتعاطى الخمور والبغاء ، مما قد يدفعهم الى زيارة المدن الكبرى أو العواصم ، حيث يستطيع الانسان أن يفعل ما يشاء دون رقيب • وينطبق ذلك — ولكن بشكل آخر — على سكان مدن دول الخليج العربية الذين قد يجدون فى مدن أجنبية أكثر تسامحا ، ما يمكنهم من تحقيق رغباتهم •

ولنناقش أخيرا الطبقة الحضرية الدنيا فى مجتمعات الشرق الاوسط • اذ تتألف هذه الطبقة من العمال والصناع فضلا عن العاطلين أو الذين يعملون فى مهن هامشية • وتكاد تضم هذه الطبقة قطاعا كبيرا من سكان مدن الشرق الاوسط • وهناك خصائص عامة تميز هذه الطبقة : ارتفاع ملحوظ فى معدلات المواليد والوفيات ، وانخفاض شديد فى معدلات الدخول ، وارتفاع نسبة الامية ، مما قد يحول دون ظهور وعى طبقى • ويبدو أن هذه الخصائص العامة هى التى دفعت أحد الباحثين المعاصرين الى القول بأن البروليتاريا الحضرية فى مدن الشرق الأوسط تختلف عن نظيرتها الغربية خلال المراحل الاولى من الثورة الصناعية[١] • أما السبب

---

(1) Van Nieuwenhuijze; Social Stratification in the Middle East; op. cit.

الاساسى لهذا الاختلاف فيتمثل فى ضعف الاساس الصناعى فى مدن الشرق الاوسط ، مما أدى الى حرمان العمال الحضريين من الفرص التى أتاحتها الثورة الصناعية لقرنائهم فى الدول الغربية يوما ما • ومع ذلك فاننا نجد ليرنر Lerner قد ذهب الى عكس ذلك حينما حاول البرهنة على أن الطبقة العاملة الحضرية فى مصر قد حققت وعيا شديدا فى أوائل خمسينيات القرن العشرين[1] • واذا ما تغاضينا عن هذه القضية الايديولوجية وجدنا أن القطاع الاكبر من أفراد الطبقة الدنيا يعملون فى المهن اليدويه سواء فى الاجهزة الحكومية أو المشروعات الخاصة • ففى البحرين لوحظ أن عددا كبيرا من أفراد الطبقة الدنيا يعملون فى مشروعات خاصة صغيرة • وطبقا لبيانات سنة ١٩٥٦ كان ٢٣٪ من أفراد القوة العاملة يعملون فى مشروعات صناعية لايزيد حجمها عن عشرة أشخاص[2] • وليس من الصعب علينا تفسير ارتفاع نسبة العمال غير المهرة فى مدن الشرق الاوسط اذا ما أخذنا فى اعتبارنا معدلات الهجرة الريفية ــ الحضرية ، وعدم ارتباط المعرفة الفنية بارتفاع المكانة الاجتماعية بوجه عام • ومع ذلك فان الطبقة الحضرية الدنيا لا تتألف فقط من العمال غير المهرة والخدم والبائعين الجائلين • انها تتألف أيضا من فئات أدنى مكانة تضم فيما تضم : الذباحين ، وغاسلات الملابس ، وفقراء الحلاقين ، وخدم المساجد والاماكن العامة ، واللحادين ، ودباغى الجلود ، والزبالين ، وناقلى آبار المجارى ، والغجر[3] • وبسبب الباعة الجائلين وحدهم ، تفقد المدينة الشرقية عنصرا هاما ــ طالما ميزها عبر تاريخها ــ هو الهدوء • أما التجارة الرائجة لهؤلاء الباعة فتختلف من موسم لآخر ومن مدينة لاخرى ، لكنها تدور عموما حول أوراق اليانصيب ، وأقلام الحبر الجافة ، والاحزمة ، والامشاط ، وعلب الكبريت ، ولعب الاطفال ، وأردىء أنواع القماش • وعادة ما يمر الباعة الجائلون على المنازل فيجدون

---

(1) D. Lerner; The Passing of Traditional Society; op. cit.

(2) G. Baer; Population and Society in the Arab East; op. cit; p. 227.

(3) P. W. English; City and Village in Iran....op. cit; p. 76-79.

ترحيبا من السيدات اللائى قد يجدن فى مجرد استعراض السلع وسيلة لقتل الوقت والتخلص من ملل الحياة المنزلية الرتيبة • ومع ذلك كله فلقد أوضحت دراسة أجريت على مدينة عمان أن العمال المهرة (بما فى ذلك الجائلين) قد يحققون دخولا تفوق تلك التى يحصــل عليهـا الموظفون الحكوميون ، على الرغم من أن ميزانية الاسرة العمالية تتعرض على الدوام للهزات العنيفة • وتفسر هذه الدراسة ذلك فى ضوء قضية مؤداها ، أن الاسرة العمالية المهاجرة من الريف غالبـا ما تواجــه صعوبة فى تنظيم ميزانيتها بسبب اختلاف الاحساس بالزمن فى كل من القرية والمدينة[1] •

واذا ما ألقينا نظرة شاملة على البناء الطبقى الحضرى فى مجتمعات الشرق الأوسط ، لاحظنا أن الاعتبارات الايكولوجية تلعب دورا بارزا فى تشكيله وتوزيعه • ففى مدينة القاهرة نجد الاحياء السكنية الفقيرة التى تقطنها الطبقة الدنيا تقع فى أقصى الجنوب والشرق والشمال مع وجــود جزيرة كبيرة فى وسط المدينة • وفى أقصى الجنوب نجد أجزاء من الجيزة البندر ، كما نلمس قطاعا يمتد من مصر القديمة حتى السيدة مرورا بالمذبح والبغالة • وفى أقصى الشرق نجد الخليفة والحسنية مرورا بالقلعة والدرب الأحمر والجمالية ، وفى أقصى الشمال نجد أطراف شبرا الخيمــة وشبرا البلد والساحل ثم امبابة • وفى وسط المدينة نجد كتلة بولاق والسبتية الى جانب جيوب ثانوية فى بولاق الدكرور وبين السرايات • وتتميز أحياء الطبقة الدنيا فى مدينة القاهرة بعدة خصائص شائعة : مبانى عتيقــة ، وشــوارع بلا تخطيط ، وكثافة ســكانية عالية ، وحجم أسرة مرتفــع ، وانخفاض مستوى المعيشة ، واختلاط السكن بالصناعة والتجارة • أمــا أحياء الطبقتين العليا والوسطى فتقع فى معظم المناطق القريبة من النيل : الزمالك ، وجاردن سيتى ، والجزء الاكبر من جزيرة الروضة • والملاحظ أن الاحياء السكنية الراقية فى مدينة القاهرة تقتصر على الســكن الا اذا

---

(1) J. M. Hacker; Amman; University of Durham; 1960.

استثنينا بعض المؤسسات الادارية كالوزارات والمصالح والمؤسسات • ففى الزمالك وجاردن سيتى والدقى أخيرا ، تقع معظم السفارات والقنصليات • أما الشكل العمرانى لهذه المناطق فيتخذ شكل العمارات العالية، وأحيانا ناطحات صغيرة ، بينما تقل الفيلات بسبب ارتفاع أثمان الارض السوداء • وخلال السنوات العشر الاخيرة طرأت بعض التطورات الاقتصادية والعمرانية على أحياء الطبقة العليا فى مدينة القاهرة • فجاردن سيتى أصبحت اسم على غير مسمى • اذ هى الآن أشبه ما تكون بغابة من العمارات الضخمة أكثر منها كوكبة من الفيلات فى بحر من الحدائق ، كما أن نشاطات البنوك الاجنبية قد بدأت تمتد اليها لتحولها فى نهاية الامر الى منطقة تجارية بعيدة تماما عن الاغراض التى من أجلها أنشئت • ومع ذلك فان الفيللا ما تلبث أن تعود فتسود على رمال مصر الجديدة وضواحى الشمال الشرقى • وفيما بين أحياء الطبقة الدنيا وأحياء الطبقة العليا تنتشر أحياء الطبقة الوسطى • وتضم هذه الاحياء جماعات متباينة من الموظفين والمثقفين والتجار حيث تبدأ من فم الخليج والمنيرة وما حولها لتمتد الى النطاق العرضى الممتد من الفجالة والظاهر وغمرة عبر السكاكينى حتى الوايلى والعباسية • وقد يبدو لنا واضحا أن التدرج الاجتماعى فى مدينة القاهرة مرتبط بتدرج مكانى أو ايكولوجى • ومن الامثلة على ذلك محور جاردن سيتى (طبقة عليا) والمنيرة (طبقة وسطى) والقلعة (طبقة دنيا) • ومع ذلك ففى بعض الاحيان قد يتقارب أو يتواجه حى غنى مع حى فقير نظرا لاستعانة الأول بالقوة البشرية التى توجد فى الثانى • وتعبر الزمالك وبولاق عن ذلك أفضل تعبير • اذ لا يفصل بين هذين الحيين سوى مئات قليلة من الامتار هى عرض النيل • واذا ما حاولنا تحليل أهم التطورات التى طرأت على البناء الطبقى لمدينة القاهرة ، وجدنا أن خروج الاستعمار من الاحياء الراقية قد أتاح الفرصة لظهور أحياء وطنية تتبع الخطوط الطبقية للمجتمع المصرى بوجه عام • لكننا

ـ مع ذلك ـ لا نستطيع التوصل الى أية تعميمات حول خصائص الطبقات الحضرية المصرية العليا التى ورثت هذه الاحيـاء الراقية بعـد خروج البريطانيين والايطاليين واليونانيين منها • اذ يتطلب ذلك مزيـدا مـن الدراسات التاريخية الاحصـائية التى تمكننا من التعرف على طبيعـة الطبقات الاجتماعية الجديدة التى تشكل عصب هذه الاحياء الراقية •

خاتمـــة

مستقبل المدينة

على الرغم من أن الانسان قد ألف حياة المدينة منذ زمن طويل ، الا أنه لم يبد اهتماما بمشكلاتها ومستقبلها الا منذ فترة وجيزة • وفى كثير من الاحيان نجد بعض المفكرين والعلماء يعبرون عن مشاعر متناقضة نحو المدينة المعاصرة • فهى وان كانت قد أنجزت الكثير من التقدم التكنولوجى والازدهار الثقافى ، الا أنها كانت — فى نفس الوقت — سببا فى ظهور كثير من المشكلات التى أشرنا اليها على طول هذا الكتاب • والملاحظ أن التأملات الفلسفية والاجتماعية المتعلقة بالمدن المعاصرة لم تظهر إلا فى أواخر القرن التاسع عشر ، على الرغم من أن مدن العصور الوسطى قد شهدت مشكلات لاتقل خطورة عن تلك التى تعرفها مدننا الحديثة • ويعتبر أوزفالد شبنجلر Spengler رائد النظرة التشاؤمية للواقع الحضرى الذى يشهده عالمنا المعاصر • فهو يذهب الى أن المدينة المعاصرة هى « شيطان مدمر يفتك بكل شىء ، ثم ما يلبث أن ينهار بفعل خطاياه »[1] • أى أن المدينة تضم فى رحمها عناصر فنائها • غير أن الواقع المعاصر الذى نعيشه نحن أبناء القرن العشرين لا ينهض دليلا على ما يذهب اليه شبنجلر • فلم نعرف مدينة معاصرة انهارت بسبب مشكلاتها الحضرية مهما كانت خطورتها ، وان كنا لا ننكر وجود هذه المشكلات وتأثيراتها السلبية على الانسان والبيئة والمجتمع • ان التحضر العالمى لا يميل الى التناقض بقدر ما يميل الى التزايد ، ومازال الحياة الحضرية أملا يتطلع اليه من يفتقدونها • أما الهجوم الذى شنه لويس ممفورد Mumford على المدينة المعاصرة فكان أخف حدة وأكثر اعتدالا • اذ يكاد يقتصر هذا الهجوم على جانب واحد من جوانب المدينة هو « السيطرة » أو « الهيمنة » على كافة جوانب الحضارة ، مما دفعه الى استخدام

---

(1) Oswald Spengler; The Decline of the West; New York; 1936; vol. 2; Chap. 4.

مصطلحات مثــل « المدينـــة العاصمية » ، و « المدينـــة العملاقة » ، و « المدينة الطاغية » ، و « المدينة المنهارة »(١) • وعلى الرغم من الجاذبية والشمول التي تنطــوى عليها كتابات ممفورد ، الا أنها تخلو من أيــة شواهد علمية صارمة تؤكــد القضايا النظرية التي صاغها • أن المــدن المعاصرة ـ أيا كانت أنماطها وحجمها ـ تكافح من أجل البقاء والاستمرار فى إثراء الحياة الانسانية برغم ما تواجهه من صعاب ومشــكلات • لقد وجدت المدن لتبقى • ومن هنا فان البحث الحقيقى يجب أن يتجه الى خلق حياة حضرية أكثر اشباعا وسعادة • وعلى الرغم من أن هناك مشكلات مشتركة عديدة تواجه المــدن المعاصرة كالتلوث ، والازدحــام ، وتخلف المرافق الحضرية ، وقلة المساكن ، الا أن هناك عناصر ثقافية واجتماعية واقتصادية يجب أخذها فى الاعتبار عند تناول هذه المشــكلات • واذا كانت التكنولوجيا الحديثة قد خلقت مشكلات حضرية عديدة ، الا أنها وحدها (أى التكنولوجيا) ليست قادرة على حل هذه المشكلات •

على أننى أعتقد أن جانبا كبيرا من المشكلات الحضرية التى تواجهها المدن المعاصرة بعامة ومدن الدول النامية بخاصة تبــدأ من موقف معين يطلق عليه « التضخم الحضرى » الذى يشير الى « ضخامة عدد ســكان المدن فى دولة معينة بالنظر الى امكانياتها وقدراتهــا الحضرية » (٢) • والاختلاف بين الدول المتقدمــة والدول النامية فيما يتعلق « بالتضخم الحضرى » هو اختلاف فى الدرجة وليس فى النوع وما يترتب على ذلك من قدرات متفاوتة على مواجهته • فاذا كنا نجد كتابات تؤكــد ضخامة المدن الصناعية وما أدت اليه من انهيار فى معالم البيئة الطبيعية بمــا فى ذلك زيادة التلوث وتعقد شبكات المواصلات ونمــو الاحياء المتخلفة (برغم

---

(1) Lewis Mumford; The Culture of Cities; New York; 1956

(٢) فيليب هاوزر « مشكلات التحضر السريع » فى : محمد الجوهرى وآخرون ، دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، ترجمة السيد الحسينى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ١٠٣ .

مشروعات التجديد الحضرى الهائلة) ، فاننا نجد أيضا كتابات أخرى تؤكد ضخامة مدن الدول النامية وما صاحب ذلك من هجرة ريفية ـ حضرية واسعة النطاق ، وارتفاع فى معدلات البطالة ، وتدهور الهياكل الاساسية للمدن • وعلى الرغم من أن علماء الاجتماع ما يزالون مختلفين حول معايير قياس « التضخم الحضرى » ، الا أنهم متفقون على معنى عام له هو : ضخامة عدد السكان الحضريين بالنظر الى متطلبات الاقتصاد الحضرى من ناحية ، والهياكل الاساسية للمدن من ناحية أخرى[1] • ويبدو أن الفارق الاساسى بين « التضخم الحضرى » فى الدول الصناعية المتقدمة و « التضخم الحضرى » فى الدول النامية هو ان الاخير غالبا ما يرتبط « بتضخم ريفى » ، بمعنى أن عدد السكان الريفيين يفوق امكانيات نمو الانتاج الزراعى وما يرتبط به من تكنولوجيا وأساليب انتاجية • ومعنى ذلك أن « التضخم الحضرى » ما هو الا تعبير عن « التضخم الريفى » وعلى الاخص فيما يتعلق بالدول النامية • ولقد أشار بعض الباحثين الى أن هناك ارتباطا موجبا عاليا بين كل من « التضخم الحضرى » و « التضخم الريفى » فى الدول النامية • ومع تسليمنا بوجود مثل هذا الارتباط ، الا أننا نعتقد أن التنمية الاقتصادية قد تصبح متغيرا وسيطا من شأنه الحد من مثل هذا الارتباط • فمن خلال مشروعات التنمية الاقتصادية (الحضرية والريفية) تختفى معالم التضخم بشكليه الحضرى والريفى ، لتصبح القوة البشرية عونا على تحقيق التقدم الاقتصادى • لذلك فان القول بوجود « تضخم حضرى » أو « ريفى » هو قول محكوم باطار اقتصادى ـ سياسى ـ ثقافى • واذا ما تغير هذا الاطار ، تحول التضخم السكانى من عبء اقتصادى الى عون بشرى • فمن خلال مشروعات التنمية الاقتصادية المكثفة فى الصين اختفت مفاهيم « كالتضخم الحضرى » برغم أن عدد

---

(1) N. V. Sovani; «The Analysis of Overurbanization»; in Gerald Breese (ed.) The City in Newly Developing Countries; Princeton Univ. Press; 1972; pp. 322-330.

السكان الحضريين فيها يكاد يفوق عدد السكان الحضريين فى عدة قارات (استراليا وأمريكا الشمالية ومعظم أفريقيا) • ومعنى ذلك أن نمط التنمية يلعب دورا هاما فى تحديد طبيعة المشكلات الحضرية[١] •

وعلى الرغم من أن تشخيص المشكلات السكانية الحضرية لا ينفصل عن الاعتبارات الايديولوجية والثقافية ، الا أن ذلك لا يمنعنا من التعرف على الاتجاهات المستقبلية للتحضر فى مختلف أنحاء العالم • وقد يكون من المفيد هنا الاشارة الى التقديرات التى قدمها هومر هويت Hoyt فى سنة ١٩٦٢ • وعلى الرغم من أن هذه التقديرات ليست حديثة تماما ، الا أنها تستند الى بيانات دقيقة ومعالجات احصائية فنية ، قل ان نجد لها نظيرا فى الدراسات السكانية الحديثة[٢] • وتشير هذه التقديرات الى أن عدد سكان المدن (١٠٠ر٠٠٠ نسمة فأكثر) فى عام ٢٠٠٠ سيكون موازيا لمجموع عدد سكان العالم الآن • ويمثل هذا زيادة من حوالى ٥٩٠ مليون نسمة يعيشون فى مدن سكانها ١٠٠ر٠٠٠ فأكثر عام ١٩٦٠ الى ٢٦٤٤ مليون نسمة يتوقع أن يعيشوا فى تلك المدن فى عام ٢٠٠٠ ، أى بزيادة قدرها ٣٠٠٪ • هذا بينما تبلغ النسب المئوية لسكان المدن ذات المائة ألف نسمة فأكثر من مجموع سكان العالم فى سنة ١٩٦٠ حوالى ١٩ر١٩٪ ، وفى عام ٢٠٠٠ حوالى ٢ر٤٢٪ • كذلك تشير هذه التقديرات الى أن نسبة سكان العالم الذين يعيشون فى مدن « مليونية » سترتفع من ٦ر٩٪ فى عام ١٩٦٠ الى ٥ر٢٠٪ فى عام ٢٠٠٠ ، أى أن عددهم سيزداد من ٢٨٥ مليون نسمة فى سنة ١٩٦٠ الى ١٢٨٥ مليون نسمة فى سنة ٢٠٠٠ [٣] • واذا

---

(١) عرضنا بالتفصيل لوجهات نظرنا حول هذه القضية فى دراسة متخصصة . انظر : السيد الحسينى ، العالم الثالث : تنمية أم تبعية ؟ فى : السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٧ ، ص ص ٢٠٠ وما بعدها .

(2) Homer Hoyt; Urbanization : Expanding Population in a Shriking World; in L. A. Fayre (ed.) Urbanism in World Perspective; Thomas Y. Crowell Co; 1968.

(3) Ibid; p. 122.

كان لنا أن نعيد تفسير هذه الشواهد الاحصائية ، قلنا ان معدلات التحضر فى كل من الدول المتقدمة والنامية سوف تستمر فى الارتفاع على الاقل حتى نهاية هذا القرن ، وان كانت الدول الاولى (المتقدمة) تستطيع ــ بدرجة كبيرة ــ استيعاب المشكلات الناجمة عن ارتفاع معدلات التحضر • أما الدول النامية التى تشهد ــ فى نفس الوقت ــ معدلات تحضر عالية ومعدلات تنمية اقتصادية منخفضة ، فانها قد لا تستطيع مواجهة مشكلات التحضر فى ضوء نمط التنمية السائد فيها ، خاصة وأن خططها التنموية تميل الى منح المناطق الحضرية أولوية خاصة مع ما يترتب على ذلك من تجاهل واهمال للمناطق الريفية[1] • واذا ما سلمنا بصدق نظرية « العوامل الطاردة » و « العوامل الجاذبة » فى تفسير ارتفاع معدلات التحضر فى الدول النامية ، فان نمط التنمية الذى تعرفه الدول النامية الآن يميل الى تدعيم « عوامل الطرد » بقدر ما يشجع عوامل « الجذب » • لذلك فان العلاقة بين المدينة والقرية فى الدول النامية مازال بحاجة الى مزيد من التحديد والتعرف • لقد درج علماء الاجتماع على مناقشة هذه العلاقة فى ضوء الاعتبارات السكانية والاقتصادية والمكانية ، وانتهوا من ذلك الى تأكيد الطابع « التكاملى » لهذه العلاقة الريفية ــ الحضرية • وواقع الامر أن مثل هذا التصور لا يفيد كثير البحث الاجتماعى الحضرى ، كما أنه يستند الى أفكار ومفاهيم خاطئة حول الدور التاريخى لكل من القرية والمدينة • ان مفاهيم كالسيطرة والسلطة والخضوع والاستغلال قد تكون أكثر فائدة فى دراسة العلاقة بين القرية والمدينة اذا ما قارناها بمفاهيم كالتكامل والتساند والتبادل •

واذا ما حللنا معدلات التحضر فى الدول النامية فى ضوء نظرية بنائية شاملة ، وجدنا أنها تمثل عرضا لنمط التنمية أكثر مما تمثل سببا لطابع التخلف • ولكى ندلل على وجهة نظرنا قد نستشهد بمشروعات الاصلاح

---

(1) P. T. Bauer and B. S. Yamey; The Economics of Underdeveloped Countries; Cambridge University Press; 1965.

الزراعى فى الدول النامية التى كان يجب ــ على الاقــل من الناحيــة النظرية ــ أن تسهم فى خفض معدلات الهجرة الريفية ــ الحضرية [١] • لقد سعت برامج الاصــلاح الزراعى الى الحــد من التبذير فى تكاليف الانتاج ، ومنح الفلاحين المعدمين قطعا من الارض الزراعية ، ثم تحرير المستأجرين من كل ضروب التعسف والظلم التى كانوا يخضعون لهــا • وليس هناك من شك فى أن اجراءات الاصلاح الزراعى قد حققت بعض النتائج الايجابية التى لايمكن تغافلها أو التقليل من شأنها • بيد أننا يجب أن ننظر الى هــذه القضية من منظور أكثر شــمولا • فتفتيت الملكيات الزراعية الكبيرة وتحويلها الى حيازات « قزمية » لن يحقق فى نهاية الامر الفائض الاقتصادى الزراعى الضرورى الذى تحتاج اليه الدول النامية ، فضلا عن أن الزيادة الضئيلة فى دخول الفلاحين سرعان ما تمتص بسبب زيادة عدد السكان ، وهى زيادة تؤدى ــ بدورها ــ الى مزيد من التفتيت فى الاراضى الزراعية ، مما يعنى استمرار (بل وازدياد) صعوبة استخدام الميكنة الزراعية والاساليب الانتاجية الحديثة • ولقد لوحظ أن ارتفــاع دخول المنتفعين ببرامج الاصلاح الزراعى لا يفيد الاستثمار فى مجــال الانتاج بقدر ما يتجه الى الاستهلاك • وهذا يعنى أن برامج الاصــلاح الزراعى كما تطبق فى كثير من الدول النامية وان كانت تؤدى الى بعض النتائج الايجابية ، الا أنها ليست « الحل السحرى » لمشــكلات القرية ، وبالتالى مشكلات المدينة[٢] • ان دور هذه البرامج محكوم بعوامل عديدة منهــا طبيعة الفئة أو الطبقة التى تتبنى هذه البرامج ، وتأثيرها (أى البرامج) على الفئات والطبقات الاخــرى ، وطبيعة الاجراءات الثورية الحقيقية التى تتبع عند تنفيذ هذه البرامج • ومما سبق يبدو واضحا أن

(١) لمزيد من التفصيل انظر : السيد الحسينى ، القرية فى الدول النامية ، تحليل نقدى لبعض اتجاهات التغير الاجتماعى ، فى : السيد الحسينى وآخرون : دراسات فى التنمية الاجتماعية ، المرجع السابق ٣٨٨ وما بعدها .

(2) M. Lipton; «Strategy for Agriculture : Urban Bias and Rural Planning in India»; in P. Streeten and M. Lipton (eds.); The Crisis in Indian Planning; Oxford University Press; 1968; pp. 130-147.

الاصلاح الزراعى ليس مجرد عملية ادارية أو اقتصادية خالصة ، انه أولا وقبل كل شيء عملية سياسية(١) • إن الاسباب الحقيقية للفقر وانخفاض الانتاجية فى قرى الدول النامية لا تتمثل فى الظروف البيئية والطبيعيه بقدر ما تتمثل فى العلاقات الاجتماعية الاستغلالية التى تربط كبار الملاك بالمعدمين ، وتلك التى تربط الاخيرين بمراكز القوة السياسية والاقتصادية ، وذلك على المستويين القومى والعالمى •

واستنادا الى ما سبق يصعب القول بأن الدول النامية تتجه بالفعل نحو خلق « مجتمعات حضرية استهلاكية جماهيرية » اذا ما استخدمنا تعبير والت روستو Rostow • حقا لقد نمت المراكز الحضرية فى هذه الدول نموا ملحوظا يفوق نمو المناطق الريفية فى بعض الاحيان ، وارتبط ذلك بارتفاع نسبى فى مستويات الاستهلاك لدى القطاعات الحضرية • لكن يجب ألا ننسى أن هذه المراكز الحضرية تزخر « بمدن الصفيح » و « أحياء واضعى اليد » التى تعكس جميعها ظروفا فيزيقية واجتماعية وثقافية بالغة القسوة • واذا كانت « أحياء واضعى اليد » تعبر لنا عن « الهامشية الحضرية » (ان كان لنا استخدام تعبير روبرت بارك) ، فان ضخامة عدد سكان هذه الاحياء لهو أفضل دليل على سيطرة « الهامشية الاجتماعية » • واذا كان بعض الدارسين يميلون الى تفسير ضخامة عدد سكان هذه الاحياء فى ضوء ارتفاع معدلات الهجرة الريفية — الحضرية ، ونسب الزيادة الطبيعية للسكان الحضريين ، الا أن هذه الحقائق الاحصائية يجب ألا تحجب عنا الحقيقة البنائية الهامة وهى ، أن المناطق الريفية الفقيرة فى الدول النامية تدفع سكانها دفعا نحو سراب المدن • ولعل أفضل دليل على صدق هذه النقطة أن العمل الصناعى — فى معظم الدول النامية وكما تشير الى ذلك البيانات الاحصائية — لا يستطيع استيعاب سوى أعداد محدودة جدا من المهاجرين الريفيين(٢) • وتفسير هذا الموقف

---

(1) A. G. Frank; «Varieties of Land Reform»; in A. G. Frank Latin America : Underdevelopment or Revolution; Monthly Review Press; 1969; pp. 269-275.

(2) A. G. Frank; «Urban Poverty in Latin America»; in A. G. Frank; Latin Amercan : Underdevelopment or Revolution; op. cit; pp. 248 ff.

كامن فى أسلوب التنمية الذى يعتمد اعتمادا أساسيا على رؤوس الاموال والتكنولوجيا الاحتكارية • والواقع أننى لا أتخـذ هنا موقفا معارضا من التقدم التكنولوجى فى حد ذاته ، ولكننى أتخذ موقفا مضادا من التكنولوجيا الاحتكارية التى لا تتمكن من امتصاص الاعداد الغفيرة من المهـاجرين الريفيين الى المدن • ولعـل الاهمية التى يحتلها مفهـوم « الهامشية » (الاجتماعية والاقتصادية والسياسية) تنبع من هذه الحقيقة : حقيقـة اخفاق أعداد كبير من المهاجرين الريفيين فى الالتحاق بأعمال صناعية ، ثم لجوئهم الى أعمال « هامشية » لاتتصل كثيرا بالبنـاء الصناعى ــ الحضرى[1] •

واذا كنا نجد بعض علماء الاجتماع يميلون الى ابراز العلاقـة بين التنمية الاقتصادية والتحضر باعتبارها علاقة متبادلة فيها قـدر كبير من التسـاند ، فاننى أميل الى ابراز الـدور الذى تلعبه التنمية فى تحـديد نطاق التحضر ومـداه بل ومعنـاه • ومعنى ذلك أن التنميـة الحقيقية الشاملة هى المدخل الواسع والآمن لحل المشـكلات الحضرية • ان الاهتمام بتنمية المناطق الحضرية على حساب المناطق الريفية سـوف يخلـع على المدينة جاذبية غير مرغوبة ، بمعنى أن تزداد قدرتها على سحب المهاجرين الريفيين اليها • وهذا يعنى ــ ببساطة ــ أن تنمية منطقة معينة (ولتكن مدينة) سوف يؤدى الى تخلف مناطق أخـرى (ولتكن قرى) • ليس ذلك فحسب • بل ان ذلك قد يعمل على ظهور « حلقة مفرغة خبيثة » تختفى فيها الاسباب والنتائج ، ويذوب الواقع حتى يصعب الامساك به • ومن هنـا تبدو التنمية الاقتصادية ــ الاجتماعية الشاملة هى المدخل الحقيقى لحل المشكلات الحضرية المعاصرة • ويجب أن تستند هذه التنمية الى تذويب الفوارق الطبقية واعادة توزيع الدخل القومى على نحو يسمح بالحـد من تأثير كل من عوامل « الطـرد » و « الجـذب » على السـواء • أمـا

---

(1) Sutcliffe; R; Industry and Underdevelopment; Addison-Wesley; London; 1971; p. 130.

« المدن الاولى » التى تتخذ وضعا « طفيليا » فى الدول الناميـة على وجه الخصوص فيجب أن تصبح « مدن مغلقة » وتنقل منها معظم الصناعات الاستهلاكية الخفيفة والنشاطات الادارية التى يجب أن تتكفل بها المـدن الاقليمية [1] • واذا كانت الادارة قد لعبت دورا واضحا فى نمـو كثير من عواصم الدول النامية ، فان اللامركزية الادارية هى السبيل الوحيـد لمواجهة « التكـدس الادارى » المصاحب « للتضخم الحضرى » • واذا كانت العواصم قد ظلت لفترة طويلة تجذب الموهوبين من أبنـاء الاقاليم ، فان الواقع الحضرى المعاصر يفرض على الموهوبين تطـوير أقاليمهم • ويتطلب ذلك اعادة النظر فى التوزيع المكانى للمؤسسات التعليمية والتربوية على نحو يضمن العدالة بين الاقاليم المختلفة •

وتبدو الاقليمية الحضرية فى نظر بعض الباحثين وكأنها الحـل الوحيد المتـاح لطغيان العاصمة وتنمية الاقاليم • وفى بداية الأمـر ظهرت « الاقليمية الحضرية » التى تسعى الى اكسـاب كل اقليم من أقاليم الدولة « شخصية حضارية » متميزة • غير أن ذلك ما لبث أن أدى الى ظهـور « الاقليمية الاقتصادية » التى تهـدف الى تعميق المصالح الاقتصادية على نحـو يضمن ارسـاء معالم اقتصادية تميز كل اقليم من الاقاليم • وفى نهاية الامر ظهرت « الاقليمية الاساسية » التى تسعى الى تدعيم الحكم المحلى باعتباره علامة على « الشخصية السياسية الاقليمية » • والواقع أن الاقليمية بهذا المعنى ليست حركة « انفصالية » عن جسم الدولة بقدر ما هى حركة لتحقيق « الوحدة » من خلال التنوع • والاقليمية بهـذا المعنى هى « اشتراكية المكان » أو قل هى الترجمة المكانية للنظرية الاشتراكية السياسية • وليس من الصدفة أن يكون أبرز ممثلى « النزعـة الاقليمية » مفكرون اشتراكيون من أمثال كول Cole وممفورد Mumford • أن العاصمية أو المركزية هى الرأسمالية أو الاقطاع الذى تحتكر فيه مساحة

---

(1) E. Banfield; The Unheavenly City; Little Brown; Boston; 1968.

قليلة أو رقعة محدودة أكبر قدر من ثمرات الحضـــارة • وليس من الصدفة كذلك أن يكون انطلاق المركزية العاصمية مصاحبا لانفجار الرأسماليـــة الغربية [١] • ان طغيان العاصمة وامتصاصها لموارد الاقاليم يجعـــل من الاخيرة ضيعة للاولى • لذلك فان الاقليمية لا تؤدى فقــط الى تحقيق العدالة الاقليمية بالنسبة للاقاليم فحسب ، ولكنها أيضا رحمة بالعاصمة لانها تخفف من أعباء الحكومة المركزية الت ىيشتد عليها الضغط حتى تنوء بالعبء وتفقــد كثيرا من كفاءتها ، ويصبح جهازها الادارى عاجزا عن تحقيق وظائفه • فالاقليمية تنقــل السلطة الى حيث تنتمى والى حيث ينبغى • بهذا المعنى فقط تصبح الاقليمية رمزا للعزة الوطنية لا النعــرة الاقليمية • ويجب أن تفيد المجتمعات المعاصرة من التكنولوجيا الحديثــة فى تحقيق « اشتراكية المكان » • فمن خــلال وسائل الاتصال المتطورة أصبح بالامكان ادارة شئون الدول الكبرى فى هدوء • واذا كانت الدول المتقدمة قد حققت أقصى الفوائد من وسائل الاتصال الحديثــة فى حــل مشكلة المركزية ، فان الدول النامية ماتزال بحاجــة الى الافادة من تجارب الدول المتقدمة فى هذا المجال •

وفى مواجهة مشكلة « التضخم الحضرى »تبــدو المدن الاقليمية هى القادرة على تحقيق « التوازن الحضرى » • ومعنى ذلك أن « اعادة التوزيع الحضرى » هى عملية حتمية لحل كثير من مشــكلات العاصمة والمدن المتضخمة ، بحيث تصبح « العواصم الاقليمية » الطبيعية وسيلة لارساء الاسس الحضارية لاقاليم الدولة المختلفة • ومن أسف أن نجــد جهود بعض الدول النامية فى هذا المجال لاتحقق نجاحا ملموسا • اذا مـــا تلبث « العواصم الاقليمية » ان تصبح « ضواحى » للعاصمة فتفقدهـــا خصائصها وامكانياتها • إن « الضمور الاقليمى » هو أحد السمات المميزة للدول النامية • فالمدينة ليست قادرة على رفع مســتوى الاقليم لضعفها

---

(١) جمال حمدان ، جغرافية المدن ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ص ٣٨٢ وما بعدها .

وعجزها المادى وذبولها الحضارى ، كما أن الاقليم عاجز عن تقوية مدينته وبعثها نظرا لان فائضـه وطاقاته المـادية والبشرية تمتصها العاصـمة المركزية الطاغية[1] • وبذلك يصبح تضخم العاصمة hypertrophy هو ضمور المدن الاقليمية atrophy • وفى أكثر الحالات سخرية تصبح « العاصمة هى الدولة » أو يكاد • أما « مجتمع المـدن » فيتخذ شكلا هرميا بعيدا عن الاتزان والنضج : مفلطح القاعدة ، حاد القمـة ، مختنق الخاصرة • ومعنى ذلك اختفاء « الطبقة الوسطى » من المدن • فلا تملك الدولة سوى مدينة أو مدينتين طاغيتين من ناحية ، وبضع عشرات أو مئات من المدن «القزمية» من ناحية أخرى • ومن هنا تبدو التنمية الحضرية ضرورة حتمية • أمـا الخطوة الاولى لتحقيقها فهى تصفية « الحجم المرضى » للمـدن الكبرى الطفيلية ، ثم تطـوير المدن الاقليمية التى هى دعامة الحياة الحضرية • ولا نقصـد بذلك القضـاء على السمات الثقافية الحضرية ، بل اعادة تشكيلها وتوزيعها • إن « أحياء الصفيح » التى اشتهرت بها كثير من مدن العالم لهى أفضل دليل على إفلاس « التحضر المرضى » • وليـس مـن الضرورى أن تعمل الدولة على انشـاء مراكز حضرية جديدة تماما ، خاصة اذا ما كانت امكانياتها المـادية تحـول دون ذلك • اذ يبـدو تدعيـم المدن الاقليمية القائمـة حلا مقبولا اذا ما أردنا تصفية مشـاكل المـدن الكبرى أو العواصم • ولا يمكن تحقيق ذلك كله الا من خلال النهـوض بالمناطق الريفية • واذا ما سلمنا بالتصورات البنائية التى تبنيناها على طول هذا الكتاب فان تنمية المناطق الريفية تصبح هى المدخـل الحقيقى لتنمية المناطق الحضرية • ان تجاهل بعض علماء الاجتماع لهذه الحقيقة البنائية كان سببا فى التشخيص الخاطىء لمشكلات المدينـة والقرية على السـواء •

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٠٩ . وكذلك مقدمتنا لكتاب « علم الاجتماع الريفى والحضرى » ، مرجع سابق •

قائمة ببليوجرافية

أولا : باللغة العربيــة

١ ــ **ابراهيم عبد الرحمن** ، تخطيط المــدن فى العــالم العربى ، المنظمــة العالمية للثقافة وجمعية المهندسين ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

٢ ــ **ابن خلدون** ، المقدمة ، مطبعة التقدم ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

٣ ــ **أحمد أبو زيــد** ، « الحركــة النقابية والتحــرر الافريقى » ، مجلــة السياسة الدولية ، العدد الرابع ، ١٩٦٦ ، ص ص ٧٤ ــ ٨٥ .

٤ ــ **أحمد النكلاوى** ، القاهــرة ، دراســة فى علم الاجتمــاع الحضرى ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٣ .

٥ ــ **أحمد صادق سعد** ، « الصناعة فى مصر : نموها وتوزيعها وهيكلها » ، عرض لكتاب مايكل باربو ، مجلة الطليعة ، العــدد الثامن ، الســنة التاسعة ، أغسطس ١٩٧٣ ، ص ص ١٣٣ ــ ١٣٥ .

٦ ــ **أحمــد كمال وسنية خليل وكرم حبيب** ، عــلم الاجتمــاع الحضرى : دراســة بنائية وظيفية للمجتمــع الحضرى ، القاهرة ، دار الجيــل للطباعة ، ١٩٧٦ .

٧ ــ **أحمد مجدى حجازى** ، البنــاء الطبقى فى القريــة المصرية ، رســالة ماجستير غير منشورة ، كليه الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٥ .

٨ ــ **اسحق القطب وعبد الاله أبو عياش** ، النمــو والتخطيط الحضرى فى دول الخليج العربى ، الكويت ، وكالة المطبوعات ، ١٩٨٠ .

٩ ــ **اسحق القطب** ، « الحركة السكانية من الريف الى المــدن » ، مجلة كليــة الآداب والتربيــة ، العــدد الثــانى عشر ، ١٩٧٧ ، ص ص ٩ ــ ٣٢ .

١٠ ــ **البنك الدولى** ، تقرير عن التنمية فى العالم ، واشنطن ، المطبوعات العربية ، باريس ، ١٩٧٩ .

١١ ــ **الجمعية المصرية للدراســات التاريخية** ، الارض والفــلاح فى مصر على مــر العصــور ، تأليف نخبــة من المتخصصين ، القاهــرة ، ١٩٧٤ .

١٢ ــ **السيد الحسينى** ، « عرض وجيز لاهم اسهامات لويد وارنر فى دراسة التدرج الاجتماعى » ، المجلة الاجتماعية القومية ، العدد الثالث ، ١٩٦٦ ، ص ص ٩١ ــ ١١١ .

١٣ ــ **السيد الحسينى ومحمد على محمد** ، « الفروق الريفية الحضرية فى مصر » ، منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٧١ .

١٤ ــ **السيد الحسينى** ، « العالم الثالث : تنمية أم تبعية » فى السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ص ١٥٠ ــ ٢٠٠ .

١٥ ــ ــــــــــــــــ ، « الدولة فى المجتمع الرأسمالى : تحليل نقدى » دراسة حول كتاب رالف ميلباند ، المجلة الاجتماعية القومية ، ١٩٧٣ ، ص ص ٩٥ ــ ١٠١ .

١٦ ــ ــــــــــــــــ ، اتجاهات علم الاجتماع فى فهم مشكلات الدول النامية » فى **السيد الحسينى وآخرون** ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ص ١ ــ ١٤٩ .

١٧ ــ ــــــــــــــــ ، « القرية فى الدول النامية : تحليل نقدى لبعض اتجاهات التغير الاجتماعى » فى **السيد الحسينى وآخرون** ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ص ٣٨٢ ــ ٤١٨ .

١٨ ــ ــــــــــــــــ ، « التقليد والتحديث فى علم الاجتماع المعاصر مع اشارة خاصة لمجتمعات الخليج العربى » ، الندوة العلمية العالمية الثالثة لمركز دراسات الخليج العربى ، منشورات مركز دراسات الخليج العربى ، جامعة البصرة ، الكتاب الاول ، ١٩٧٩ ، ص ص ٤٢٥ ــ ٤٤٩ .

١٩ ــ ــــــــــــــــ ، علم الاجتماع السياسى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٠ . (وعلى الاخص الفصل الاول) .

٢٠ ــ **أمل الصباح** ، الهجرة الى الكويت ، جامعة الكويت ، ١٩٧٨ .

٢١ ــ **أنور الرفاعى** ، الاسلام فى حضارته ونظمه الادارية والسياسية والادبية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٣ .

٢٢ ــ **بيلز وهوجر** ، مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة ، **ترجمة محمد الجوهرى والسيد الحسينى** ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ١٩٧٦ (وعلى الاخص الفصول التى تتناول انتاج الطعام والحياة الحضرية ، والانثروبولوجيا الحضرية ، والانثروبولوجيا التطبيقية) .

٢٣ ــ **جامعة الدول العربية ، الامانة العامة** ، النمو الحضرى فى الوطن العربى ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٧١ .

٢٤ ــ **جدعون جوبرج** ، « الفروق الريفية ــ الحضرية : دراسة فى علم الاجتماع الريفى » **ترجمة محمود عوده فى : محمد الجوهرى وآخرون** ، ميادين علم الاجتماع ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ص ٦٦ ــ ١١٩ .

٢٥ ــ ــــــــــــــ ، علم الاجتماع الحضرى المقارن ، **ترجمة السيد الحسينى ، فى : محمد الجوهرى وآخرون** ، دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٩ ، ص ص ١٣ ــ ٤٨ .

٢٦ ــ **جلال أمين** ، التحضر والتنمية الاقتصادية فى العالم العربى ، جامعة بيروت العربية ، بيروت ، ١٩٧٢ .

٢٧ ــ **جمال حمدان** ، نمو وتوزيع السكان فى مصر ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

٢٨ ــ ــــــــــــــ ، المدينة العربية ، معهد الدراسات العربية ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

٢٩ ــ ــــــــــــــ ، « مقدمة كتاب القاهرة » **تأليف ديزموند ستيوارت ، ترجمة يحيى حقي** ، كتاب الهلال ، القاهرة ، مارس ١٩٦٩ .

٣٠ ــ ــــــــــــــ ، شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، كتاب الهلال ، القاهرة ، يوليو ١٩٦٦ .

٣١ ــ ــــــــــــــ ، جغرافية المدن ، الطبعة الثانية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

٣٢ ــ **جهينه سلطان العيسى** ، التحديث فى المجتمع القطرى المعاصر ، دار كاظمة للنشر ، الكويت ، ١٩٧٩ .

٣٣ ــ **جيرالد بريز** ، مجتمع المدينة فى البلاد النامية : دراسة فى علم الاجتماع الحضرى ، **ترجمة وتقديم محمد الجوهرى ، القاهرة ،** دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ١٩٧٢ .

٣٤ ــ **حسن ابراهيم** ، تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، العصر العباسى الثانى فى الشرق ومصر والمغرب والاندلس ، القاهرة ، النهضة المصرية ، الجزء الثالث .

٣٥ ــ **حسن الساعاتى** ، « التقدم العمالى والصناعى فى مصر المعاصرة » ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، المجلد الثامن ، ١٩٥٤ ، ص ص ١١٩ ــ ١٤١ .

٣٦ ــ ــــــــــــ ، التصنيع والعمران ، بحث ميدانى للاسكندرية وعمالها ، دار المعرفة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٢ .

٣٧ ــ ــــــــــــ ، « تكيف العمال الريفيين فى الاطار الحضرى الصناعى » ، **فى لويس كامل مليكة** (محرر) ، قراءات فى علم النفس الاجتماعى فى البلاد العربية ، القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ ، ص ص ٦٢٠ ــ ٦٢٦ .

٣٨ ــ **حنا يسى البياضى** ، التحديث والنمو الحضرى فى العاصمة السودانية فى ضوء آراء دانيال ليرنر ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٦ .

٣٩ ــ **رشدى بطرس** ، « العلاقة بين تخطيط المدينة والتخطيط القومى » فى أعمال المؤتمر الثانى لمنظمة المدن العربية ، مطبعة حكومة الكويت ، الكويت ، ١٩٧٠ .

٤٠ ــ **رودولف ستهافنهاجن** ، الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، **ترجمة ناجى ابو خليل** ، دار الحقيقة ، بيروت ، ١٩٧٢ .

٤١ ــ **رؤوف عباس حامد** ، الحركة العمالية المصرية منذ نشأتها حتى ثورة يوليو ١٩٥٢ ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

٤٢ ــ **سوتى أوتز** ، « ثقافة الفلاحين » ، **ترجمة السيد الحسينى فى : محمد الجوهرى وآخرون** ، دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ص ٣١٩ ــ ٣٤٠ .

٤٣ ـ **صادق مهـدى السعيد** ، السكان والقوى العاملة فى اقطار الخليج العربى ، ضمن أعمال ندوة الخليج العربى ، جامعة البصرة ، مـارس ١٩٧٥ .

٤٤ ـ **صبحى عبد الحكيم** ، مدينـة الاسكندرية ، دراسة جغرافية ،رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٥٨ .

٤٥ ـ ـــــــــــــ ، الموقف السكانى فى الوطن العربى ، مجلـة الشرق الاوسـط ، جامعة عين شمس ، العـدد الثانى ، ١٩٧٥ ، ص ص ١ ـ ٢٥ .

٤٦ ـ **عادل عبد السلام** ، بلدان الخليج العربى : دراسة ديموجرافية ، ندوة تنمية المـوارد البشرية فى الخليج العربى ، البحرين ، ١٩٧٥ .

٤٧ ـ **عادل غنيم** ، « ملاحظات حول تطور العلاقات الاقتصادية والطبقية فى الريف » مجلة الطليعة ،العدد التاسـع ، السنة الثانية ، سبتمبر ١٩٦٦ ، ص ص ٦٦ ـ ٦٩ (ضمن ملف عن الريف المصرى) .

٤٨ ـ **عاصم الدسوقى** ، كبار ملاك الاراضى الزراعية ودرهم فى المجتمع المصرى المعـاصر ، ١٩١٤ ـ ١٩٥٢ ، دار الثقافـة الجـديدة ، ١٩٧٥ .

٤٩ ـ **عاطف احمد فؤاد** ، الطبقات والسلطة فى المجتمع المصرى ، رسـالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٥ .

٥٠ ـ **عاطف وصفى وعبد الهادى الجوهرى** ، دراسات فى علم الاجتماع الحضرى ، المجموعة الافريقية ، الكتاب الاول : التحضر والهجـرة ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٥ .

٥١ ـ **عايده بشـاره** ، التوطن الصناعى فى الاقليم المصرى ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٢ .

٥٢ ـ **عبد الباسط حسن** ، علم الاجتمـاع الصناعى ، مكتبـة غـريب ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٨ (وعلى الاخص الفصول من الحادى عشر حتى الثالث عشر) .

٥٣ ـ **عبد الباسط عبد المعطى** ، الصراع الطبقى فى القرية المصرية ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

٥٤ — **عبد الرازق عباس حسين** ، نشأة مدن العراق وتطورها ، القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ، ١٩٧٣ .

٥٥ — ————— ، جغرافية المدن ، مطبعة سعد ، بغداد ، ١٩٧٧ .

٥٦ — **عبد الرحمن صادق الشريف** ، مدينة الرياض ، الرياض ، مطبعة المدينة ، ١٩٧٦ .

٥٧ — **عبد الفتاح وهيبه** ، فى جغرافية العمران ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٣ .

٥٨ — **عبد الكريم اليافى** ، الهجرة وتحركات السكان ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الرابع ، ١٩٧٥ .

٥٩ — **عبد المنعم شوقى** ، علم الاجتماع الحضرى ، القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٦٦ .

٦٠ — **عبد المنعم ماجد** ، تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى ، مكتبة الانجلو ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

٦١ — **عبد الوهاب ابراهيم** ، أثر اعادة توزيع الملكيات الزراعية على البناء الاجتماعى فى القرية المصرية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٤ .

٦٢ — **عبد الله الصادق ابراهيم** ، الآثار الاجتماعية للتنمية الصناعية فى مدينة ميت غمر ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٧ .

٦٣ — **عبد الله على حامد العبادى** ، انماط ونماذج المدن الكبرى فى السودان ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

٦٤ — **عبد الله أبو عياش واسحق القطب** ، الاتجاهات المعاصرة فى الدراسات الحضرية ، الكويت ، وكالة المطبوعات ، ١٩٨٠ .

٦٥ — **عبد الاله أبو عياش** ، « الكويت بين النمو الاستقطابى والتوازن الاقليمى » ، مجلة دراسات الخليج وشبه الجزيرة العربية ، السنة الثالثة ، أكتوبر ١٩٧٧ ، ص ص ١١ — ٣٩ .

٦٦ — ــــــــــــــــ ، « الجوانب السلوكية فى التخطيط الحضرى لدول الخليج العربى » ، مجلة دراسات الخليج وشبه الجزيرة العربية ، السنة الخامسة ، يناير ١٩٧٩ .

٦٧ — **عبد الامير رحيم العبود** ، « الانفجار السكانى فى العالم وانعكاسه على الوطن العربى » مجلة النفط والتنمية العراقية ، العدد الرابع ، السنة الاولى ، ١٩٧٦ ، صص ٤ — ١٠٠ .

٦٨ — **عبده بدوى** ، مدن أفريقية ، القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٣٣ .

٦٩ — **عزت حجازى** ، القاهرة ، منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٧١ .

٧٠ — **عطيات حمدى** ، جغرافية العمران ، الاسكندرية ، ١٩٦٥ .

٧١ — **لويس ممفورد** ، المدينة على مر العصور ، أصلها وتطورها ومستقبلها ، **ترجمة وتعليق ابراهيم نصحى** ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٤ .

٧٢ — **ماجد عبد الله الشمسى** ، الحضر ، بغداد ، مطبعة شفيق ، ١٩٦٨ .

٧٣ — **محمد الجوهرى** ، ظاهرة التحضر بين الادانة والتمجيد ، مقدمة الترجمة العربية لكتاب **جيرالد بريز** ، مجتمع المدينة فى البلاد النامية ، ترجمة محمد الجوهرى ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١ — ١٩ .

٧٤ — ــــــــــــــــ ، « البناء الطبقى فى الدول النامية » فى : **السيد الحسينى وآخرون** ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ص ٢٠١ — ٣٢٨ .

٧٥ — ــــــــــــــــ وآخرون ، دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٩ .

٧٦ — **محمد الرميحى** ، البترول والتغير الاجتماعى ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

٧٧ ــ **محمد المعتصم مصطفى** ، المدن الاسلامية وخصائصها ، حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية ، جامعة قطر ، السنة الثانية ، ١٩٨٠ ، ص ص ٢١٧ ــ ٢٥٤ .

٧٨ ــ **محمد حسنين مكاوى** ، التقدم العمرانى لمدينة القاهرة والمدن المصرية الاخرى ، القاهرة ، مطبعة مصر ، ١٩٣٨ .

٧٩ ــ **محمد حلمى جعفر** ، « آفاق للعمران » فى كتاب دولة البحرين منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

٨٠ ــ **محمد رياض** ، مدن الخليج : تطورها ومشكلاتها المعاصرة ، حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية ، جامعة قطر ، السنة الثانية ، ١٩٨٠ ، ص ص ٧٧ ــ ١١٦ .

٨١ ــ **محمد سناسير** ، « مدن ازدهرت فى الصحراء » ، مجلة رسالة اليونسكو ، العدد ١٩٩٠ ، فبراير ١٩٧٨ .

٨٢ ــ **محمد عبد المنعم نور** ، الحضارة والتحضر ، دراسة أساسية لعلم الاجتماع الحضرى ، القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٧٠.

٨٣ ــ **على اسلام الفار** ، دراسة اجتماعية لمدينة الاسكندرية طبقا لمنهج وارنر ، رسالة دكتوراة ، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية .

٨٤ ــ **علياء شكرى** ، « مشكلات أساسية حول الاسرة والتصنيع »، فى : السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧ ،ص ص ٤١٩ ــ ٤٤٥ .

٨٥ ــ **عمرو محى الدين** ، الآثار الاقتصادية والاجتماعية للاصلاح الزراعى فى مصر ١٩٥٠ ــ ١٩٧٠ ، أعمال مؤتمر القانون والتغير الاجتماعى ، أسوان ، ١٩٧٥ .

٨٦ ــ **عنايات الطحاوى** ، دراسة جغرافية لاقليم الخرطوم ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٤ .

٨٧ ــ **فاروق محمد العادلى** ، حركة التصنيع فى مدينة الخرطوم وأثرها فى الحياة الاجتماعية للعمال ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، الاسكندرية ، ١٩٦٤ .

٨٨ ــ **فتح الله هلول ومحمد رياض الغنيمى** ، الآثار الاجتماعية والاقتصادية للتصنيع على المناطق الريفية بمركز كفر الدوار ــ بحيرة ، مطبعة جامعة الاسكندرية ، ١٩٦١ .

٨٩ ــ **فون جرونباوم** ، حضارة الاسلام ، **ترجمة عبد العزيز جاويد** ، القاهرة ، مكتبة مصر ، بدون تاريخ .

٩٠ ــ **فيلب هاوزر** ، مشكلات التحضر السريع ، **ترجمة السيد الحسينى** ، فى : **محمد الجوهرى وآخرون** ، دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٩ ، ص ص ٩١ ــ ١١٩ .

٩١ ــ **كريمة كريم** ، « توزيع الدخول بين الحضر والريف » أعمال المؤتمر العلمى السنوى الثالث للاقتصاديين المصريين ، مارس ١٩٧٨ .

٩٢ ــ **كمال عبد الحميد الزيات** ، تقسيم العمل الاجتماعى فى المدينة المعاصرة على ضوء نظرية دوركايم بالتطبيق على مدينة حلوان بالمجتمع المصرى ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٣ .

٩٣ ــ **كمال موسى محمد** ، منطقة شبرا الخيمة الصناعية ، دراسة فى الجغرافيا الاقتصادية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٢ .

٩٤ ــ **محمد عاطف غيث** ، علم الاجتماع الحضرى ، مدخل نظرى ، الاسكندرية ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٢ .

٩٥ ــ ــــــــــــــ ، القرية المتغيرة ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

٩٦ ــ **محمد فؤاد حجازى** ، الاسرة والتصنيع ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

٩٧ ــ **محمد غلاب ويسرى الجوهرى** ، جغرافية الحضر : دراسة فى تطور الحضر ومناهج البحث فيها ، دار الكتب الجامعية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٩٨ ــ **محمد محمود الحناوى** ، الفروق الريفية ــ الحضرية فى علم الاجتماع ، دبلوم معهد العلوم الاجتماعية، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٠ .

٩٩ ــ **محمد محمود الديب** ، التصنيع كأساس للتخطيط فى منطقة القاهرة ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٢ .

١٠٠ ــ **محمود جلال الدين الجمل** ، بورسعيد : دراسة العوامل الجغرافية الخاصة بنشأتها وتطورها ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٥٢ .

١٠١ ــ **محمود عبد الفضيل** ، التحولات الاقتصادية والاجتماعية فى الريف المصرى ١٩٥٢ ــ ١٩٧٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨ .

١٠٢ ــ **محمود عوده** ، اساليب الاتصال والتغير الاجتماعى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

١٠٣ ــ ــــــــــــــ ، الهجرة الى مدينة القاهرة ، المجلة الاجتماعية القومية ، ١٩٧١ (عدد خاص) .

١٠٤ ــ ــــــــــــــ ، الفلاحون والدولة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

١٠٥ ــ **محمود فهمى الكردى** ، النمو الحضرى : دراسة لمظاهر الاستقطاب الحضرى فى مصر ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٧ .

١٠٦ ــ **مرزوق عبد الرحيم** ، « الهجرة الريفية ــ الحضرية فى مصر : أنماطها ودوافعها والآثار المترتبة عليها » ، الحلقة الدراسية الاولى لعلم الاجتماع الريفى ، منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

١٠٧ ــ **مصطفى الخشاب** ، الاجتماع الحضرى ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

١٠٨ ــ **منذر ابراهيم الوزير** ، النمو الحضرى لمدينة غزة ونتائجه الاجتماعية ، الاسكندرية ، دبلوم معهد العلوم الاجتماعية ، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٧ .

١٠٩ ــ **نادر الفرجانى** « استخدام الايدى العاملة فى الدول العربية الخليجية » المعهد العربى للتخطيط ، الكويت ، ١٩٧٩ .

١١٠ ــ **نهى فهمى** ، القرية المتحضرة ، رسالة دكتوراة غير منشورة : كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٤ .

١١١ ــ **هنرى مندار** ، « علم الاجتماع الريفى » **ترجمة علياء شكرى** ، فى : **محمد الجوهرى وآخرون** ، دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ص ١٥٩ — ١٨٥ .

١١٢ ــ **هيفاء الشنوانى** ، « ظاهرة النمو الحضرى » فى أعمال المؤتمر الرابع للشئون الاجتماعية ، طرابلس ، ١٩٧١ .

١١٣ ــ **ياقوت الحموى** ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٢ .

ثانيا : باللغة الانجليزية

(أ) المدينة بين التطور التاريخى والنظرية الاجتماعية :

1. Abrams; P; «Towns and Economic Growth : Some Theories and Problems»; in Abrams; P; and Wrigley (eds.); Towns in Societies; Cambridge University Press; 1978; pp. 9-34.

2. Beckinsale; R; and Houston; J; Urbanization and Its Problems; Basil Blackwell; 1968.

3. Bergel; Urban Sociology; McGrow-Hill Book Company; New York; 1955.

4. Berry; B; The Human Consequences of Urbanization : Divergent Paths in the Urban Experience of the Twentieth Century; 1973.

5. Boskoff; A; The Sociology of Urban Regions; New York : Appleton-Century Crofts; 1962.

6. Bridenbaugh; C; Cities in Revolt; Knopf; New York; 1955.

7. Botero; G; «The Greatness of Cities»; in Botero; G; The Reason of State and the Greatness of Cities; London; Routledge & Kegan Paul; 1956.

8. Childe; G; What Happened in History; Penguin Books; London; 1964.

9. Cottrell; W; Energy and Society; McGraw-Hill; 1955.

10. Daire; M; «The Pattern of Urban Growth»; in Murdock; G; (ed.); Studies in the Science of Society; New Haven : Yale University Press; 1953 : pp. 75-91.

11. Davis; K; «The Origin and Growth of Urbanization in the World»; American Journal of Sociology; 60; March; 1955; pp. 426-440.

12. ———; World Urbanization; 1950-1970; Berkeley; Univ. of California; 1969.

13. ———; «The Urbanization of the Human Population»; in Breese; G; (ed.); The Cit yin Newly Developing Countries Princeton University Press; 1972; pp. 5-20.

14. De Coulanges; F; The Ancient City; Doubleday; Garden City; New York; 1956.

15. Dickinson; K; The West European City : A Geographical Interpretation; London; 1951.

16. Dimbley; G. W; (ed.) Man, Settlement, and Urbanism; Schenkman; Cambridge; Mass; 1972.

17. Dobb; M; Studies in the Development of Capitalism; London; 1946.

18. Dopsch; A; The Economic and Social Foundations of European Civilization; London; 1954.

19. Epstein; A; «Urbanization and Social Change in Africa»; in Breese; G; (ed.) The City in Newly Developing Countries; Princeton Univ. Press; 1972; pp. 246-287.

20. Firey; W; Man. Mind and Land; Free Press; 1960.

21. George; D; London Life in the Eighteenth Century; Horchbooks; New York; 1964.

22. Germani; G; «Migration and Acculturation»; in Hauser; P; (ed.); Hand-book for Social Research in Urban Areas; Paris; 1965; pp. 159-178.

23. Gibbon; E; The Decline and Fall of the Roman Empire; Dell; New York; 1952.

24. Gillin; P; The Distribution of Occupations as a City Yardstick; King's Crown; 1951.

25. Glass; D; The Town in a Changing Civilization; London; John Lane; 1953.

26. Gutkind; P; Urban Anthropology; Van Gorcum & Comp. The Netherlands; 1974.

27. Handlin; O; and Burchard; J; (eds.) The Historian and the City; Cambridge; Mass; 1963.

28. Hatt; P; and Reiss; A; (eds.); Cities and Society; Free Press; Glencoe; I 11; 1968.

29. Hauser; P; «Observations on the Urban-Folk and Urban-Rural Dichotomies as Forms of Western Ethnocentrism»; in Hauser; P;

and Schore; L; (eds.); The Study of Urbanization; New York; 1965; pp. 503-518.

30. Hawley; A; Human Ecology; New York; 1956.
31. ———; Urban Society; Ronald Press; New York; 1971.
32. Hiorns; F; Town Building in History; Harrap; London; 1956.
33. Hoover; E; and Vernon; R; Anatomy of a Metropolis; Cambridge; Harvard University Press; 1959.
34. Hoselitz; B; «Generative and Parasitic Cities»; Economic Development and Cultural Change; 3; 1955; pp. 278-194.
35. ———; «The Role of Cities in the Economic Growth of Underdeveloped Countries»; in Breese; G; The City in Newly Developing Countries; Princeton University Press; 1972; pp. 330-341.
36. Jones; E; Towns and Cities; Oxford University Press; 1970.
37. July R; A History of the African People; Scribner's; New York; 1970.
38. Kerr; C; et al; Industrialism and Industrial Man; Cambridge Univ. Press; 1960.
39. Lampard; E; «The History of Cities in Economically Advanced Areas»; Economic Development and Culture Change; Vol. 3; 1955.
40. ———; «Historical Aspects of Urbanization»; in Hauser; P; and Schnore; L; (eds.) The Study of Urbanization; John Wiley & Sons; New York; 1965.
41. Lenski; L; Human Society; McGraw-Hill; New York; 1970.
42. Lewis; O; «Further Observations on the Folk-Urban continuum and Urbanization With Special Reference to Mexico City»; in Hauser; P; and Schnore; L; (eds.); The Study of Urbanization John Wiley & Sons; New York; 1965.
43. Lopez; R; «The Cross roads within the Wall»; in Handlin; O; and Burchard; J; (eds.); The Historian and the City; Cambridge; Mass; 1963.
44. Mann; P; An Approach to Urban Sociology; Routledge and Kegan Paul; London; 1968.
45. Marx; K; Capital; New York; Modern Library; 1954.

46. Mayer; P; «Labour Migracy and the Social Network»; in Holleman; Y; (ed.) Problems of Transition; London; 1964; pp. 21-34.
47. Mills; C. Wright. The Power Elite; New York; Oxford University Press; 1959.
48. Miner; H; The Primitive City of Timbuctoo; Doubleday; Anchor; New York; 1965.
49. Moore; W; The Impact of Industry; Prentice-Hall; 1965; Chaps 3; 4.
50. Morris; R; Urban Sociology; George Allen and Unwin LTD; London; 1968.
51. Mumford; L; The City in History; Its Transformation and Its Prospects; Harcaurt & Brace; and World; New York; 1961.
52. Mundy; J; and Reisenberg; P; The Medieval Town; Van Nostrand; New York; 1958.
53. Nelson; J; «The Urban Poor Disruption or Political Integration in Third World Cities ?»; World Politics; XGII; 1970; pp. 393-414.
54. Pahl; K; «The Rural-Urban Conenuum»; in Pahl; K; (ed.); Readings in Urban Sociology; Pergman Press; London; 1968; pp. 280-288.
55. Palen;J; The Urban World; Mc Graw Hill Book Company; New York; 1975.
56. Pearse; A; «Metropolis and Peasant : The Expansion of the Urban-Industrial Complex and the Changing Rural Structure»; in Shanin; T; (ed.); Peasant and Peasant Societies; Penguin; 1971; pp. 69-80.
57. Pirenne; H; Economic and Social History of Medieval Europe; Harcourt; New York; 1936.
58. ———; Medieval Cities; Princeton University Press; N. Y ; 1939.
59. Polanyi; K; et al; Trade and Market in the Early Empires : Economic in History and Theory; Glencoe; I 11; 1957.
60. Queen; S; and Carpenter; D; The American City; N. Y; Macmillan Hill Book Co; 1958.
61. Redfield; R; «The Folk Society»; in Hatt; P; and Reiss; A; Yr; (eds.); Cities and Society; Free Press; Glencoe; Inc; N. Y; 1968; pp. 30-45.

62. Reissman; L; The Urban Process; London : 1964.

63. Robert; A; The Evolution of Urban Society : Early Mesopotamia and Prehistoric Mexico; Chicago : Aldine Publishing Company; 1965.

64. Robert; B; and Willey (eds.); Courses Toward Urban Life; Chicago Aldine Publishing Company; 1962.

65. Robson; W; Great Cities of the World; London; 1957.

66. Rodwin; L; (ed.); The Future Metropolis; New York; George Broziller; 1961.

67. ———; Nations and Cities; Houghton-Mifflin; 1970.

68. Rose; H; The City; Lippincott; Chicago; 1955.

69. Rostovtzeff; M; «Cities in the Ancient World»; in Ely; K; (ed.) Urban Land Economics; Arn Arbor; 1952.

70. Saalman; H; Medieval Cities; Broziller; New York; 1968.

71. Sayre; W; and Polsby; N; «American Political Science and the Study of Urbanization»; in Hauser; P; and Schnore; L; (eds.) The Study of Urbanization; John Wiley & Sons; Inc; 1965; pp. 115-156.

72. Schnore; L; The Urban Scene; Free Press; New York; 1965; Chap. 16.

73. ———; «On the Spatial Structure of Cities in the two Americans»; in Hauser; P; and Schnore; L; (eds.); The Study of Urbanization; John Wiley; Sons; New York; 1965; pp. 347-397.

74. Sjoberg; G; The Preindustrial City; Glencoe; II 1; 1960.

75. ———; «Cities in Developing and in Industrial Societies : A Cross Cultural Analysis»; in Hauser; P. and Schnore; L; (eds.) The Study of Urbanization; John Wiley & Sons; New York; 1965.

76. ———;The Rise and Fall of Cities : A Theoretical Perspective; in Breese; G; (ed.) The City in Newly Developing Countries; Princeton University Press; 1972; pp. 219-231.

77. Sovani; N; «The Analysis of Overurbanization»; in Breese; G; (ed.); The City in Newly Developing Countries; Princeton University Press; 1972; pp. 322-330.

78. Taeuber; I; «Population Growth in Less Developed Countries»; in Hauser; P; (ed.) The Population Dilemma; Prentice-Hall; Englewood Cliffs; J. N; 1969.

79. Tangri; S; «Urbanization; Political Stability; and Economic Growth»; in Finkle; J; and Gable; R; (eds.); Political Development and Culture Change; John Wiley & Sons; New York; 1971; pp. 212-226.

80. Theodorson; G; Studies in Human Ecology; New York; 1961.

81. Turner; R; The Great Cultural Traditions; vol. 1; The Ancient Cities especially; Chaps. 3-4; 9-10; New York; 1941.

82. Weber; M; The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism; New York; 1948.

83. Weber; M; The City; Free Press; New York; 1958.

84. Weiner; M; «Urbanization and Political Protest»; Civilization ; XVII; 1967; pp. 44-52.

85. Wirth; L; «Urbanism as a way of Life»; in Hatt; P; and Reiss; A; (eds.); Cities and Society; Free Press; 1957.

(ب) المدينة في الدول النامية :

86. Ando; H; Peking; N. Y; 1968.

87. Bantom; M; «Social Alignment and Identity in a West African City»; in Kuper; H; (ed.) Urbanization and Migration in West Africa; Univ. of Calif. Press; Berkely; 1966.

88. Blake; G; «Urbanization in North Africa : Its Nature and Consequences»; in Dwyer; D; (ed.) The City in the Third World ; Pitman Press; London; 1974; pp. 67-80.

89. Bopegomage; A; Delhi : A Study in Urban Sociology ; Bombay; 1957.

90. Breese; G; (ed.) The City in Newly Developing Countries ; Princeton University Press; 1972.

91. Brush; J; «The Morphology of Indian Cities»; in Turner; K; (ed.) India's Urban Future; Berkely : University of California Press ; pp. 53-64.

92. Bulsara; J; Problems of Rapid Urbanization in India; London; 1964.

93. Durand; J; and Pelaez; «Patterns of Urbanization in Latin America»; in Breese; G; (ed.) The City in Newly Developing Countries; Princeton University Press; 1972; pp. 172-196.

94. Dwyer; D; (ed.) The City in the Third World; The Pitman Press; London; 1974.

95. Epstein; A; «Urban Communities in Africa» in Cluckman; (ed.); Closed Systems and Open Minds : The Limits of Naivety in Social Anthropology; Chicago; 1964; pp. 83-102

96. Frank; A; Capitalism and Underdevelopment in Latin America; New York; Monthly Review Press; 1969.

97. ———; «Instability and Integration in Urban Latin America»; in Frank; A; Latin America : Underdevelopment or Revolution : Monthly Review Press; N. Y; 1969; pp. 274-295.

98. Foster; G; and Kemper; K; (ed.) Anthropologists in Cities; Little; Brown; Boston; 1974.

99. Freilich; M; (ed.) Marginal Natives : Anthropologist at Work; New York; 1970.

100. Gakenheimer; R; «The Paruvian City of the sixteeith Century»; in Beyer; G; (ed.) The Urban Explosion in Latin American; Cornell University Press; Ithaca; New York; 1967; pp. 44-60.

101. Gibbs; J; (ed.) Peoples of Africa; New York; 1965.

102. Ginsburg; N; Urban Geography and (Non-Western) Areas; in Hauser; P; and Schnore; L; (eds.) The Study of Urbanization; John Wiley & Sons; New York; 1964; pp. 311-376.

103. Gist; N; «Urbanism in India»; in Fava; S; (ed.) Urbanism in World Perspective; Thomas Crowell; 1968.

104. Gutkind; P; Urban Anthropology; Van Gorcum; The Netherlands; 1974.

105. Hall; R; «The Cities of Japan : Notes on Distribution and Inherited Forms»; in Abrams; P; and Wrigley; E; (ed.) Towns in Societies; Cambridge University Press; 1978; pp. 130-145.

106. Hamdan; G; «Capitals of New Africa»; in Breese; G; (ed.) The City in Newly Developing Countries; Princeton University Press; 1972; pp. 146-161.

107. Hance; W; Population; Migration and Urbanization in Africa; Columbia University Press; N. Y; 1970.

108. Hanna; W; and Hanna; J; Urban Dynamics in Black Africa; Aldine-Atherton; Chicago; 1971.

109. Hauser; P; Urbanization in Asia and the Far East; UNESCO; 1956.

110. ————; (ed.) Urbanization in Latin America; UNESCO ; Paris; 1961.

111. Hodgkin; T; Nationalism in Colonial Africa; Muller; London; 1956.

112. Hoselitz; B; «The Cities of India and Their Problems»; in Turner; R; (ed.) India's Urban Future; Berkely : University of California; 1962; pp. 425-443.

113. ————; and Moore; W; (eds); Industrialization and Society; UNESCO : Mouton; Paris; 1963.

114. Keyfitz; N; «Political-Economic Aspects of Urbanization in South and Southeast Asia»; in Hauser; P; and Schnore L; (eds.) The Study of Urbanization; John Wiley; New York; 1965 pp. 265-310.

115. Kropf-Askari; Yoruba Towns and Cities; London; 1969.

116. Kuper; H; (ed.) Urbanization and Migration West Africa; Univ. of Calif. Press; Berkeley; 1966.

117. Leeds; A; (ed.) Rio's Favelas; University of Texas Press; 1970.

118. ————; and Leeds; E; «Brazil and the Myth of Urban Rurality : Urban Experience; Work and Values in Squatments of Rio De Joneiro and Lima»; in Field; A; (ed.); City and Country in the Third World; Cambridge; Mass; 1970; pp. 225-242.

119. Leslie; J; A Social Survey of Dar es Salaam; Oxford University Press; London; 1963.

120. Lewis; O; The Children of Sanchez; New York; Random House; Alfred A. Knopf; 1961.

121. Lloyd; P; Africa in Social Change; Penguin Books; Baltimore; 1967.

122. Loockwood; W; The Economic Development of Japan; Princeton University Press; 1964.

123. Mabognijie; A; Urbanization in Nigeria; London; 1978.

124. ———; «The Pre-Colonial Development of Yoruba Towns»; in Dwyer; D; (ed.) The City in the Third World ; The Pitman Press; London; 1974; pp. 26-35.

125. Mao Tse Tung; Selected Works of Mao Tse Tung; vol. 5; Peking; Foreign Languages Press; 1977.

126. Miner; H; «The City and Modernization : an Introduction»; in Miner; H; (ed.) The City in Modern Africa; New York; 1967; pp. 1-20.

127. Morse; R; «Latin American Cities : Aspects of Function and Structure»; in Friedmann; J; (ed.) Regional Development and Planning; Cambridge; 1964 pp. 361-381.

128. ———; «The Heritage of Latin America»; in Hartz; L; (ed.) The Founding of New Societies; New York; 1964; pp. 123-177.

129. ———; «Recent Research on Latin American Urbanization : A Selective Survey with Commentary»; in Breese; G; (ed.) The City in Newly Developing Countries; Princeton University Press; 1972; pp. 475-506.

130. Murphy; R. Shanghai : Key to Modern China; Harward Univ-Press; Cambridge; Mass; 1958.

131. ———; «Urbanization in Asia»; in Breese; G; (ed.) The City in Newly Developing Countries; Princeton University Press; 1972; pp. 58-75.

132. Oliver; R; and Mathew; G; (eds.) History of East Africa; Oxford; 1963.

133. Richman; M; Industrial Society in Communist China; N. Y; Random House; 1959.

134. Rotberg; R; and Mazrui (eds.) Protest and Power in Black Africa; New York; 1970.

135. Rycroft; W; and Clemmer; M; A Study of Urbanization in Latin America; New York; 1962.

136. Shack. W; «Urban Tribalism and the Cultural Process of Urbanization in Ethiopia»; in Southall; A; and Bruner E; (eds.) Urban Anthropology; Chicago; 1966; pp. 113-128.

137. Sjoberg; G; «Cities in Developing and in Industrial Societies : A Cross-Cultural Analysis» in Hauser; P; and Schnore; L; (eds.) The Study of Urbanization; John Wiley; New York; 1965; pp. 208-264.

138. Smith; L; «Urbanization in Latin America» in Anderson; N; (ed.) Urbanism and Urbanization; Leiden; 1964; pp. 127-142.

139. Southhall; A; «Determinants of the Social Structure of African Urban Populations»; in Forde; D; (ed.) Social Implications of Industrialization and Urbanization in Africa South of the Sahara; Paris; 1956; pp .557-578.

140. ————; Social Change in Modern Africa; London; Oxford University Press; 1969.

141. Taeuber; I; «Population and Labor Force in the Industrialization of Japan»; in Kuznets; S; and Moore; W; (eds.) Economic Growth : Brazil; India and Japan; Durham; 1955; pp. 318-342.

142. Tangri; S; «Urbanization, Political Stability and Economic Growth»; in Finkle; J; and Gable; R; (eds.) Political Development and Social Change; John Wiley & Sons; Inc; 1971; pp. 212-228.

143. Turner; J; «Squatler Settlements in Developing Countries»; in Moynihan; D; (ed.) Toward a National Urban Policy; Basic Books; N. Y; 1970; pp. 256-257.

144. Ullman; M; «Cities of Mainland China : 1953-1959»; in Breese; G; (ed.) The City in Newly Developing Countries; Princeton University Press; 1972; pp. 81-103.

145. United Nations Economic Commission For Africa; World Population Prospects 1965-1980; Addis Ababa; 1969.

146. United Nations EconomicCommission For Africa; Demographic Handbook of Africa; Addis Ababa; 1971.

147. Wolfe; W; «Some Implications of Recent Changes in Urban and Rural Settlement Patterns in Latin America»; in V. N; World Population Conference; 1965 (A. 8/1/E 66).

(جـ) المدينة فى دول الشرق الاوسط :

148. Abu-Lughod; J; «Urban-Rural Differences as a Function the Demographic Transtiion : Egyptian Data and an Analytical Model»; American Journal of Sociology; 69; 1963; pp. 476-490.

149. ———; «Urbanization in Egypt»; Economic Development and Cultural Change; 13 (1965); pp. 313-343.

150. ———; «Tale of Tow Cities : The Origins of Modern Cairo»; Comparative Studies in Society and History; 1965; pp. 429-457.

151. ———; «Varieties of Urban Experience; Coexistence and Coalescence in Cairo»; in Lipidus; I; (ed.) Middle Eastern Cities ; Berkeley; 1969.

152. ———; «Rural Migration and Politics in Egypt»; in Antoun; R; and Harik; I; (eds.) Rural Pural Politics and Social Change in the Middle East; Bloomington; Ind; 1972.

153. ———; «Migrant Adjustment to City Life : The Egyptian Case»; in Breese; G; (ed.) The City in Newly Developing Countries; Princeton University Press; 1972; pp. 376-388.

154. Antoun; R; and Harik; I; (eds.) Rural Politics and Social Change in the Middle East; Bloomington; Ind; 1972.

155. Baer; G; Population and Society in the Arab East; London ; 1964.

156. ———; Studies in Social History of Modern Egypt; Chicago; 1969.

157. Berger; M; Bureaucracy and Society in Modern Egypt; Princeton University Press; 1956.

158. Berry; B; The Human Consequences of Urbanization; London; 1971.

159. Bharier; J; «Note on the Population of Iran; 1900-1966»; Population Studies; 22 (1968); pp. 273-279.

160. Clarke; J; «Introduction»; in Clarke; J; and Fishes; W; (eds.) Population of the Middle East and North Africa; London; 1972.

161. Costello; V; Kashan : A City and Region of Iran; London; 1976.

162. ———; Urbanization in the Middle East; Cambridge University Press; London; 1977.

163. Davis; K; and Golden; H; «Urbanization and the Development of Pre-Industrial Areas»; in Halt; P; and Reiss; Jr. (eds.) Cities and Society; Free Press; N. Y; 1957; pp. 120-140.

164. Dewdney; J; «Turkey : Recent Population Trends»; in Clork; J; and Fisher; W; (eds.) Population of the Middle East and North Africa; London; 1972; pp. 48-65.

165. Dodd; P; «Family Honour and the Forces of Change in Arab Society»; International Journal of Middle East Studies; 4 (1973); pp. 40-54.

166. English; P; City and Village in Iran : Settlement and Economy in the Kirman Basin; London; 1966.

167. Fernea; R; «Land Reform and Ecology in Post-Revolutionary Jroq»; Economic Development and Cultural Change; 17; 1969; pp. 356-381.

168. French; G; and Hill; A; Kuwait : Urban and Medical Ecology; Heidelberg; 1971.

169. Gibb; H; Islamic Society and the West; London; 1950.

170. Goitein; S; D; A Mediterranean Society : The Jewish Community of the Arab World; vol. I : Economic Foundations; Cambridge; Mass; 1967.

171. ———; «Cairo : An Islamic City in the Light of the Geniza Documents»; in Lapidus; I; (ed.) Middle Eastern Cities; Berkeley and Los Angeles; 1969; pp. 90-103.

172. Graber; O; «The Illustrated Maqamat of the Thirteenth Century : The Bourgoisie and the Arts»; in Hourani; A; and Stern; S; (eds.) The Islamic City; London; 1970; pp. 8-18.

173. Gulick; J; Tripoli : A Modern Arab City; Cambridge; Mass : 1967.

174. Hacker; J; Amman; University of Durham; 1960.

175. Halpern; M; «Egypt and the New Middle Class»; Comparative Studies in Society and History; 1967; pp. 97-108.

176. Hamdan; G; Studies in Egyptian Urbanism; Cairo; 1959.

177. Harik I; «The Impact of the Domestic Market on Rural-Urban Relations in the Middle East»; in Antoun; R; and Harik; I; (eds.) Rural Politics and Social Change in the Middle East; Bloomington; Ind; 1972; pp. 345-349.

178. Hartley; R; «Libya : Economic Development and Demographic Responses»; in Clarke; J; and Fisher; W; (eds.) Population of the Middle East and North Africa; London; 1972; pp. 242-273.

179. Hershlag; Z; Introduction to the Modern Economic History of the Middle East; Leiden; 1964.

180. Hill; A; «The Gulf States : Petroleum and Population Growth»; in Clarke; J; and Fisher; W; (eds.) Population of the Middle East and North Africa; London; 1972; pp. 244-255.

181. Hihi; p; History of the Arabs From the Earliest Times to the Present; London; 1960.

182. Hourani; A; «The Islamic City in the Light of Recent Research»; in Hourani; A; and Stern; S; (eds.) The Islamic City; London; 1970.

183. Ibrahim; S; «Urbanization in the Arab World»; Population Bulletin of the United Nations Economic Commission to Western Asia; 7 (1974); pp. 74-124.

184. Issowi; C; The Economic History of the Middle East; Chicago; 1966.

185. ———; «Economic Change and Urbanization in the Middle East»; in Lapidus; I; (ed.) Middle Eastern Cities; University of California Press; 1969; pp. 116-130.

186. Jacobs; N; The Sociology of Development : Iran as an Asian Case Study; New York; 1966.

187. Jansen; C; «Social Aspects of Internal Migration»; in Jackson; J; Migration; Cambridge University Press; 1969.

188. Khalaf; S; and Konstod; P; Hamra of Beirut : A Case of Rapid Urbanization; Leiden; 1973.

189. Khuri; F; «Sectarian Loyalty Among Rural Migrants in Two Lebanese Suburbs : A Stage Between Family and National Allegiance»; in Antoun; R; and Harik; I (eds.) Rural Politics and Social Change in the Middle East; Bloomington; Ind; 1972; pp. 315-334.

190. Lapidus; I; Middle Eastern Cities; University of California Press; 1969.

191. Lawless; R; «Iraq : Changing Population Patterns»; in Clarke; J; and Fisher; W; (ed.) Population of the Middle East and North Africa; London; 1972.

192. Lerner; D; The Passing of Traditional Society; Modernising of Middle East; London; 1964.

193. Levy; R; The Social Structure of Islam; Cambridge; 1962.

194. Little; K. Urbanization as a Social Process; London; 1974.

195. Mansur; F; Bodrum : A Town in the Aegean; Leiden; 1972.

196. McGregor; R; «Saudi Arabia : Population and the Making of a Moderate State»; in Clark; J; and Fisher; W; (eds.) Population of the Middle East and North Africa; London; 1972; pp. 170-186.

197. Potersen; K; «Demographic Conditions and Extended Family Households : Egyptian Data»; Social Forces; 1968; pp. 531-537.

198. ———; «Villagers in Cairo : Hypothese Versus Data»; American Journal of Sociology; 77 (1971); pp. 560-573.

199. Prothro; T; and Diab; L; Changing Family Patterns in the Arab East; American University of Beirut; 1974.

200. Stern; S; «The Constitution of the Islamic City»; in Hourani; A; and S; (eds.) The Islamic City; London; 1970; pp. 23-32.

201. Van Nieuwenhijze; C. A. O; Social Stratification and the Middle East; Leiden; 1965.

سلسلة علم الاجتماع المعاصر

صدر منهـا :

الكتاب الأول :

ميادين علم الاجتماع : اختيار وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعليـاء شكرى ومحمود عودة ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، دار المعـارف ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب الثانى :

نظرية علم الاجتماع : تأليف نيقولا تيماشيف ، ترجمة الدكاترة محمود عودة ومحمد الجوهرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، دار المعارف ، الطبعة السادسة ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

الكتاب الثالث :

أساليب الاتصال والتغيـر الاجتمـاعى : تأليف الدكتـور محمود عوده ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

الكتاب الرابع :

تمهيد فى علم الاجتماع : تأليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، دار المعـارف ، الطبعـة الخامسة ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الخامس :

مجتمع المصنع : دراسة فى علم اجتماع التنظيم : تأليف الدكتور محمد على محمد ، الهيئة العامة للكتاب بالاسكندرية ، ١٩٧٢ .

الكتاب السادس :

الصفوة والمجتمع : تأليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمـد الجـوهرى وعلياء شكرى والسيد الحسينى ومحمد على محمد ، الطبعـة الثانيـة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

الكتاب السابع :

الطبقات فى المجتمع الحديث : تأليف بوتومور ، ترجمـة الدكاترة محمـد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الثامن :

علم الاجتماع الفرنسى المعاصر : تأليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب التاسع :

قراءات معاصرة فى علم الاجتماع : للدكاترة علياء شكرى ومحمد على محمد ومحمد الجوهرى ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب العاشر :

دراسات فى التنمية الاجتماعية : تأليف الدكاترة السيد الحسينى ومحمد على محمد وعلياء شكرى ومحمد الجوهرى ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب الحادى عشر :

مشكلات أساسية فى النظرية الاجتماعية : تأليف جون ركس ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى ومحمد سعيد فرح ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٣ .

الكتاب الثانى عشر :

التغير الاجتماعى : تأليف الدكتور محمد الجوهرى وآخرون ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٨١ .

الكتاب الثالث عشر :

دراسة علم الاجتماع : اختيار وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الرابع عشر :

علم الاجتماع الريفى والحضرى ، للدكتور محمد الجوهرى والدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

الكتاب الخامس عشر :

مقدمة فى علم الاجتماع : تأليف الكس انكلز ، ترجمة وتقديم الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى والسيد الحسينى ومحمد على محمد ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب السادس عشر :

مقدمة فى علم الاجتماع الصناعى ، تاليف الدكتور محمد الجوهرى ، دار الكتاب للتوزيع ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب السابع عشر :

علم الفولكلور : الجزء الاول ، تاليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الثامن عشر :

النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم : تاليف الدكتور السيد الحسينى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب التاسع عشر :

مصادر دراسة الفولكلور العربى ، اشراف الدكتور محمد الجوهرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

الكتاب العشرون :

الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية ، اشراف الدكتور محمد الجوهرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

الكتاب الحادى والعشرون :

علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث : تاليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الثانى والعشرون :

علم الفولكلور ، الجزء الثانى ، دراسة المعتقدات الشعبية : تاليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

الكتاب الثالث والعشرون :

بعض ملامح التغير الاجتماعي الثقافى فى الوطن العربى ، دراسات ميدانية لثقافة بعض المجتمعات المحلية فى المملكة العربية السعودية : تاليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الاولى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب الرابع والعشرون :

التراث الشعبى المصرى فى المكتبة الأوربية : تاليف الدكتورة علياء شكرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب الخامس والعشرون :

الاتجاهات المعاصرة فى دراسة الاسرة : تاليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب السادس والعشرون :

دراسات معاصرة فى علم الاجتماع : تأليف الدكتورة علياء شـــكرى ، دار المعارف ، القاهرة ، تحت الطبع .

الكتاب السابع والعشرون :

عادات الطعام فى الوطن العربى : تأليف الدكتـــورة عليـــاء شـــــكرى ، تحت الطبع .

الكتاب الثامن والعشرون :

الفلاحون والدولة : تأليف الدكتور محمود عودة ، دار الثقافة للطبـــاعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب التاسع والعشرون :

تاريخ علم الاجتماع : الجزء الأول : تأليف الدكتور محمد على محمد ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ .

الكتاب الثلاثون :

علم الاجتماع والمنهج العلمى : تأليف الدكتور محمد على محمد ، الطبعـــة الاولى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ .

الكتاب الحادى والثلاثون :

اصول علم الاجتماع السياسى : تأليف الدكتور محمد على محمد ، الطبعة الاولى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٠ .

الكتاب الثانى والثلاثون :

جماعات الغجر مع اشارة لغجر مصر والبـــلاد العربية : تأليف الدكتـــور نبيل صبحى حنا ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

الكتاب الثالث والثلاثون :

الانثروبولوجيا : اسس نظرية وتطبيقات عملية : تأليف الدكتـــور محمـــد الجوهرى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

الكتاب الرابع والثلاثون :

علم الاجتماع السياسى : المفاهيم والقضـــايا : تأليف الدكتـــور الســـيد الحسينى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٨١ .

الكتاب الخامس والثلاثون :

علم الاجتماع العسكرى : التحليل السوسيولوجى لنسق السلطة العسكرية: تأليف الدكتور أحمد خضر ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

الكتاب السادس والثلاثون :

الفكر الاجتماعى : نظرة تاريخية عالمية ، تأليف هاينز موس ، ترجمة الدكتور السيد الحسينى والدكتورة جهينة سلطان العيسى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب السابع والثلاثون :

التنمية والتخلف : دراسة تاريخية بنائية ، تأليف الدكتور السيد الحسينى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الثامن والثلاثون :

المدينة : دراسة فى علم الاجتماع الحضرى ، تأليف الدكتور السيد الحسينى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب التاسع والثلاثون :

النظرية الاجتماعية المعاصرة : دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع ، تأليف الدكتور على ليلة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الاربعون :

علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية ، تأليف الدكتور أحمد زايد ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الحادى والاربعون :

البناء السياسى فى الريف المصرى : تحليل لجماعات الصفوة القديمة والجديدة ، تأليف الدكتور أحمد زايد ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الثانى والاربعون :

علم الاجتماع الامريكى : دراسة لاعمال تالكوت بارسونز ، تأليف جى روشية ، ترجمة الدكتور محمد الجوهرى والدكتور أحمد زايد ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الثالث والاربعون :

البنائية الوظيفية فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا : المفاهيم والقضايا : تأليف الدكتور على ليلة ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الرابع والاربعون :

علم الاجتماع والنقد الاجتماعى : تأليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى والسيد الحسينى وعلى ليلة وأحمد زايد ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الخامس والاربعون :

الاقتصاد والمجتمع فى العالم الثالث : تحرير الن مونتجوى ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلى ليلة وأحمد زايد ، دار المعارف ، تحت الطبع .

الكتاب السادس والاربعون :

وقت الفراغ فى المجتمع الحديث : تأليف الدكتـــور محمد على محمد ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨١ .

الكتاب السابع والاربعون :

علم الاجتماع : تأليف جونسون ، ترجمة وتعليق الدكاترة علياء شـــكرى ومحمد الجوهرى وعلى ليلة وأحمد زايد وحسن الخولى . تحت الطبع .

الكتاب الثامن والاربعون :

الريف والمدينة فى مجتمعات العالم الثالث : مدخل اجتمـــاعى ثقافى ، تأليف الدكتور حسن الخولى . تحت الطبع .

الكتاب التاسع والاربعون :

المرأة المصرية بين البيت والعمل ، تأليف الدكتور محمـــد ســـلامة آدم ، تحت الطبع .

رقم الايداع ٤٣٩٨ لسنة ١٩٨١

مطابع سجل العرب